

A S.

297.0951

H416A



العلاقات

بين العرب والصين

بقلم

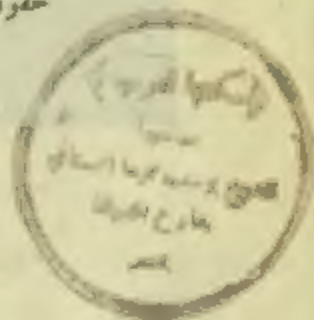
عبد الرحمن محمد الصبيحي

(خريج الجامعة الإسلامية بدمشق والجامعة الأزهرية بالقاهرة)

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للذوات

الطبعة الاولى

١٩٥٠ - ١٣٧٠



77911

مكتبة التحقيقات المصنعة
لأصحابها حسن وعبد الله وأبوها
٩ شارع عدل إيشا القاهرة

الناشر:



الاهراء

الى الامير الجليل محمد حسين القى حياتى بمطفه ، وغمرنى بيره ،
وكانت له أياذ يبض على الاسلام والمسلمين فى الصين
أهدى ذلك الكتاب رمزاً لوفاء ، وعنواناً على التقدير

بدر الدين محمد الحسينى



حضرة صاحب الولاية والقيادة
الامير محمد حسين مابوفانغ



— 1894 —
May 1894



مؤلف الكتاب

فهرست كتاب (العلاقات بين العرب والصين)

مقدمة من م إلى س

الباب الأول (١ - ٢٢)

١ - حالة الصين قبل ظهور الاسلام - (١ - ٧). تاريخ الصين في العهد الحرفي
(١ - ٤) كانغوشيرس وعهده (٤ - ٥). جنشي وانغ وأحراق الكتب وبناء
سور الصين (٥). أسرة هان وتجديد الحياة الادبية (٥ - ٦). سفر جانتج جيانغ
إلى بلاد الغرب (٦ - ٧).

٢ - علاقة الصين بغرب آسيا وبلاد العرب قبل الاسلام (٧ - ٢٢). -
فتح باب التجارة (٨ - ٩). أغراض سفر جانتج جيانغ وأثره في علاقة الصين
بالغرب (٩ - ١٠). طرق القوافل في آسيا الوسطى (١٠). مدينة الصفد مركز
التجارة (١١). الطريق الجنوبي والطريق الشمالي (١١ - ١٢). علاقة الصين بإيران
والرومان الشرقي (١٢). سفر ماركس أورليوس أنتونيوس إلى الصين (١٢ - ١٣)
تجارة الشام ومصر مع الصين (١٣ - ١٤). الاسكندرية مدينة الصناعة والحرفة
(١٤). البحر الأحمر في التجارة مع الصين (١٥). طريقة الشاميين في الاتجار مع
تجار الصين (١٥). الطريق البحري الذي سافر منه ماركس أورليوس أنتونيوس
إلى الصين (١٦ - ١٧). من الذين لهم الفضل في كشف الطريق البحري إلى الصين
(١٧ - ١٨). احتكاك الايرانيين لتجارة الحرير الصيني (١٨). علاقة الصين مع
جنوب بلاد العرب وشمالها في العهد الساساني والرومان الشرقي (١٩). اتصال
الصين بأولة الحيرة (٢٠). اتصال الصين بقريش (٢١). كلمة الصين في
الحديث (٢٢).

الباب الثاني في العلاقة السياسية في الاسلام (٢٣ - ٤٤)

ظهور الاسلام (٢٣). استغاثة يزيد جرد بامير طور الصين (٢٣ - ٢٤). التجاه
فهرز إلى عاصمة الصين (٢٤). زحف فتية بن مسلم إلى أواسط آسيا (٢٥).

مخطيم الاصلان بدمر قند وتأسيس جامع قتيبة بخارى (٢٥ - ٢٦). تقدم قتيبة
إلى كاشغر (٢٧). أقوال ابن الاثير في وفد العرب الى امير اطور الصين (٢٧-٢٨)
وفاة الخليفة الوليد وتخلص الصين من غزو العرب (٢٩-٣٠) ظهور شعب ابو غرى
في تركستان (٣٠). تأسيس أسرة تانغ (٣٠). علاقة أسرة تانغ بقبائل التتار في
آسيا الوسطى (١). اتساع نفوذ الصين الى آواسط آسيا (٢٢). الصين والعرب
في آواسط آسيا (٣٤). واقعة تالاس ونتيجتها (٣٤-٣٥). ثورة في داخل
الصين (٣٦). آلولشان التائر (٣٧). استبعاد الصين بقوات المسلمين (٣٨) أقوال
العلماء في البعثة العسكرية من أبي جعفر المنصور إلى الصين (٣٩-٤٠). توطن
عساكر المسلمين بالصين (٤١). المصاهرة بين أمراء الاواغرة وأسرة تانغ (٤٢)
علاقة الصين ببغداد (٤٤)

الباب الثالث في العلاقة العلمية (٤٥-١٠٦)

الصين وكتاب الاسلام (٤٥-٧٧). وجوب النظر الى معلومات العرب
وكتاب الاسلام عن الصين (٤٥). ابن خرداذبه وكتابه والممالك والمسالك (٤٦)
سليمان التاجر السمرقاني وكتابه. سلسلة التواريخ (٤٧). الموازنة بين أقوال
سليمان التاجر وابن خرداذبه (٤٧). اهتمام علماء أوروبا بكتاب سلسلة التواريخ.
(٤٨). أبو زيد حسن السمرقاني (٤٩-٥٠). اليعقوبي وأقواله عن الصين (٥٠)
ابن الفقيه (٥٢). المسعودى (٥٤). أبو دلف التميمي (٥٥). الادريسي (٥٥).
الفرناطى (٥٦-٥٨). ياقوت (٥٩). ابن بطار (٦٠). القزوينى (٦١). ابن
سعيد (٦١-٦٢). رشيد الدين فضل الله وكتابه. جامع التواريخ (٦٣-٦٥)
الدمشقي وأبو الفدا وابن الوردي (٦٧). ابن بطوطة (٦٧-٦٨). الاصلطخرى
والباكوى والجلابى (٦٩). ميرزا الصادق الاصفهانى الممذاني (٧١). القافشدى
(٧٠). الشيخ بزم التومنى (٧٢). الامير شكيب أرسلان (٧٠-٧٣). أنربى
أبو العز باشا (٧٤-١٧)

٢ معلومات العرب عن الصين (٧٨-١٠٧)

أقسام ثلاثة من علماء الاسلام الذين قد تكلموا عن الصين (٧٨). النواحي
التي قد تكلموا فيها (٧٨-٧٩). أقوال العرب عن بلاد الصين ومدنها (٧٩-٧٩).

٨٠) ملاحظة على هذه الأقوال (٨١) المسافات بين المدن الكبرى وأحوالها (٨٢ - ٨٥) . ملك الصين وأوصافه (٨٥ - ٨٦) الموازنة بين ما قال الإدريسي والسيرافي عن أوصاف ملوك الصين (٨٦ - ٨٨) أهل الصين وعاداتهم (٨٨ - ٨٩) . أكل الصينيين ومشرجم (٨٩ - ٩٠) . الزواج في الصين (٩٠) . عناية الصين بالطب والتعليم (٩٠) . معاملتهم المزدحم (٩٣) . أقوال العرب في ديانات الصين (٩٤ - ٩٥) عقائد الصينيين وعاداتهم (٩٦) . عبادة الملوك والاسلاف (٩٨) . اتصال الصين بديانات الهند وإيران (٩٩) ، الصناعات الدقيقة في الصين (٩٩ - ١٠١) طريقة نقل الكتب وحفظها في الصين (١٠٢ - ١٠٣) . معلومات العرب عن الأدوية الصينية (١٠٤ - ١٠٥) . جسر معلق بين الجبال الشامقة (١٠٦)

الباب الرابع في العلاقة التجارية (١٠٨ - ١٤٠)

التجارة البحرية بين العرب والصين (١٠٨) . طريق البحر إلى الصين (١٠٩) . المراسم التي كانت تمر بها مراكب التجارة (١١٠ - ١١٢) . حالة التجارة في بحر الهند (١١٢) سفن الصين بخليج فارس (١١٣) . قول ابن بطرطمة في مراكب الصين (١١٤ - ١١٥) مكانة مرمز في التجارة البحرية (١١٩) . ما أبدت نفوذ الصين في الهند (١١٧) جزيرة الرامني (١١٨) . بلاد جاوره (١١٩) . طريق البر إلى الصين (١٢٠) الأحوال السياسية بما وراء النهر أيام الخطاط المياسيين (١٢١) مملكة السامانيين والنشاط التجاري فيها (١٢١ - ١٢٢) النهضة الصناعية بما وراء النهر (١٢٣) خيرات الارض (١٢٤) طريق البر بين الصين وخرسان (١٢٥) حالة التجارة بين الصين وما وراء النهر في القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦) بعثة تجارية من خوارزم شاه إلى الصين (١٢٧) ظهور جنكيزخان (١٢٧) وصف مؤلف . خطاي نامه . لطرق البر إلى الصين (١٢٨) تجارة العرب في الصين (١٢٩) مدن التجارة (١٢٩ - ١٣١) مراقبة التجارة البحرية في موافى الصين (١٣٢) البضائع الواردة والصادرة بين العرب والصين (١٣٣ - ١٣٤) مراقبة سفن التجارة (١٣٥ - ١٣٦) الملاحة في القرن الثاني

عشر للميلاد (١٣٧) حرية انتقال التجار المسلمين في مدن الصين (١٣٧) طريقة عقد الدين (١٣٨) المراقبة على الفنادق (١٣٩) ترويج دراهم الكاغذ في البيع والشراء (١٤٠).

الباب الخامس في العلاقة الدينية (١٤١ - ١٧٩)

ديانات الصين قبل الاسلام (١٤١) - حكماء الصين ومباهم (١٤٢) - الفوارق بين ديانات الصين والاسلام (١٤٣) دخول الديانات الاجنبية الصين (١٤٣) - الاغلاط التاريخية فيما يتعلق بدخول الاسلام في الصين (١٤٤) وصول الاسلام برا في آخر سنة ٧٥٠ م (١٤٥) الدرب عرفوا عند الصينيين باسم «تاني» (١٤٦) أقوال «تافع شو» عن ظهور الاسلام ونهضة العرب (١٤٧) - الامويون والعباسيون (١٤٧) أقوال متضاربة عن وصول الاسلام الى الصين بحرا (١٤٨) رواية «اصل المسلمين في الصين» (١٤٩) رواية «النسل من الغرب» (١٥٠) مرسوم ديني كشف في بكين (١٥٠ - ١٥١) ملاحظات على الاقوال السابقة (١٥٢ - ١٥٣) من هو صاحب المفكرة بكاتون (١٥٤ - ١٥٦) - سعد بن ابي وقاص لم يذهب الى الصين (١٥٧ - ١٥٨) وصول الاسلام بحرا في سنة ١٥٩ م (١٥٩ - ١٦٠)

انتشار الاسلام في موانئ الصين (١٦١) - احوال المسلمين في كانتون (١٦١) - الاسلام في هانجان (١٦٢ - ١٦٣) - معبد الربان الدربي (١٦٤ - ١٦٥) - الاسلام في جوانشو (١٦٦) الاسلام في جالغ آن (١٦٨ - ١٦٩) - اقدم كتابة اسلامية في الصين (١٧٠ - ١٧٢) - انتكار المؤرخين الصينيين لصحة قصص الكتابة وادانهم عليها (١٧٣ - ١٧٤) - اماكن وقوع التغيير في الكتابة (١٧٥) - كلمة بدر الدين في الكتابين العربية والصينية (١٧٦) - وصول الاسلام الى سيلابكوريا وعدم استقراره فيها (١٧٨)

الباب السادس في العلاقة الدبلوماسية (١٨٠ - ٢٤١)

١ - من عهد تافع الى عهد تنغ (١٨٠ - ٢٠٨) المراد من العلاقة الدبلوماسية في هذا الباب (١٨٠) - ذكر السفارات العربية في الكتب الصينية (١٨١ - ١٨٢)

وفود العرب الى الصين في عهد الاويين (١٨٣) . وفود من قواد العرب بأورام
النهر واورسط آسيا (١٨٤ - ١٨٥) . السفارات في عهد العباسيين (١٨٥) .
اجتماع وفود العباسيين وفود الاوغرة في عاصمة الصين (١٨٦) . العلاقة بين الصين
وبغداد (١٨٧) . علاقة العرب بأسرة سونغ (١٨٩ - ١٩٠) . ام السفارات في سنة
٩٤ و ١٩٥ م (١٩١ - ١٩٢) . مقدمة ابراهيم بن اسحاق الى امبراطور الصين (١٩٣-١٩٢)
هدايا ابراهيم بن اسحاق الى امبراطور الصين (١٩٤ - ١٩٥) . بيان الوفد عن
بلاده (١٩٦) . السفارات الأخرى (١٩٧ - ١٩٨) . علاقة السامانيين بمملكة
الصين (١٩٩) . ظهور المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ونحو العلاقات من
العرب الى المغول (٢٠٠) ما بين جنكيز خان وخوارزم شاه (٢٠٠ - ٢٠١) .
بين قبلاي خان في الصين والمغول في ايران (٢٠٢) . وفد غازان خان الى الصين
(٢٠٣ - ٢٠٦) . سفر ابن بطرقة الى الصين سفيرا عن تغلق شاه صاحب
دهلي (٢٠٦ - ٢٠٨)

ب - العلاقة الدبلوماسية في عهد منغ (٢٠٨ - ٢٤١)

أسرة منغ وعلاقتها بالممالك الإسلامية (٢٠٩) ما بين منغ ثاني جو وتيدور
كودكان (٢١٠) رسالة المقدمة من تيدور الى منغ ثاني جو (٢١١ - ٢١٢) .
اعتراف تيدور بسيادة الصين عليه (٢١٣) بين امبراطور الصين وشاهرخ (٢١٤)
رسالة الامبراطور الى شاهرخ (٢١٥ - ٢١٦) . رسالة فارسية من شاهرخ الى
امبراطور الصين يدعو الى اعتناق الاسلام (٢١٦ - ٢١٩) . رسالة عربية من
شاهرخ الى امبراطور الصين (٢٢٠) . سفارات أخرى (٢٢١ - ٢٢٢) بعثة
دبلوماسية من امبراطور الصين الى خاقان سعيد (٢٢٢ - ٢٢٣) . رسالة
امبراطورية الى شاهرخ (٢٢٤ - ٢٢٥) . سفارة شاهرخ وغيره الى بكين
(٢٢٦ - ٢٢٧) . سفارات أخرى من سمرقند (٢٢٧ - ٢٢٩) . بين الصين
وآل الشيبانيين (٢٢٩) .

علاقات الصين بملاطين المسلمين في خليج فارس وسواحل بحر العرب
والبحر الأحمر (٢٣٠) سفر الحاج جهان الى الممالك الإسلامية (٢٣١ - ٢٣٢) .

بين ملوك منغ وأمرام مكة المكرمة (٢٣٤ - ٢٣٥). علاقة الصين بسلطان عدن (٢٣٥ - ٢٣٧). و بسلطان احساء وظفار (٢٣٧ - ٢٣٨). علاقة الصين بمصر وشرق افريقيا (٢٣٩ - ٢٤١).

الباب السابع في العلاقة الصناعية والفنية (٢٤٢ - ٢٨٤)

مباحث هذا الباب (٢٤٢). ترويج صناعة الورق في الممالك الاسلامية (٢٤٣). اختلاف الآراء في وجود معنع الاوراق بسرقة قبل سنة ٧٥٠ م (٢٤٣ - ٢٤٤). نقل الورق الى مكة (٢٤٥). الاوراق المالية (٢٤٦ - ٢٤٧).

البابود ليس من اختراعات الصينيين (٢٤٧). علم الصينيين باستعمال البارود والمدافع عن القول (٢٤٨). استخدام المدفع الناري في فتح مدينة سيانغ يانفو (٢٤٩ - ٢٥٠). تاريخ الصين بنسب المدفع الى صناعة المسلمين (٢٥٠). كلمة «هوى هوى جه» في ديوان لغات الصين وعلاء الدين واسماعيل (٢٥١). معرفة العرب والمسلمين عن استعمال المدفع والبارود قبل القرن الثاني عشر للميلاد (٢٥١).

الفخار والخزف - الصناعات التي اشتهر بها أهل الصين (٢٥٢). غزوة كش ونقل اثر الصناعة الصينية الى الممالك الاسلامية (٢٥٢). كشف الاواني الصينية لهند نافع في سامرا (٢٥٣). تقليد الخزاف الصيني في الصناعات الاسلامية (٢٥٤). محاكاة الايرانيين لفنغوريات منغ (٢٥٥). أثر الصين في صناعة ايران ومصر وتركيا (٢٥٥ - ٢٥٦).

في المنسوجات الاسلامية - عوامل التأثير الصناعي الصيني في المنسوجات الاسلامية (٢٥٨ - ٢٦٠). ظهور المخول ونائيرهم في نقل الخزاف الصينية الى المنسوجات الايرانية (٢٦٠ - ٢٦١). أثر الصين في منسوجات مصر (٢٦٢ - ٢٦٣). التصوير - اختلاف المبادئ في التصوير الصيني والايراني (٢٦٤). نقل اثر الصين الى التصوير الايراني (٢٦٥). علم العرب عن التصوير الصيني (٢٦٥). تصوير الفنان الصيني لديوان «رودكي» (٢٦٦). حكاية مسابقة التصوير بين مصور صيني ومصور رومي في اسكندر نامه (٢٦٧). نقل النقاشين والكتب المصورة

الى العراق ايام الخواري (٢٦٨). دور في كتاب ، منافع الحيوان ، و جامع
التواريخ ، (٢٦٨ - ٢٦٩) . الروم الفلكية في (٢٧٠ - ٢٧٢)

ب - اثر الاسلام في قون الصين (٢٧٤ - ٢٨٤)

بحث الاستاذ جينيوان في عنوان الاسلام في الصين (٢٧٤) بحث الاستاذ
برتولد لوف (٢٧٥ - ٢٧٦) : اثر الاسلام في الصناعة الصينية (٢٧٦)
تحقيق الاستاذ بالولوج (٧٧ - ٢٧٨) تحقيق الاستاذ بوشل (٢٧٨ - ٢٧٩)
نماذج من الصناعات الصينية للإسلامية (٢٧٩ - ٢٨٤)

الباب الثامن في نتائج العلاقات (٢٢٠ - ٢٢١)

نتائج العلاقات السياسية : كلمة كافر في لغة الفارسية والعربية (٢٨٥) توغل
الاسلام برا (٢٨٦) : اختلاط الله العربي بالصين في شمال الصين الغربي (٢٨٧) .
نتائج العلاقات الدينية : انتشار المذاهب (٢٨٧ - ٢٨٨) انتشار الاسلام في

الصين (٢٨٩) : عوامل ازدياد المسلمين (٢٩٠ - ٢٩١) : المساجد مراكز
الحياة الاجتماعية (٢٩٢) : تأثير العربية والعربية في الحياة الاجتماعية (٢٩٢ -
٢٩٣) . حالة العربية في ادب (٢٩٣ - ٢٩٤) : نبذة تاريخية عن اللغة العربية في
الصين (٢٩٥) . محمود الكاشغري ومركز في العربية (٢٩٦) : العربية في مدينة
هانغجو في عصر المغول (٢٩٧) . تقدم العربية في عهد مانشو (٢٩٩) .

الحاج نور الحنفي وعربيته (٣٠٠) : اوج الاصطلاحات الفارسية في
أدب الدين (٣٠٠) : غناء فارسي في مدينة هانغجو (٣٠١) . تقدير ملوك منغ للغة
الفارسية (٣٠٢) : حالة الفارسية في عهد مانشو (٣٠٣) . تأثير الفارسية في الحياة
الاجتماعية (٣٠٣) . كلمات عربية يستعملها المسلمون الصينيون على نحو كلمات
فارسية (٣٠٤) . نقل علم الطب العربي الى لغة الصين (٣٠٥ - ٣٠٦) : علم الحية
الإسلامية في الصين (٣٠٧) : ابرة المناطيس عند الصينيين ، ونقلها الى اوربا
(٣٠٨ - ٣٠٩) . كلمة ككخاب ، في الفارسية (٣١٠) : الشاي ورواجه في البلاد
الإسلامية (٣١١ - ٣١٢) . كلمة ، بك (٣١٢)

كلمات عربية في آداب الصين . - الزعفران (٣١٢ - ٣١٣) . الياسمين (٣١٤)
يابروه (٣١٥) : الخنا (٣١٦) . الخلبة (٣١٧) . كلمة ختامية (٣١٧) .

المراجع (٣١٨ - ٣٢٠)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أن المسلمين في الصين كانوا غاملي الذكر في الغار وفي الحاضر . فانقطعوا عن العالم الاسلامي واقطع العالم الاسلامي عنهم فلذا قل الحديث عنهم في كتب التاريخ وفي أفواه المسلمين في جميع الاقطار

ولقد استثمر المسلمون الصينيون هذا الخور وشعروا انهم من المنسيين أو في حكم المنسيين . ففكروا في رفع ذكرهم في العالم الاسلامي وديروا طريق الاتصال به . فسنحت لهم الفرصة في سنة ١٩٣١ م ان كانت الجمعيات الاسلامية في الصين قد قررت إرسال بعض ابناءه الى مصر ليتزودوا من الثقافات الاسلامية والعربية والدينية . فوصلوا في بعثات في سنوات مختلفة وانفقوا بالازهر الشريف فأرجعوا للمسلمين الصينيين في مصر وفي العالم الاسلامي انما عابا ومقاما محمدا . وكان ذلك فاتحة عهد جديد بين مسلمي الصين وأخوانهم وقد كتبت في إحدى الجامعات بالهند فاقبعت خطواتهم وجمعت إلى مصر في سنة ١٩٣٣ م . حيث انضمت إلى البعثات الصينية بالازهر الشريف .

وكان على رأس الازهر استاذ العصر ، المرحوم الشيخ مصطفى المراغي الذي كان بهم باحوال المسلمين في البلاد القريبة البعيدة ، وكان رجال الثقافة والمعارف يعنون باخبار العالم الاسلامي عنايتهم يشنون العالم العربي . وعند قدمت البعثات الصينية إل مصر أخذت الروابط تزداد توثقا بين البعثات الصينية وأخوانهم المسلمين من عتاف الاقطار . فقد كانوا يسألونا عن أحوال المسلمين وتاريخهم في بلاد الصين ، فنعرض عليهم جانبا من الاخبار عن طريق الصحف والمجلات التي

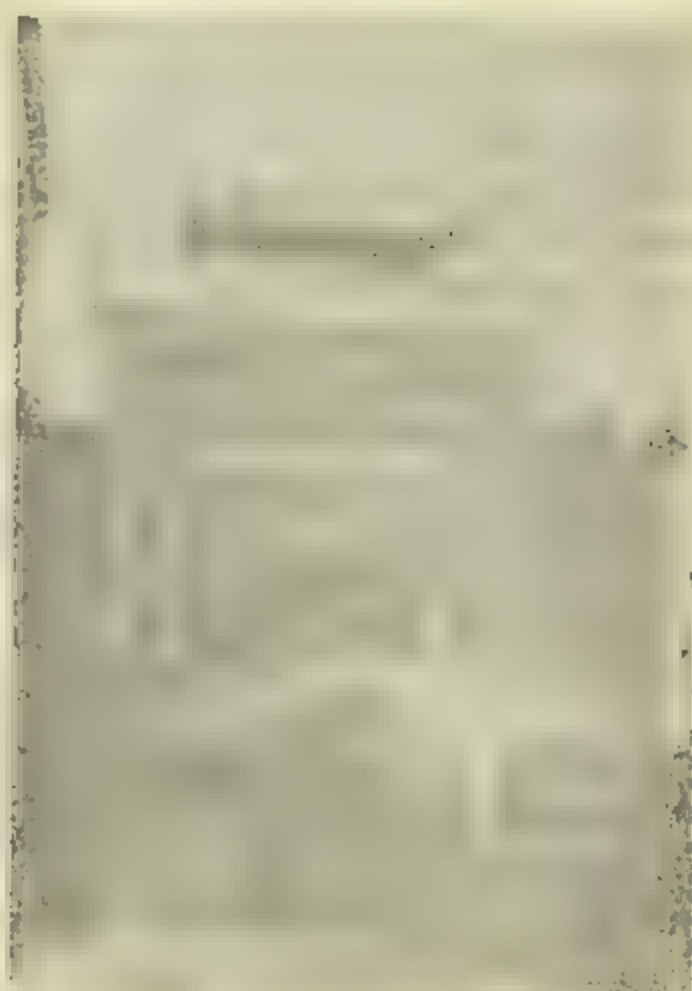
تعتبر مبرراً لنشر الآراء ولا أفكار . وقد كان لتساؤل الاصدقاء والاخوان من العالم الاسلام والمربي عن المسلمين في الصين واعتنائهم بأحوالهم وقع عظيم في نفسي ، فلهذا اضطررت لوضع كتاب جامع في تاريخ الاسلام في الصين فلذا عقدت لتيق على جمع المواد والمعلومات من المصادر الوثيقة والمراجع المعتبرة لاجل تدوينه فاستحضرت الكتب من أوروبا ومن الصين مع طائفة مستورة أيام دراستي في الأزهر ، في دار الكتب المصرية . باب الخلق ، حيث تمكنت من قراءة عدد وفير من المراجع العربية .

بيد أن المعلومات التي أخذتها من المراجع التي كانت بين يدي لا تكفي لتدوين كتاب في تاريخ الاسلام في الصين ، لأن هناك بعض مسائل تتعلق بتاريخ الاسلام في الصين ، تحتاج الى تحقيق مفصل وبحوث مستقص ، مثل حالة المسلمين في عهد المغول ، والتمناهة الاسلامية في عهد (منغ) وثر رات المسلمين في تركستان وقانسو وشانسي وبوتان في عهد (مانشو) ولكسب المعلومات عن هذه الاحوال والحوادث على التفصيل رايتني في حاجة الى السفر الى ولاية بوتان وإلى إقامة يمين على الأقل مدة ستة واحدة للتحقيق عن المراجع الصينية في دور الكتب بتلك العاصمة القديمة وان هذا لم يتيسر لي حتى اليوم ، ومع الشعور بهذه الصعوبات والعقبات رأيت ترتيب بعض ما جمعته من المعلومات عما يتعلق بتاريخ الاسلام في الصين وجعلته كتاباً باسميته (العلاقات بين العرب والصين) ورأيت أن أبحث فيه العلاقات بين العرب والصين من شتى نواحيها مع تضمين جزء من تاريخ الاسلام في الصين . ولقد انتهيت من وضع هذا الكتاب في سنة ١٩٤١ هـ غير أنني لم استطع طبعه بسبب الحرب وماجرته من غلاء . يعجز عن مقاومته مثلي ، وبسبب غيبي عن مصر مدة من الزمن في خدمة الصين . فلقد سافرت إلى إيران سنة ١٩٤٢ م ملحقاً بالسفارة الصينية بطهران ثم نقلت الى الهند في نفس الوظيفة حتى أول هذه السنة ولم أجد الى مصر إلا في الربيع المنصرم ، وذلك لطبع هذا الكتاب ، وفيه الحمد ، قد تم المراد الآن .

ومع تقديم الكتاب الى القراء ، أقدم من جزيل شكرى الى صاحب الولاية
والقيادة الحاج محمد جدين ماوفاغ الذى كان وليا على ولايات شمال الصين الغربى
والقائد العام لقوات الحكومة الوطنية فى تلك الولايات عن مساعدته المالية التى
يسرت لى طبع هذا الكتاب كما أقدم عظيم شكرى الى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد
مرسى ، الأستاذ فى كلية الشريعة العربية ، الذى قد اشرفت برؤيته فى الكلية مدة
دراسى فيها ، فانه هو الذى قد ساعدنى فى تهذيب الأسلوب ان كان الكتاب فى
مسودته ، وفى تصحيح صيغة خدمته ، ان كان الكتاب فى نسخة ، فبمساعدة ما استطعت
أخراج هذا الكتاب الى الوجود ، ذكرى بالبركات الصبية فى الازهر الشريف .
ولمى لنا ان نأمر بأن فى الكتاب عروبا من حروف الحزب والتفصيل ، وذلك لاني قد
كتبت من لفاء نفسى ورفقة من حيث لمعت ، من أن الخا إلى ارشادات كبار
المتخصصين ، وما حلت على هذا الاطراف العاصية الى يسهدف لها أمثالى
فلذا أرجو من القراء الكرام أن يفتقدوا عن هذه العيوب إلى ما فيه من معلومات
جديدة مفيدة ، كخدمة لتاريخ الاسلام فى الصين ، ، فقد أأل أن يكتب للاسلام
والمسلمين نصرا عزيزا لله على ما يشاء قدره

٢٢ أكتوبر ١٩٥٠

بدر الدين حى الصينى



واجهة امامية

الجامع ، تشوان جو ، يظهر فيها امزاج الفن العربي بالصيني

الباب الأول

الصين وعلاقتها بالعرب قبل الاسلام

١ - حالة الصين قبل ظهور الاسلام :

لا شك أن كلامنا سيتناول شتى التواحي من العلاقات بين العرب والصين في عصور الاسلام ، ولكن أشياء رقت قبل ظهور الاسلام بين الامتين ، يجب علينا أن نلقى نظرة عليها . تهيدا للموضوع الذي سنبينه بالتفصيل ، ولأن بلاد الصين ، وهي عريقة في التدين والحضارة ، ومشهورة بالصناعات الدقيقة ، لا تزال أحوالها القديمة مجهولة لدى الأمم الإسلامية والباطنيين بالضاد ، أرى مناسبا أن أذكر طرفا من تاريخها القديم إلى ظهور الإسلام إجمالا ، تمهيدا للفائدة وتعميقا بمملكة الصين التي سنشكلم عن علاقتها بالعرب فيما بعد .

من القواعد العامة أن المؤرخين إذا لم يجدوا شيلا إلى معرفة حقائق الأمم القديمة يبدأون تاريخها بالخرافات التي جرت على ألسن الرواة ودونت في كتب القصص بعد اختراع الحروف والكتابة ، ثم زينت بالتأويلات والتفسيرات لهذا نرى أن تاريخ العصور الخالصة لأمة من الأمم ، يقبلها بعض الناس ويردها الآخرون .

وأما تاريخ الصين - كما يقول الباحثون الاختصاصيون - فقد بدأ أيضا من الخرافات التي هي أصل التاريخ المسندون لجميع الأمم القديمة : الشرقية ، والغربية ، البائدة والباقية . لكن الخرافات التي أسس عليها الصينيون تأريخهم القديم ، تسكاد توافق

الواقع ويقبلها العقل ، لأن قادة السياسة في الصين لا قدم ، كما هو شأن المؤسسين الأول لكل شعب ذي سيادة على جزء من الكرة الأرضية تصفهم القصص والروايات بأنهم كانوا حكماء عظام ، آراؤهم سديدة وأعمالهم نافذة . فنسلا (فوني Puni) أول من حكم على أرض الصين ، كتب شهرة الخالدة . باختراع ستة أنواع من الحروف الكتابية ، وبوضع نظام الأوقات وبإيجاد عمالية رموز ، هي أصل (كتاب التطور Book of Changes)^(١) وهداية الناس إلى الصيد والقص ، واتخاذ المساكن في الكهوف وبين الصخور . والذي خلقه في السيادة والحكم سماه المؤرخون الصينيون (شينغ لونغ Shing Lung) أى ملك الفلاحين فعمل الناس الحرث والزراعة وإنشاء الأسواق للمعاملات والمبادلات ، وعرف فوائد طبية من الأعشاب والجذور ، فيها شفاء للناس وتخفيف للألام .

ومن العاملين المشهورين في تاريخ الصين (هوانغ تى Hwang-Ti) الذى جلس على عرش الصين فى سنة ٢٣٣٢ قبل المسيح وهو الذى ينسب إليه صنع السفينة ، واختراع البوصلة وينسب إلى زوجته ، علم تربية ديدان القز وصناعة الحرير والغزل والنسيج .

وبدأ وضع القانون المدنى ، يهد الامبراطور (يان Yau) الذى حكم الصين من سنة ٢٠٨٥ الى ٢٠٠٤ قبل الميلاد . انتهى به فصل الخرافات من تاريخ الصين ، وعندئذ أخذ كونفوشيوس (حكيم الصين الاكبر) ، يدون الوقائع التاريخية من هذا العهد . فوصفه بأنه كان عارفاً ، عاقلاً ، ذا بصيرة مفكر مديراً كاملاً ، مصلحاً عظيماً . كان يحكم بالعدل والحكمة ورأى الناس فيه المثل الاعلى للحاكم ، فلذلك كان كونفوشيوس دائماً يحث إلى عصر هذا الامبراطور ، حينما بين ما دخل من الفساد في نظام البلاد وما انتشر من المظالم في وقته .

وتولى الأمر بعده الامبراطور (شونغ Shung) . الذى ظهر في زمت طرفان عظيم غريب كثيراً من المدن المعمورة والأرض المزروعة . فأمر (يو Yu) أحد الموظفين

(١) أقدم كتاب باللغة الصينية يبحث في دوران الافلاك وقلب الدهور .

الكيار في الحكومة ، أن يرد الماء إلى مجراه بفتح القنوات وحفر الترع ،
فتم ذلك في تسع سنين ، فكان جزاؤه على هذه الخدمة الجليلة ، أن خلف
الامبراطور (شونغ) على عرش الصين بعد وفاة صاحبه فسمى أسرته (Hsia)
ابتداء حكمها من ١٩٠٤ ق م قسم مملكته إلى تسع ولايات . وظل هذا التقسيم
باقيا حتى عهد المغول في القرن الثالث عشر للميلاد . فتتابع ستة عشر امبراطورا
من هذه الأسرة ، الواحد تلو الآخر ، حتى انقضت حكمهم في سنة ١٦٨٧ ق م
بسبب الثورة التي قام بها (تانغ) على (شيك كوى) ، آخر ملوك هيا . لانه لم
يكن صالحا للحكومة ، فأزله عن العرش وتولى هو زمامها .

وأما أسرتنا (شانغ) و (ايغ) فلم تكونا . إلا نهديدا لأسرة هيا البائدة إلا أن
أسرة (تانغ) ، قد انتهت حكمها إلى يد الملك الثامن والعشرين من ملوكها ، والحقيقة أن
أولاده لم يكونوا صالحين للإمارة والسيادة ، سوى اثنين منهم وأما الباقون فكانوا
من الفاسدين المفسدين ، لأنهم قد استغرقوا في الشهوات الذاتية والمظالم الوحشية ،
وفي سلب حقوق الناس والإمراف في سفك الدماء . فكان الأمن في عهدهم غير
موجود في البلاد والنظام معدوما بين العباد ، وكان السكان كبيرهم وصغيرهم
تحت رحمة قطاع الطريق والاضرار والمخمين . فكانت النتيجة أن نكبت هذه
الأسرة على يد ثائر يسمى (شوسين Chow Sen) .

كان شوسين في رتبة أمير البحر ، وبعد ثورة ناجحة ، قبض على زمام الحكومة
ونادى ببيادته على البلاد ، ونصب نفسه أمم اطورا . وكان جلوسه على العرش
وفق رغبة الشعب ورضاه .

وأما نظام الحكومة الذي وضعه للبلاد ، فقد نال المدح والتناء من جميع
المؤرخين الصينيين حتى من الحكيم كونفوشيوس . وقد قيل أن عصره كان
عصر القوة والرفاهية ، وجاء السفراء من كوريا ومن آفام .

أخذت هذه الأسرة تضعف وتضعحل رويدا رويدا ، كما هي الحال لكل
دولة من الدول التي لا بد أن يأتي عليها دور من الضعف بعد دور من القوة

والقوة ، واشتد ضعفها في عهد الإمبراطور (مو وانغ Mo Wang) ١٠٠٩ — ٩٤٨ ق م. وهو أول من خلص أصحاب الجنائيات الكبيرة من الاعداء ، وأحبل عمله الغرم المادى فكان لذلك أثر سيء في أخلاق الناس وكثر المجرمون وانتشرت الفوضى في الدولة . فكانت حالة البلاد تستدعى استعمال القوة للقضاء على هذه الفوضى وإحلال النظام محلها .

ذهبت هبة الحكومة . فوجد الفاسدون ميدانا قديما لافساد وقاب النظام ، كان هذا هو الوقت الذى ولد فيه حكم الصين كونفوشيوس فوجد أن الدولة القائمة قد أحاط بها الدمار والحياة ، والناس خاضعون في الفتنة والفساد ، فكان الامراء لا يعرفون شيئا غير النزاع والصراع فأصبح الشعب بين الماء والنار . فرأى من واجباته أن يفرد الناس والامراء بأفكاره وتعاليمه إلى الحالة المظلمة التى كانت سائدة في أرض الصين في عصر الإمبراطور (يار Yau) .

لم يدع كونفوشيوس أنه نبى أو رسول من خالق السموات والأرض وما بينهما وعلى الرغم من ذلك فقد عاش غير معترف به وبمعانته من معاصريه ، ولم يقدره حتى قدره غير الأجيال التالية فقد قبلت تعاليمه واعتقدت بأنه أكبر معلم ظهر في أرضهم ، وأنه جاء بمبادئ سامية إنسانية خالدة . فظلت تعاليمه منذ ٢٥٠٠ قرنا هداية للشعب الصينى الذى سار على مبادئه الخلقية وأصوله العنصرية حتى هذه الأيام .

كان كونفوشيوس يذم ألم تألما بالغا من حالة الظلم والفوضى في زمانه . ومن القصص المشهورة في الأدب الصينى أنه رأى ذات يوم امرأة تبكى بكاء مرأ : فتعجب من أمرها وبحث واحدا من تلاميذه ، يسأل عن سبب بكائها ، فقال التلميذ : إنى أراك حزينة فما السبب ؟ قالت : كان لى أب قد افترسته الوحوش ، وكان لى يعمل لى حققة من الوحوش . وكان لى ابن ، فلم ينج من افتراس الوحوش . . .

قال : فما المانع إذن من انقاذك من هذا إلى مكان آخر تأمين فيه —
الوحوش المفترسة .

قالت : لاني لا أجد هنا حكومة ظالمة . !

فالتفت كونفوشيوس إلى تلاميذه قائلا : اسمعوا ، إن الانسان يستطيع الصبر على الوحوش المفترسة ، ولا يستطيع الصبر على الحكومة الظالمة ، فانها أشد فتكا بحياته من الوحوش .

لم ينفع الأمراء الظالمين ، انذار كونفوشيوس ولا نداء (لوتش • Tze • Lao) بل انه مسواى الفتنة ، والفساد . حتى قام كل واحد من الرؤساء الصغار بطالبه باستقلال المدينة التي كان حاكما عليها ، وبحارب أخاه إذا لم يرض بما يطلب . فكثر الحروب وانتشرت الأمراض في العادات والأخلاق حتى ضايق الناس بالحبيسة . وبقيت الصين في هذه الحالة مدة طويلة الى أن ظهر (جنغى وانغى Chen - Shih - Wanti) وحارب جميع الأمراء الصغار وأزال دولهم فوحد جميع الولايات تحت لواء أسرنه ، ثم شيد سورا كبيرا بشمال الصين يحول دون هجوم التتار على غره . ثم فطن إلى أنه لا يأمن من الثورة الفكرية والسياسية ، أن ترك كلام السياسيين والمجادلين بافيا في خزانة الكتب ويوت العلماء ، يستشير به كل ياحث في تكوين أفكاره وآرائه ؛ فلذا عمد إلى إحراق جميع الكتب على اختلاف أنواعها إلا ما يتعلق بالزراعة والطب ، لأنه رأى في تلك الكتب مصدر الثورة وينبوع العصيان . فأمن البلاد بسيف مملوئ وقوة فبارة . ولقد أكل هذا العامل بعض الإصلاحات للصين بأوامر قاسية وسد غارات التتار بشييد السور العظيم بشمال الصين الغربي ، الذي فني في بنائه آلاف من الأرواح البريئة والنفوس الزكية تحس سوط هذا الجبار فلما مات سنة ٢١٠ ق م ، شلت أعضاء دولته وسقطت على أثر الثورة التي قام بها (هانكاوتسو Han Kaotzu) . ومات ابنه الصغير قتيلا في القصر ، فأسست دولة هان .

أسرة هانكاوتسو

وأما (هانكاوتسو) أول عامل في هذه الأسرة العظيمة ، بعد رد نظام البلاد إلى نصابه إذ أنه فكر قبل كل شئ في تحديد الحياة العملية في أرض

للصين : فأمر بالبحث ، عن النسخ النضالة من الكتب في الكهوف والمغارات ، ومن تحت الرماد ومظلات السقوف ، ومن أجواف الأشجار والأكواخ في الجبال . لجمع تاريخ الصين في أيامه الحالية من صدور المسنين المعمرين ومن الروايات السائرة . فأحيا العلم بهذه الطريقة وصانه من الغناء . وكان عهده عهدا ذا مجد وعظمة في تاريخ الصين .

لقد ارتقى (هان كاوتسو) عرش الصين في سنة ٢٠٦ ق م واستمر أولاده في الحكم إلى ٢٢٠ بعد الميلاد وكانت له اليد البيضاء في إحياء الكتب العلمية القديمة التي كادت تفتى من الوجود بسبب السياسة القاسية التي اتبعها (جنشي وانتي) في طرد البلاد وعرضها . وانك لا تستطيع تقدير خدمات العلوم ، إلا إذا علمت عدد الكتب التي قد جمعها في الخزائن . يقول تاريخ الصين إن دار الكتب الامبراطورية التي أسسها (هانكاوتسو) كانت تحوى قبل الميلاد ٣١٢٢ نسخة من الكتب الكلاسيكية و ٢٧٠٥ نسخة من الكتب الفلسفية و ١٣٨٣ في الشعر .

لم يكن عهده هذا للبهجة الادبية فقط ، بل للبهجة السياسية أيضا فقد كانت منشوريا وبوتان وآنام غير خاضعة لسلطة الصين ، فخصمت لها في القرن الثاني قبل الميلاد . وذلك أن (ووتى Wuti) العامل الخامس من هذه الاسرة ، قد بعث سفيرا كبيرا مدروعا باسم (جيانغ جيانغ Chang Chieng) إلى البلاد الغربية التي كانت تطلق في اصطلاحات جنر قيا الصين القديمة ، على بلاد التار ويران والهند لإيجاد العلاقة الودية والتجارية وسفين تنائج هذه السفارة فيما بعد إن شاء الله . وإنما الكلمة التي أحب أن أضفيها هنا ، هي دخول الديانة البوذية إلى الصين . وكان ذلك في عهد (مينغ تي Ming Ti ٥٨ - ٧٦ م) . ومن الروايات المشهورة في تاريخ الصين أنه رأى مرة في منامه ، تمثال الذهبيا يسطع نوره إلى قلبه . فغير المعبوف بأن هذا التمثال يدل على ظهور مصلح عظيم في بلاد الهند . فبعث رسولا عامدا إليها باحثا عن هذا المصلح . فلم يجده حيا . غير أنه عاد ببعض التماسيل التي قد صممتها أيدي المتفدين لبوذا ، فقرأها وعبادة ،

وبعض الكتب السنسكريتية التي حفظت فيها نص الميم البوذا أو الآشوال التي نسبت إليه .

عند ابتداء القرن الثالث للميلاد، ظهرت آثار الضعف في دوله (مان) وأخذت في الازدياد على مر الايام حتى تار قائم على الامبراطور (يانغ تي Yang Ti ١٩٠ - ٢٢١ م) فخاب منه زمام الحكومة . وبعد ذلك كانت الحروب الدامية تستمر في الصين بين المتنازعين على السلطة والمتنافسين على الحكم . وأخيرا غلبت أسرة (شي جن Shee Chen) على جميع المتنافسين في سنة ٢٦٥ م . وهو العصر الذي سافر فيه (فا هيانغ Fa Hsien) السائح الصيني الشهير الى الهند ليشاهد عجايبها وغرائبها . لهذا حضوه (يوان تسوان Yuan Tzuan) الذي يستند اليه الآن جميع المؤرخين في إيجانهم عن آسيا الوسطى للعصور التي بين القرن الثالث والسادس للميلاد .

وماد هذه الأسرة التي انقضت في أوائل القرن السادس للميلاد، ظهرت أسرة (تانغ Tang) التي بسطت نفوذها على البلاد بالقوة أولا، ثم استحكمت أركانها بالحكمة وبظهور هذه الأسرة على مسرح سياسة الصين الامبراطورية، ابتداء عصر جديد في تاريخها .

تقد دخل الاسلام الصين في عهد هذه الأسرة . بعد النمطورية والمناوية بقليل من الزمان .

٢ - علاقة الصين بغرب آسيا وبلاد العرب قبل الاسلام :

لقد تكلمنا إجمالاً عن حالة الصين قبل الاسلام ووصلنا إلى نقطة ، منها نستطيع الدخول في البحث عن تاريخ الاسلام في الصين والنظر إلى طريق دخوله . هل دخلها برا عن بلاد تركستان وما وراء النهر ، أو بحرا عن سواحل الهند وجزائر

جأوة وفي أية سنة ؟ لكنني لا أحب أن أدخل في صميم هذا الموضوع الآن ، لأن تاريخ الإسلام في الصين ، من المسائل العلية التي لا يستطيع باحث تجلّتها ، إلا بعد تحقيق علاقات العرب بالصين ، مباشرة كانت أو غير مباشرة . وللوصول إلى حل صحيح لهذه المشكلة التاريخية التي اختاب فيها الكتاب المسيحيون ، ولا يزال مجهولة عند علماء المسلمين ، أرى من الضرورة أن نبحث أولاً عن علاقات العرب بالصين ثم نبحث عن تاريخ الإسلام في الصين . وذلك يحتاج إلى كتاب على حدة واستقلال وأما هنا فباحثنا مقصورة على موضوع العلاقات المختلفة التي تحتاج إلى كتاب مستقل أيضاً

وسأرى فيما بعد أن علاقة الصين بالعرب لم تكن وليدة لبعث الإسلام ، بل ابتدأت قبل الإسلام بقرون غاية الأمر أن عراها لم تكن أوقت كما في زمن الإسلام . لكن العلاقة كانت موجودة على طريقة غير مباشرة أولاً ، ثم تطورت إلى علاقة مباشرة عندما قرب ظهور الإسلام . والتاريخ على هذا شاهد .

ولمعرفة متى اتصل بالصين وكيف ، يجب علينا أن ننظر إلى الورداء بقرن على الأقل قبل الميلاد وكأثر ذلك هو الوقت الذي نرى فيه على ضوء الوقائع التاريخية أن التجارة قد فتحت أبوابها بين بلاد الصين والبلاد التي تقع غربها ، وأن طرق القوافل قد سهلت إلى حد كبير بآسيا الوسطى وفي بيان هذه النقطة ، لا أريد على كل حال ، أن أستشهد بتلك الأقوال التي ذكرت في حبيسة (مونتيان تز (Mu Tientze) فقد قيل أن مونتيان تز ، وهو أمير من أسرة (تشو Chow) الشهيرة قد حكم قسمًا من أرض الصين من ١٠٠١ إلى ٩٥١ ق م .

لقد ذكر مؤلف هذا الكتاب القديم الذي يرجع تاريخ كتابته إلى سنة ٢٨١ م سياحة هذا الأمير الجريء ، على جواده إلى البلاد الغربية ، حتى وصل إلى سواحل بحر الخزر . ثم رجع إلى عاصمته بقرب (سي آن) الحاضرة .

ليس من همي أن أصدق أو أكذب هذا الواقع لأن المحققين البارزين يعرفون كيف يقولون كلمتهم في مثل هذا الواقع التاريخي المشكوك في صحته ،

غير أنني أجد في كتاب (شانهاي جن) أي كتاب الجبال والأنهار ، وهو من مؤلفات أواخر عهد (تشو) ، وفي (التذكرة التاريخية) التي دونها (ليويوي Lui Puwei) وزير الامبراطور (جيانغ وانغ) في سنة ٢٥٠ ق م ، بحث مفصل عن الأحوال التجارية بغرب الصين وعن البضائع التي كانت توجد بأسواقها .

بيد أنني أرى أن هذين المكتابين على كل حال ، لم يغيرا بشيء عما وراء تيان شان (جبل السماء) أو عما وراء جبال (كوتلون) بآسيا الوسطى . ومع ذلك نستطيع أن نقول أن هذه الأقوال جانباً من الأهمية في الاستشهاد للصينيين على أنهم قد عرفوا بعض البلاد بآسيا الوسطى قبل الميلاد

لكن لا يصح لنا أن نستشهد بها على الاتصال التجاري بين الصين وإيران ، أو بين الصين والامبراطورية الشرقية ، وذلك كما اعتقد ، قد وقع متأخراً على الأقل بقرن أو أكثر من قرن .

فالروايات الوثيقة المدونة في تاريخ الصين القديم ، والتي تستطيع أن تهدينا إلى معرفة شيء عن ابتداء الرابطة التجارية بين الصين والبلاد الغربية في قارة آسيا ، نقول أن الامبراطور (ووئي) الذي قد سبق ذكره بعث في سنة ١٢٢ ق م واحداً من أمراءه المظالم ، معروفاً باسم (جانغ جيانغ) - مفسيراً له ، إلى الممالك الوسطى والقصوى لإيجاد رابطة ودية مع قبائل التران الذين كانوا يفاجئون الصين ويهددون حدودها بين حين وآخر ويهبون مدنها المجاورة لأوطانهم .

وقد ورد في (تونغ جيان) أي تاريخ الصين العام في جزئه السادس عشر ، أن (جانغ جيانغ) السفير ، قد زار في أثناء سفره ، ستاً وثلاثين مملكة صغيرة كانت أو كبيرة ، منها بلاد ايلي ، والصغد ، والفتن ، وخيوا ، وإيران ، والهند (أي شمال الهند) .

وبما لا شك فيه أن سفارة (جانغ جيانغ) إلى هذه الممالك ، قد فتحت باباً جديداً للسفر برا من الصين إلى غرب آسيا عن طريق بلاد التران أو تركستان

وكانت نتيجتها أن اتصلت الصين بإيران بطريق البر مباشرة والعراق والفسطاطية بواسطة إيران .

ومن ذلك الحين كانت القوافل التجارية تسير غربا من الصين وشرقا من العراق وإيران والبلاد الأخرى بغرب آسيا ، فتبادلوا البضائع في الصفد . ولقد دون تاريخ الصين حركات هذه القوافل تحت عنوان : تجار جاؤا من البلاد الغربية ، المراد من (البلاد الغربية) في تاريخ الصين القديم ، هو البلاد التي وقعت فيما وراء حدود الصين الغربية من كاشغر إلى البحر الأسود بما بينهما من البلاد والممالك ، منها بخارى ، وخيوا ، والعراق ، وأرضها وجميع الممالك الساسانية .

وأغلب الظن أن العلاقة التجارية بين هذه البلاد والصين قد بدأت في زمان قبل عصر (جانغ جيانغ) على طريق غير منظم . غير أنه لا نستطيع إثباتها بدليل قاطع ، أو تحديد وقتها بسنة معينة ، وذلك لعدم الشهادات التاريخية الصحيحة . وأما سفارة (جانغ جيانغ) فهي من الوقائع التاريخية ، التي لا تقبل الشك فالعلاقة التجارية بين الصين وجاراتها الغربية والبيدة مثل سمرقند ، وبخارى ، وخيوا ، والعراق بعد مدة قصيرة نحو ثلاثين سنة ، من هذا الواقع التاريخي قطعت شوطا كبيرا . حتى (شى ما جيانغ Shih Ma Chien) أكبر مؤرخى الصين في ذلك العهد ، وفي مكانة بين المؤرخين الصينيين مثل ابن خلدون بين مؤرخى العرب لم يستطع أن يغفل ذكر هذه الأحداث التجارية في كتابه الحافل المسمى (شى جيه شيه Shih Chih) أى الأخبار التاريخية ، الذى قد تم تدوينه في سنة ٨٨٠ م . فخصص فصلا فيه لأحوال بلاد (داوان Dawan) اسم قديم للبلاد التي كانت تمتد من الصفد إلى خيوا . ومن الأمور المدكورة في كتابه . البضائع الواردة من بلاد داوان إلى الصين ، ومن هذه البضائع الخيول التي كان ملوك الصين يقدرونها أكثر من غيرها .

ومن المعلوم ، من الناحية التاريخية ، أن أواسط آسيا لم تكن بلادا تعرف أصيل خيولها . فتميل إلى الاعتقاد بأن تجار (داوان) وكانوا يتقدمون شرقا وغربا ،

قد استوردوا الخيول الجيدة من شرق الغرب يقرب حدود العراق الحاضرة أولا إلى خيوا، ثم إلى الصغد. ثم أخذها تجار الصين من الصغد إلى سي آن، عاصمة الصين الأقدم.

وبقيت في تاريخ الصين، أن القوافل التجارية لم تقف بمعاملتها في الصغد أو سمرقند بنصف الطريق إلى الصين، بل كانت لهم رحلة سنوية منظمة إلى عواصمها. ولقد أشار مؤرخ الصين (شي ما جيان) في الفصل نفسه، إلى زيارات القوافل التجارية لقاعدة الامبراطورية الصينية قائلا أن التجار من البلاد الغربية، يردون سنويا، في جماعة يكون عددها في بعض الأحيان زائدا عن المائة، وفي أحيان أخرى، أقل من ذلك، وقد يكون في عشرات فقط، وقد يكون في بضع مئات و (البلاد الغربية) ولو أن المراد بها في تاريخ الصين القديم غير واضح، تشمل على أغلب الظن بلاد العراق وأرمينيا، والشام. فمن المحتمل إذن أن تجار العراق أو الشام قد زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التي كانت ترد إلى (سي آن) بين حين وآخر.

ومن كثرة تردد قوافل التجار إلى الصين برأ، فتح الطريقان المنتظمان على ظهر الجبال بآسيا الوسطى. ترتبط بهما عواصم الصين بمواسم البلاد المجاورة لها ويعرف أحد الطريقين في الكتب الجغرافية باسم (نان لو) أي الطريق الجنوبي والآخر باسم (يلو) أي الطريق الشمالي. وكانت المحطة الابتدائية لكل واحدة منهما هي مدينته (سي آن)، والمحطة النهائية هي مدينة خيوا، عاصمة الدولة الساسانية. وقد اشترك هذان الطريقان في محطات (لان تشو Lan - Chow) ولوينور إلى نسيمو (Tsié Mo) حيث يفترقان، أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب وبينها صحراء (غوبي) و (تيان شان) أي جبل السماء. فالطريق الجنوبي يمر بجنوبي نهر طارم، إلى ختن ويارقند حيث يصعد إلى سفح العالم وهو بامير، ثم ينزل عن غرب نهر جيحون إلى خيوا. أو عن جنوب هذا النهر ذاهبا إلى نهر أندوس، والمياه الخمس (بنجاب) بشمال الهند. وأما يلو أو الطريق

الشيالى . فيمر بشمال نهر طارم عن طرفان وكشار وأقصور إلى كاشغر ثم يمر بمضيق تيراك إلى سيجون وسمرقند حيث يوجد طريقان . أحدهما يذهب بصاحبه جنوبا إلى خيوا ، والآخر ينطفئ ناحية الجنوب الغربية ، إلى مرو . عاصمة خراسان . وكان هذان الطريقان قد أضلعا إلى حد كبير بأمر القائد الصينى المعروف باسم بان جيو (Pan Chao) الذى قاد جيشا جرارا إل قتال التتار الذين لا يزالون يغيرون على حدود الصين الشمالية الغربية . فهزمهم شر هزيمة حتى قنع حصونهم المنيعه التى مهاضن وكاشغر فى سنة ٩٤ م .

وهذه الوثائق التاريخية التى اتفق جميع المؤرخين على صحتها . تشهد من ناحية بأن الصين قد ربطت برا فى أوائل القرن الثانى من الميلاد مباشرة بالبلاد التى بغربى آسيا . خصوصا إيران ، وتغزنا من ناحية أخرى عن علاقة الصين بالامبراطورية الشرقية علاقه غير مباشرة . ويؤكد هذا القول مؤرخ روماني كبير بصديقه سفر (ماركس أورليوس أنتونيوس Marcus Aurelius Antonius) من قبل امبراطور الروم الشرقى إلى الصين فى سنة ١٦٦ م . " ثم أن الأستاذ جيبون ، مؤلف (انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها) قد ذكر أيضا أن التجار الروميين الذين اختلوا إلى أسواق الشام وأرمينيا ونصيبين ، كانوا يتبادلون بضائعهم بالبضائع الصينية بوساطة الايرانيين من حين إلى آخر . وفى زمان بعد ذلك ، عند ما شعروا بمظلم الايرانيين وعدم الصافهم فى المعاملات ، جهدوا فى التخلص من هذه الذلة ، فتجهجوا فى إنشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا فى القرن الثانى من الميلاد .

وأما الأستاذ هيرت مؤلف ، الصين والرومان الشرقية ، فقد صدق هذا القول غير أنه يشك فى كون ماركس أنتونيوس مبعوثا من قبل الامبراطور . بل هو يعتقد أن ماركس هذا ، قد أوفده التجار الرومانيون الى الصين فسافر اليها بحرا وكانت سفارته اذن غير سفارة رسمية ، بل سفارة خصوصية لمحة تجارية . ومهما

يكن من أمـر . فان مفسر ماركس أنتونيوس ثابت في التأريخ ومؤكد من قبل المؤرخين الرومانيين أنفسهم . وبعد هذا نستطيع أن نفهم من كلمة الاستاذ هيرت ، أن العلاقة التجارية بين الروم الشرقية والصين كانت موجودة ثم انقطعت ، فذهب ماركس الى الصين لم يكن إلا تجديد العلاقة التجارية القديمة (١) .

ومن رآيه أن التجارة بين الروم والصين كانت عن بلاد الشام والمواقع التي بسواحل مصر . وأن النيل كان معروفًا عند الصينيين . فاستشهد من المصادر الصينية التي ترجع إلى القرن الثالث من الميلاد . وأفواله هذه ، تؤكد ما قلناه عن علاقة الصين بالغرب علاقة غير مباشرة في القرن الثاني من الميلاد ، إذ كانت بلاد الشام تحت سيطرة الروم الشرقى على أنها جزء منه لا تفك عنه .

وأما أمـر بطورية الرومان الشرقية فقد ذكر ما فقد تاريخ الصين تحت اسم (Tsin = Tsin) وهذا الاسم بطبيعة الحال كان شاملا للملك التي كانت تحت الروم بسواحل البحر الأبيض مثل الشام وفلسطين ومصر . وما يلي هو نص ورد في (وى ليو Wei-Liu من ١٧) ، كتاب قديم باللغة الصينية ، كتب في القرن الثالث من الميلاد .

وأن هذه البلاد وافدة على غرب البحر فلذا نسمي ببلاد . هاى مى . أى بلاد غرب البحر ومنها يخرج نهر يصب في بحر عظيم . . . ويقول الاستاذ هيرت ، أن هذا النص تعريف تم لبلاد مصر . لأن البحر الأول الذى يقع غربيه مصر هو البحر الأحمر ، والنهر المشار إليه هو نهر النيل . وأما البحر العظيم الذى يسقط فيه هذا النهر فهو البحر الأبيض . ونضيف الى ذلك قائلا أن في بلاد . غرب البحر ، مدينة يقال لها ، كسند . بحرفه عن اسكندرية ، كما يظهر ذلك من تقارب حروفها ووضعها الجغرافى المحدد في ذلك المصدر (٢) .

(1) Hirth: China and Roman Orient, P. 175.

(2) Hirth: China and Roman Orient, PP. 180-181

وقال في مواضع عديدة أخرى ، أن بلاد الشام كانت مركز التجارة ، لأنها وقعت في موقع مركزي بين المدن المتفرقة في آسيا الصغرى وقبرص ومصر وآرمينيا ومدين وبابل ، ولأنها قد تملكك من زمان بعيد ، جميع الوسائل التي تمكنها من احتكار تجارة اليراقبت على اختلاف أنواعها والزمرد وحيون الحرة واليصب وقرخ جمر واللازود والعقيق وغيره من الأحجار الكريمة .

ومن المدن التي كانت البضائع تصدر منها إلى الصين عن طريق البحر الأحمر ، مدينة الإسكندرية ، فلها قد ورثت عظمتها التجارية من الشاميين والفينيقيين ، إذ كانت تحت سيطرة إمبراطورية الروم الشرقية فأصبحت بلا زراع مدينة الصناعة والحرفة ، وكانت صناعة الزجاج بمدينة الإسكندرية مشهورة في العالم والمصانع التي قد صنعت تركيب الأحجار الكريمة وصفاها ونجميها ونظمها ، كانت بلا شك من مفاخر إمبراطورية الروم . ولقد أخبرنا الأستاذ هيرت أن من بين البضائع التي كانت تصدر من الروم الشرقي إلى الصين ، الذهب والفضة والعنبر والعقيق والأؤلؤ والمرجان ثم المنسوجات القطنية المصنوعة بالولايات الشرقية من إمبراطورية الروم ؛ والأستاذ هيرت يميل إلى الاعتقاد بأن أغلب الجواهر والأحجار الكريمة التي كانت تصدر من الروم الشرقي إلى الصين ، ليس من صناعات الإمبراطورية الشرقية نفسها بل من منتجات مصانع الجواهر ومصاقلها بالإسكندرية (١) .

يرى هذا المؤرخ الروماني أن أغلب البضائع التي كان تمار الروم يأخذونها من تجار الصين ، لا يحتاجون إلى دفع ثمنها بالنقد ، بل يبادلونها بالبضائع الأخرى التي من خاصة منتجات الروم . فالزجاج والمنارش والبطانيات والمزركشات والمطرزات والمنسوجات المذهبة والأحجار الكريمة كانت من بين هذه البضائع المتبادلة . فكان التاجر الصيني يستطيع أن يحمل هذه الأشياء من الشام ، مع أشياء أخرى من أنواع الأدوية وأعواد الطيب ، يأخذها بالطريق وقت عودته (٢) .

(1) Hirth: China and Roman Orient. P. 245.

(2) Hirth: China and Roman Orient. P. 228.

وقد علمنا من المصادر الرومانية، أن طريق البحر بين سواحل البحر الأبيض وخليج فارس كان مفتوحاً من زمان بعيد قبل الميلاد وكان ذلك عن البحر الأحمر كما أثبت إليه من قبل . فالمدينة التي لعبت دوراً هاماً في العلاقة التجارية بين مصر والهند والصين في القرون الأولى للميلاد هي مدينة عدن على ساحل البحر الأحمر بجنوب جزيرة العرب حينما كانت إيران تتوسط في هذه التجارة حتى أيام جوسنديان^(١).

كان لتجار الذين جاؤا من سواحل البحر الأبيض الى خليج فارس، طرق عجيبة في كسب الأموال وتحصيل المنافع . وكان كما أخبرنا الاستاذ هيرث - البحارون الذين جاؤا بالمراكب التجارية الى خليج فارس قد حدثوا - ذوو - لافهم الفينيقيين في معاملة التجارة من حيث أنهم لا يساقطون أحداً من جمع الأخبار عن أحوال التجارة بسواحل البحر الأبيض بخافون . أو يمنعون المنافسة في التجارة . وربما كانت هذه المنافسة سبباً فاعلياً على اختصارهم في بعض البضائع الخاصة . وكان بحاروا المراكب يكتشفون كنزها تماماً حقيقة التجارة في أسواق الشام ومصر لأنهم كانوا يشتغلون بنقل البضائع الصينية من حدود إيران الى أسواق الشام في السفن التي يملكها الأوروبيون . فالأخبار عن التجارة في البحر الأبيض مقصورة عليهم دون غيرهم . فذلك وجدنا أنهم قد اجتهدوا وسع طاقتهم ، في الاستماع عن اطلاع غيرهم من الذين لهم اتصال بتجار الصين بخليج فارس أو بسواحل الهند من الإيرانيين وغيرهم ، عن الأحوال التجارية وحقيقة الأسواق بسواحل البحر الأبيض ، خوفاً من اذاعة حقيقة قيمة الحرير بالصين . أو من تعرف الاثنان الأصلية لمصنوعات الزجاج والجواهر بالنام . فحلب المتهكمرون الأوروبيون بهذا الكتمان ، نعماً بالنفا في الاتجار بهذه البضائع الخاصة ، وكانت الادباج تبلغ مائة في المائة في معظم الأحيان^(٢).

(1) Chao Ju Kuo: P. 3.

(2) Hirth: China and Roman Orient. P. 168

ولا ريب في أن السوريين كان لهم باع طويل في التجارة البحرية مع تجار الصين والهند واكتسبوا فيها من ناحيتين : ناحية التصدير وناحية التوريد . لأنهم كانوا يبيعون صادراتهم في خليج فارس أو عدن إلى تجار الصين وهم لا يعرفون قيمتها الأصلية . بشر مضاعف . ثم مضاعفوا قيمة الواردات في أسواق الشام لجهل أهلها بأصل الثمن ومن المعلوم أن أهم الواردات من الصين في ذلك الوقت كانت الحرير على اختلاف أنواعه وقيل أنهم باعوه في أسواق الشام بالذهب على قاعدة الوزن بالوزن^(١) . وسواء أكان هذا القول صحيحا أو غير صحيح ، لا نستطيع أن ننكر أن هذه البضائع كانت عالية جدا في أسواق امبراطورية الروم فلم يقدر على شرائها والتسنع بها ألا الامراء والاعيان ولا نستطيع أن ننكر أيضا أن أغنياء الروم الشرقي . كانوا يتفقون مبلغا عظيما من أموالهم في اقتناء هذه البضاعة النفيسة التي لم ينعم في صناعتها إلا الصينيون فقط .

وأما سفر ماركس أنتونيوس ، فقد اتفق المصدران الصيني والروماني ، على أنه قد تم ذلك بطريق البحر ومن المعلوم أن طريق البحر بين قسطنطينية وموانئ الصين لا تكون إلا عن سواحل الشام والعراق ، أو البحر الأحمر ، ثم خليج فارس وملابار وسرنديب ، وسنطارة ، ومالاکا ، وتونكين ، ومن ثم إلى أقرب المرافئ بجنوبي الصين وإذا مثل متى بدأت المواصلات البحرية بين الصين وغيرها من البلاد التي بسواحل المحيط الهندي والبحر الأبيض ، ولا نستطيع أن نحدد تاريخها ، إلا أن (جويوكوا Chao Ju Kua) قد ذكر في كتابه (جوفان جي) أي تذكرة عن الأمم الأجنبية ، أن جماعة من لاجانب قد وصلوا مع أنتونيوس ، بحرا إلى تونكين . ومن ثم سافروا برا إلى عاصمة الامبراطور (يوان تي Ynan Ti) . ثم جاء في سنة ٣٢٦ م ، إلى الصين تاجر آخر من الامبراطورية الرومانية . فوصل إلى تونكين أولا . ثم بعث برا إلى عاصمة الصين في عهد الامبراطور (ميون جيون^(٢)) .

(1) Hirth : China and Roman Orient. P. 225.

(2) Chao Ju Kua : P. 5.

ونظرا الى ما جاء في ، تذكرة عن الامم الاجنبية ، مؤلفة (جويوكرا) الذي اتفق بالمصادفة ، مع ما ورد في كتاب الاستاذ هيرت ، وهو من ثقات التاريخ الروماني عن سفر ماركس أنتونيوس بحرا الى الصين ، وكان ذلك في سنة ٦٦ م ، نستطيع أن نقول أن طريق البحر قد نظم على الأقل في القرن الاول من الميلاد حتى استطاع ماركس أنتونيوس ان يصل الى الصين آمنا في وقته .

ولقد علنا طرفا من الحركات البحرية بين البحر الأبيض وخليج فارس وكان ذلك بفضل التجار السوريين الذين كانوا يشتغلون في التجارة مع تجار الصين في خليج فارس والبحر الأحمر . لكن من الذين يمكن أن يرجع اليهم فضل كشف الطريق البحري بين موانئ الصين وخليج فارس هل كانوا رومانيين ، أو صينيين ، أو غيرهم من الامم ، أما التاريخ فيشهد من ناحية بوجود التجار الصينيين بسواحل ايران والهند قبل الميلاد ، ومن ناحية أخرى يدل علم الرومانيين بهذا الطريق في الوقت نفسه . ولولم يمرقوا ذلك لما وكتب البحر رجل روماني مثل ماركس أنتونيوس الى الصين في منتصف القرن الثاني للميلاد . ففي هذه النقطة ننظر الى رأى مؤرخ آخر : لا هوسبي ولا هو روماني . ذلك هو الاستاذ هادي حسن الذي له بحث مفصل في هذا الصدد . فيجب علينا أن نأخذ رأيه السديد . قال في كتابه « تاريخ الملاحة الايرانية » أن الطريق البحري الى الصين لم يكن على أبة حالة من الاحوال . من اكتشافات الرومانيين ، لأن جنود الصين قد وردت إلى سواحل ملابار في القرن الثاني قبل الميلاد ومن المحتمل أن (جاءت في زمن قبل هذا القرن . لكن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين بل متخللة بالفترات (١) . لقد أشار الاستاذ جيبون مؤلف انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها ، إلى هذه النقطة أيضا حينما نكلم عن طريق البر والبحر الى الصين . فأن قوافل تجار الحرير الذين خافوا من غارات التار ونهبهم للأموالهم ، أو من سوء

(1) Hadi Hasan : History of the Persian Navigation. P. 54.

معاملة التجار الإيرانيين لهم ، بحثوا طريقا آخر إلى الاجتماع مع التجار الصينيين بسواحل الهند . فاختاروا أن ينشؤا طريقا في جبال التبت ونزلوا عن طريق الكنج أو نهر الاندس ، إلى موانئ كجرات وملابار وانتظروا هناك وصول مراكب التجارة من الصين في مواسمها بفارغ الصبر^(١) .

كان الأستاذ جييون ، ولو أنه لم يعتقد بسفر الصينيين إلى خليج فارس في القرون الأولى للميلاد ، اضطر إلى الاعتراف بأن تجار الحرير الصينيين الذين قد جمعوا في أسفارهم البحرية إلى جزيرة (تريانك مال Trianque Mal) بضائع مثل الصبر والقرنفل والتاجيل وأعواد الطيب ، بالواقعا عظيمها من التجارة مع أهل خليج فارس .

وكان السبب الذي يدعو الرومانيين إلى التفكير في إيجاد علاقة مباشرة مع التجار الصينيين بسواحل الهند ، هو احتكار الإيرانيين تجارة الحرير الصيني وما وبحرا . فأن هذه البضاعة ، كما قال الأستاذ جييون ، قد أصبحت من ضروريات الرومانيين في الملابس والكسوة في زمن الامبراطور جوستينيان ، الذي كان ينظر بعين الاهتمام والقلق إلى احتكار الإيرانيين البضائع التي تحتاج إليها بلاده وبعين الحسد والحقد إلى القوة الهائلة التي يسلها أعداؤه من رعاياه كل سنة . فالحكومة الرومانية الشرقية ، عندما استيقظت من غفلتها وانتهت إلى تفهيمها في التجارة البحرية ، قد قد تطمع أن تسترد نصيبا من تجارتها في مصر وقوتها البحرية في البحر الأحمر إلى مدغاسكار . كانت هذه التجارة قد نقصت ، والقوة البحرية قد ضعفت إلى حد كبير بسبب انحطاط الدولة وضعفها ، ومن المظنون أن قد صممت على إرسال مراكب رومانية إلى مدغاسكار ، وإلى الصين لا شراء الحرير ، غير أن الضعف الذي أخذ يأكل قلب الدولة ، منعه عن هذا الإقدام . لكن جوستينيان على كل حال لم ينفصل عن حاجات رعاياه ، كما أنه لم يجهل سوء معاملة الإيرانيين لهم . نعم أنه لم يستطع إرسال المراكب من عنده رأسا إلى الصين ، غير أنه تمكن من إيجاد وسيلة قليلة

(١) Gibbon: Vol. 11. 40.

غاياته ، فالأحباش - وكانوا من حلفاء المسيحيين - ، تمكنوا من قبضة بحرية وقبضوا على ناصية التجارة في سواحل البحر الأحمر ، فساعدوه في تحقيق مراده ، بإرسال بعض المراكب إلى سواحل الهند لنقل البضائع الصينية إلى الإمبراطورية الرومانية ولقد أثبتنا أن الرومان قد استطاعوا إنشاء رابطة تجارية مع الصين في القرن الثاني من الميلاد عن طريق خليج فارس والبحر الأحمر ، لأنهم استطاعوا تصدير البضائع الرومانية إلى الصين ، أو لتوريد البضائع الصينية إلى إمبراطورية الروم ، والآن نستطيع أن نتصور وجود العلاقة بين الصين والعرب في ذلك الوقت أيضا ، خصوصا بعد ما تكلمنا عن أن عدن كانت ، بنة عظيمة وقد لعبت دورا هاما في التجارة البحرية مع الصين وبلاد الروم الشرقي كليهما .

صحيح أننا لا نجد ذكرا في المصادر العربية عن هذه العلاقة . غير أننا لا نستطيع أن ننكر وجودها على حال من الأحوال ، والسبب في ذلك أن بلاد العرب في ذلك الوقت لم تكن منحدرة تحت دولة قوية ، ومن الجائز أيضا أن مؤرخي الغرب لا يمتثلون بوجود هذه العلاقة ولهم عذر مقبول . ومن المعلوم أن شمال بلاد العرب كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الرومان الشرقية ، وجنوبها تحت بلاد الفرس ، فمن المفهوم إذن أن علاقتها التجارية مع الجانب ، قد أخذت تحت ظلال الرومان أو الإيران . فاعتبر المؤرخون معاملة التجارة التي وقعت في أسواق الشام والعربيين وأرمينيا ، معاملة بر الصينيين والرومانيين كانوا نسبوا المعاملة التي رقيت في موافق اليمن وجزر عمان ومقطر وبحرين إلى عظمة الإيران التجارية وكان الأمر غير منحصر في هذا ، بل البضائع التي كان أصلها من شرق أفريقيا ، حسبوها من منتجات إيران ، يسموها البضائع الإيرانية ، حتى أوائل القرن السابع من الميلاد . لقد صرح ما قال الأستاذ هادي حسن في كتابه تاريخ الملاحة الإيرانية ، عند ما تكلم في هذه النقطة ، حيث قال أن ، تاريخ الصين الذي يتعلق بالعصور التي بين أواخر القرن الرابع إلى أوائل السابع من الميلاد ، يذكر جميع البضائع التي كان أصلها من بلاد العرب أو من شرق أفريقيا تحت اسم (بضائع

بوسى) . لأنها هي المملكة التي كانت تصدر منها أغلب بضائع البلاد المجاورة للصين

اتفقت المصادر الثلاثة ، الصينية والإيرانية والرومانية ، على وجود العلاقة بين العرب والصين قبل الإسلام بصفة قرون في شكل غير مباشر إذا اعتبرنا السلطة الحاكمة التي كانت سائدة على شمال بلاد العرب وجنوبها ، قبل الإسلام وفي شكل مباشر إن أخذنا في حسابنا الحدود الجغرافية . وبما لا مرية فيه ، أن نشاط الإيران التجاري أثر في هذه العلاقة أكثر من حركة التجار الرومانيين لأنهم لم يشعروا بحاجتهم إلى إيجاد علاقة مباشرة ، إلا بعد أن ذاقوا الفسادة من الإيرانيين الذين كانوا يتوسطون في تجارة الصين مع الرومان ، وكانت إيران هي المملكة التي اتصلت الصين بواسطتها بدولة من الدول العربية القوية العظيمة حينما كانت جزيرة العرب لا تزال باقية في وثنيها وجاهليتها الأولى . وهي دولة الحيرة تحت أمهات الخوارج والسدير . وكانت الملك الذي قد عاصر خسرو بزر ، وهو النعمان بن المنذر ، الذي حكم تلك المملكة بالقوة والحكمة مدة ثمان وعشرين سنة (٥٨٥ - ٦١٢ م) وهو الذي أرسل في أثناء حكمه ، وفداً يشتمل على عشرة أعضاء ، إلى خسرو بزر . وكان كل واحد منهم ليصبح الأسار ، طلق اليان ، شريف الذهب ، مفتخراً بعروبته . وقد اجتمع عنده وفود الروم والهند والصين . وأما الخطيب ثقفى ألفصاها ، فقد العرب أمام كسرى (خسرو) فن أفسح كلام العرب ثراء ، أن كان اسناد صاحب القيد الفريد صحيحاً ولم يخطئ في نسبة هذه المنورات إلى أمهاتها . فن المتصور إذن ، أن أعضاء الوفد العربى ، بعد تأدية رسالتهم التي بعثوا لأجلها ، كانوا يطعمون في الحصول على بعض المعارف عن البلاد التي قد اجتمعوا مع وفودها عند كسرى . وهذا من طبيعة حالة السفراء في كل وقت وكل مكان . وبعد هذا فلا عجب عندنا ، في أن أكثم بن صبيح وزملائه

قد سألوا وقد الصين عما يريدون أن يعرفوه ، من أحوال بلاد الصين وعاداتها فسمعوا وصف بلاد الصين من أفواه وبعدها . هذا من الناحية السياسية

وأما من الناحية التجارية ، فيحكى المسعودى ، أن العلاقة التجارية كانت قائمة مباشرة بين الصين ودولة الحيرة . قال في مكان من كتابه أن الفرات يصب في البحر الحبشى في الموضع المعروف بالحلف . وكانت تتقدم هناك سفن الصين والحند ، ترد إلى ملوك الحيرة . وقد ذكر ما قال عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغساني ، حبر عاظم خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه ، حين قال له ما تذكر قال أذكر سفن الصين رواد هذه الحصون (١) .

فكتفى بهذا التمايل في إثبات وجود الاتصال بين العرب والصين قبل الاسلام ولا أظن أحدا ينكر هذا الجانب من الوقائع والحقائق التاريخية . غير أنه يستطيع أن يقول أن صاحب الرسالة هو من فريش بقلب الحجاز . ومن المشكوك فيه أن يتصل القرشيون بالصينيين قبل الاسلام مع ثبوت أن الهانين والقططانيين كان لهم اتصال بتجار الصين بخليج فارس من عهد قديم منذ القرن الثالث من الميلاد على الأقل . لكذا تعد على كل حال ذكرنا في الكتب العربية ، عن زيارة التجار القرشيين للعراق في الوقت الذي كانت فيه جزيرة العرب لا تزال في وثنياتها . فسافر هؤلاء التجار إلى عاصمة كسرى وأمسكوا إليه بعض البضائع الغريبة التي منها خيول العرب . ونظرا إلى أن اسم أبي سفيان قد ذكر في زمرة هذه القافلة التجارية (٢) . أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الامر قد وقع قبل النبوة بزمان قليل .

لقد أثبتنا فيما تقدم أن تجار الصين كانوا يترددون على المدن العسكرية بایران بين حين وآخر وعلى موانئها بالخليج . فن المحتمل إذن أن هؤلاء التجار

(١) هرامش نفخ الطيب . ج ١ ، ص ١٢١

(٢) المقدم الفريد ج ١ - ص ٩ (الطبعة الأميرية)

الفرشيين أو معاصريهم قد اجتمعوا مع بعض التجار الصينيين في أرضي إيران أو العراق. ومن المؤكد أن بلاد الصين كانت معروفة عند الفرشيين قبل الإسلام بدليل قوله عليه السلام «اطلبوا العلم ولو بالصين» لأنه عليه السلام لم يرتحل إلى خارج بلاد العرب وإذا صح ما قلناه فلا شك في أن علمه باسم (الصين) قد جاء من الأخبار السائرة في جزيرة العرب في وقته، وذلك لم يكن إلا بملافة الفرشيين بالصينيين أولاً ثم عرف هذا الاسم في بلاد العرب حتى شرفه صاحب الرسالة بذكره في الحديث

الباب الثاني

العلاقة السياسية

قد تكلمت في الباب السابق على ضوء الوثائق التاريخية عن اتصال العرب بالصين من عهد قديم إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان ظهوره قد قلب ورقا جديدا في تاريخ العالم فالتغيرات التي ظهرت على اثر مناداته بالنبوة في الشرق والغرب ، وخصوصا في محيط البحر الابيض ضامرة بالغة يدر بها كل صغير وكبير من جميع الاجناس والالوان . فهي غير محتاجة إلى شرح في هذا المقام . وأما الصين فلا شك في أنها كانت بعيدة عن محيط الوحي ومهد الاسلام ، غير أن بعدها لم ينز عما شئت فرفعت أيضا تحت تأثير هذا الانقلاب المدنى والدينى ، الذى ظهر أولا في جزيرة العرب في أوائل القرن السابع لليلاد ، ثم أخذ يفيض على البلاد المجاورة حتى عم أكثر ربيع العالم .

أن الاسلام لدى كلف الله محمدا (ص) نشره في الامة العربية أولا ثم في الامم الاخرى في أقطار العالم هداية ورحمة ، انتشر سريعا ، بعد استحكام نفوذه في الجزيرة ، إلى بلاد الشام ومصر والعراق والفرس . وكانت واقعة القادسية (٦٣٦م) تهدد حياة الامبراطورية الساسانية التي كانت في حالة الاحتضار ، وانتصار العرب في نهاوند (٦٤٢م) قوض دولة كسرى إلى الابد . ففر يزدجرد ، آخر الملوك من الساسانيين من أرض أجساده ، وكان فراره إلى الصين مذبرا للامبرطور (تايغ تاي جونغ) بتقديم القوة الجديدة النافذة من بلاد العرب نحو

الشرق الأقصى . ولا شك في أن (نافع ثاني جونغ) كان يعطف على آخر
الورثة لعرش الإكاسرة فوعده بأن يمدّه باعانات عسكرية ولوازم حربية من
ممتلكاته المجاورة لبلاد الفرس ، وكان هذا الوعد أثر بالغ في نفس يزدجرد حتى
جدد أمنيته وعادت الحرارة الجنوبية إلى عروقه . فرجع مع جماعة من عساكر
النار الذين كانوا يترقبون بساطة (نافع ثاني جونغ) عليهم آملا بذلك في استرداد
تركة أجداده إلى وادئهم الأصلي . غير أن نجوم العرب الذين سيطروا على
الامبراطورية الساسانية الآن . في مطلع الألفية . ورأوا هلاك يزدجرد وآخر
أيامه بدون اشتباك مع العساكر الذين جاؤا به ، بحكم امبراطور الصين . وكان ذلك
أن حفيد خسرو پرويز ، قد غاب عنه خادمه المرو فتعرد أهلها عليه واعتدوا عليه فقبضوه
إذا كان عاربا بهم . فوصل قارابحيته إلى شاطئ البحر حيث أراد العبور على عجل
فلم يجد الا مركبا ملطحن . وكان يزدجرد كما هو حال كل رجل في وقت المصائب
لم يجد في جيبه شيئا من النقود . فعرض على صاحب المركب عاتما وسوارا ليمر
عاجل . فأجاب ذلك القروي وكان جاهلا شخصية يزدجرد الخطر الذي كان فيه
أنه يحصل من ملطحن يوما على أربعة دراهم . وأنه لا يستطيع أن يعطي الماطحن
من العمل إلا إذا عرض عن خسارته . في هذه الساعة من التردد والتأجيل ،
وحصل المتعبدون فقبضوا عليه وانتزعوا روحه من جسده ، فانتهت حياة آخر ملوك
الساسانيين في السنة التاسعة من حكمه

وأما ابنه فيروز وكان تابعا لامبراطور الصين وخاضعا لحكمه فقد رضى
بمركزه في قصر (سيان) حيث كان رئيسا لفرقة حراسه . وكانت الديانة المجوسية
قد تسربت إلى بخارى مع جماعة من المنقبين ومنهم ابن فيروز الذي كان يحمل اسم
جده . فعاد إلى الصين بعد ثورة فاشلة فقتل نجيبة في قصر (سيان) بين
الحزن واليأس .

فابتدأت العلاقة السياسية مباشرة عند ما كان الامراء الساسانيون يلتجئون
إلى عاصمة الصين (١) .

(1) Huarts: Ancient Persian and Iranian Civilization P. ١37.

وأما الحلقة الثانية من العلاقة السياسية فهي زحف فتية بن مسلم الباهلي إلى آسيا الوسطى، كان فتية طبعاً لا وافر الحاج بن يوسف وإلى العراق. فقاد قوة جديدة من العرب إلى خراسان، ثم إلى ما وراء النهر ضد الأتراك الذين لم يخضعوا لحكم العرب حتى الآن، مع أنهم قد انهزموا مراراً أمام قواد العرب الآخرين من قبل. فأعد عسكرياً بالمرء، وشجعهم بالاناشيد العسكرية والخطب الحساسة فزحف بهم أولاً إلى بيكند (Beikend) وقد فتح في طريقه إلى كاشغر، أدنى مدن الصين. مدينة الصغد ورامتين وبخارى وواردن وكش وسمرقند لقد اشترك بقوة تركية تحت قيادة رئيس معروف باسم (غوزك). ويقول البلاذري أن فتية بعد الانتصار عليه، فرض عليه جزية سنوية مقدارها ٠٠٠ و ٢٠٠ و ٢٠٠ درهم. وكان أول عمله، بعد دخول سمرقند بعسكريه، أن حل ركنين شاكر القادر المطلق الذي قد أعزّه بفتح ميين على أعدائه المشركين ثم أصدر أمراً بإنشاء أول بيت في هذه المدينة الوثنية. فتقدم بغزواته إلى الشرق الأقصى، تاركاً وراءه في سمرقند جماعة من الموحدين لنشر رسالة محمد رسول الله (ص) وإعلاء كلمة الله بين أهلها.

ووجد في سمرقند عدداً كبيراً من المعابد الوثنية التي فيها أصنام وأوثان وكان الناس في تلك المدينة يعبدونها ويعظمونها. وكان طبعاً لا يسمح فتية بعبادة تلك الأصنام أو التقرب إليها، بعد أن فتح تلك المدينة وشيد جامعا فيها. لأنها آلهة لا تصر ولا تنفع، إذ أنها مصنوعة من صخور أو أحجار أو أخشاب أو أشجار. فمزم على تحطيم هذه الأصنام. فخرج الموحسون غضباً لأنهم كانوا يدينون بتقديس هذه الأصنام ويعجزونها. فأقبل كبارهم يذرون المخطمين قائلين كل من يرفع يده معاد باعذه التائب المقدسة، يهلك في وقته ولا مفر له من ذلك لكن فتية بن مسلم الذي كان قلبه بفيض بنور الإيمان، وكان جيته مثلاً من غر الغزو والانتصار، لم يتحش تهديدهم. فأزول الأصنام واحداً بعد الآخر، وألقاها في النار وكان الناس على ذلك شاهدين. فلم يروا إلا ليلياً في ليل، ثم رماداً بين رماد تزود الرياح. وأما المعجزة، وأما ملاك المخطم في وقته، وأما غير ذلك من

قداسة الأصنام وفعلوا في الأحياء فلم يظهر لها أثر أبداً . وأما الجامعين الذين قد عاشوا في الجهل فالتفتوا في الحال فقاموا واثروا على الرهبان وكذبوا أقوالهم ثم تولوا عن عبادة الأصنام ودخلوا في دين الإسلام .

سُرع فتية بن مسلم مدة من الزمن ومقداراً بالغاً من التفكير في إخضاع سكان بخارى الذين كانوا يخضعون لحكم العرب حيناً ويحردون عليهم حيناً آخر . وكانت الصعوبة ليست في فتح مدينة بخارى بالقوة العسكرية ، بل في فتح قلوب السكان التي قد تجمدت في الوثنية والإمام غير شاعرة بالهزات التي أحدثها الإسلام في المعتقدات الآن . نعم ، لهم قد سلموا أنفسهم إلى سلطة العرب مراراً ، غير أنهم هذا ما رأوا أن المعرفة الحقيقية من قوات العرب قد ارتحلت إلى جهة أخرى ، خرجوا من بيوتهم ، فأخذوا سجنهم للمرة الثانية ورفعوا لواء العصيان ضد حكام البلد ، وقد رفع مثل هذا ثلاث مرات . فكان السبب الأصلي لهذه الثورات يرجع إلى أن أكثر السكان قد ليسوا ثياب الإسلام في الظاهر ، لكنهم في الباطن قد بقوا في الوثنية كما كانوا في حالتهم الأولى . فلما فتح فتية بلاد بخارى للمرة الثالثة ، مكث يفسر في وسيلة يستعين بها على إسلام أهلها وتبديل معتقداتهم من أصلها . فأسس في مدينة بخارى سامعاً معروفاً باسم (جامع فتية) في سنة ٧١٤ م ، ولا يزال باقياً إلى يومنا هذا . وكان يفتح عطاء قدوة درهماً لكل مصل جديد في هذا الجامع يوم الجمعة . ود على هذا أنه قد يمكث المعدن ولو أعطين إلى أسر قد دخل أهلها في الإسلام حديثاً ليعلمهم الدين ، ويريلوا الشكوك من قلوبهم فبينوا لهم تلك الأحكام الضرورية التي يحتاجون إليها في إقامة الصلاة وشعائر الدين . ولرفع الصعوبة في فهم معاني القرآن بلغته لاصلية ، أجاز ترجمته إلى اللغة الفارسية ^(١) التي كانت وسيلة انتفاعهم في الآراء ، وآلة التبادل للأفكار في الأعراف الطورية الساسانية في ذلك الزمن . لجمالوا سكان بخارى يفهمون معاني القرآن باللغة المترجمة إليها فهما تاماً . ولقد أفادت هذه الطريقة التي تعتبر من أحدث

(1) Vambury: History of Bukhara, P. 30

أساليب التبليغ إذادة عظيمة في نشر الاسلام، وتقوية هذا الدين الخفيف في بلاد النار العليا التي انتشر منها في الايام اللاحقة إلى تركستان الصينية، ومن ثم دخل شمال الصين الغربي .

فلما فرغ قتيبة بن مسلم من تنظيم سمرقند وبخارى، واطمأن على النظام الذي وضعه لحل الامور وعقدتها في تلك الولايات الثانية عن مركز الخلافة، زحف بجيوشه نحو خوقند . ففتحها بلا مقاومة تذكر في سنة ٥٩٥ هـ . ثم توجه إلى شطر الشرق عن مضيق (تيرك) حتى دخل كاشغر فاتحاً في السنة نفسها . وكانت له محاربات خطيرة مع رؤساء الترك . ومن حسن حظه ، أن وجدهم مشغولين بالزراع الداخلي غير متفخين على أمر الدفاع العام المشترك . فأصبح اخضاعهم ، واحداً واحداً من السهولة يمكن على قتيبة وفي هذه الفترة كان بعض قواد التار قد استثمروا بأمراد القلموك بشمال تركستان الصينية ، لكن اغاثهم لم تفهم شيئاً ، لأن كاشغر وبارقند وختن - وكانت فيها حصونهم المنيعه - قد سقطت واحدة بعد أخرى في ايدى العرب فتقدموا حاملين لواء النصر حتى وصلوا إلى مدينة طرغان . كان من عادات العرب في الغزوات ، أن يعرضوا دين الاسلام ، أو الجزية ، حل أهل البلاد التي يفترونها ، ولقد فعل قتيبة بن مسلم ذلك مع امبراطور الصين أيضاً . فبعث وفداً مع رسالة منه ، إلى الامبراطور (يوانغ - يونغ - يونغ) (Yuanang Chung) (٧١٣ - ٧٥٥ م) ، يطلب منه الطاعة والجزية . ولابن الاثير في هذا الامر أقوال طريفة - طريفة جداً حتى لا نستطيع أن نبرز حقيقة الواقعة من زخرف البيان . وأياً ما كان فلا أريد أن أدخل هنا في نقد ابن الاثير ، لأن المتخصصين في التاريخ يعرفون كيف يقولون كلمتهم الفاصلة ، ويبدون آراءهم السديدة في النقط التاريخية الدقيقة . غير أنني أعتقد أن لأقواله قيمة عظيمة في تمثيل آراء المؤرخين العرب في هذا الواقع التاريخي . فلذا أدلى بحاجته إلى تلخيصها هنا .

قال ابن الاثير . . . في سنة ٥٩٦ (٧١٥ م) غزا قتيبة بن مسلم كاشغر وحل مع الناس عيالهم ليضعهم بسمرقند . فلما عبر النهر ، استعمل رجلاً على المعبر

ينتع من يرجع إلا بجواز منه. ومعنى إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام من يسمل الطريق إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين. وبعث جيشا تحت قائد كبير إلى كاشغر ونهت أعتاق أهلها وأوغل حتى بلغ قرب الصين فكُتب إليه ملك الصين. وبعث إلى رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم.

فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألن وبأس وعقل وحلاح. فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك من الحيول وكان منهم هيرة بن مشمرج السكلاي. فقال لهم: إذا دخلتم عليه فاعلموه أني قد حلفت لا أنصرف حتى أظا بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجي خراجهم. فساروا وعليهم هيرة بن مشمرج وحضروا عند امبراطور الصين ثلاث مرات وليسوا ملاين تختلف كل مرة عن الأخرى. فلقد لبسوا في المرة الأولى ثيابا بيضا تحتها الفلال وتطيّبوا ولبسوا التمسال والأردية، وفي المرة الثانية لبسوا الوشى والديائم الخز والمطارف، وفي المرة الثالثة شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا فتعجب امبراطور الصين من مظاهرهم وسأل هيرة عن حقيقة التنوع في الألباس، قال: - زيننا اليوم الأول لباسنا في أهلنا وفي اليوم الثاني لباسنا أمام أمرائنا، وفي اليوم الثالث زيننا أمام عدونا. قال ما أحسن ما دبرتم دهركم فقولوا لفنائكم، ينصرف. فإني قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعث إليكم من يهلككم. قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول قبيلة في بلادك وآخرها في منابت الزيتون. وأما تخويقك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالا، إذا حضرت فأكرمها بالقتل، ولنا نكرمه ولا نخافه، وقد حلف ألا ينصرف حتى يظا أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية.

قال الامبراطور فانا نخرجه من بينه ونبعث إليه تراب أرضنا فبطؤه وبعض أبنائنا فيختمهم وجزية يرعاها. فبعث إليه بهدية وأربعة ظلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن.

قد ذكر هذا الواقع سودة بن عبد الملك السلولي في ثلاثة أبيات وهي جزء من بيان ابن الأنبار عن علاقة العرب السياسية بالصين مباشرة. وما هي ذي:

لا عيب في الوفد الذين بعثهم الصين أن سلكوا طريق المخرج
كسروا الجفوز على القذى خوف الردى حاشى الكريم هيرة بن مشرج
أدى رسالتك التي استدعيت فأتاك من حنك الصين بمخرج
وأما فتية قرصى بما أهداه به أمير أطور الصين لأن الخبر قد وصل إليه في هذا
الوقت عن وفاة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق سليمان الذي نولى الخلافة
الأموية مدة وجيزة . وهو الذي أملاك كثيرا من أبطال الاسلام الذين كانوا أعمدة
القوة وأركان الدولة ، بسبب الحقد الشخصي السامى في ذاته نحو هؤلاء الأبطال
وكان فتية من الهالكين أيضا . والسبب في ذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك ،
قد استأجر الحجاج وفتية في عزل سليمان من ولاية العهد وجعل ابنه عبد العزيز
مكناه . فأجاباه في ذلك . فلما مات الوليد وتقلد سليمان مقاليد الخلافة ، عزله
عن الولاية في خراسان وولى وكيفا عليها بدلا من فتية . فأحدث قتالا هائلا بين
الباطنتين حتى جرح فتية في المعركة وقتل فيها . وقتل معه أحد عشر ذكرا من أهل
بينه .

وكان قتل فتية إيذانا باضماف الاسلام فيها ورام النهرو وإثارة الخلاف والشقاق
بين صفوف العرب والمسلمين ، وأما هيرة بن مشرج الذي كان يرأس الوفد العربي
الى أمير أطور الصين بعد عودته الى ما وراء النهر ، فأوفده فتية الى الوليد . لكنه
اتى حنك في طريقه الى دمشق ، في قرية بفارس . فرتاه سوادة هذه الآيات

فقد ذو هيرة بن مشرج	ماذا تضمن من ندى وجمال
وبدعة تزهى بها أنفوسها	عند احتفالها مشاهد الأقوال
فتى بقرية حيث أمسى بوم	غر يرجن بمسيل مطال
كان الربيع إذا السنون تابعت	والليث عند تكتمع الأبطال
بكت الجياد الصافات لفقد	وبكاه كل مثقف عدال
وبكته شعث لم يحدن مواسيا	في العام ذى السنوات والأعمال

وقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بسبب قتل فتية بن مسلم الباهلي ،
الذي قد شاركه في تناول كأس الموت . كثير من أبطال الاسلام . فتخلصت الصين

من حملة العرب عسكريا لكنهم لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامي الذي كان ينتشر بسرعة الى اواسط آسيا ، مع التقدم العسكري ، فدخل الصين بعد أيام قلائل ورسا في غربيها وشمالها .

لا شك أن الفتية من مسلم بدأ طولى في نشر الاسلام في آسيا الوسطى ، إذ كان واليا عليها . أما نصيبه في نشر الاسلام في ولايات الصين الفاحشية التي تقع بين سور الصين ، سقط العالم فذلك ما لم يرو لنا التاريخ عنه شيئا فلذا لا نستطيع أن نتكلم عنه ها . غير أننا نرجح أن بعض الناس من أهالي تركستان الصينية قد قبلوا الاسلام ديناً في زمنه ، وعرضوا بعد وفاته لفواد العرب الذين كانوا يطلبون المجد الشخصي لأنفسهم في ولايات بخارى وممرقند والمقصد . وكان من الذين أسلموا من أهالي آسيا الوسطى في أواخر القرن الأول الهجري ، في أغلب الظن ، قوم أو يوغري آباء المسلمين الصينيين الذين نشأت بينهم وبين الصين علاقة سياسية بعد توقف الفتح العربي في الشرق .

ويشهد تاريخ الصين بأن الاغرة شعب جديد تفرغ عن التناثر في أوائل القرن الثامن من الميلاد ، لآثنا لا نجد ذكرنا عنهم قبل هذا الزمن ، مع أن تاريخ الصين مليء بالحوادث التي وقعت على حدودها من غارات التناثر وهزائهم ، أو خضوع رؤساء الترك لسلطة امبراطور الصين وقرصمهم اليه بتقديم الهدايا أو الخراج من هذه الحوادث خروج سابلو خان على الامبراطور (صوي وين تي Sui Wenti) الذي كان يتربع على عرش الصين في سنة ٥٨٩ م إلى ٦٠٥ م ، إذ كان محمد رسول الله (ص) لم يكاف بأعلاء النبوة وتبعية الرسالة إلا بعد سنوات أخرى . وكان طبعاً أن انهزم سابلو خان أمام القوات الصينية فالتقى الصالح من الامبراطور (صوي وين تي) فقبل انتمائه فصالحه ثم تبعته عن هذا الصالح وابنة عاتلة بزواج أميرة من أسرة (صوي) بـ (حكيم خان) ، رئيس من رؤساء التناثر .

ولقد انقضت أسرة (صوي) في سنة ٦١٧ م ، أي بعد النبوة بست سنوات وانتقل حكم البلاد إلى أسرة (تاتس = Tang) ، وكان أول جاهل من هذه

الأسرة العظيمة هو (تافع كارجو Tang Kao-Tzu) وكان رجلاً عسكرياً شجاعاً في الحرب مدواً نظماً في تنظيم الجيش ، إدارة الأمور ، بحال العلوم والفنون يحترماً لرجال الأخلاق والعمل - فربما لهم .

كانت علاقته بقبائل التتار على أساس المودة والصداقة . فأنهم في سنة ارتقاءه العرش بلقبه أمير الوفاء ، على خسر وخاع ، ومـ و رئيس من رؤساء التتار الغربيين . فرفع خسروخان شكره الخالص إلى الأمير طاوور (تافع كارجو) على هذا الانعام المميز وقدم له هدايا نفيسة منها دابة باهجة .

واقف ذكر تاريخ الصين كثير من أمارات آسيا الوسطى . اللاتي كن خاضعات لحكم الصين في ذلك الوقت . منها إمارة (دوسين Wu Sen) وهي بلاد خولجة الحاضرة . قد أرسلت هذه الإمارة خراجها إلى أمير طاوور الصين سنة ٦١١ م تقريباً وقطوعاً . وكان سبب في ذلك أن خسروخان قد زار الصين في عهد (صوي) ثار الأمراء في عاصمته أنتم غيابه عنها وتصيروا معه ، لمسكا عليهم . فعاد خسروخان بنجوة من الجيوش السببية يذكر من القبض على ماضية الإمارة المرة الثانية . فاستقر فيها وقوى حتى استطاع في أيام متأخرة . إخضاع بعض الإمارات الصغيرة حكمه . وحصل جميع الضرائب . أرسل قسماً منها إلى الأمير طاوور (تافع كارجو) . شاكراته لإعانه له أيام الثورة الصاعدة (١) .

من رآي الأستاد تار كورت (Chavren) مؤلف . تاريخ تلك جـ مـ مـ وهو أحسن كتاب قرأته في هذا الموضوع لما كان الأردن وطبع في كاليف (الهند) أن تقود (تافع كارجو) من التاجية السببية ، قد أتبع إلى صرفة مد وبخاري وبلاد قفقاز . وكان يأخذ خراج من ملوكها لأنهم كلهم قد رضوا بحكمه وسيادته عليهم .

وظهرت أيام حياة هذا العادل العظيم ، حوادث خطيرة في بلاد العرب ، ذات أثر بعيد في سياسة العالم ومدنياتها ، كخلافة أبي بكر رضي الله عنه ، بعد وفاة رسول الله (ص) ، وفتوحات عمر رضي الله عنه ، وسقوط دولة كسرى وغيرها من الوقائع الشهيرة في تاريخ الاسلام والعالم .

فلما قطع الأجل حبل حياته في سنة ٦٢٦ م ، تولى ابنه (تانغ تاي جونج Tang Tai Tsung) زمام الحكم فتربع على عرش الصين آمرا تاميا . وكان من أولى العزم والحلم ، وكان شجاعا مثل أبيه وذا رأى شديد في الأمور السياسية وهمة عالية في إدارة البلاد . وقد احتفظ بركة أبيه من الممتلكات بآسيا الوسطى لا ، بل وسع سيادته إلى بلاد التبت وكشمير ونيبال . وهو الذي قد استغاث منه يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عند ما كان العرب يغزون بلاده فسقطت في أيديهم في سنة ٦٤٢ م ، سقوطا لا عودة لها إلى القوة من بعده أبدا . ولقد دوى مؤلف تاريخمالك جين ، أن ملك جيور من ملوك الهند قد بعث سفيرا إلى الإمبراطور (تانغ تاي جونج) في سنة ٦٤١ م لايجاد علاقة ودية بينهما . فأرسل وفدا من عنده إلى الهند رد الزيارة سفير ملك جيور له مع هدايا ثمينة إلى ملكها فاقبني بعد ذلك ، كثير من راجوات الهند أثر جيور بلقاء السفراء من إمارات كشمير وأوجين ونيبال إلى عاصمة الصين للأغراض ذاتها .

بعد وفاة تانغ تاي جونج ، تولى ابنه (تانغ كاوجونج Tang Kao Tsung) عرش الصين وهو الذي قد رجب بغيروزين يزدجرد واسكنه في عاصمته . وكان لغيروز ابن باسم جده أي يزدجرد . وكان في نية تانغ كاوجونج ، أن ينصبه ملكا على إيران بعد وفاة فيروز . لكنه فشل في محاولته . أولا لأن العرب قد تقدموا إلى آسيا الوسطى واستحكم حكمهم فيها ، وثانيا لأن المسافة بعيدة والمواصلات غير منتظمة كايبنني فاقنع بالانعام عليه بلقب ملك إيران عليه ، بدلا من

نصبه ملكا عليا . فولاه ولاية من ولايات تركستان وكانت جزءا من
ملكه جده .

ويظهر من تاريخ الصين أن العلاقة بين (تانغ كاو جونغ) ورؤساء التتار في
هذا الوقت قد تغيرت من الود إلى التفار ومن الصداقة إلى العدوان . حتى نرى
رئيسا من رؤسائهم ، مروفا باسم فطو قد حل على مدينة (Pin-Chow)
في سنة ٦٨٢ م فاهزم . فساود الكرة مرة أخرى بعد سنتين على مدينة
(-وشو Cu Show) ففتحها ثم توغل إلى داخل الصين على رأس
٢٠٠٠ مقاتل ^(١) ومرة ثالثة في سنة ٦٩٢ م على ليانج شو (Liang Chow)
بقانصو . لكن الصين لم تكن ضعيفة في قمع هذه الحملات وتفريقها . فدافعت
عن حدودها بتدابير وقوات معما . وطردت المفيرين إلى ما وراء الحدود
بالقوة العسكرية حتى خضعت لسيادتها ثمانى أمارات أخرى بتركستان ، في السنة
الثالثة من حكم الامبراطور (يوتج جونغ Yung-Tsung) وكان السبب في ذلك
أن صاحب طرفان قد زحف على إمارة أيل . ففر ملكها إلى آنسى (An-Si)
مستغنيا من حاكمها . فأمانه بمشرة آلاف جندي ، وزحف بهم إلى بلاد التتار وفتحوا
كثيرا من المدن في الامارات التي كانت قد خضعت لسيادة الصين ، إمارة (تانج)
ولعلها ناشتند الحاضرة .

ومن المعلوم أن العرب الذين فتحوا أواسط آسيا بقيادة فتيحة بن ، سلم البالي
لم يستطيعوا المحافظة على النظام فيها بعد أن قتل قائدهم ، بسبب الاختلاف الذي
ظهر بين رؤساء العرب . فاشتد هذا الاختلاف في آخر عهد بنى أمية . فالصينيون
وهم أقرب إلى ما وراء النهر من الناحية الجغرافية ، قد سعوا إلى ترقية سيادتهم في
بعض مدنها ، بالانتماء حالة الضعف في الاتراك والحلاف الداخلي بين قواد العرب
وقد قبل أن رؤساء الاتراك الذين خضعوا لقوة العرب في وقت قتيبة ، قد بعثوا

(1) Thong Chiang: Vol 53. P. 7.

رجالهم إلى الصين أنجاد الأمباطور بها في رد سلطتهم المفقودة اليهم راضين بحمايتهم عليهم . فالذين قد تمردوا مع أمباطور الصين في هذه المسألة السياسية ، تلقوا من قبله ، ألقاب الشرف . وكانوا يلاقون حتفهم منه في بعض الأحيان أن خرجوا أو هموا بالخروج عن طاعته . ولقد روى الأستاذ برتولد الرومى في كتابه « تركستان إلى غزو المغول » أن الصينيين قد سيطروا على مدينة سوياب وكان ذلك بسبب الاختلاف الداخلى بين العرب أنفسهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب عدم كفاية الأتراك في تكوين قوة جديدة بعد تنحوصهم إلى حكم العرب . فقتلوا حاكم شاش في سنة ٧٤٩ م . لأن لم يوف عهده بكونه نائبا للصين ونقل عن ابن الأثير قائلا : أن آل أختيديد بقرمانه استجدوا بالصينيين على حاكم شاش (١) ، عندما ظهر الخلاف بين المدينتين . وكان طمع الصينيين في وضع يدهم على شاش ، هو الذى دفعهم إلى الاصطدام مع قوات العرب فمادوا بخسارة فادحة وذلك لأن ابن حاكم شاش القليل التجأ إلى أخذ المساعدة من العرب بدلا من الخضوع لحكم الصين . فأجابه زياد بن صالح الذى بمنه أو مسلم الخراساني إلى ماوراء النهر لاطعام نار الثورة التى قد أوقدها شريك بن المهدي من أيام قرية لجاء بجيش جرار فاصطدم بقوات الصين بموضع (تلاس) فأذا كانت معركة فاصلة للعرب على الصينيين في سنة ٧٥١ م . وكان قائد القوات الصينية (كاوشيان كى Kao Shien Chi)

وبناء على رواية الأستاذ برتولد ، أن العرب قد قتلوا في هذه المعركة الفاصلة ، ٥٠٠٠ من جيش الصين ما عدا ما أسروه من عدد هائل ، وقد بلغ ٢٠٠٠٠ رجلا . أعتقد أن هذا البيان لا يخفى من المبالغ لأن القوات الصينية التى كانت تحت قيادة كاوشيان كى كما ورد في تاريخ الصين لم تتجاوز ٢٠٠٠ جندي . فليس من المعقول إذن أن يقع في أيدي العرب ٢٠٠٠٠ أسير بعد قتل ٥٠٠٠٠ منهم . وأما القدماء من مؤرخي العرب الذين اشتغلوا بتدوين الوقائع الشهيرة ،

فلم يذكروا هذه المعركة لكن على كل حال نجد إشارة إليها في لطائف المعارف العالي
ويظهر أنه أسند روايته إلى كتاب الممالك والممالك الجرجاني . ومن قول التتالي
أن الصينيين الذين وقعوا أسارى في أيدي العرب عدوا أهل سمرة وصناعة الورق
فانتشرت هذه الصناعة في البلاد الإسلامية الأخرى من بعد .^(١)

لاشك أن هذه الواقعة مهمة جدا بالنسبة إلى الأتراك في أواسط آسيا . لأنها
عملية حربية فاصلة في حل مسألة خطيرة وهي المدنية المستعملة في تركستان . كانت
هناك مدينتان تتنازعان السيطرة على آسيا الوسطى . مدينة سديبة ومدينة عربية .
وكان انتصار العرب على الصينيين في هذه المعركة التاريخية قد وضع حدا فاصلا
لهذه المسألة . فظلت المدنية العربية . سيطرة منذ ذلك اليوم على تلك البقاع من
أرض افق حتى الآن .

ويظهر من تاريخ الصين ، أن الصينيين قد أعدوا الأتراك الآخرين من الترك
في نزاعهم مع العرب . لكنهم امتنعوا عن إعلان الحرب ضد العرب مباشرة ،
بعد نجاحهم مع صالح بن زياد في واقعة (تالاس) . فلقد ذكر في بعض الكتب
الصينية ، أن قوات الصين ، قد كانت انتصرت هامة ، ببعض الجبهات المتنازعة بما
وراء النهر ، القريبة حدود الهند . لكن تاريخ العرب لم يصدق هذا القول فلا
نعرف إذن مبلغ صحته ، بل على العكس نجد دلالات على خلاف ذلك بأن أبا داود
الذي عينه أبو مسلم واليا على بلخ ، مال انتصارا ماعرا في حملته على خودال وكش
ففر حاكم خودال إلى الصين وقتل أمير كش في المعركة تاركا نخاه في الولاية^(٢)
ففي سنة ٧٥٢ م ، القس أمير (أوشر وسات) من حكومة الصين ، أن تساعد على
العرب . فأبى ، فإن لها تجارب مع قوات العرب من قبل فترى من الخير أن تمتنع
من إرسال المساعدة وعدم التدخل في هذا النزاع القائم بين العرب وأمير تركي .

(١) Turkistan Down to the Mongol Invasion : P. 196.

(٢) الطبري ج ٢ - ص ٧٩ - ٨٠

والحقيقة أن الصين في هذه الأيام ، كانت تواجه ثورة هائلة في داخل
الامبراطورية . ظهرت هذه الثورة في سنة ٧٥١ م وكادت تسقط دولة (تانغ)
من أساسها ، لولا مساعدة الاواعة والمسلمين لها . ولعل هذا هو السبب الاصلى
الذى كان يمنعها من التدخل في الأمور السياسية بآسيا الوسطى ، لا ، بل
اضطارها إلى الصلح مع العرب والترك الذين دخلوا في حظيرة الإسلام في آخر
عهد بنى أمية وكان من هؤلاء ، الاواعة .

أن الاواعة قوم جدد تفرعوا عن التار في أوائل القرن الثامن من الميلاد
كما أشرت إلى هذا من قبل وافد أسم رئيسهم بد قتيبة زمن قبل ولاسلامه قصة
عجيبة طويلة ذكرها آغا جان محمد خان في كتابه ، أو يتاق مغول ، باللغة الفارسية
ونقلها في كتابي ، الاسلام وتركستان الصبغة ، وخلاصة القصة ، أن أويغورين
فراخان ، قد أسلم سرا مع أمه ، فلما علم ذلك أبوه غضب عليه ، لحشد جيشا
عظيما لمقاتلته بعد القتل في المفارقات في رده إلى دين آياته الاولين فكان
لاويغور أنصار يدافعون عنه ويقتلون له ، فقارموا في أحيان وكان ملكا على
فراقم ، فهزموه وقتلوه فاخاره ملكا عليهم . فاشتهر أنصاره باسم الاويغورين
من بعد . ومعنى كلمة ، أويغور ، في اللغة التركية ، المعاهدة أو ، المرافقة ، ومن
هنا نعرف أصل الشعب الاويغوري الشهير ، تاريخ آسيا الوسطى . وكانت
لهم علاقة سياسية مع الصين بعد العرب الذين ذكرناهم آنفا . لأنهم قد كانوا
شعبا قويا ، عندما كثرت الدعاة لبني العباس فيما وراء البر واتسع اختلافهم مع
حملة بنى أمية في النصف الاول من القرن الثامن من الميلاد ، حتى اتجاأ أمراطور
الصين وهو سوجونغ (Su Tsung) إلى مساعدتهم في قمع ثورة آلنوشان
(An Lushan) الذي قد رفع لواء العصيان ضد الحكم القائم في سنة ٧٥٥ م .
كان هذا التار حاكما على مدينة صغيرة يقال لها (يور تشو Yun Chow)
ففرق إلى منصب المحافظ بولاية (هانتونغ Ho Tung) ، في السنة التي
انقضت فيها الدولة الاموية وأبدأ حكم العباسيين في الامبراطورية العربية
(٧٥٠ م) . كان يربي في هذه الأيام عدة ثمانية آلاف من التار مثل الجائتارين

عند السلاطين العشائريين . فتوجه وزير من الوزراء خيفة من نمرد آنلوشان
ونبه الامبراطور الى ذلك وكان من الغافلين .

ففي سنة ٧٥٤ م ، اتى آنلوشان من الامبراطور (يونغ جونغ) ترخيصا
بالحضور الى العاصمة وتقديم ثلاثة آلاف من الخيول اليه . فزاد طلبه هذا في
قلب الامبراطور خوفاً بالعالم يكن يعمده من قبل . لانه عرف من بعض العيون
أن آنلوشان لم يطلب الترخيص بالحضور الى العاصمة ، إلا لأجل القبض على أمرها
فدبر ورأى أن اظهار تقديم الخيول الى الامبراطور ، يكون أمن طريق
للقرب من صاحب العرش ، وأسهل وسيلة الى اغتياله . ربما كانت هذه الهدايا
إلا خيلا على كل جواد مقاتل وحوله الثمان وعشرون حارسا في الظاهر وما
هم في الواقع إلا قواد الجيوش . فلما عرف الامبراطور ما بطن في قلب آنلوشان
وحقيقة الاغراض التي أراد أن يرمى اليها هذه الهدايا ، أصدر أمرا في الحال
بمنعه من الحضور الى العاصمة ولكن كيف يمنع رجل قد عزم على الخروج
والهسيان . فأعلن عصيانه علانية في أواخر هذه السنة وعلى أثره هاجم العاصمة
الشرقية وهي (لويانغ Lo Yang) الآن في ولاية هنان (Honan) ثم
بعث نوجا من الجيوش لمهاجمة (تونغ جونغ Tung-Kung) نقطة عسكرية
ذات أهمية عظيمة في الطريق الى العاصمة الغربية وهي (شانغ Chang An)
في ولاية (شانسي) فتبعها ودخل شانغ - آن وقتل عشرات من أفراد الأسرة
المالكة . ثم نادى بنفسه امبراطورا على الصين . هذا ما يتعلق بآنلوشان الثائر .

وأما الامبراطور يونغ جونغ فقد فرحت ضنط الزوار الى (پوآن Pao-An)
بولاية سيجوان (Sze Chwan) . ولم يعرف الامراء والوزراء عنه شيئا ، وأما
ولي العهد فكان في مدينة بليان (Pin Liang) وقت الزورة . فطار اليه
الوزراء وتشاوروا فيما بينهم على ما يجب أن يعملوه . واتفقوا على نصب ولي
العهد امبراطورا عليهم تلقب بسوجونغ - (Su-Tsung) وكان ذلك من
وقائع سنة ٧٥٥ م .

كان أول عمل عمله، ويجب أن عمله، بعد المشاورة به أمباطور على الصين،
هو اتخاذ التدابير اللازمة لتجميع التوار ودم الأمن إلى البلاد. فلما رأى أن قواته
المسكرة لم تكن كافية لمقاومة كثائب التوار الهائلة قرر الاستعانة بالدول
الصدقية المجاورة حدود الصين فكتب (ييين) وزيراً من الوزراء، أن يسافر إلى
بلاد الأواغرة بمركنات، مستغنياً أمراتها على أن يكافئها مكاناً نظيماً في
نهاية الثورة. وظل (ييين) أن يزحفوا من طريق (سى - آن Si - An) في
أواخر سنة ٧٥٥ م. وصلت قوات الأواغرة وهم خمسة آلاف محارب تحت
إمرة القائد (شولوكي) و (واشين) كما ورد في تاريخ الصين العام (١).
فدارت الحروب سجلاً بين قوات الأواغرة وبين جيوش آنلوشان الأتراك
ولم تظهر النتيجة. فطالب قائد الأواغرة التعزيزات من أميرهم، فجاء في الدفعة
الثانية، أربعة آلاف فارس في سنة ٧٥٧ م. بقيادة ابن الأمير واسي (يغفور) إلى
مدينة (فونغ هيانغ Pong Hiang) حيث اجتمع مع حاكم (كوانغ ينج)
من حاميه الإمبراطور، فقبضوا على آنلوشان، زعيم الثورة وقتلوه. ثم زحفوا
بمجيوشهما إلى العاصمة الغربية وهي (شانغ آن) الآن وقد ساهم في الإسهال
الحربية قائد صيني كبير معروف باسم (كوتسز Ku Tze) ثم انتقوا إلى
الزحف إلى العاصمة الشرقية وهي لويانغ في ذلك الوقت فتشعروا، وجاء في تاريخ
الصين العام أن القائد (كوتسز) قد حارب التوار فقتل في كسر قواتهم حتى
قدم جيوش الأواغرة من خلفهم. وقبل أنهم عندما عدوا بقدم الأواغرة،
وقد ملئت قلوبهم منهم رعباً، صاحوا: يا ويلنا من الأواغرة! قولوا عندئذ
مدبرين. فدخل جيوش المساجين العاصمة الشرقية مع القائد الصيني، فاعتين منصرين
وبهذه الطريقة ردوا السلطة الحكم إلى الإمبراطور (سوجونغ) فانهت ثورة
آنلوشان، بعد استئصال أبنائه وتطهير البلاد منهم، فاستطاعت الصين أن تستع
بالأمن والنظام مرة أخرى، واستطاعت أسرة تانغ أن تستع في الحكم حتى منتصف
القرن العاشر من الميلاد.

(1) Thong Chiang: Vol. 55.

ودوى عن بعض المؤرخين ومنهم مومبودارى ، مؤلف كتاب . المحمدية في الصين ، أن أمراطور الصين قد طلب الاغاثة العسكرية من الخليفة أبى جعفر المنصور في قمع ثورة (آلو شان) . ولقد بحثت عن هذا الخبر في الكتب العربية القديمة من الطبى الى ابن خلدون فلم أجدها أية إشارة اليها وما ذكر في صفوة الاعتبار مستودع الاتصال . الشيخ يرم الولى المؤرخ سنة ١٨٨٩ م ، وهو أن أصل المسلمين في الصين وهم يائو . على الصين مليوناً من السكان ومن المأساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة الهامى أبى جعفر المنصور ، حيث نارت عليه رعائيه ، فاستجد بالخليفة دلى أن يؤدى معلوما اذا نجده فأرسل اليه أربعة آلاف من مستائيد المسلمين وقرهم وعياد . وجازاهم على ذلك بجواز الإقامة في ملكه الخ . من أقوال القرن التاسع من الميلاد . طيبى أنه قد أخذ هذا الكلام عن غيره . لكننا لم نذكر ماخذه مع أن كلامه في هذه المسألة التاريخية أوزن من كلام غيره إذ يحسم به النزاع وينتهى به البحث . فلا تحتاج الى السؤال عن الشهادات الأخرى . غير أن عدم ذكره للمأخذ يقينا في ملك لا يزيله عن قلوبنا إلا أوثق مصدر وأوضح دليل بما قال الشيخ يرم في كتابه . أما ما قال الاستاذ غسناف لبون في كتابه . حضارة العرب ، وهو منقول عن مومبودارى ، فلا يعتبره أصح من قول الشيخ يرم الولى ، إلا أن هناك بياناً آخر لمستشرق معروف باسم (ريتش ماندر Breitschneider) في كتابه (علم الصينيين القدماء عن العرب Ancient Chinese Knowledge on the Arabs) وهو يستند الى . تاغ تشو ، أو كتاب تاريخ تاغ (ص ١٥ من الباب العاشر) أن أمراطور الصين قد استرد عاصميه الشرقية والغربية (شانغ آن ولو يانغ) وقع ثورة آلو شان ، بمساعدة الجيوش التى بعثها الخليفة أبو جعفر المنصور في سنة ٧٧٧ م . فراجعت المصدر الاصل فوجدت أن اسم الخليفة لم يذكر ثم الجيوش

التي اشتركت في قمع الثورة ، كانت مكونة من الاوغرة والعرب والتتار وهم ٢٠ ألفاً^(١) .

لقد ثبت على الأقل من تاريخ الصين أن العرب قد ساعدوا امبراطور الصين في أيام هذه الثورة ، ولا ينبغي أن نقبل هذا القول على أنه القول الفصل ، إلا بعد التحقيق من جهة تاريخ العرب والنظر الى إمكان هذه المساعدة من قبل أبي جعفر المنصور .

ومن المعلوم أن أبا جعفر المنصور قد أخذ زمام الخلافة بعد أخيه السفاح في سنة ١٣٦ هـ ٧٥٤ م . وكان أول عهد خلافته مليئاً بالحوادث والاضطرابات مثل خروج عمه عبد الله بن علي في صفر ١٣٧ هـ أو في نوفمبر سنة ٧٥٤ م . فرأى أنه لا بد من طبع أن يكون جالساً على كرسي الخلافة ، ما دام أبو مسلم الخراساني واقفاً أمام طموحه . فاحتال عليه ودبجه في ٧٥٥ م . فأدى هذا القتل الى ثورة هائلة في خراسان استمرت ثلاث سنوات وانتهت في سنة ١٤١ هـ ٧٥٨ م بعد مكافأة جبارة من قبل أبي جعفر المنصور . ومن المعلوم أيضاً أن الثورة التي ظهرت في الصين كانت في السنة التي تولى فيها أبو جعفر الخلافة فاستمرت الى ثلاث سنوات أيضاً ولم تدمع إلا في سنة ٧٥٧ م . ومن المتيقن إذن أن البعثة العسكرية التي جاءت الى الصين في سنة ٧٥٥ م ، لم تكن من قبل أبي جعفر المنصور ، لأن الوقت لم يدمع لذلك . ثم أن الحوادث التي كانت تسود أرجاء الخلافة في أول عهده ، لا تسمح له أن يفرق قواته العسكرية الى وحدات متفرقة ، وحدة لتضيد أركان الخلافة ، وأخرى لمقاومة أتباع أبي مسلم الخراساني ، وثالثة لاحتواء امبراطور الصين . وأما التي جاءت في سنة ٧٥٧ م ، فن المحتمل أن يوجد فيها عدد كبير من العرب ، كما أشار الى ذلك ، (فانغ شو) القديم ، مؤكداً بمصدر آخر صيني^(٢) . وإن سكنت المصدر العربي في هذا الصدد سكوناً تاماً . بيد أننا نميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء

(١) The Old Tang Shu : Vol. 10. P. 15.

(٢) أنظر باب العلاقة الدبلوماسية

العرب لم يكونوا يجهلون من بغداد ، بل من أواسط آسيا . لأن قتيبة بن مسلم
والذين جاءوا بعده من أولى الأمر قد أمروا جيوشهم أن يحملوا عيالهم ليعصموها
في المدن التي استوطعوها . وبما لاشك فيه أن العرب جيوشا في هذه المدن ، فكان
سهلا على المنصور أن يأمر والي بخارى مثلا أو والي سمرقند ، أن يساعد امراطور
الصين بما تحت قيادته من الجيوش ، إن جاء يستدعده ، لأن ذلك أسرع طريق إلى
التجدة وأقرب مسافة إلى حدود الصين . وكان قائد هذه البعثة يعبور ، كما ذكرت
من قبل . وهو أو يغوري لا عربي . ومن المحتمل أيضا أن العرب الذين في البعثة
كانوا تحت إمرة هذا القائد . ويجب علينا أن نتمسك بهذا الرأي في هذه المسألة
التاريخية ، حتى يظهر لنا دليل جديد من المصادر التي لا نزال عنها غافلين .

فقد قلت أن ثورة آلتوشان قد قمت في سنة ٧٥٧ م نهائيا ، وكان ذلك بفضل
أولئك الاوغرة والعرب الذين جاءوا إلى مساعدة الامبراطور (سوجونغ) .
وبعد ذلك خيمهم بالعودة أو الإقامة . فقد عاد من عاد بعد مآلتي من الحفاوة
والاكرام من أمراء الصين الذين طعنوهم في تثبيت أركان الدولة ورد الحكم إلى
ذويه . وأقام من فضل الإقامة فيها . ويروي الشيخ بييم التونسي الذي قد تقدم
ذكره ، أنهم أقاموا على شروط وهي استغلالهم في إدارتهم الخيرية وعبادتهم
وتعائزهم فأجاز لهم مطالبهم . لكن فرغهم على المدن العظيمة في ملكته . وصار
في كل مدينة ، مدينة مستغلة بالسلمين على حسب كثرتهم وقلتهم مستغلين في
أحكامهم الخيرية من سكنة بالمدن ^(١) وأجاز لهم أيما التزوج بينات السكان
ومصاهرة الأعيان فكثروا في مدة وجيزة وانتشروا . ومن ذلك الحين ازداد
الود بين أسرة تانغ ورؤساء الاوغرة من جهة ، وكثرت السفارات بين الصين
والعرب من جهة أخرى . وستجد تفاصيل السفارات في باب مستقل .

وأما العلاقة الودية التي بين أسرة تانغ ورؤساء الاوغرة ، فقد ازدادت
توتها بطلاقة دموية ومصاهرة . ونعرف هذا من تاريخ الصين العام الذي ذكر فيه

أن ثلاثة من رؤساء الأواغرة قد تزوجوا في سنوات بين ٧٥ و ٧٨٥ م ، وأميرات
تائع . لأصايب سياسية . وكان أول من تزوج من رؤساء الأواغرة ، أمة يقال
لها (نينكو) ، هو باسل خان المعروف في تاريخ الصين باسم (يانغ) وكان
(وانيو) ، أمير (هانجون) مكافأ بمرافقة الأميرة إلى تركستان . وقد صاحبها
أميراطور الصين من عاصمته إلى مدينة (هانغ يانغ) ، حيث ودعها بدموع حارة
وأعين حزين^(١) (هذا من وقائع سنة ٧٥٨ م) .

وبعد أربع سنوات استجد أميراطور الصين مرة أخرى بالأواغرة على أحد
أنصار آتولوشان وقد خرج وهاجم العاصمة الشرقية وحديثة (هانغ يانغ) . فأتى
قطن خان استغاثة وجاء بجيوش فرد ما سقط في أيدي اللوار من المان إلى ملك
الأميراطور (داي جونج (Dai - Jung) ابن (سوجونغ) فالتزمت التي لها
قطن خان لهذه الخدمة الجليلة ، هي يد أميرة من سلب أمير (واي شين
(Wei - Chen - Wang) ، الذي قد استمال مرة بقوات المسلمين على إشغال
ثورة على الأميراطور . فقتل . وبعد وفاته أدخل ابنه في قصره ، قرباها إلى
الرشد . ثم زوجها بقطن خان^(٢) .

ألا أننا نرى واقعا محزنا قد وقع في هذه الأيام ، وهو قتل تسهانة أوبنوري
في مدينة (جينغ وو) في سنة ٧٨٠ م . وكان ذلك بسبب غضب حاكم المدينة
على رئيس قافلة الأواغرة ، وقد نشأ ذلك من سوء التفاهم . وكان الواقع . كما أخبرتنا
تاريخ الصين ، أن بعض العشائر من التتار كانوا يترددون على عاصمة الصين
للتجارة وكانوا يختلطون مع أهلها ويظهرون أنهم من الأواغرة . ثم أنهم لم ينصروا
في معاملاتهم مع السكان فلاهم أهل العاصمة وكان فيها بعض تجار الأواغرة
أيضا . غير أن السكان لم يستطيعوا التفريق بين هؤلاء وأولئك ، فأمر أميراطور
الصين رئيس الأواغرة وهو (جون تون) أن يمد مع أصحابه إلى

(1) Thong Chinag: Vol 56. P. 9.

(2) Thong Chinag: Vol. 57. P. 1.

تركستان ، فسافروا مطيعين أمر جلالة الامبراطور حتى وصلوا إلى مدينة (جنغ وو) ، حيث مكثوا بضعة شهور . وكان بها رئيس التجار التار الذين قد تقدم ذكرهم فوقت مشاجرات بين الفريقين لأجل الأمور التجارية . لحمل رئيس التار حاكم المدينة على قتل (جونزون) وجميع التجار الذين كانوا معه فهلك في هذا الحادث أكثر من تسعمائة أو يفوق .

وقد أسف الامبراطور أسفا شديدا على هذا الحادث ، فأخذ الخوف من حملة الاواغرة بسببه فاستشار الوزير (ليس) فيما يجب أن يفعل فقال : ليس من مصلحة الدولة أن تبقى منقطعة عن الاواغرة بعد استخدامها في دعم أركانها . فأن الصلح مع الاواغرة شيئا ، والاتصال ببلاد يوننان جنوبا ، وإيجاد الرابطة مع الهند والمرب غربا ، من الأمور التي يجب ألا تزل على أي حال من الأحوال . فقال الامبراطور لماذا قال : أن الصلح مع الاواغرة ، قوة تمنع هجوم التار على الحدود ، والاتصال ببلاد يوننان ، أول خطوة في ضمها إلى الامبراطورية ، وأما الرب فأكوى التعرب في هذه الأيام ، وأما الهند فقد أظهرت ودعا نحو الصين من قديم الزمان .

فاقتنع الامبراطور بما قال الوزير . فبعث رسولا إلى بلاد الاواغرة ليجدد علاقة الصداقة بين الطرفين . فمقد معاهدة الود معهم ، وقراها بتزيين أميرة (هانغ آن) من أميرات (نانغ) بقطلو خان رئيس الاواغرة (١) .

لقد صدقت الحوادث الاخيرة ، ما قال الوزير (ليس) ، لأن قبيلة من التار قد هاجمت حدود الشمال ، فأرسل رئيس الاواغرة قائدا من قواده إلى مساعدة الامبراطور . وطرده المغيرين إلى حيث أتوا .

والحقيقة أن الاواغرة المقيمين بتركستان كانوا أصدقاء للصين وأنصارها في مصائبها ومحنها فلذلك نرى في تاريخ الصين التنويه بخدماتهم في مواضع كثيرة وكانت علاقة المصاهرة بين رؤسائهم وأمرأه أسرة نانغ أكبر عون على تعزيز

علاقة حسن الجوار - حتى اعتمد كل طرف على الآخر ، في النجدة والمساعدة في أيام الحرب ، والتعاون والتعاقد في أيام السلم .

هذا وأما علاقة العرب بالصين من الناحية السياسية ، فلا نعرف عنها كثيرا بعد واقعة (تالاس) ، لأن تاريخ العرب وكذلك الصين صمت بعد ذلك اليوم المشهور . إلا أننا نجد في تاريخ عمالك جين . مؤلفه الأستاذ كاركورن ، ما يأتي : « مما هو جدير بالذكر في آخر عهد (سوجونغ) . الذي حكم الصين سبع سنوات (٧٥٦ - ٧٦٢ م) ، أن السفير قد ورد من خليفة بغداد ، يحمل انتحف والهدايا . فودعه بالمعظيم الوافر والاكرام العائقي » ثم تكلم عن علاقة أسرة سونغ (Sung) بخلفاء بغداد وقال : كان (جوكوانغ ابن) وزيرا لآخر عامل من أسرة نانغ . فلما رأى ضعفه في تنظيم أمور الدولة ، غصب منه زمام الحكم ، وأسس دولة لاسرته المعروفة في تاريخ الصين بأسرة سونغ . وكان شجاعا ، مدبرا كبيرا ، وسياسيا عظيما . نعم ، أنه لم يكن عالما أو فاضلا ، غير أنه يعرف الناس خيرم وشرم . وإنك لتعلم شخصيته وتقدر عظمته ، حين ترى العلماء يكون بكاء الأطفال إذ نرى اليهم فترامهم أسفين أشد الأسف على فراقه يمزى بعضهم ببعض أياما .

وكان ملك الحن وأمره تركستان أو فندراسفراهم اليه وقد بعث اليه هدية فضية مطيع الله أبو القاسم من خلفاء بغداد ، في سنة ٣٦٢ هـ ، مرفقة برسالة المودة والاخلاص » .

لكن كل هذا ليس من صميم العلاقة التي نحن بصدد ماها لأن العلاقة السياسية هي ما نرى فيها من حركات عسكرية ، ووقائع حربية ، ومظاهر الغزوات وآثار الخوف على الوجوه وعلامات الرجاء في الأخذ والرد . وأما حضور السفراء بالهدايا والرسالات الودية : فله باب مستقل تحت عنوان : العلاقة الدبلوماسية ، وسنستمر بك فيها بعد .

(١) كاركورن . ص ٧٥ .

(٢) أيضا : ص ١٨٣ .

الباب الثالث

في العلاقة العلمية

(١) الصين وكتابات الاسلام :

لقد عرفنا في الباب السابق العلاقة التي كانت بين الصين والعرب من الناحية السياسية والحد الذي وصلت اليه ، لكن ليس معنى هذا أننا نظن أن علاقة العرب بالصين كانت منحصرة في هذه الناحية الوحيدة ، غير متعددة الى النواحي الأخرى لأن العلاقة التجارية كانت أقوى وأطول مدة من العلاقة السياسية . وعندما أدلة كثيرة من المصادر العربية وغير العربية ، تنطق بوجود هذه العلاقة بين الصين والعرب وامتدادها مدة طويلة . لكن قبل أن نخوض في البحث عن العلاقة التجارية أرى من الضروري أن نحقق العلاقة العلمية بين هاتين الامتين . لأن بحثنا عن العلاقة التجارية يحتاج الى معرفة ما قال كتاب الاسلام عن الصين وأحوالها المختلفة ، كما يحتاج الى معرفة ما علمه الصينيون عن العرب وبلادهم . فلذا أقدم العلاقة العلمية على العلاقة التجارية .

وانتقد هنا قليلا أمام ما كتب كتاب الاسلام ، وأكثرهم العرب ومنهم الإيرانيون عن الصين وما يتعلق بها من الاحوال والامور التي لها صلة إما بالتجارة ، أو بالدين ، أو بالصناعة ، ونفحصها فصادقينا ، فقبل ما هو من المفقول ، ونرفض ما هو بعيد عن المفقول ، حتى نعلم من أقوال العرب أنفسهم ، كيف صوروا الصين في الأيام الغابرة ، وإلى أي حد قد أصابوا في تصويرهم لها ؟

وأما علم الصينيين عن العرب ، بلادهم ، فله كتاب خاص طبع منذ زمان ، باللغة الانكليزية وهو بقلم الاستاذ برفشتايدر (Breitschneider) سماه : علم

الصينيين القدماء عن العرب ، فنريد التوسع في هذا الموضوع ، نستطيع أن نراجع هذا الكتاب بدون أي تعب ولم أدخل في أبحاث فصلا خاصا عن علم الصينيين عن العرب ، لأنني أرى أن هذا الكتاب يغني عن هذا الفصل . غير أنني سأشير إليه بين حين وآخر ، عندما يدور المقام إلى ذلك في الصفحات الآتية .

وعا لا ريب فيه أن معرفة علم العرب عن الصين ، متوفرة على معرفة الكتاب الذين يوجد في مؤلفاتهم المنشورة ، ذكر الصين وأحوالها . فبقدر ما يجب علينا أن نستقضي مؤلف الكتاب أولا ، ثم نلقي نظرة فاحصة إلى خصوصيات بياناتهم عن الصين في زمنهم . ومن المعلوم أن كثيرا من كتاب العرب والإسلام قد نكحوا عن الصين . ومنهم من قد عاشوا في القرن التاسع من الميلاد ومنهم من عاش بعد ذلك ، حتى القرن الحاضر — القرن العشرين — وأيا ما كان فنسوزم أنفسنا في هذا الباب بالترتيب الزمني لما ذكره من مؤلف الكتاب .

وأولهم ابن خردادبه — هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خردادبه ، فارسي الأصل . وكان جده مزدكيا ثم أسلم ، وكان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة . ولقد سافر ابن خردادبه إلى بغداد واتصل بالسلطان المرواني فكتب بعراق العجم مدة بوصف أنه مدير عام لديوان البريد ، وله كتاب سماه الممالك والممالك كتبه في مدينة (سامرا) بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م . بين فيه محطات البريد وصفات الإيرادات لكل ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة العباسية (١) .

وقد طبع هذا الكتاب بمدينة ليدن (Leiden) في سنة ١٧٨٩ م . مع ترجمة فرنسية ، ذكر فيه طريق البر والبحر إلى الشرق ، والمراحل التي يسير كل مدينة وأخرى ، أو المسافة بين كل مرفأ وآخر . وذكر فيه ما يتعلق بالتجارة في مرافئ الصين وما إلى ذلك مما تجده في مكانه من هذا الكتاب .

ساجان التاجر السعدي ، يقول علماء العرب ومنهم غسان لبون ، أن أول من ترك لنا معلومات عامة محووظة في اللغة العربية عن بلاد الصين وتجارة العرب فيها ،

(1) Ferard: Relation des Voyages. P. 33.

هو سليمان الناجر السمرقاني الذي سافر إلى بلاد الصين بحراً ، أكثر من مرة ، عن طريق سواحل الهند وجاوة . ولست عارفاً ببلغ صحة هذا الرأي من جهة الحقيقة . لأن أجد أن ابن خرداذبه لم يكن متأثراً عن سليمان . بل أنه سبقه فعلاً من جهة تاريخ الكتابة . لأنه قد كتب كتابه في الممالك والممالك ، بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م . وأما كتابه سليمان المعروف الآن باسمه سلسلة التواريخ ، وأضاف إليه أبو زيد الجزء الثاني ، فتمت كتابته في سنة ٥٥٠ م ، أي بعد ثلاث سنوات بالنسبة إلى كتاب ابن خرداذبه . ومن الممكن أن معرفة سليمان عن بلاد الصين ، أسبق من معرفة ابن خرداذبه ، لكنه لم يسبقه في الكتابة عنها . وإنما نقول أن ما كتبه ابن خرداذبه عن الصين هو من مجرد علمه الذي حصله بسؤال الناس عنها وهو مقيم ببغداد . أو بوسيلة أخرى لا سبيل لنا إلى معرفة اليوم . إذا كان الأمر كذلك ، كما اعتدنا ، فعلمه عن الصين لم يكن مبنياً على التجارب والملاحظات ، بخلاف ما قاله سليمان السمرقاني ، لأنه قد سافر إليها مراراً فمأهلاً بها بعينه . فجاء في كتابه بما عرف لم يسبقه إليها أحد . وكانت أقواله تتفق مع الواقع والحقيقة في أغلب الأحوال . إلا ما ذكر عن غيره ولم يكن شاهده عياناً .

وإذا قابلاً ما قال سليمان عن الدين مع أقوال ابن خرداذبه في الممالك والممالك ، فأما بعد أنهما متفقان في أكثر الأشياء ، ومختلفان في بعض الأمور . فمما يتفقان فيه ، طريق البحر من البصرة إلى الصين ، ماراً بسواحل الهند . وسمرقند وجاوة إلى أول مرافئ الصين (خافو) ، وسلم النجارة التي كانت العرب تستورد منها إلى الصين . وما يخلو من فيه ، أن ابن خرداذبه ، لم يذكر المسلمين بالزيتون ، مع أنه ذكر وجودهم بسيل (كوريه) . ولعله أول من ذكر ولاية فاصو في أقصى الصين وجزيرة القوقاز (اليابان) شرقاً . ولم يكن سليمان عالماً بوجود المسلمين بسيل بسبب عدم ذهابه إلى هناك ، لأن مواضع ورودهم كانت منحصرة في مرافئ الصين الجنوبية فقط ، مثل الزيتون ، وخافو ، وخنسا ، وغيرها من المدن الساحلية لجمع في كتابه معلومات كثيرة عن الصين وإن كان رجلاً ناجحاً لا يعرف كيف يتعمق

في الملاحظات أو يملأ ما يراه من الغرائب. وأنه قد وازن أيضا بين بعض عادات الصين وعادات الهند. وعندنا أن هذين الكتائين قيمة علمية عظيمة تختلف من جهة واحدة. فقيمة كتاب المسالك والممالك، فيما يتعلق بالصين، في صواب النظرية العلمية التي لم يخالف الواقع، وقيمة كتاب سلسلة التواريخ، في صحة الملاحظات التي لا تخلف كثيرا عن آراء أهل الصين أنفسهم. فلذا أصبح هذان الكتابان مذهبين لمن جاء بعدهما من علماء الجغرافيا والتاريخ في تحقيقهم أحوال الصين وما يتعلق بها من العادات والأخلاق.

وأما كتاب سلسلة التواريخ، فكما نراه، في الجزء الأول بقلم ساجان الناجر السيراى وقد أنهى في سنة ١٨٥١م، واتفق على صحة هذا التاريخ جميع العلماء. والجزء الثاني لأبي زيد الحسن السيراى وهذه الرحلة هي أول كتاب عربي وقف منه علماء أوروبا على أحوال الصين وعلاقتها بالعرب من ناحية التجارة. ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية في سنة ١٧١٨م بقلم دياندو (Abbe Renandot) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب كما في رأى الكثير من علماء الغرب هو أقدم الكتب العربية في الرحلة والجغرافية، وقد بقي على الدهر ولم يتطرق إليه اليأس والانهاء كغيره من المصادر الأخرى. ويوجد في هذا الكتاب نور يهدي علماء أوروبا إلى معرفة أحوال البلاد الشرقية القاحية في القرنين الثاني والثالث من الهجرة أو الثامن والتاسع من الميلاد، فلذا أنكروا صحته وحملوا على المترجم ودموه بارتكاب جرم علمي وقالوا: «وان دياندو هو المخترع لهذه الأقوال عن علاقة العرب بالهند والصين»^(١)، أنه لم يذكر في نسخة الترجمة أو نسي أن يذكر في الترجمة، النسخة الأصلية التي نقل منها إلى اللغة الفرنسية، قال السير أيلبوت (Sir Elliot) ولكن الزمن منصف، ولا يظلم من صنع صفيحا للعلم. فكشف الناس بعد مئات من السنين، أن المترجم كان بريئا من تلك التهمة. فأن النسخة الأصلية التي نقل

(1) Sir Elliot: History of India. Vol 1, P. 3.

مهاوريناهم . كانت محفوظه في خزانه جوارب (Gelburt Library) فرقت بمجموعات هذه الخزانة بعد وفاة صاحبها في روكوت دي سائلاي (Comte de Seignley) ثم في ملكية دار الكتب الفرنسية الامانية . وبعد عشر على هذه النسخة القديمة عالم فرنسي ذو صيت امين ، معروف اسم دي جيليه فكتب عنها عدة مقالات في مجلة انجليزية لاسمها في الجزء الثالث والثلاثين .

اقدم ذكر سليمان بن اهل السير وانفذ اغترابي أن في الدنيا المعروفة في ذلك الوقت أربعة ملوك ، وحسبوا أن ، عالمهم هو ملك العرب أي خليفة بغداد . لاسم اغترابوا بالاربع ولا تردد أنه أكبر الملوك في العالم اثره الواسعة ، ولعظمة قصره الشامى . وانكره المسكرينه ، ولأنه رئيس للدين الخفيف السامى الذى ليس له نظير في الامم .

فوضعوا ملك الصين في الدرجة الثانية عظيمة وقوة . ثم ملك الي مان ثم ملك يابرا بالهند . وذكر سليمان أيضا حالة البحر ، التجارة واسماء البضائع ، الموانئ بخلج فارس وسواحل الهند وجنوبي الصين وانظام الحكم وعادات الصينيين وغيرها من الامور الاخرى التي سماها في كتابها .

أبو زيد الحسن السير في - في الجزء الثاني من ، سلسلة التواريخ ، وهو بقلم أبي زيد الحسن السيرافي ، بعد تدقيق صاحب سليمان عن الصين في الجزء الاول . غير أن ما ذكر فيه من التمام قد يقدمه أهل الصين إلى مؤلفهم ، وأنه إذا وضع بالليل عند المذبح ، أمسحوا ولم يوجد . قال أبو زيد : لا أصل لهذه الحكاية المنسوبة إلى الصينيين .

كان أبو زيد ، ولو أنهم يقدم إلى الصين وقد اعترف بذلك علانية في كتابه مواظبا على الاتساع في ذكر ما كتب سليمان عن الهند والصين . ولعله قد سأل كثيرا من الذين قد سافروا إلى تلك البلاد عن أحوال أهلها . فجاء به معلومات أفيد مما رواه سليمان من جهة تاريخ لاسلام في الصين . وهو أول من ذكر مهمة (٤)

وهبان بن الأسود إلى عاصمة الصين فقبل عنه الملك ودى في كتابه الشهير « صروج الذهب » و« مدن الجواهر » ، ولعل كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان ، لم يطلع على ماورد في كتاب أبي زيد الحسن تسببا في هذه النقطة ، فلذا ينسب أصل الرواية إلى المسعودي ، حينا أجرى قلعه لحيات في بين وصول الإسلام إلى الصين ، تليقا على كلمة (الصين) في « سافر العالم الإسلامي » ، لقد لاحظ أبو زيد تغير الأمور في الصين في سنة ٢٦٦ هـ وبين سيمه ، ويظن أن ما جاء في تاريخ الكامل لابن الأثير في الجزء السابع « مشغول عن أبي زيد ، فنقل عن ابن الأثير غيره من العلماء المتأخرين ، عاقلا عما ورد في الجزء الثاني من سلسلة التواريخ .

كان سليمان أجازا غائب ، لم يعرف كيف يكتب على أصول عالية ، فذكر في كتابه إلا مشاهدات ثقافية ومعلومات مجردة عن التعليلات العلمية والعروض المنطقية غير أن هذه المشاهدات أو المعلومات أهمية علمية كبيرة في نظر المحققين ، لأنها من الجوارب ، ومعبية على التحقيق لم تشوهم التعليلات المنطقية . وأما ما أضافه إليه أبو زيد من المعلومات فلم يكن أول أهمية من ناحية العلم والتاريخ ، ما كتب سليمان فإن بيانه عن مهمة وهبان بن الأسود ، يكشف لنا إلى حد كبير موقف أمراء طور الصين من الإسلام .

اتفق علماء الغرب على أن كتاب « سلسلة التواريخ » من الكتب العربية التي يجب على الباحث أن يستند إليه أو يراجعها ، إن أراد البحث عن علاقة العرب بالصين ، أو كتابة شيء عن هذه الناحية ، كما يجب عليه أن يراجع المسعودي والبيروني في البحث عن أحوال الممالك الشرقية الآسيوية في القرون الوسطى من الميلاد ويستعود إليه في الفصل الثاني .

اليقوبى — كان من معاصري أبي زيد الحسن السيرافى ، أحمد بن أبي يعقوب ابن جعفر بن وهب واديه ، المعروف باليقوبى وهو من بنى العباس ، وكان له اتصال بالامثلة الطامرية بخراسان وقد قام برحلات إلى الهند وإلى مصر ، وإلى المغرب فألف كتابا في تاريخ بنى العباس ورأى الأستاذ قران (Ferand) ،

أن هذا الكتاب في الحقيقة يعتبر خلاصة تاريخ العالم . وهو في جزئين وقد انتهى من وضعه في سنة ٨٧٢ م .

ولقد ذكر اليمقوي طريق البحر من السمرقند الى الصين . ويظهر من بيانه في هذه النقطة أنه يختلف مع ابن خرداذبه . فن أقوال اليمقوي أن الصين ببلاد واسعة ، إذا أراد أحد السفر الى الصين بحرا ، يجب عليه أن يجاوز سبعة أبحر ، يختلف كل واحد منها ، في اللون والريح والأمواج وغير ما من المخلوقات البحرية والأول من هذه البحار ، بحر فارس الذي يجر فيه تاجر من السمرقند وينتهي برأس الجحمة . ورأس الجحمة ضيق يصاد فيه التوت . والثاني البحر الذي يبتدىء برأس الجحمة ويقال له بحر (لادوى) . وهو بحر كبير فيه جزائر وقواق (١) وسكانها من جنس الريح . لهم ملوك وفي هذا البحر أسماك عظيمة ، وعجائب كثيرة ، وأشياء غير معروفة . والثالث هو بحر (المركة) ، حيث تجد جزائر مرتديب المشهورة ، بالأحجار الكريمة والأشياء الأخرى . وفيها يرجد الفصيص وكذلك الورد . والرابع يقال له بحر كلاء بار ، والماء فيه قليل والافاق فيه عظيمة ، توجد فيه أشجار الكافور بكثرة . والخامس بحر (سلاهط) ، بحر عظيم كثير العجائب وغير القرائب . والسادس بحر (كندرنج) والسابع بحر صغنى وهو بحر (تشان هاى) المعروف في جنرافيا الصين حيث يلتقى بحر آخر يقال له (كنجلى) وهذا بحر الصين يصعد منه الى كورنم عظيم . ومنه الى مدينة (خانفو) . وهذا انهر هو - د الرباط المسكرو والبلاد الممكونة للصين وأما (خانفو) فهي مدينة عظيمة من وفاق الصين يقصد اليها ملاحو المسلمين (٢) . وابن خرداذبه الذي كتب قبل اليمقوي بأربع وعشرين سنة ، لم يذكر هذه الأبحر السبعة . وما ذكر عن طريق البحر الى الصين ، إنما هو من البصرة الى

(١) من الظاهر أن (وقواق) هذا غير ما ذكر في ابن خرداذبه وذلك بشرق الصين .

مايط ، مارا بسواحل فارس ، ومن مايط نزلت اليشار الى جزيرة تيمومة ، وفيها
العود الهندى ، والكافور ، ومنها الى قرى مسيرة خمسة أيام . ومن قرى الى الصنف
(الصنخى فى اليمقوى) على الساحل مسيرة ثلاثة أيام . من الصنف الى لوقين
(تونكين Tonkin) الآن وهى أول مراقي الصين ، مائة فرسخ فى البحر . ومن
لوقين الى خانفو وهى المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام فى البحر ، وعشرين
يوما فى البر . ومن خانفو الى هانجو (Hangchow) مسيرة ثمانية أيام . وفيها
مثل ما فى خانفو . ولكل مرقأ من مراقي الصين بحر عظيم تدخله السفن ، ويكون
فيه المد والجزر .

وإذا وازا بين أقوال السكاكين ، نجد أن اليمقوى ذكر هذا الطريق من حيث
الابحر ، وأما ابن خرداذبه فقد قرر مسافات البحار بين المرقأ والآخرة . فلذلك
لا نرى فى اليمقوى أسماء المدن بسواحل الهند وجاوة ، كما لا نرى ذكر الابحر فى ابن
خرداذبه . إلا أننا نجد أنها متفقة أن على ذكر مدينة خانفو ، بأنها إحدى مراقي
الصين الكبرى ، التى اجتمع بها تجار العرب والفرس ورائوا فيها روافد مياه
بوجودهم ووجود ايضا لهم .

ابن الفقيه - أبو بكر بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الحمذى ، يمتحنى ذكرنا
هنا ، لأنه من علماء الاسلام الذين عاشوا فى أواخر القرن العاشر من الميلاذ .
وكتاب البلدان الذى ألفه ابن الفقيه فى سنة ٤٠٤ هـ ، يتلخس بمصر صونا ، ولو أنه
لم يأت بشئ جديد من المعلومات عن علاقة العرب والصين ، لكنها نجد فى كتابه
تأكيدا لما قال ابن خرداذبه وسليمان واليمقوى من الجزائر والمدن التى فى الطريق
البحرى إلى الصين ثم هناك فرق بين يانغ ويانغ السالفين . وهو أن ابن خرداذبه
لم يذكر إلا جزيرة واحدة باسم وقواق ركبت اليمقوى . والمراد بها فى اليمقوى
هو جزيرة بين رأس الهندية وهر كند . لكنها إذا نظرنا الى كتاب البلدان نجد أن
ابن الفقيه قد ذكر وقواقين ، وقواق بحاص الصين وهذا يوافق ما جاء فى ابن

خرداذبه ، ووقواق آخر سماه ابن الفقيه بوقواق المتوسط الذى يوجد فيه ذهب أدنى درجة مما يوجد بوقواق الصين . ويظهر من وصف ابن الفقيه لهذه الجزيرة ، أنه يريد بها جزيرة مدغا سكرة أو جزيرة في وسط بحر الهند بين خليج فارس ومومباد . فوسف بحر الهند أنه بحر عظيم متصل بالفلزم عن وادى القرى إلى البربرة وعمان ، يسير إلى ديزر وملاكا ، حتى يلقى إلى جبال الصين والصين .

وفق آخر . عند ابن الفقيه . وأنه إذا أراد أحد أن يسافر إلى الصين ، أو إلى عدن ، أو إلى سلاط ، يأخذ الطريق عن المغرب وبماة وعمان ، وإذا أراد السند فليأخذ الطريق عن خليج فارس والسيراف (١) .

وأما ما قاله ابن الفقيه عن أبواب الصين ، فهو منقول عن سليمان السيرافي . ثم أتى الاستاذ فراس في كتابه ، علاقات الأسفار ، بمقارنة بين عبارة ابن الفقيه وعبارة سليمان السيرافي . ولا يظهر فرق كبير بين العادتين (أنظر ابن الفقيه في كتاب علاقات الأسفار) . وما إلى هو من كلمات سليمان في كتابه ومأسلة التواريخ ، من صندرفولات إلى أبواب الصين وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة . وتقر فيها المراكب ، فإذا سمع من صندرفولات ، وحلت المراكب إلى الصين في شهر إلا أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، فإذا جازت السفينة ، والأبواب ودخلت الخور ، صارت إلى ماء عذب ، إلى الموضع الذي ترعى إليه من بلاد الصين وهو خافور (٢) .

وزاد ابن الفقيه بعض كلمات بعد خافور وهي : يكون فيه مدوجور في النهار والليل مرتين ويقولون أن البضائع الصينية ، أعلاها وأحسنها يستورد بها تجار العراق .

وما قال عن تباين العادات بين أهل الهند وأهل الصين ، منقول عن سليمان أيضا . لكن أقواله عن الفخار الصيني والمصاييح الصينية وأشياء أخرى من

(1) Ferand : Vol. 1. P. 56.

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٢١

الأواني الخزفية ، من معلوماته الخاصة عن صناعة الصينيين . ويظهر من كتب العرب ، أن ابن الفقيه ، هو أول من ذكر صناعة الصين البدوية من كتاب الاسلام .

ابن رسته - من معاصري ابن الفقيه ، واسمه أبو علي أحمد بن عمر ألف كتابا سماه الدلقه النفيسة في سنة ٩٠٣ م . فالقسم الجغرافي من هذا الكتاب ، كونه من الجزء السابع ، محفوظا في متحف لندن الآن ولقد نشر هذا الجزء بمشايه المشرق (دي جور De Goeje) في مدينة لندن سنة ١٨٩٢ م . ومن كلام ابن رسته ، أن من أراد الصين يقطع شرق بحر الهند^(١) . وأقواله عن بلاد سيل ، كانت منقولة من غير شك ، من ابن خردادبه .

المسعودي - يجب علينا ألا نترك المسعودي ، ونحن في سبيل ذكر كتاب (الاسلام الذين نرى بالنظر الى مؤلفاتهم في هذا الفصل . أن هذا العالم الجليل ، كما يعرف القراء ، قد ولد في آخر القرن التاسع من الميلاد ببغداد . وكان عالما كبيرا ، حيفا في العلم ، سياحا كثير السباحة ، وأنه قد صرف من عمره ٢٥ عاما في السباحة العملية والجولان في الممالك الاسلامية المجاورة لقاعدة الخلافة العباسية ، مثل ماوراء النهر والهند وله تحقيقات عديدة ومساهمات قيمة دونت في الكتب والاسفار وأشهرها مروج الذهب ومعدن الجواهر ، قد طبع عدة مرات في السنين المختلفة في عواصم الغرب والشرق ، في الهند ومصر ، وفي أوروبا ، وعلى هوامش تقع الطيب .

وأنه ذكر أشياء كثيرة عن الصين منها سفر وعيان بن الأسود الى بلاد الصين فنقل هذا الخبر عن أبي زيد الحسن السيرافي ، الذي اجتمع معه في البصرة في سنة ٥٣٠٣ - ٩١٩ م . ومنها رسالة ملك الصين الى أنشروان ورفد الصين الى الخليفة المهدي ، ومنها عادات الصينيين في العبادة ودياناتهم ، ومنها أخلاق ملوكهم ومراكب الصين الى عمان وسمرق ، ومنها أنهار الصين وظباء المسك . وكل

ما ورد في مروج الذهب ، له قيمة علمية ، سواء أكانت منقولة عن غيره ، أو من مشاهداته نفسه . ولقد اعترف جميع العلماء بهذه القيمة العلمية ، واتخذوها في أبحاثهم حجة على غيره ، عند ما يتكلمون عن الصين والامم الشرقية في الأيام الفائرة وسنعود اليه عند ما نبحث عن معلومات العرب عن الصين .

أبردلف الينجى - (١٠٤٠ م) . بعد المدمودى ، كتب أبردلف الينجى شيئا غير قليل عن الصين . وكان شاعرا معروفًا ، أبى دلف مصارع بن مهمل ، المولود ببغداد ، على ساحل البحر الاحمر . سافر الى خراسان واتصل بآل سامان في القرن العاشر من الميلاد . وله رحلات من خراسان الى الصين ، وقد دون مداماداته في كتاب سماه (عجائب البلاد) . وللاستاذ قرارى (في علاقات الاسفار) ، أن كتابه هذا ، قد نشر لأول مرة في ترجمة ألمانية ، ملحقا بمجانب المخطوطات القزوينى في سنة ١٨٤٥ م . فتمتد أن هناك نسخة مخطوطة ألمانية ، لا يتبع بها إلا العلماء المتخصصون . لكننا لسنا محرومين من معرفة ما ورد في هذا الكتاب ، لأننا على كل حال نجد طرقا منها في ياقوت ، والقزوينى . وابن السديم . قال السير ايلوت ، أن القزوينى يشير الى كثير من كتابه (عجائب المخلوقات) (١) . وأما ياقوت فيروى عنه بعض اشياء ، عد الزكلى عن الاحوال في تركستان ، وكان سفر أبى دلف الى الصين في حكم السلطان نصر بن أحمد المني في سنة ٩٤٣ هـ ، ليخطب ابنه ملك الصين لأحد أبنائه . وأما ماوردى ابن السديم ، فسفره في موضع آخر .

الادريسي — من الشخصيات البارزة في عالم العلم ، أبو عبد الله محمد بن الادريسي المولود ببغداد المراكش سنة ٩٤٣ هـ الموافق سنة ٥٦٠ م . قد جال هذا السياح الجغرافى بلاد العرب فرجع واستوطن بحيرة صقلية حيث كتب كتابه الشهير المعروف بـ نزعة المشتاق في اخراق الآفاق ، ولا يخفى على أحد من العلماء أن لهذا الكتاب قيمة علمية . خصوصا في جغرافيا الممالك الاسلامية والشرقية لكن المسلمين لم يعتبروا هذا الكتاب كما ينبغي ولم يخرجوه للباحثين بطبعة جديدة

أنيفة ، لمحة من الإغلاط ، مقرونه دلائل ملاحظات الحديثة في أسماء الجغرافيا ،
خلافا لعلماء أوروبا فهم قد نقلوا هذا الكتاب إلى لسانهم ، استعادة ، إضافة ، وأما
الترجمة الفرنسية فوضعها الأستاذ جانبري (Janbert) وطبعها في باريس
بين ١٨٠٦ و ١٨٠٠ م .

كان هذا المؤلف يتكلم في ذلك الزمان المديد عن مدن الصين وطرقها
والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، وأحوال أترك وتجارهم مع الصين ، وطريق رفع
الشكاري إلى ملك الصين ، واقعة كتب كل هذا وهو يقم بهقالة ولم يسافر إلى
بلاد الصين ، أو إلى البلاد المجاورة لها . أما من أين جاءته هذه المعارف وكيف
حصلها ؟ فذلك مالا سبيل إلى معرفته في الوقت الحاضر إلا أننا نقبس بمقياس
الظن . أنه اقتبس بعضها من الكتب الصينية لمؤلفين قديمين وبعضها الآخر كان
يسمعه من كل من ورد من بلاد الصين من التجار والرحالة ، كما قال أبو زيد الحسن
السيهقي من قبل . لأن هؤلاء المعارف بهذه الطريقة لم يكن مستحيلا ، إذ
كان أهل الأندلس والمغرب يعرفون شيئا كثيرا عن الصين في القرن الرابع
الهجري . ويظهر من ابن الأديم أن الأندلس كانت لها علاقة تجارية مع الصين
وقد تردد تجارها على الصين مع خواتم ، الأندلس من العرب أو الأيرانيين .
وأول من ذكر زهاب أهل الأندلس إلى الصين هو أبو دلف اليعقوبي الذي
ذكرته آنفا .

أفريقاطي - لا شك أن اسم الأفريقاطي يعود دائما على أئمة العلماء فيعبرونه
وكنا من أركان المعاصر التي أعجبها لهم العرب والأندلس فلا يذكرونه
إلا بالاحترام لمعارفته الواسعة ، ولا يتحدثون عنه إلا بالثناء والثناء والثناء
العظيم ، ولا يتكلمون عن منزلته العلمية إلا ويعتبرونه من طبقة البيروني
 وابن الأثير والمسدودي وابن بطوطه وابن خلدون . لكن قليلا من القراء
يعرفون شيئا عن شخصية محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع أفريقاطي

الاندلسي من ماضى لاديسى لاد هذا العالم الجليل ، مع تركته العلمية في اللغة العربية ، لا يزال مجهولا عند كثير من العلماء ، وكأنه ليس له وجود في العالم بالنسبة إلى الشهرة العالمية التي أحرزها لاديسى مع أنهما متعاصران وكانا في موضوع واحد .

وقد عثرت على هذا الكتاب لصاحبه الجليل من غير قصد ، إذ كنت أطالب كتابا يحمل عنوانه جغرافية المأمون ، وهو منسوب إلى عالم مجهول في فهرست الكتب الجغرافية بدار الكتب المعنوية ، تحت رقم ، ش من فهرست التواريخ المأخرية ، فإذا وجدت بخطوط بخط مغربي .

لقد اطالع قبل على هذا المخطوط عالم اسمه أحمد محمد الأندلسي فكتب على أول ورق الكتاب هذه الكلمات : « أن هذه المخطوطة لكتاب من أهل غرناطة في أوائل القرن السادس من الهجرة ، اسمه محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع الغرناطي الاندلسي المتوفي سنة ٥٥٦ هـ . واسم الكتاب الأصلي (تحفة الألباب ومنية الأرواب) » .

وقعت هذه المخطوطة في يدي في الجزء الأول ذكر في مواطن مختلفة أشياء كثيرة عن الصين وبعثاتها . ومن ملاحظتهم أن هناك في المغرب والاندلس علماء غير لاديسى ابن بطرطة ، كانوا يعرفون الصين ودولها وملوماتهم عنها إلى درجة الصحة والقبول . وما ذكره الغرناطي في كتابه ، من سعة أرض الصين وعدل ملكها وصناعة الصين كالنخار والدياج ، وعبادة الأصنام ، كما يفعل أهل الهند ، واختصاص الصين بالظروف والفرطيس ، والجزائر يبحر الهند والصين ، منها مسكونة ومنها غير مسكونة . سواء أكانت من المنقولات أو من المسموعات ، كلها مقبولة حتى عند العلماء في الوقت الحاضر . ويظهر من كلام هذا المؤلف ، أن مسموعاته أكثر من منقولاته لأنه يقول : « كنت بصر سنة ٥٩٢ هـ واجتمعت بها بالشيخ أبي العباس الحمازي وكان من أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة

سنة ٩١١. وكان الناس يحدثون عنها بالعجائب وقتئذ. يا أما العباس ،
أني سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب. والآن أريد أن أسمع منك
شيئا. ما من عجائب خلق الله. كان الشيخ الامام أبو بكر محمد بن الوليد
الفهرى حاضرا. فقال أبو العباس: رأيت أشياء كثيرة ولا يمكنني الاخبار بها ،
لأن أكثر الناس يحسبونها كذبا. وفي الشيخ الامام أبو بكر. ذلك يكون
من العوام الجاهل. أما العقلاء. وأهل العلم فاهم يعرفون الجائر من المستحيل.
فقص عليه ما رآه من الغرائب والعجائب ، منها طير الرخ وكبرارياشها ، وذكر
أن رجلا من التجار من سائر الى الصين وأقام بها مدة ، ووصل الى بلدة بالمغرب
بأهوال عظيمة وكان معه ريشة من جناح الرخ ، فتسرع القرية ماء وكان
الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف هذا الرجل بعبد الرحيم الصيني بسبب
سفره الى الصين وإقامته بها (٣٦).

ولأن طير الرخ من الطيور الخيالية التي ذكرت في ألف ليلة وليلة ، وفي
كتاب الحيوان ، لاحظوا. ولأن علماء العصر الحاضر يعترفون صراحة ، بعدم
علمهم عن هذا الطير العجيب. فلا يصح إطلاق القلم بصفة هذا القول. ، غير
أننا ، مع هذا ، نقول : إذا سئنا بكذب قوله عن الرخ ، فذلك لا يكون
دليلا قاطعا على عدم صحة الأقوال الأخرى. يجب أن الصين والهند التي قلنا
رأوها في بلاد المغرب والاندلس. ولا تعجب أيضا من رجل يلعب بالصيني ،
كما ورد في القرنطلي لأنها إذا نظرنا إلى معظم البلدان لياقوت ، فإننا نجد فيه كثيرا
من تجار الاندلس والمغرب يلعبون بالصيني السبب المذكور. وهذا دليل على
علاقة الاندلس والمغرب بالصين ، وسفر تجارهما اليها بين حين وآخر. ثم عادوا
بمعلومات جديدة عما مع ثروة طائلة قد اكتسبوها في الصين. فأخبروا علماءهم بها
فدروا ما سمعوا عنهم في الكتب. كذا فحصل صاحب تحفة الألباب ونجدة
الأرباب ، الذي توفي في سنة ٥١٥ هـ أي بعد وفاة الادريسي بخمس سنوات فقط

(١) القرنطلي ج ١ - ص ٣٦ (٢) القرنطلي ج ١ - ص ٢٧

ياقوت - من علماء الاسلام الياوزين في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد وهو ياقوت بن عبد الله الرومي الذي عاش بين ١١١٩ و ١٢٢٩ م وكان أول من سلك مسلكا جديدا في ترتيب كتابه (معجم البلدان) على الحروف الابجدية وبهذا الترتيب المبني على القاعدة العلمية الصحيحة سهل السيل الى أقصى حد لمن أراد أن يراجع كتابه ، والناس يرون أن طريقة ياقوت في معالجة معجمه الجغرافي ، الذي يتعلق بالعلم الاسلامي في ذلك الوقت طريقة نموذجية لمن يقصد معالجة أي علم من العلوم الاخرى لأن طريقته طريقة علمية مبنية على أصول علمية منظمة ، فيسهل لمن يريد الاستفادة منه ولا يحتاج الى تعبير مشقة في المراجعة ، خلافا لما قد ألفوا قبل ياقوت ، ولو أنهم قد جمعوا في مؤلفاتهم ما رافحة ومعلومات قيمة لا توجد في كتب أخرى ، فأنهم لم يضعوا نظاما علميا في ترتيب كتبهم ، فكثيرا ما تراهم يخلطون مباحثهم بعضها ببعض فليس من السهل أن تخرج ما تريد من النقط المخصوصة من كتبهم ، إلا بعد قراءة أكبر جزء مما هو في بعض الأحيان لا تجد ما تريد من الابحاث حتى تنتهي من مراجعة الكتاب من أوله الى آخره إنك تنفق ساعات طويلة في التفتيش واجبا أن تعثر على ما تريد ، وأخيرا لا تجد ما تريد ، لأنك قد دخلت في البحث ولا تعرف عن عنايته شيئا ، وكان هذا شأن المؤلفات قبل زمن ياقوت ، لكنك لا تحتاج الى هذا التعب في معجم البلدان لحسن ترتيبه الذي يمكنك من استخراج ما تريد منه في دقيقة واحدة ، مثلا ، إذا أراد أحد أن يعرف شيئا عن الصين في كتاب ياقوت ، فكل ما ينبغي أن يفعله في هذه الباحية هو إخراج كلمة (الصين) ثم ينظر ما كتب تحت هذه المادة ، فيعرف بذلك كل ما كتب عنها في لغة واحدة وهذا الترتيب الذي سلكه ياقوت هو الذي يسير عليه العلماء المحدثون الى يومنا هذا .

أما ياقوت فله علاقة بموضوعي لأن مادة الصين في كتابه تنفعني في أبحاثي والصين في رأيه ، وقع في الألفاظ الأولى طرفا من المقرب مائة وأربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، ويظهر مما كتب في هذه المادة ، أن معلوماته عن الصين كلها منقولة عن غيره ، لكنها جديدة لم ترد في الكتب الاخرى من قبل ، وكلامه

عن الذين يلقبون بألقاب (الصيني) واليهو من أهل الصين ، من المعلومات الجديدة التي لم تقف عليها حتى عصره . ثم حذبه عن مدن تركستان ومساكنها وحاصلاتها ومصارمة أبنة ملك الصين بأن السلطان بصريي أحمد ، استأذنا إلى أبي دلف الينمى الذى قد سبق الكلام عنه ، يكشف لنا أن التجارة بين الصين والممالك الإسلامية ، بطريق البحر كانت تجرى على قاعدة منتظمة ويؤكد هذا القول ما كتبه الإبرانيون في كتبهم عن هذا الزمن وسنعود إلى هذه النقطة عند ما نبحث طريق التجارة إلى الصين برا في الباب الخاص بالملافة التجارية .

ابن البطاطر وهذا عالم عربى ليس من علماء الجغرافيا ، ولا من علماء التاريخ لكنه على كل حال من العلماء الذين قد تكلموا عن الأشياء التي أصلها من الصين . تذكره هنا نشم إليه في المواضع التي تتطلب ذكره فيما بعد .

واسم الكامل ، عبد الله بن البطاطر المولود بمائة وستمائة و٩٠٠م على أغلب الظن وهو كما قلت ليس جغرافيا ولا مؤرخا . ولا لعمري أيضا ، بل هو عالم من علماء النبات قد سافر إلى مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، بصفة أنه عالم النباتات ، لحقق النباتات التي وجدها سيلاد التي سافر إليها .

يرى الأستاذ فران في كتابه ، علاقات الأسفار . أن ابن البطاطر ، قد دخل في خدمة الملك الكامل بدمشق كرئيس علماء النباتات بها . فلما مات الملك الكامل ، عاد إلى القاهرة لكنه ظل يختلف إلى دمشق ، إذ كان الملك الصالح دعاه إليها فذهب وأحرز ثقة الملك الجديد ، فصار مكرما ومزورا لديه ومات وعاصمة الشام سنة ١٢٤٨ م .

ولقد ترك هذا العالم النباتي ، كتابين باللغة العربية ، المعنى . وجامع المفردات ، ولكل واحد منهما ترجمة ألمانية بقلم الأستاذ فون زون ثايمر (Von Son Theimer) وترجمة فرنسية (٧٧ ص ٢١) بقلم الأستاذ (لى لكليرك L. Leclerc) وأنه ذكر في جامع المفردات أشياء كثيرة مبنية الأصل ، منها يش . وجزع .

وتوتيا، وداوند، والملك وكل هذه الاشياء، مقيدة في مداواة بعض الامراض
و- يشير اليها فيما بعد، عند ما نذكركم عن علم العرب في الصين.

القزويني - (١٤٠٥ - ١٤٠٨ م.) هو محمد بن زكريا، المولود في سنة ١٢٠٢ م.
بمدينة القزوين في آذربيجان، من آل أبي أسير، صاحب قدم الى دمشق سنة ١٢٢٢ م. وتعرف
بابن الاعراب ونوفى سنة ٢٨٠ م. وله كتابان - آثار البلاد وأخبار العباد،
و- عجائب الخلق، وخرائب الموحودات. وكان جغرافيا كبيرا، ذكر في
كتابه، الجزائر التي في بحر الصين، والهند، وجزيرة الزنج على حدود الصين،
فيها ملك يقال له (مهاراجا) ثم نقل عن زكريا الرازي وابن الفقيه وزكريا بن
يحيى بن حنبل، فيما قلوا عن هذه الجزيرة.

ثم ذكر جزيرة الزمان (سمطية) وعجائب الخلق فيها، مثل الفيل
والافاعى، وانشأ عن ابن امانه وزكريا الرازي فيما قالوا عن هذه الجزيرة
والحيوانات فيها، ومن العجيب انه ذكر جزيرة وقوق بقرب الجاوة مع أن سالفه
ذكروها بشرق الصين. وروى عن جزيرتين في بحر الصين، جزيرة البنان،
(هان ناي) وجزيرة طوران (نای وان) وما قاله عن جزيرة سيلاب، يقول
عن سالفه لك. زاد بعض الذين عايناه: من بين الاشياء الغريبة أن
ملوكها يتبادلون الهدايا مع ملوك الصين، ويلازم تشكوة الماء لأن المطر هناك
ليس بكثير، ثم ذهب إلى الكشف عن الخلق الغريبة التي توجد في بحر
الصين، وأما التفصيل فتجدها في كتابه وعجائب الخلق، وذكر الاستاذ
فران، بعضها في علاقات الاسفار.

ابن سعيد - هو أبو الحسن علي بن سعيد المولود سنة ١٢٠٨ م، على رواية
وفي سنة ١٠١٤ م، على رواية أخرى، بحرية بحسب بخرناطة. وقد تعلم

(١) (مهاراجا) لقب ملوك الهند القديمة والآنك، مستعملا عند أمراء
الهنداك حتى الآن. فكلمة (مهاراجا) مركبة من كلمتين: مها - وراجا، فعني
(مها) كبير، ومعنى (راجا) الملك.

بأشيلة وكان يرافق أباه في سنة ١٢٤٠م إلى مكة المكرمة . لكن أباه توفي في الطريق بأشيلة فاستمع عن الذهاب إلى مكة واستوطن القاهرة . ثم سافر إلى بغداد ومكث بها ١٢ عاما فماد عن طين دمشق وزار مكة عند عودته . وبعد وصوله إلى المغرب ، دخل في خدمة الأمير أبي عبد الله المستنصر بالله صاحب تونس (١٢٥٤ م) . ثم رحل إلى الشرق ينوي أن يتصل بهلاكير بغداد . لكنه بعد وصوله إلى أرمينيا ، علم بذييل أوبرما تم تركه ورجع إلى تونس ومات بها سنة ٢٨٦ م على رواية السيوطي والمقريزي ، وبدمشق سنة ١٢٧٤ م على رواية ابن تغريبردي .

وقد جمع عالم فرنسي معروف باسم (فولر Vollers) بعض أوراق شني لكتاب ابن سعيد المسمى (بالمغرب) ، ونشرها على نغمته الخاصة وله كتاب آخر في علم الجغرافيا ، سماه (بسط الأرض) ذكر فيه أشياء كثيرة عن بلاد الصين وهو مثل سالفه ، من علماء العرب والإسلام ، ذكر (حمدان) ، و (لوقين) و (خانفو) و (الزيتون) . لكن يبدى يختلف عن هذا البيان وكان سالفه ، مثل المسمودي والادريسي ، وابن الفقيه وغيرهم ، لم يذكروا هذه الأسماء مصحوة بذكر الأنهار . بخلاف ابن سعيد ، فإنه يقول : أن نهر حمدان ، أكبر أنهار الصين ، وفي غربه تقع مدينة حمدان ، أنهر مدن الصين . . . ومدينة الزيتون معروفة عند التجار المسادين الذين سافروا إلى الصين والمراكب التي جاءت من بحر الصين ، قد تنوغل ١٥ ميلا في نهر الزيتون . . . وعلى بحر لوقين وهو خامس أنهار الصين ، توجد مدينة لوقين ، مشهورة من بين موافى الصين وبشرق لوقين يوجد نهر حمدان ، وفوق هذا النهر مدينة خانفو ، التي تذكر كثيرا في الكتاب .

ويقول أيضا : والصينيون يسمون ، أهل الخطا وهؤلاء يستوطنون بين بلاد الأتراك والهنود ويقولون أن قفقور ، أي ملك الصين يسكن في مدينة (تاجه) (١) .

(١) ذكر الادريسي هذه المدينة باسم باجة بالاسماء . انظر الادريسي

وأما مدينة (الصين) ، فهي عاصمة قديمة يسكن فيها الملك قول (تاجه) ومدينة (منزي) هي عاصمة (صنفية الصين) .

رشيد الدين فضل الله الموفى سنة ١٢٣٠ م .

من الشخصيات التي لا نستطيع أن نغفلها ، عند ما نتكلم عن تاريخ الاسلام في الصين ، رشيد الدين فضل الله مؤلف (مجمع التواريخ) باللغة الفارسية ، وكانت تجتمع في شخص هذا العالم ، صفات كثيرة محمودة وكان مشهورا بالطلب ، وفعل الخيرات وبالعناية والتاريخ ولد بمدينة حمدان ببلاد الفرس في سنة ١٢٤٧ م ، وكان حده موفق الدولة على ما صرحه لا كبر عالم فلكي اسمه الاسلام وهو نصير الدين الطوسي ، الذي من مرصدا بحكم ملاكو ، عاصمة مراغة ، والذي ترك لنا زيجها ، قارب فيه بعض المدن الصينية ، مثل خانباليق ، ، بالجوء مع البلدان الاسلامية في درجات الطول والعرض ، كما انه كان مناصر السعد الدين صدر الدولة المغولية بالعراق . وكان ثلاثهم قد دخلوا في خدمة ملاكو بعد فتح المغول لبغداد .

كان رشيد الدين من حيث أنه طبيب النضر ، يتمتع بصيب عظيم من الامتيازات ونال جانباً عظيماً من التقدير والاعتراف أثناء عهد باقا ، خان أيسني فضاءه المتنوعة لم تشتهر إلا في عهد غازان خان الذي ارتقى العرش في سنة ١٢٩٥ م ، وبعد ثلاث سنوات من قتل صدر المجاهد ، صدر الزنجاني استوزره غازان خان مع إيتراك سعد الدين في أعمال الوزارة .

لقد رافق رشيد الدين غازان خان في غزواته الى الشام بصفة كاتب السجلات . وفي هذه الايام إذ كان المغول يتخذون مدينة (آنته) وهي على ضفة الفرات عاصمة لهم ، قدم رشيد الدين الى غازان خان عالماً كبيراً ، وهو مؤلف تاريخ الوصاف الشهير فعرفه به في ٣ مارس ١٢٣٠ م .

أثناء عهد أولجا توغان (خاندان) ، مازال رشيد الدين يتمتع بتلك الامتيازات التي كان يتمتع بها أيام أبيه . فأقره في مركزه الذي كان فيه . فصار على يد السلطان الجديد مكانة ممتازة لم ينلها أحد من وزرائه وذلك لمواهبه الفذة وصفاته الحميدة .

وفي أوائل سنة ١٣١٢ م ، سقط زميل رشيد الدين من السلطة الوزارية فسيّر إلى ثم الموت بسبب دسائس عن شاه الذي قد حصل من كره في الوزارة الآن ، وعنى أثر سقوط سعد الدين ، ووجهت إلى رشيد الدين ثم ، في خطيرة كادت تسقطه من الوزارة أيضا .

، ظهر نزاع شديد في سنة ١٣١٥ م ، بين رشيد الدين وعبدية على شاه ، اتهم الثاني كل فرقة لغائه . فأراد أن يوقعه في مشكلة ، عند انظار المسألة المالية التي تملأ من نزاعات الجيش . لكنه بحاجته المرة من الخطر المحدق به ، وبد مفاسدة مظالم شديدة

فلما ارتقى أبو سعيد العرش بعد وفاة خديزادة ، وجهه على شاه دسائسه القديمة إلى رشيد الدين لحرمه أولا من الوظيفة الرسمية في أكتوبر ١٣١٧ م ثم قتله بعد قتلته . ثم وكذاك ابنه الذي لم يتجاوز عمره سنة عشر عاما ، بتهمة أنه قتل السلطان الراحل ، واليه وقد صودرت ممتلكاته ، واضطهد أقاربه ، ووجهت أمواله وسرقت مؤسسه الخيرية من الأوقاف ثم هدمت و (ربيع الرشيدية) التي أنفق رشيد الدين في بنائها حين ألف ديوان تعرضت لساب والهب ، وهكذا مضى هذا العالم الكبير من الدنيا دون أن يرى له أحد .

وكان غازان خان كانه بتدوين تاريخ المغول ، ولو أنه كان مشغولا بأمر الدولة . لكنه جمع في تخصيص بعض الأوقات لهذه المهمة العلمية ، وقد روى عن دولة شاه أن رشيد الدين كتب كتابه الشهير المسمى بجامع التواريخ ، بين صلاة النهار وطلوع الشمس .

مات غازان خان قبل أن يتم رشيد الدين كتابه في تاريخ المغول . لكنه خليفة أولجائو خان أمره أن يكمله . ينسب كما كان في الأصل إلى غازان خان فلذا يسمى أول الجزيين من كتاب رشيد الدين تاريخ الغزايين

كان أولجائو أيضا من محبي العلم وأقاربه فكلف رشيد الدين أن يكتب جردا آخر عن بلاد الإسلام ، وجردا ثالثا عن الجغرافيا والكتابة أثر على الجزء

الثالث أما لأنه فقد أو لم يكتب . فلذلك وجدنا اليوم ، أن كتاب رشيد الدين ، كما هو المعروف عند العلماء ، يشمل جزئياً فقط . والجزء الأول في تاريخ المغول والثاني في التاريخ العام . ولقد فرغ منه ، كما حقق الأستاذ . برهان ، في سنة ١٣٩٠ ويظهر أنه كان يعرف كثيراً من اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والكشميرية وغيرها من الآلسن التي كانت تساعد على إتمام هذا الكتاب الجليل . فجاء بأجمع كتاب في التاريخ . فيعتبر العلماء ، ولا سيما المستشرقون أن كتابه هذا ، من أهم المصادر التي لا يستغنى عنها الباحثون في تاريخ آسيا ، ونفوذ الإسلام في الصين في عهد المغول .

وليس من الصعب أن نعلم على نسخة أو نسخ مخطوطة من هذا الكتاب ، لقد عرفنا أن في دار الكتب الاملية بباريس نسخة مخطوطة ، فيها عدة من الصور رسمها المؤلف نفسه . وقد طبع لأول مرة في مدينة لندن سنة ١٩١٥ م ، متنا وحاشية ، ووضع له الأستاذ بلوشه (Blochet) مقدمة مستقلة عن الكتاب الاصل باللغة الفرنسية فطبع في سلسلة المطبوعات التذكارية لجيب (Gibb) .

وأما محتويات الكتاب فكانا على سبيل الاجمال . الجزء الاول ، القسم الاول منه ، في بيان الفياثل التركية والمغولية ، والقسم الثاني في بيان نسب جمكيز خان وآبائه وأرلاده إلى غازان خان ، وفي أول الجزء الثاني ، مقدمة في بيان انتشار البشر على وجه الارض ، ثم أحوال الانبياء ، وقصصهم ، والقسم الاول من هذا الجزء ، في بيان ملوك الفرس قبل الاسلام ، وفي القسم الثاني ذكر صاحب الرسالة والحكام الراشدين ، ثم خلفاء بني أمية وبني العباس إلى سقوط بغداد في أيدي المغول ، ثم حكومات إسلامية في بلاد الفرس كالغزنويين والسلجوقيين وآل خوارزم شاه ، وآل بويه والصفدية وأتابك ، ثم الاسماعيليين في الشرق والغرب ثم أوهوز وأولاده ، ثم الاتراك الآخرين ، ثم الصينيين ، ثم اليهود ، ثم الافرنج وملوكهم وباباواتهم ، ثم الهنود والبوذا ومذهبه .

من هذا الأجل الوجيز ، تعرف أهمية هذا الكتاب في تاريخ الاسلام
خصوصا فيما يتعلق بالمغول في بلاد القرس والصين .
الدمشقي ، أبو الفداء ، ابن الوردي .

لقد عاش هؤلاء العلماء الثلاثة ، في زمان واحد على النفرين ، لأن شمس
الدين أبا عبد الله الصوفي المعروف بالدمشقي عاش إلى سنة ١٣٢٥ م . وأبا الفداء
إلى ١٣٣١ م ، وابن الوردي إلى ١٣٤٠ م ، وكان أبو الفداء أشهر الثلاثة وأصل
ابن الوردي أشهر من الدمشقي بدرجات في عالم العلم

أما الدمشقي فكان إماما بقرية ربوة ، بقرب دمشق ، كتب بها كتابا معروفا
باسم (نخبه الدرر في عجائب البر والبحر) ، وابن الوردي وهو زين الدين أبو حفص
عمر بن الوردي ، ولد بمصر المسمى في بلاد الشام ، تعلم الفقه بحمد ، فقال رتبة
الكتاب للقاضي ابن تقي بحلب ، وقد ترك لنا كتاب سماه (خريطة المجانب
وفريدة الغرائب) وكل واحد منهم ذكر في كتابه أشياء عن الصين ، لكن معلوماتهم
غير مبتكرة ، بل منقولة عن العلماء السالفين . فأخبار وقواق ، وقار وجزيرة
السيلازوخانغو ، رحدان ، ومدينة الصين ، وأرباب الصين ، والصين عيسى مديب
وصندر فولان وجاره وجين ما بين في كتاب الدمشقي . قد ذكرها ما لقوه
كلم ، نقلها كما وردت في كتبهم ، إلا أن جزيرة الداموت (اندمان) ومعمرة
اميان جديان في كتابه ، فإن الداميات جزيرة بحر برما (Burma) ومدراس
(Madras) الآن . وأما المعابر لحققها بأنها البقاع التي تمتد من مدراس إلى
جزيرة سيلان .

وما قاله أبو الفداء عن بحر الصين بأنه بحر وحدوده غير معروفة - يشتمل
على جزائر كثيرة ، حيث توجد من لا تعد ولا تحصى ، وفي مسيره إلى الغرب
بحر بحال الفامرون التي تقع بين الصين والهند ومن جزيرة سيلان ، بأنها واقعة
في آخر الصين ، وكل هذه الأخبار غير جديدة ، بل نقلها عن ابن الفقيه ، أو ابن
خرداذبه ، أو المسعودي وغيرهم من الكتاب السالفين ، نعم اعتقد أن ما روى كتابه

عن الجلي ، عن حزره (سريوذة) ، قول جديد لم يرد في كتب أخرى وقال إن هذه الجزيرة ، تلك تحت حكم الصين ^(١) وأضاف إلى ذلك أنها عامرة ذات رفاهية وأن السفن إذا كانت ذاهبة إلى الصين ، تمر في مائها ، وفي بمرها جبال ممتدة طولا ، يحتاج إلى عبورها في قاطعتها ، فإذا وصل المسافرين إلى هذه الجبال يحدون وسائط القوارب وتركوا ب مستعدة لحمل كل من يقصد أي بلد من بلدان الصين

ويقال إن الوردى عن بحر الصين يختلف عن بيان غيره وقد أطلق على بحر الصين أسماء ثلثي ، وفي رأيي أن بحر الصين وبحر الصين ، هذه الأسماء لبحر واحد والحقيقة أن البحر أيا كان لا يعرف له حد بينه من بحر آخر ، لكن الناس يسمونه باسم يصل إلى المكان الأقرب ، فهو يسمون ذلك بذلك الاسم ، إذ أن البحر أن كل من قبل أن الوردى كان يفرق بين بحر الصين وبحر الهند وبحر الصين اعتبارا بالمكان الذي يوصل بحره من البحر الواسع ، فيسمون جزء البحر الذي يتصل بالصين ، بحر الصين ، والذي يتصل بأرض الهند بحر الهند ، غير أن الوردى لا يعرف بحر هذا وذلك لأنه رأى مياحه أن ماء بحر الصين لا يفصل عن ماء بحر الصين ، ولما ماء بحر الصين عن ماء بحر الهند ،

وأما ما زاد على هذه الأقوال من البيان عن أحوال الصين ومدنها وجزائرها والمخوقات العجيبة لها ، فهو مقتول عن الجلي في وعر الجاحظ وعن ياقوت وعن ابن الفقيه وغيرهم ، فلا حاجة بنا إلى تكراره هنا ، غير أن ما ورد في تاريخه المعروف بتاريخ ابن الوردى عن دولة الصين يستحق الذكر ، وسنرجع إليه في موضع آخر ، إن بطوطة :

أنهم رحلوا في القرن الرابع عشر من الميلاد ، هو ابن بطوطة الذي قد بدأ رحلته العالمية ، في سنة ٧٢٥ هـ من مدينة طنجة بمراكش غرب بشمال أفريقيا ،

(١) Ferand : P. 404 .

(٢) هذا هو وصف لايوان الصين

مصر ، فلسطين ، شمال بلاد العرب إلى مكة . ثم سافر إلى استنبول ووصل إلى الهند عن طريق جنوبي روسيا وخراسان وبحارى ، قسطنطينية ، قارتل من دهل . عاصمة الهند إلى قاليقوط بنلابار ، وأبحر من ذلك الميناء سفيرا لفتح شاه ، صاحب دهل ، إلى الخان الأعظم بنغالي (الصين) ، فمر في طريقه إلى أول مرافق الصين بجزائر سيلان ، ومالديب ، وسماطية ، جاوة ، قزوين ، زبون أولاء ، ثم سار من مدينة إلى مدينة حتى وصل إلى غانز (مدينة بن) وهي تكين الآن . وله ملاحظات قيمة عن أحوال الصين وعادات أهلها تهدي بها إلى معرفة الصين أيام حكم المغول فيها .

واند صرف ابن بطوطه ٢٤ عاما في السياحة والجلولة في الممالك الاسلامية بالشرق الأدنى والشرق الأقصى . لكن هذا السفر الطويل لم يتبعه بعد رجوعه إلى وطنه الأصلي ولم يفتح نفسه الكبيرة التي تحب الاستطلاع والكشف بما شاهده في الشرق . حتى استأنف رحلته أخرى إلى بلاد الاندلس ، ثم إلى أواسط أفريقيا التي لم يحلم أحد من رحاله أوربا بالسفر إليها . ثم عاد إلى قاهر وتوفي بها سنة ١٣٧٧ م بعد مشاهدة ثلثي الربع المسكونة من كرة الارض .

أما رحلة ابن بطوطه وهي كتاب دون فيه مشاهداته الأهم ، وملاحظاته على البلاد التي مر بها ، في سياحة ، فهي وثيقة مصدر للكتاب والباحثين الذين يريدون أن يعرفوا شيئا عن أحوال العالم الاسلامي في القرن الرابع عشر للميلاد . وعلاوة على هذه القيمة العلمية ، فالجزء الرابع من طبعة أوربا من كتابه ملي بالمعلومات الوافية عن الصين وأحوال المسلمين فيها . ثم ما ذكره من مراكب الصين وأنواعها وصناعة الفخار ودرام الكاغذ في معاملة البيع والشراء والرقابة على الفنادق وحفظ الطرق ، من المشاهدات القيمة التي قلما يانمت إليها سياحو القرون الوسطى . فكتابه من هذه الناحية يعتبر من أهم المصادر التي سلتد إليها في أبحاثنا عن موضوعات شتى .

الاصطخري ، الباكوى ، الجلبى .

ومن علماء الاسلام الذين يوجد في مؤلفاتهم ذكر أحوال الصين .

الاصطخري من أمل أمطخر بلاد الفرس وهو صاحب إقليم الارض يتكلم فيه قليلا عن طريق البحر إلى الصين . لكنه أتى فيه ببعض معلومات هامة عن طريق البر إلى ما عن حالات الترك والتتار . وبين أن تلك الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك . والتثبت ولم يذكر هذا القول . أحد من قبل العلماء .

أما الباكوى فاسمه عبد الرشيد بن صلاح بن نوري المعروف باسم الباكوى المنسوب إلى باكوى مدينة على ساحل بحر الخزر ، عاش إلى ٨٠٦ هـ — ١١٠٤ م وذكر في كتابه : الخيصر الآثار وعجائب الممالك القهار ، جزيرة مجاهد وبحر الصين وبعض الأنواع من بضائع التجارة ، مثل الدود والكافور فيها ، وجزيرة الرامى ، وجزيرة الزنج وجزيرة الفص ، وجزيرة النساء ، وجزيرة وفواق وسيلال الواقعة في آخر الصين . ونادى على مجاهد في كتاب الباكوى . أن سيلال بلاد صينية جدا حتى لا يقع سكانها في المرض .

أما حياة الجلبى فقد يعرفها أحد من علماء الاسلام . إلا أن المستشرقين ، لم يفتلوا هذا الشخص فذكروه في كتبهم . ومن هؤلاء ، الأستاذ فران الذى ذكر في كتابه : علاقات الاسفار ، من حياة الجلبى ما يأتي :

قال رينان : أن المركب الذى بعثه السلطان سليمان العثمانى في سنة ١٥٥٢ م إلى برتغال بد طريقه . عاصف هائل ، حتى حوّل مسره إلى ساحل الهند وكان ربان السفينة هو سيدى على الجلبى . وكان قبل ذلك معروف بأنه شاعر وأديب . وقد قيل أنه زار جميع المدن الشهيرة في الشرق ، واجتمع برجال العلم والفن ، وقرأ الكتب العربية والفارسية والتركية التى تتعلق بفن الملاحة . لجال استنبول وشمال الهند ، وبدخشان ، وماوراء النهر ، وخرارزم وإيران . أنه كان كاتباً بليغاً باللغة التركية . ألف كتاباً يتعلق بمهمته وسماه : مرآة الممالك ، له ترجمة ألمانية وأخرى فرنسية . ولسيدى على الجلبى كتاب آخر ، وهو أكثر أهمية من الاول ، لأنه في موضوع الملاحة في الأبحر الشرقية . سمي : بالغيط . . لقد عثر على نسخة من هذا الكتاب في أحمد آباد بكجرات في سنة ١٩٦٢ — ١٥٥٤ م . وبالنظر إلى أهمية

ما جاء في هذا الكتاب ، كتب الأستاذ مهر (Hommer) عنه مقالات عديدة ونشرها في مجلة الجمعية الآسيوية ببنغال (Bengal) في الجزء الثالث (١٨٢٤ م) والجزء الخامس (١٨٢٦ م) ، الجزء السابع (١٨٢٧ م) والجزء الثامن (١٨٢٨ م) وبناء على ما ورد في علاقات الاسفار للأستاذ فرانس ، أن الجلبى قد بين الطريق من سنغافورة إلى الصين عما يلي — من سنغافورة إلى بناعة (Benbught) ومنها إلى صووا ، عند خليج كول ، ثم إلى شهر نو ، ثم إلى كادوسا ، ثم إلى شانا ، ثم إلى خليج كيوجو ، أي توكين . ويمكن الذهاب من شينا إلى آنام (Anam) ومن آنام إلى أبواب الصين ، ومنها إلى الجنوب الغربي ، حيث وجد هناك دار الصين وراوند ، وأحسن الاصناف من المخار يقال له ، يابه تحت جبر ، وهذا يوجد في شهر نو ، وفغفور ، وأهل الضائع يقال له ، يابه تحت فغفوري ،^(١)

الاصفهانى ، والهمداني :

من العلماء الايرانيين الذين عرضوا في مؤلفاتهم لذكر الصين ، الاصفهاني والهمداني ، وكان ميرزا صادق الاصفهاني المولود سنة ١٠٦٨ هـ ، مؤيد محمد صالح الزبيدي الآراذاني من أهل آراذان ، صاحب من صحاح اسماء بلاد وفد ذكر في كتابه ، بتحقيق الاعراب ، جزيرة راجين (رقال آيين يساوى ، يسمونه (ماجين) وهي جزيرة مرفوعة بالصين ، وتكلم عن الخطأ أيضا وقال : إن الخطأ يكتبها العرب بالطاء ، والارابيون بالثاء ، أي الخطأ وهو فاح واسعة بالشرق وعاصمتها خانباليق ، ثم قال : آخر البلدان بالخطأ ، سقاويل ، يا وراه النهر وذكر شهر نو كما جاء في كتاب الجلبى ، ثم تكلم عن ماجين وقال أنها بلاد ممتدة إلى حدود الصين ويسمونها ماجين ، على اسم ماجين بن ماث بن نوح (والله أعلم) وعاصمة الماجين يقال له ، تشكاش ، وروى عن جامع رشيدى أن اسم ماجين مقلوب من (ماجين) وفي اللغة السفسكرية (ميا) معناه كبير ، إذ نعتنى

(ماجين) الصين الكبرى ، وإن شقتم فقولوا : صينية الصين ، كما ورد في الإدريسي
وهي عين ، حين كلان ، في ابن بطوطة .

وأما الهمداني فهو أبو الخير مؤلف تاريخ المغول المعروف بتاريخ القازاني
باللغة العربية ولا أعرف . من طبع هذا الكتاب لأول مرة ، أولا ، لكن على
كل حال ، لم تقع عين على نسخة مطبوعة ، والنسخة التي رأيته في دار الكتب
المصرية ، هي نسخة فرنسية ، عن نسخة أصلية بالستانية ، ينقلها بياض في بعض
أوراقها ، وهي نسخة نافعة ، فلا نجد فيها أحوال غازان خان وعلاقته
بالخوانين بالصين .

ومن خصوصيات هذا الكتاب ، أنه يوجد فيه ذكر أسباب التنازع وأحوالهم
من قديم العهد إلى زمن غازان خان وأحوال أوبغور . أول من أسلم من أمراء
التنازع ، وأما المغول فلم إلا شعب من شعوب التنازع في نظر جميع المؤرخين ،
فلذلك نجد الحديث عن هؤلاء إجمالاً أو تفصيلاً في الكتب الفارسية ، مثلاً في
طبقات التاجري لعماد جراح ، وجامع النوارين لرشيد الدين فضل الله ، وتاريخ
الوصاف وأرياف منقول لأن جان محمد خان ، ويتكلم آخر الحديث كثيراً عن
التنازع والمغول في الصين وفي أواسط آسيا ، وقد راجعت ، حينما كتبت عن انتشار
الاسلام في تركستان الصينية في كتابي : الاسلام وتركستان الصينية .

الفقهندي . من علماء الاسلام البارزين الذين تكلموا عن الصين ، الفقهندي
وأن هذا العالم الجليل معروف في العالم الاسلامي ، وكتابه : صبح الاعشى ، كليل
ينقله إلى ما شاء الله . وأنه ذكر في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، شيئاً غير
قليل عن مملكة الصين وترتيبها في عهد المغول وحالة المسلمين فيها ، وعقائد جنكيز خان
وأتباعه وعاداتهم واحترامهم رجال الدين . وأما ما أخذ مع لوماته من العلماء
الذين سافروا إلى بلاد الصين ، مثل تاج الدين السمرقندي ، أو من المؤلفين الفارسيين
المعتبرين ، مثل علاء الدين بن عطاء الملك الجويني .

قال في ترتيب مملكة الصين وهو يروي عن الشريف تاج الدين السمرقندي
أن لهذا الفنان (الخافض الاعظم) أميرين كبيرين ، هما من الوزراء ، يسمى كل من

ويكن في هذه الرتبة جنكهان ^{جنكهان} ودونهما أميران آخران يسمى كل منهما بنجار ^{بنجار} ودونهما أميران آخران يسمى كل منهما يرجين ، ثم قال : وله كاتب هو رأس كتابه يسمى « ليجون » ^{ليجون} وهو بمنزلة كاتب السر في بلادنا . ثم ذكر عن الشريف أبي الحسن الكزلباشي ، وكان من اجتماع بالقان في بلاد الصين ، أن له أربعة وزراء ، يصدرون الأمر في ملكته كلها ولا يرجع القان إلا في القليل القادر . قال في مسالك الأبصار : ذكر لي الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطياري البوسيدي ، أنهم (المغول) على ما هم عليه من الجاهلية ، على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل ملكهم ومن يرد إليه ، ثم تسلم عن لسان الشريف تاج الدين السمرقندي ، ومن عجائب ما رأيت في ملكة هذا القان أنه مع كفره في رعاياه من المسلمين أم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون وممن قتل أحد من الكفار من القاتل الكافر هو وأهل بيته ونهبت أموالهم ، وإن قتل مسلم كافرا ، لا يقتل به ، بل يطالب دية . ودية الكافر عندهم ، حمار لا غير ^(١) .

الشيخ ، يرم التونسي :

لم أشر على كتاب العلماء الاسلام من أهل القرن الثامن عشر لليلاد . يوجد فيه شيء عن أحوال الصين أو أحوال الاسلام فيها ، ولعل السبب في ذلك أن العلماء في هذا القرن ، أقل امتيانا بشؤون المسلمين في البلاد القريبة والبعيدة بالنسبة إلى العلماء الذين في القرون السالفة . ثم أن القرن التاسع عشر ليخلو أيضا من العلماء الذين يهتمون بشؤون المسلمين في الصين ، وقد هدني دائرة المعارف للبستاني إلى معرفة كتاب الشيخ محمد بيرم التونسي المولود في سنة ١٨٤٠ م بمدينة تونس ، المتوفى بمدينة حلوان سنة ١٨٨٩ م . ولقد أثار البستاني في مادة الصين ، إلى كتاب « مستودع الأمصار » للشيخ المذكور قائلا — أن فيه مقالا مبسوطا — عن العرب والاسلام في الصين وأصل هذا الكتاب ليس ، مستودع الأمصار ،

كما هو المذكور في دائرة المعارف البستاني . بل ، صفوة الاعتبار ، مستودع الامصار والاقطار ، وقد طبع مرتين ، بالقاهرة ، في أربعة مجلدات كبيرة ، وفي الجزء الاول منها ، فصل تكلم فيه عن الاسلام في الصين .

وكلام الشيخ التونسي ، في هذا الموضوع ، ليس مثل ما قاله غيره من العلماء من قبل أنك لا تجد في كتابه حديثا عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، أو أحوال التجارة وأسماء البضائع التي كانت تصدر من الصين أو تستوردها من الخارج . وإنما تجد فيه نوتا آخر من البيان - عن دخول الاسلام في الصين ، ومذاهب المسلمين فيها . وهو أول عربي أتى في كتابه بأخبار عن ثورة بمقرب بك في تركستان الصينية ، وثورة محمد سليمان (نويين شوى 努爾丁) في يوتقان . وهو أيضا أول عالم إسلامي ، ذكر اسم (هوى هوى 霍爾和) أى المسلم باللغة الصينية (وخواي خواي تانغ 霍爾和) ، أى معبد المسلمين و (لاو جوفو محرقه عن (لاوشيفو 老尸夫) أى المعلم و (ايطاسوا) لم أستطع تمييز هذه الكلمة والرجوع بها إلى أصلها - و (لى باي مى 李保義) أى المسجد و (تسين جين جو) أى الدين الطاهر الخالص .

من هذه الكلمات نعرف أن قسيس بيرم التونسي علماء ادعوا بأحوال العالم الاسلامي في زمانه . ويظهر أنه قد نقل أشياء كثيرة عن مؤلفات الأوربيين فلذا بمده يتكلم عن (هوى هوى) و (خواي خواي تانغ) و (لاوشيفو) و (لى باي مى) . ولم يتكلم عنها إلا الأوربيون الارسلون الذين في الصين أو سافروا إلى الصين ، ومن هنا نعرف أيضا أن كاتب الشرق الامير شكيب أرسلان ليس أول من كتب من علماء العرب عن الاسلام في الصين ، كما ادعاه هو في عدد من أعداد جريدة (الفتح) الاسبوعية (القاهرة) لأن هذا الشيخ قد سبقه والتكلم عنه ، على الأقل بخمسة عشر عاما ، وأن كلامه في هذا الموضوع ، أوجز من كلام الامير الامير شكيب أرسلان :

لا ينبغي على القراء أن الامير المذكور ، من العلماء الاجلاء الذين أنجبهم القرن

الحاضر للعروبة والاسلام . فانه مؤرخ عظيم ، وأديب كبير ، وشاعر بليغ ، وفوق كل هذا عامل ليس للبلاد العرب فقط ، بل للعالم الاسلامي . وهو رجل صادق الايمان ، قوى العاطفة ، فمطعمه على البلاد التركية ، كقطعه على البلاد العربية . لكن ما يؤسف له ، أن هذا الخادم الاسلام ليس له حق الاقامة بوطه ، وهي بلاد الشام ، ولم يستطع الحصول على حق الاقامة في البلاد الاسلامية الاخرى . فاضطر الى اتخاذ عاصمة سويسرا مديناً ، حيث يعيش قريباً ويمتثل لأرقائه مع الغريباء .

ولهذا العالم الجليل تأليف كثيرة في موضوعات شتى . منها المؤلفات على حاضر العالم الاسلامي للاستاذ ليتوريوب سترومارد . وه على غير الصين يشتمل على معلومات هامة مذهبة لم يستطع غيره ان يكتب بآني بها . وقد نشر هذه التعليقات في صورة مقالات مستقلة في مجلة المقتطف ، قبل عشرات من السنين . ثم جمعها وزاد فيها معلومات جديدة مفيدة ، فأحرقها الكتاب . حاضر العالم الاسلامي ، عندما ظهرت ترجمته العربية . نعم أنه أخذ هذه المعلومات عن المصادر العربية ، لكنه لم ينقلها من حيث أنه نقل ، بل من حيث أنه علق ، ناقده ، وفيما كتبه عن الاسلام في الصين تمليقاً على حاضر العالم الاسلامي . غاية عما جاء في تقارير بعثة درلون ، (D'Allone) وفي المحمدية في الصين ، فيسواند أريد ترسان ، وفي مسلمو ويرتبان . لميسوكوردية ، من أخبار ، أقوال ، تعليقات على هذا الكتاب ، كلها من المعلومات الاسلامية المفيدة التي عمل عليها علماء الاسلام والباحثون . وجدا لو طالع كل مسلم هذه التعليقات واستفاد منها من جهة الحقائق والعلم .

ولقد طبع هذا الكتاب مرة ثانية في أربعة مجلدات في سنة ١٣٥٢ هـ - سنة ١٩٣٢ م ، بمطبعة عيسى الباني الخولي بالقاهرة وزاد لأمير في هذه الطبعة بعض المعلومات الجديدة التي لا وجود لها في الطبعة الأولى .

أترقي أبو العز ياشا :

آخر عالم من علماء الاسلام ، أريد أن أكتب كلمة عنه ، هو الاستاذ أترقي أبو العز ياشا ، ولد في أغسطس سنة ١٨٨١ م في بلدة ميت أبي غالب من مركز تربين

بمديرية الغربية (مصر) ، فعمل أولا في مدارس مصر القديمة ثم سافر الى فرنسا وتخرج في سنة ١٩٠٠ م من كلية موسيائية في الحفوف ، وهو الآن يشغل منصب رئيس محكمة الاستئناف بمصر .

كتب رسالة صغيرة عن الصين ، سماها في " تاريخ الاستكشافات العربية " ، سماها (نبذة عن الصين) وقد طبعت للمرة الاولى في سنة ١٩٠٠ م سنة ١٩٠٠ م بطبعة ثلثه ، اما هذه الرسالة الصغيرة ، فانها جزء من مجموعة من القطع الصغيرة من أفيد الرسائل التي كتبت عن الصين باللغة الصينية ، والذي يد أن يعرف شيئا صحيحا عن الصين يجد في هذه الرسالة الصغيرة ، فخرافات الصين العارية . وقد وقعت في ثمانية فصول :

- | | | |
|----------------------|----------------------|-------------------|
| (١) المقدمة | (٢) جغرافية الصين | (٣) تاريخ الصين |
| (٤) الاسلام في الصين | (٥) نظام الحكومة | (٦) المذهب الصيني |
| (٧) الديانة والطقوس | (٨) الاحزاب والمذاهب | |

ويظهر أن المؤلفين مطالعة واسعة عن أحوال الصين القديمة وبدا بارعة في تركيز مواد التاريخ والتجسس ، فألحظ الكتاب ، بلغ ، إلى القوم ، وعراغل كتاب مصغر عن الصين من جميع أوجه ، كما رأيت ذلك من مؤلفين الفصول الجوهرية لهما ظاهر لامع في ترتيب الفصول واختيار المؤلفين ، وجمع خبر ومعلومات الباحث في هذه الرسالة . انهما لم يترك شيئا [لا تكلمنا عنه كلمة أو كلمتين] مع الاطاعة التامة والفصل الذي يسمي هو فضل الاسلام في الصين ، ومن كلامه عن ابتداء دخول الاسلام في الدين ، أن رجلا من الصحابة ، يدعى (عبد بن ربيعة) ، سافر الى بلاد الصين ، بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة ، فوجد لها بعد جهن جهن جيد وتعلم لغة الصينيين ، ودرس عاداتهم وأخلاقهم ، ثم أخذ يشرح دينه الخفيف ، فعوى شأنه وانتف حول له خلق كثير ، وقد قاتل الامبراطور (تانغ الثاني جونغ) عام ٦٢٨ م ، فلقى منه مريرة الرعاية ، ثم مات بعد أن عاش طويلا مبعثلا محترما ، فأقام له الصينيون تذكارا تخليدا لذكوره . الخ

ولقد نقل الاستاذ فريد وجدي صاحب دائرة المعارف العربية هذه الأقوال عن الاستاذ أتروى أبى المر الى دائرة المعارف - دائرة العشرين مسدرون أى نقد ولا أى تعليق . فجاء عالم كبير من الصين الى القاهرة سنة ١٩٢٣ م^(١) ، وأطلع على ما نقل الاستاذ فريد وجدي فى كتابه ، فاعتقد صحته فنشأ بعض النزاع حول موضوع دخول الاسلام فى الصين بين الكتاب الصينيين المسلمين وغير المسلمين . فقام من يقول أن الاسلام قد وصل الى الصين فى زمن رسول الله (ص) واستند فى قوله الى دائرة المعارف لفريد وجدي . ومنهم من يشكر ذلك بحجة أن الكتب العربية القديمة لم تذكر ذهاب رجل من الصحابة أيام النبى (ص) الى الصين وإلا لنسج حوله أفاصيص كثيرة ، مثل ما نسج حول الذين قد ذهبوا الى بلاد الحبشة والفرس .

فلما صممت بالبحث فى هذه النقطة الدقيقة وتحقيق صدقها أو كذبها ، لم أجد وهيب بن رعدة بين الصحابة ، ولم أعث حتى الآن على أية إشارة من المصادر الأخرى الى ذهاب هذا الرجل الى الصين أيام صاحب الرسالة (ص) فعميت على مراجعة الاستاذ أتروى أبى المر باشا وهو مصدر القول . فقابلته بمنزله بالمعادي بضواحي القاهرة ، الساعة الرابعة بعد الظهر ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م وسأله عن المأخذ لهذه النقطة التاريخية التى يدور حولها النزاع ولا نجد لها حلا معقولا حتى الآن . فأجاب بنسيان المأخذ غير أنه وعدنى بالبحث عنه فى أوقات الفراغ .

واقعد طال الامد على هذا الوعد فكتبت اليه مرة ثانية فى ١٩ / ٢ / ١٩٣٧ م راجيا أن يقيدى بالمطلوب . فجاء الجواب بعد بضعة أيام قائلا أنه كتب هذه الرسالة بمناسبة ثورة بوكسر (Boxers Rising) أى من نحو ٣٧ عاما أو يزيد ولقد اطلع على كتب كثيرة من مؤلفات العرب والأفريق . عند ترتيبها ولبرور

(١) هو الاستاذ الياس وانجن تساي ، مترجم القاموس المصرى - العربى الانكليزى - الى اللغة الصينية .

هذا الزمان الطويل على تأليفه ، لا يستطيع الآن ، أن يذكر بالضبط في أي كتاب
هثر على هذا النبا العظيم ، أي نبأ ذهاب وهب بن رعدة إلى الصين لكنه يتمسك
بصحة ما نقله في هذا العدد .

وليس من المعقول ، أن تؤمن بقول كاتب لا يزال حيا (أطال الله حياته)
ولا يقدر على رواية ما عساه ، كما لا تؤمن بما يخالف القول من أقوال العلماء
القائرين ، ولو وجدنا هذا القول في كتب القرون الأولى للهجرة لفصل في النزاع
وحسم الخلاف بين هذه الآراء المتناقضة ، ياليت الأستاذ المذكور أشار إلى
المأخذ الأصلي ، فيستطيع الباحث أن يصل إلى القائل الأول بهذا القول ويعرف
حقيقته غير أن نسيان الأستاذ الفاضل اضطرني إلى الوقوع في الشكوك والنزود
في قبول قوله كقول فاضل في هذه المسألة التاريخية . فلا أرا أن أعامل من وهب
بن رعدة ، ومن ذكره قبل الأستاذ الفاضل . هل من يجب ؟

معلومات العرب عن الصين

سارنا فيما سبق الوقوف على سلامة الأخبار عند كتاب الإسلام عن الصين
لجنا ما ذكرناه من عدم الاعتماد على الكتاب الاجلاء والعلماء المشهورين ، من أهل
القرن الثامن للميلاد الى الوقت الحاضر . في هؤلاء من جاء بأخبار أصلية نلتقي
على الجوارب والمذاهب . مثل : ليان الكوجي الصيني وأبو دلف البغوي وورشيد
الدين فضل الله بن طوطاي وسيد الخاني ، ومنهم من جاء بأخبار مبنية على
مشاهدات من ناحية ، وعلى روايات من ناحية أخرى ، كآبي زيد الحسن السمرقاني
والصوفي ، وابن خلدون ، ومنهم من جاء بأخبار مبنية على تخفقات صحيحة
مثل ابن الفقيه والدريسي والعمري ، وقوت رلامه شمس أرسلان وتقي
آبي العز الشافعي ، من نفس الأخبار عن الصين ، فعلا بعضا وهذه الجماعة الأخيرة
ليست مهمة لمراسمهم إلا في موضع ندره .

وأما الجماعة الأولى والثانية فكثير من أهم المصادر التي نستند اليها في هذا
المصالح والذي يل من التناقضات ، وأما الجماعة الثالثة فمؤلفاتهم من المصادر الضرورية
التي مرجع إليها في النقاط الخاصة التي لم يذكرها غيرهم من قبل .

ويطرح من طائفة كتب هؤلاء المؤرخين ، أن مشاهداتهم وتخفقاتهم لم تكن
منحصرة في ناحية من معلومات عن الصين ، بل شاملة لواحش شت - من جميع
الأمور التي قد خطرت بالحد من جهة المساعدة أو من جهة الرواية . ولم يحدوا
بجلا في ترك ذكرها ، فوردوا في كتبهم ، بإعادة لأهل عصورهم والعصور التي
بعدهم . ولم انظر لنا نظرة عامة الى مؤلفاتهم ، نرى أنهم قد اكملوا في جغرافية
الصين ، ومناخها وتمدنها وأشهرها ، كما أنهم قد اكملوا في أحوال الصينيين وعاداتهم
ثم نجد أنهم قد تحدثوا عن حياة الصين الاجتماعية والدينية والاقتصادية والصناعية
ثم نجد أنهم قد دونوا ملاحظاتهم على نظام حكمها وحفظ الأمن في البلاد

ومعاملة الحكام للأجانب . وفي هذه النقطه نورد كلام هؤلاء العلماء الذين سبق ذكرهم . ولا نذكر شيئا عنهم إلا ما نراه يوافق الواقع ويقبض العقل . فلا يتكره عالم محقق في الامور التي تتعلق بالدين في القرون الوسطى . والعرض من هذه النقطة . هو اننا نأشار الى هذه الكتب العربية والفارسية التي هي من مآثر الاسلام . لكن علماء الاسلام لم يدعوا انها في هذا الامر العلى . كما يعتنى بها علماء الغرب . فاعلم المسلمون بمدون في علمي تشويقا لأذهانهم واستنهاضا لهم . الى تحقيق العلاقات بين العرب والامم الشرقية — موضوع فاما بفكر فيه العلماء والباحثون . من المصادر العربية والفارسية التي هي كنوز لا تقدر بقيمة عند المستشرقين لكن المسلمين أنفسهم يغفلون عنها .

والنقطه التي أريد أن أقدمها من تاريخ العلماء الاجلاء الذين ذكرتهم في الفصل السابق لاثبات لمعارفهم الواسعة وتكرارهم السريعة وتعدداتهم الصحيحة عن الدين في القرون العارفة . هي الصين . حديتها . ومذهبها . ولوكها . عادات الصينيين في الملاسة . والملابس . والاكل . والشرب . والاعمال . وممارستهم فيها . وديانة الصين وعبادتها . انما هي الامم . وبعض الحكومات . وديانتها . ولما لم يخط السكينة . وطريق نقل الكتب والطريق . رفع الكتابة الى تلك . وحالات المعاملة مع الاجانب والحفاظ على أموالهم ورحمة بهم . ووجه من الافعال في فلوس الصين ودراهم السكاغند . ووجه على هذه الاممال قليلك إلا ما افلوا عن بلاد الصين ومدنها .

أول من كتب في هذا الموضوع من علماء العرب . هو ابن خردادويه . (٨٠٨ م) قال : أن الصين للثلاثة دينة متمايزة كلها . منها قسعون مشهورة . وحدث الصين من البحر الى الهند والترك وغيرها . وفي مشارق الصين بلاد وقواق وهي كثيرة الذهب ويأتي فيها بالذهب ثم تشق في الذهب للبيع .^(١)

قال سليمان التاجر السمرقاني (٨٠٩ م) — وتبين كلها عمارة . أهلها أجمل

قال الادريسي في « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » في الصين ثلثمائة مدينة كلها عامرة وفيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة (الينج) و (الينجوع) يقال له ملك الملوك .

قال الاصطخري في إقليم الأرض - أما مملكة الصين فشرقها وشمالها البحر المحيط ، وأما جنوبها فمملكة الاسلام والهند ^{١٢} . ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأراك وبعض التبت . ومن دان بدين أهل الأرياق منهم ^{١٣} . فإذا قطعت من القلزم إلى الصين على خط مستقيم كان مقداره نحو ١٠٠ مرحلة ^{١٤} .

من هذه الكلمات التي اقتبسناها هنا من كتاب العرب ، من ابن خردادبه في القرن الثامن للميلاد ، إلى ابن بطوطة في القرن الثالث عشر ، نفهم الصين وحدودها تلك القرون فيما نأما ، غير محتاج إلى إيحاء من دأ أو تأملين مفصل . لأنك تعرف الصين في قول ابن خردادبه ، إن قال : « وحد الصين من البحر إلى التبت والترك ، وغربا إلى الهند وفي مشارق الصين بلاد وقواق (أو اليابان) وفي قول الاصطخري ، حيث غول = شرق مملكة الصين وشمالها البحر المحيط وأما جنوبها فمملكة الاسلام والهند . ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأراك وبعض التبت ، ويظهر من عبارة الاصطخري أنه يرى نظريته في موقف الصين على نظرية ابن حوقل .

وابن حوقل هو أول عربي رسم خريطة لصورة الأرض ، ومثل مكة في وسطها وأفرقيا وآسيا متقابلين وجهها لوجه ولم يذكر شيئا عن جبال (فلبيين) وملايا ، كما هي مرفوعة الآن . ويحمل المحيط الباسفيكي في شرق الصين

(١) الادريسي ج - ص ١٦٦

(٢) الاصطخري ص ١٩

(٣) الاصطخري ص ١٠

(٤) الاصطخري ص ١٢

وشمالها وبلادها الأناك في غربها . وبلاد الهند والاسلام في جنوبها . فظنرية ابن حوقل تختلف قليلا عن نظريات الجغرافيين في هذه القرون ، لأنهم جعلوا المحيط في شرق الصين وروسيا في شمالها . لكنهم على كل حال لم يخرجوا على الأصول التي بنى عليها ابن حوقل تخميناته عن موافق الأقاليم . فجاء بعد بلاد العرب ببلاد الفرس ، ثم الهند ثم الصين ، وهذا الترتيب نجده أيضا في ابن حوقل .

وأما ملاحظات سليمان السيرافي عن أهل الصين ، بأنهم أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب في القياس ، إلى آخر ذلك ، وبلاد الصين أنزه وأحسن ولا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ، في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة ، وأقوال الادريسي في الصين ، بأن فيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة اليبغوي واليغوي هو ملك الملوك . وأقوال ابن بطوطة في الصين ، بأن نهر الصين تكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كثيل مصر ، إلا أن هذا ، أكثر حمارة وعليه التواءير الكثيرة . فكلها من الأقوال التي لا شك في صحتها . فإن ملابس رجال الصين ، حتى اليوم تشابه عباة العرب في الأرسال والغالول ، ومدن الصين لا تزال محصنة كما كانت في تلك القرون الخالية . وكانت الصين تنقسم إلى تسع ولايات في كل ولاية منها قاض الملك وفوقهم الامبراطور . فقول الادريسي ، فيها عدة ملوك ، لكنهم تحت طاعة اليبغوي ، يريد به النظام الذي كان بالصين في وقته . واليبغوي في الادريسي هو ييجور وكذا في ابن الزبير وابن خردادبه .

فالنهر الذي ذكره ابن بطوطة ، هو نهر (يانغ تز) أو (يانغ تز كيانغ) .

ومن الملاحظات الدقيقة التي نجدها في كتاب سليمان السيرافي قوله لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور . وقد كنت لأعير هذه الملاحظة أي اهتمام حتى قدمت إلى مصر فإذا بها عمي وعوران وذورا عاهات لا يحصون كثرة في القرى والمدن وللعلماء الاسلام كلام طريف عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، فابن خردادبه يقول في القرن الثامن من الميلاد أن من (لوقين) إلى (خانفو)

وهي المرقأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام في البحر وعشرين يوماً في البر . . . وفيها الفواكه على اختلاف أنواعها ، والبقول والخضرة والشجر وقصب السكر . ومن (خافو) إلى (جانجو) ، مسيرة ثمانية أيام ، وفيها من عافى ذلك راكباً مرفأً من مرفأه الصين من عظم تدفئة الناس . . . يكون فيه الماء والحجر . . .

ويرى ابن التبريم عن أبي دلاب الخديم أن من غاب في شطر لأول من القرن العاشر للميلاد ، أن أهم مدينة الملك الأعظم في الصين ، يسمى (حمدان) ومدينة التجارة ، الأول (خافو) ، وطاها ، و فرسخا ومن مدن الصين (ورسو) و (بانسو) و (أرمانيل) . . . بها إلى (بانسو) ، مسيرة شهرين و (بانصر) متصل بناحية التبت والترك والتغزغ (بوند) . . . ومن التبت إلى خراسان على استدارة يكون ٣٠٠ فرسخ ، وفي بلاد الصين ، (سيللا) و بلاد (كرويا) ، وهي من أطيب المدن وأجلها وأكثرها مديناً .

لقد ذكر الاندريسي كثيراً من مدن الصين التي قد تغيرت أسمائها ، فلا تعرف مواقعها الحقيقية ولا اسمها ، إلا أنه الآن ، لكن ما ذكر من أحوال المدن ينطبق تماماً على مدن الصين في قرون الوسطى .

ومن المدن التي ذكرها الاندريسي في نزعة المسافر في الخرافات الألفاني ، مدينة (سوسه) برصدان طرغما ، و صيانج الصين (وذكر أن بطوطه والمسعودي مدينة الصين أيضاً) ، و أسعدان و سرنجو ، و عاه و بشيار ، و فاساء و حامكو ، و خافو . وقال أن مدينة سوسة ، مدينة مشهورة ، مملوكة مذكورة ، كثرة العمارات جامعة الخيرات ، وأعمال أهلها كثيرة ، و تعالجهم فيها كد منقورة وقرصهم ممتد في الأفق ، متساو لكل لامصار و يصنع بها القسار الصبي الذي لا يعد له شيء من ظار السير جودة ، و بها ظور كثيرة مشهورة) و يحمل الحمار الصين الرفيع القسمة ، المحكم الصنعة الذي لا يتزن به غيره .

(١) ابن خردادبه ص ٦٠

(٢) القهرست ص ٤٩١

وصينية الصين على شق نهر حدان الكبير ، ومنها إلى مدينة قابلو ، أربع عشرة مرحلة ، وإلى سفلا ثمانية أيام ، ومدينة سفلا عامرة بالسكان ، حدة المساكن كثيرة التجارات ، موفرة العمارات وإليها مقصد التجار من كل الأقطار المجاورة لها ، المتباعدة عنها بضروب البضائع وأنواع الاعنعة ، ويعمل بها ثياب حرر ونغار ومن سفلا إلى صينية الصين ٧ مرحلة وإلى طوغا ثمانى مراحل ، وطوغا مدينة كبيرة لاهصن لها ، لكنها عامرة وبها حمل وبضائع وبشجر منها أصناف من التيجارات ، ومنها إلى صينية الصين ثمانى مراحل وهي في أقصى الصين ولا أمد لها مدينة في الكبير ونراى الأطلراف ، وكثرة البضائع واجتماع التجار إليها من سائر الأقطار ومن بعض المدن الهندية المجاورة للصين ومن صينية الصين إلى مدينة سنجو ، ثمانى مراحل وهي مدينة على بطحاء الأرض تمتد لا يثبت بها شيء إلا الزعفران غرسا ، أو من غير غرس ، ومنها يجهز الزعفران إلى سائر أقطار الصين ، ويبيع بها عنه ما يعم السكل كثرة وطبا وقد يعمل بهذه المدينة الحرير والنضار ، ومن مدينة سنجو ، إلى باجه ، مراحل وهي مدينة الفيضوخ^(١) وبها دار ملكة ، وموضع رجاله ، وخزان أوله ، ومصون حربه ، وهذه المدينة على حدة نهر حدان ومنه يصعد إلى المدينة من خافو وخايكو ، وعبرهما من راق الصين المشهورة ومن مدينة باجه إلى مدينة شوخو أربع مراحل ، ومدينة شوخو على نهر صغير يقع في البحر الشرقى ، وبين مدينة شوخو والبحر أربع مراحل ، ومن شوخو إلى مدينة شيهار تسع مراحل ومدينة شيهار بها رئيس من قبلى الفيضوخ له خيول ورجال وحشم وعبيد ، ونظك عظيم وهو يقاين الترك المداخلين إليه من مجاورة منهم^(٢) .

ويقول في موضع آخر - وفي (لوقين) رعى أول مراتق الصين طرف الديباج والحرير ومنها يخرج إلى جميع البلاد التي تصل بها وتبمد عنها ، وبها أرز وحوب ونارجيل وقصب - ومن مدينة (لوقين) إلى مدينة (خافو) مسيرة أربعة أيام

في البحر وعشرين يوما في البر . ومن أعظم مراكب الصين ، وبها ملك مهاب ، له ملكة سمحة وفيه ، كثيرة وأجود وأملح ، وأعلم بأكلون الارز والتارجيل والالبان وقصب السكر والقطن . وهي على خور تقاطع فيه المراكب مسافة شهرين إلى مدينة باجه .

ومن مدينة الصين الساحلية إلى جزيرة (شامل) أربعة أيام وهي في آخر الحراصيني ممدودة بالسكان . وفيها - قطنة ورز وأرز وقصب السكر وبها سمك كبير العظيم لذيد الطعم . ومن جزيرة (شامل) إلى جزيرة (عاشورة) ، أربعة أيام وهي جزيرة قليلة المأوى ، وأرضها أرض موحشة ، كثيرة المغارب والأفاقي (١) وأما مدينة (سامكو) فمدينة جميلة بدنية ، رائحة لاسواق ، حصة الإنسانين والرياض كثيرة المأوى ، ويصنع بها العصار الصيني وثياب الحرير . وعلى الجملة فيها ما في مدينة (سافو) وهي على خور كبير يحيط بها ويصعد في هذا الخور إلى عدة من مدن الصين (٢) .

ولهذا العرب ملاحظات قيمة على ملك الصين وأوصافه وهي طريفة جدا . نقل هذا نصا منها . يقول المسعودي في مروج الذهب ومعدن الجوهر : أن ملوك الصين ذكورا آراء ومحل . إلا أنهم مع اختلاف أديانهم ، غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام وتقيد الخواص والعوام إلى ذلك وزعموا أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب وأن من العدل الزيادة في الاحسان مع الزيادة في العمل (٣) .

بروف سليمان التاجر السيرا في . في كل مدينة شي . يدعى . الدرا . (٤) وهو جرس على رأس الملك مربوط بخيط معدود ، على ظفر الطريق للعامة كافة . وبين

(١) الادريسي ج ١ - ص ٥٥

(٢) الادريسي ج ١ - ص ١٦٦

(٣) المسعودي ص

(٤) الدرا . كلمة فارسية معناها جرس .

الملك وبينه نحو فرسخ. فإذا حرك الحيط لم يدور أنى حركة، تحرك الجرس منه، على رأس الملك، فيؤذن له بالدخول حتى يتصل إليه، يشرح له ظلامته وجميع البلاد فيها مثل ذلك (١).

وقد روى سليمان السيرافي قصة تاجر خراساني بالصين، وكيف أصفه الملك وبتكلى عن ظنه وهذه القصة تهديك إلى معرفة أوصاف ملك الصين في ذلك الوقت فانظر ماذا ورد في سلسلة التواريخ:

كان في هذا التاجر رجل وريح، فوقعت مشاجرة بينه وبين خصى الملك بخانقو من أجل أمثلة الحاج، وغيره، اجتمع عن بينهما حتى ظهر الأمر بينهما وحل الخصم نفسه على انزعاج خيار الأئمة التي كانت مع هذا التاجر الخراساني فذهب التاجر إلى (سندان) مستخدماً وشكاً إلى الملك ظلامته فسأله برضاؤه الترحيل عن أمره فلما ثبت الصدق للتاجر بعد التحقيق الطويل، فبصر على الخصم ومصادر أمراته وطرده من الوظيفة التي كان بها، وقال له: كان حذك القتل، إذ عرضاني لرجل قد سلك من خراسان ومضى عن حد ملكي وسار إلى بلاد العرب ومنها إلى مالك الهند، ثم إلى بلدي طاماً للهوى، فأتيت أن يهود يجاراهم هذه الممات ومن فيها، لجأه في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها ويقول له الملك: أولئك تدبير الموتى، إذ عجزت عن تدبير الأحياء (٢).

وإذا قرأت، زمة الملتاق في الخرافات والآفاق، تجد فيه كلاماً طويلاً عن أوصاف ملك الصين. أن الإدريسي قد أخذ أخباره عن سليمان السيرافي، لكننا لا نعرف بأية طريقة، لأن سليمان السيرافي قد عاش في منتصف القرن التاسع من الميلاذ بالعراق والأديبي في القرن الحادي عشر بصفوية. والظاهر أنه لم يزور بغداد ولا البصرة طوال حياته. فلبس من المقول إذن أنه حصل عنه عن هذه النقطة بالبراق، لكن من الممكن أن بعض التجار قد ذهبوا بنسخة من سلسلة

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٢

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ ص ١٠٦

التواريخ الذي كتبه سليمان في سنة ٨٥١ م ، وأضاف إليه أبو زيد الجزء الثاني في سنة ٨٨٠ م ، إلى حقلية حيث كان الادريسي يشتغل بأعماله العلمية ، لكن من الممكن أيضا أنه حصله بطريق آخر ليس له علاقة بما في سلسلة التواريخ . بسؤال التجار الواردين من بلاد الصين ، لأن تجار المغرب والاندلس كانوا يترددون بين الصين والاندلس قبل زمن الادريسي على الأقل بقرن ونصف قرن ، كما أشار ابن التميمي في القهرست ، استفاد إلى أبي دلف اليزمى الذي عاش إلى ٩٤٠ م (١) وقد كثر هذا التردد من تجار الاندلس والمغرب إلى الصين في العصر الذي عاش فيه الادريسي ، حتى نقل كثير منهم بالصينيين ، بسبب سفرهم إلى الصين وإقامتهم بها (٢) . فلذلك ترى اختلافا في البيان عن الامر في سلسلة التواريخ ونزعة المشتاق اختلافا ليس في العناصر الجوهرية ، بل في كيفية تقرب المظلومين إلى الملك وكيفية انصاف الملك لهم . فكللام سليمان كما أوردناه ، أنفا . وجيز . يحمل . لكن الادريسي يذهب إلى التعاسيل التي ترى فيها صورة تمثل مجلس العدل والانصاف وتولى رئاسة هذا المجلس الملك نفسه . وذلك ما نفرضه في السطور الآتية :

والقبويع يقال له ملك الملوك وهو ملك حسن السيرة وعادل في رعيته ، رفيع في همته ، قادر في سلطانه مصيب في رأيه : حازم في اجتهاده ، شهم في ارادته لطيف في حكمه ، حليم في تحكيمه : وهاب في عطائه ، ناظر في الامور القريبة والبعيدة ، بصير بالواقف تحمل أمور عبيده المستضعفين اليه من غير منع ولا توطى . وأن له في قصره مجلسا قد اتفق بنيانه ، وأحكم مدينته ، وأبدعت عمارته له فيه كرمي من ذهب مجلس فيه ، ويجمع حوله وزراءه في كل أسبوع مرة وعلى رأس الملك جرس معلق ، تتد منه سلسلة ذهب إلى خارج القصر ، مهدمة الوضعم ، تتصل السلسلة إلى أسفل القصر . فإذا جاء المظلوم ، بكتاب ، مظلمته ، أخذ طرف السلسلة فاجتد بها ، فيحرك الجرس ، فيخرج الوزير يده من الطاق . وتلك علامة يصم بها المظلوم لادن بالصدور فيصعد المظلوم إلى المجلس على درج خاص

(١) القهرست ص ٤٩

(٢) ياقوت ج ٥ ص ٤٠٨

بصمود المظلومين عليه حتى يتف بى يدى الملك . فيسجد المظلوم ! ثم يقف ثممد الملك يده الى المظلوم ويأخذ الكتاب منه وينظر فيه . ثم يرقعه الى وزرائه ويحكم له بما يجب له الحكم به ، بما يقتضيه مذهبه وشرعه من غير توسل ولا تطويل ولا وساطة وزير ولا حاجب ومع ذلك فانه يجتهد فى دينه مقيم لشريعت ، كثير الصدقة على الفقراء ودينه عبادة البدود^(١) . وبين مذهبه ومذهب الهندى خلاف يسير . وأهل الهند والصين لا يذكرون الخالق بل يثبتونه بحكمتهم وحدت الأزلية ولا يقولون بالرسول ولا بالكتب ، وفى كل حال لا يمارفون العدل والانصاف^(٢) .

أهل الصين وعاداتهم : ننقل الآن الى الحديث عما قال علماء العرب فى أهل الصين . عاداتهم وتطرع الى ما جاء فى كتبهم يوافق الحقيقة أولا يوافق .

قال الفزنى فى آثار البلاد وأخبار العباد : أهل الصين أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الحقيقية ، قصار القدود ، عظام الروس ، لباسهم الحرير وحليهم عظام العبل ، ودينهم عبادة الآواتان وفيهم مانوية وبجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت لعبادات^(٣) .

وقال ابن بطوطة : أهل الصين أعظم أحكاما للصناعات وأحذقهم إيماناً فيها . وذلك مشهور من حالهم قد وصفهم الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيها^(٤) .

وقال المسعودى : أهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم^(٥) .

(١) والمراد منه عبادة الأصنام ويظهر أن الإدريسي أخذ هذه الكلمة من الفارسية (بت) فبدل التاء بالذال وجمعها على (البدود) . وإلا لنبى معرفة من كلمة (Buddha) مؤسس الديانة البوذية بالهند .

(١) الإدريسي ج ١ - ١٦٦

(٢) آثار البلاد ص ٣٥

(٣) ابن بطوطة ص

(٤) مروج الذهب ص ١٧٧

وقال ابن الوردي: أهل الصين أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً، وأحذقهم في الصناعات قصار القدود، عظام الرسوم، مآثمهم مختلفة: بحوس، وأهل أوتان وأهل نيران. وهم حذاق بالقش والتصوير، يعمل الصبي منهم ما يعجز أهل الأرض. (١)

ولا يرتاب أحد من المؤرخين في مهارة الصينيين وحذاقتهم في بعض الصناعات الخاطفة يلاذهم في القرون الوسطى وسورود بعض أقوال العرب، في هذا الصدد، عندما تتكلم عن صناعات الصين.

وأما عادات الصين التي لاحظها علماء الإسلام والعرب من سليمان التاجر السمرقاني إلى ابن بطوطة، فجديدة بالذكرة. ومن هذه الملاحظات ما يتعلق بالملابس والمأكل والمشرب ومما ما يتعلق بالزواج ودفن الموتى إلى غير ذلك من العادات الحسنة أو السيئة. قال سليمان السمرقاني: لباس أهل الصين الصفار والكميار، الحرير في الشتاء والصيف. فأما الملوك، فالجديد من الحرير ومن دونهم فعلى قدرهم. وإذا كان الشتاء ليس الرجل السروالين والثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم. وإنما قصدتم أن يدشوا أسافلهم لكثرة الندى وخرقهم. فأما الصيغ فيلبسون الفقيص الواحد من الحرير ونحو ذلك ولا يلبسون العمائم.

ثم تكلم عن أكل الصين قال: وطعامهم الأرض. وربما طبخوا معه (الكوشان). فصبوه على الأرض فأكلوه. فأما الملوك منهم فيأكلون خبز المنطقة واللحوم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها ولحم من القواكه، التماح والخوخ والآنرج والزمان والمفرجل والكثيرى والاوز وقصب السكر والبطيخ والتين والصف والفتاء والخيار والبق والجوز والوز والجلوز والفسق والاباص والمشمش والغيراء. وليس لهم فيها كثير نخل إلا الثغلة في دار أهدم.

ثم تكلم عن شرب الصين وقال : وشراهم النبيذ المعمول من الارز وليس في بلادهم خمر ولا تحمل الهم ولا يعرفونها ولا يشربونها ويعمل من الارز الخمر والنبيذ والناطف وما أشبه ذلك إلى أن قال : وحشيش يشربونه بالماء الحار ويبيع منه في كل مدينة بمال عظيم . ويقال له (الساخ) وهو أكثر ورقا من الرقيقة وأطيب قليلا وفيه حرارة فيفلى الماء ويذر فيه فهو يغصم من كل شيء . وجميع ما يدخل بيت المال ، الجزية ، المأخوذة من العرب ، والملح وهذا الحشيش .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على ما قال سليمان السيراقي فيما يتعلق بلباس الصينيين وأكلهم وشربهم في القرن الثامن أو التاسع من الميلاد لأن كل من له أدنى معرفة عن تاريخ الصين يعرف أن الصين القديمة كانت هي المملكة الوحيدة التي يصنع في مدنها الحرير ويصدر منها إلى سائر العالم . وكانت لها علاقة تجارية بالدول الخارجية ، مثل الامبراطورية الرومانية ، وبلاد الفرس والشام ومصر وبلاد الاندلس والعراق وغيرها من الجزائر التي بين خليج فارس وأول مراقي الصين . فلا عجب إذن أن رجال الصين كبارهم وصغارهم كانوا أكثر الناس لبسا للحرير في عصر سليمان السيراقي في أيام الصيف والشتاء على حسب قدرتهم وقدرهم . أما الأكل فنرى المعلوم أن أمة الصين أمة الارز عذاء ، لأن الارز هو أهم حاصلات أرضها ، خصوصا يحتوي للصين التي زاولها هذا التاجر السيراقي ورأها بعينه .

ومن اللحوم التي يأكلها الصينيون لحم الخنزير ، كما ورد في سلسلة التواريخ ويؤكد هذا الأمر ، ابن بطوطة بقوله : « كعاد الصين يأكلون لحوم الخنازير ويبيعونها في أسواقهم » . ولا تنازع في هذا الكلام ، بل نقول أن كفايا الصين يميلون إلى هذا اللحم أكثر من أي لحم آخر . ورغبتهم فيه أشد من أية أمة من الأمم على وجه الارض .

والحرر المصنوع من العنب ، كما كان معروفا في بلاد العرب ، في القرن الوسطى ، لم يكن معروفا عند الصينيين ، إلا في الايام الاخيرة . لكن كان عندهم

نوع من المسكرات يعمل من الارز . لكنه أخف تأثيرا من خمر العنب وهذا
المصير من الارز . ويقال له ، البئذ . كما ورد في سلسلة التواريخ لـ (ساجان) ،
غير أنه إذا مكث في المدن مدة طويلة تخلق .

وساجان السيرافي أول من عرف من العرب أرغند الصينيين شرابا ، يؤخذ من
نوع من الخشائش يقال له (الساخ) . ومن كلمة (الساخ) إلا حقة عن أصلها
(ساج) . فدخلت في الفارسية والآردية والتركية والروسية وبعض اللغات
الأخرى في صورة (ساجه) وفي العربية الساخنة في صورة (الشاي) . وطريق
صنعها قديما وحديثا مو كما وصفه سلبان ويذكر في كتابه . والحقيقة أن الزمان من
أهم مشروبات الصينيين . ومن أهم الأكلات لحوازة الحكومة في القديم والحاضر
هنا . وفي موضع آخر نجد بعض التفاصيل عن ترويع السار في الممالك الإسلامية
والسلبان ملاحظات أخرى في عادات الصينيين قال في الزواج :

« أهل الصين إذا أرادوا التزويج نهانوا يوم تم تهادوا ثم يشرون التزويج
بالصروج والطبول وهديتهم من الماشية على قدر الإمكان » . وأضاف أبو زيد
ما يأتي : « فأما الممالك بلاد الصين فهم شيوخ وقبائل كشعوب بني إسرائيل
وبطونها يتعارفون ذلك بينهم ولا يزوج أحد منهم قريبا ولا إذا نسب فلا تزوج
القبيلة من قبيلتها مثل ذلك أن بني تميم لا تزوج في تميم ، وربيعة لا تزوج في ربيعة ،
إنما تزوج ربيعة في مضر ويدعون أن ذلك أنجب للولد » .

وأما ما جاء في المسودى عن الزواج في الصين ، فقير صحيح ، ذلك أنه يقول
أن أهل الصين شيوخ وقبائل كشعب العرب وأنقادها إلى أن قال : ولا يزوج كل
عقد إلا من خدم . مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر ، فلا يزوج في ربيعة
أو من ربيعة فلا يزوج في مضر ، أو من كهلان ، فلا يزوج في حير ، أو من حير

(١) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٥٢

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ ص ١٥

فلا يتزوج في كهلان ويؤمنون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية وأنه أصبح للبقاء وأتم للعمر^(١) والصحيح هو ما قال أبو زيد في هذه المسئلة ولا يزال الصينيون عاظمين على هذا النظام الاجتماعي. فلا يزوجون إلا في قبائل غيرهم ليس كما قال المسعودي. واعتقد أنه أخطأ في مأخذه وقلب ما جاء في أبي زيد ظهرا ليعان فأنكست القضية. ومنها ما قال في بيوت الصين: أن بيوتهم هناك من الخشب ومن فناء مشقق وبسبب هذا يكثر الحريق، ويقول: أهل الصين لا يخبثون، والرجال يفظون رءوسهم بشيء يشبه الفلانس^(٢).

ومنها ما قال في العلم والتعلم: قال، والطب بالغند وكذلك الفلسفة. ولاهل الصين أيضا طب وأكثر طبعهم السكي ولهم علم بالتحجوم وفي كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون^(٣). ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه تقرا في الحجر ذكر الأدوية والأدواء فلكل داء دواء، فإذا كان الرجل فقيرا أعطى ثمن الدواء من بيت المال.

هذه الملاحظات القليلة التي دونها ماجر من تجار العرب في القرن الثامن من الميلاد، والتي لا نجد فيها ما يخالف الواقع أو الخفيفة بالنسبة إلى حالة كنفار الصين في تلك القرون، أصبحت الآن أدلة قوية لجميع الباحثين الذين يريدون أن يعرفوا حياة الصين الاجتماعية في العصور الوسطى. فيرون أن الصين من هذه الناحية لم تتغير كثيرا، لأن بيوتهم ما عدا ما في (المدن العصرية الحديثة)، أكثرها من الخشب. فيبقى عليها الحريق من حين لآخر. وأما الاختتان فكيفار الصين حتى الآن لا يشعرون بضرورته على وجه عام. غير أن بعضا منهم وقد تأثروا بهلم الصحة الغربية، فبدؤوا في إجراء هذه المادة الحسنة بين أطفال المدارس لأنهم وجدوها خير طريق لانتقاء بعض الأمراض التاسلية.

وأما الحجاب فلا تعرفه نساء الصين، وما نراه الآن في أحياء المسلمين في

(١) مروج الذهب (٢) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٢٤

(٣) سلسلة التواريخ ج ١ ص ٥٧

ولايات شمال الصين وغربها ، ليس من أيام بعيدة . وتاريخه كما اعتقد ، لا يرجع الى أكثر من مائة سنة وهذا الحجاب مختلف كثيرا عما نراه في الهند ومصر والحبشة وسنعود الى البحث عنه ، ان قدر لي أن أكشف كنهه في تاريخ الاسلام في الصين في فصل عادات المسلمين وآدابهم .

وما قاله سليمان السمرقاني عن العلم والتعليم في الصين ، لم يكن من المبالغة ، لأن العهد الذي زار سلبان فيه الصين . كان عهد (تانغ) وكان عهدا ذهبيا في تاريخ الصين . فلوكما كانوا أكثر الناس اهتماما بعشر العلم وتعميم التعليم ، كما كانوا أشد الناس اهتماما بترقية الصناعة وتوسيع دائرة التجارة . لذلك نرى أن الصين في ذلك الوقت ، وكانت أقدم الأمم في الشرق - أصبحت اقواما وأكثرها - قوة ونشاطا في سبيل التقدم الانساني . فاهتمت بالعلم ولا سيما علوم الفلك والنجوم والطب كما فعل ذلك أمراء المغول من سلالات جنكيز خان فيما بعد ذلك .

وكتاب العرب من أهل تلك القرون لم يتركوا ذكر مولى الصينيين أيضا . واقد أشرت في مكان سابق إلى ما قال أبو زيد في هذا العدد وذكر الموقى بوجود في الفهرست أيضا . قال ابن الديلمي فيما رواه عن أبي دلف البهيمي أن أهل الصين ، اذا مات أحد منهم بقى في منزله في قبر من الخشب مدة ثم يدفن في ضريح بلا لحد ويحزن عليه ثلاث سنين ، ثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات واليوم الذي يحمل فيه الميت الى قبره ، يزين الطريق بأنواع الديباج والخزير بحسب حال الميت وعظم قدره ^(١) .

ومن عادات الصين قديما ، أن يوضع جسم الميت في صندوق مطوي من الخشب ويحتم بالشمع ، ويحكم غطاؤه بالجلود ، حتى لا يخرج منه الرائحة الكريهة . فيبقى في البيت مدة طويلة تكون في بعض الأحيان أكثر من سنة . وكان الحزن عليه من أهله وأولاده ، الى ثلاث سنوات أمرا عديدا . وكان هذا من العادات المحدودة التي يمتدحها أدباء الصين ويروجون لها وهذا هو السراني يقول أن الادب الصيني يفرض هذه العادة من قديم الزمان حتى الثورة الكبرى في سنة ١٩١١ م . فلذا

انقلب نظام الحكومة من الامبراطورية الى الجمهورية وظهر التغيير في آذهان الناس نحو هذه المادة الحسنة وأخذت تتخفى شبهة فسيحة عن الحياة العامة ، مستورة في أعماق أوراق التاريخ والرموز .

ننقل الآن إلى نقطة أخرى فيها كلام طويل لعلماء العرب القدماء ، تلك هي ديانة الصين التي كانت سائدة فيها في هصور هؤلاء الكتاب . ويحسن أن نقبس شيئا من أقوالهم .

وقد كان أول من تكلم من العرب في ديانة الصين هو ساجان البيراني قال :
« أهل الصين يمدون لأصنامهم ويصلون لها ويضرعون » ثم قال أصل ديانة الصين من الهند (١) .

وكلامه هذا يشير إلى الديانة البوذية التي أصابها من الهند ودخلت الصين في القرن الثاني من الميلاد .

كان ساجان كما تعرف تاجرا فلما بقدر على الايمان بمعتقدات الصينيين على وجه التفصيل . والمؤرخون ديانتهم لم تكن محصورة في البوذية وهي ديانة دنيوية ليست لها علاقة بمعتقدات الصين الأساوية . بل هم يعتقدون بالسماء والقوات السماوية ، كما أنهم يعتقدون بأرواح الآباء والأجداد . فكانوا يمدلون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة . ولقد بين المسودى هذه المعتقدات في كتابه « معراج الذهب » مدون الجوهر . وفصلها تفصيلا جديرا بنظر القارئ . ليقوم ماذا فهم علماء العرب في القرن التاسع من الميلاد عن معتقدات الصين . وإليك ما قال المسودى عن اعتقاد الصينيين بالقوات السماوية (٢) :

كان كثير من أهل الصين يعتقدون أن الله جسم وأن الملائكة أسام ، لها

(١) سلسلة التواريخ ج ١ ص ٥٧

(٢) أنظر إلى فصل (الصين وديانتها الأولية) في كتب الدين والأديان للأستاذ باركر (E. H. Parker : China and Religion) وقارن بين ما أوراه المسودى وبين محتويات هذا الفصل

أقداره وأن الله وملائكته احتجبوا بالسحاب ، فدعاهم ذلك إلى اتخاذ الثماثيل والأصنام على صورة الباري وبعضها على صورة الملائكة ، مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الأنسال وعلى خلافها من الصور يبدونها ويقربون لها القرابين ويناديون لها الذنور كشعبها عندم بالباري ، قربها معه ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى نهبهم بعض حكامهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام للبرية إلى الله وأنها حية ناطقة ، وأن الملائكة قد يقع خلاف بينهما وبين الله ، أن كل ما يحدث في هذا العالم إنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب على أمر الكواكب تخفى إمارته في بعض أوقات الليل لما يعترض في الجو من البراز أمرهم بعض من كان فيهم من الحكماء أن يبدلوا لها أصناما وثماثيل على صورها وأشكالها ، ليجلوا لها أصناما وثماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة ، وكل صنف منهم يظم كوكبا منها ويقرب لها نوعا من القرابين خلاف ما الآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام ، تحركت لهم الأحكام العلوية من السمعة بكل ما يريدون وبشر الشكل صنم بيتنا وهيكل مفردا وسعوا تلك المياكل بتلك الكواكب (٢١) .

وكان الصيغون يبدون أرواح آبائهم أيضا ، وقد بدأ ذلك من زمن ملكهم عرون ، على رواية المهودي . فلما توفي والده جعل جسده في تمثال من الذهب الأحمر ، مرصع بالجواهر ، وجعل بجلده دونه وأقبل يسجد لأبيه . فهلك وجعل ابنه ، عرون ، في تمثال من الذهب الأحمر وجعل دون مرتبة جلده على سرير من الذهب ورصده بأنواع الجواهر . وكان يسجد له ، يبدأ بالأول ثم بأبيه وأهل مملكته يسجدون له ، وأحسن السياسة للرعية ، وسراهم في جميع أمورهم ، وشملهم بالعدل والإنصاف ، فعمت هذه العادة في الإمارة المالكية جيلا بعد جيل . فكان في أول الأمر يأمر الخوادم من أهل مملكته أن يمتدوا تلك الثماثيل وأخبارهم أن من رآه جمع الناس على دياره يرحمون إليه لجمع النمل واتحاد العقيدة فانه متى

عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الحلال ودخول الفساد والزوال . فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها رباطاً ، ورتب لهم قصاصاً في الأفسر والأعضاء . ومنعجلات مناجح يستباح بها النساء وأصبح بها الأفساب وجعلها مراتب . فيها لوازم موجبة بأنهم من تركها ومنها نوافل يتقفلون بها وأوجب عليهم صلوات الخالقهم تقريباً للمعبود منهم . منها إجماع لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة . ومنها ركوع وسجود في أوقات من السنين في شهور محدودة . ورتب لهم أعياداً وجعل على الزكاة منهم حداً ، وعلى من أراد من نسايتهم البغاء ، جزية مفروضة (١) .

وبقر في موضع آخر - ودينهم على دن قريش قبل مجي الاسلام يمدون الصور والامنام ويشجعون عموها بالصلوات ، والقييب منهم يقصد بصلاته الخالق ويقيم التذلل من الامنام مقام القيلة . والجاهل منهم يعيدها ظاناً انها تقربه الى الله زاني ، وأن عزائتها في العبادة تنقص عن عبادة الباري . لجلاك وعظمت وأن عاداتهم هذه الامنام طاعة له ووسيلة اليه . وهذا الدين كان بدأ ظاهره في خواص الهند لجوارهم إياهم وهو رأى الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين . ولهم آراء وتخل حدثت عن مذاهب النافرية وأهل الدهر فتغيرت أحوالهم ونحووا وتظنوا إلا أنهم يتقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع ، ومن حيث أن ما حكمهم متصل بملك القلة وغير صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب النافرية والقول بالنور والطانة وقد كانوا في جاملية وسيلهم في الاعتماد سبيل أنواع الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين الماثونية . فزخرف لهم كلاماً يبرهم فيه تضاد ما في هذا العالم من حياة وموت ، وحدة وسقم وضياء وظلام ، رغبى وفقر ، واجتماع وافراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب ووجود وعدم ، وليل ونهار . وغير ذلك من سائر المتضادات ، ذكر لهم أنواع الآلام إلى آخر من لا يناس الخيران من الناطقين وغيهم بما ليس يناطق من البهائم

وما يمرض الاطفال والبه والنحسانيين وأن البـارى جل وعز غنى عن
الإعلام .

واقـد ذكر المسعودى سنة بيوت نبت على أسماء الكواكب من المعابد القديمة
المشورة في العلم بها هي ثلث :

الاول هو البيت الحرام بمكة . ذاك إبراهيم عليه الصلاة والسلام . والثاني مدقم
على رأس جبل أصفهان يقال له فارس ، والثالث يقال له هندوستان ، ببلاد
الهند ، والرابع بديار هند مشهور بمدينة بلخ على اسم القمر ، والخامس بيت
(محمدان) الذى يصنعون به ضحك على اسم الزهرة وخربة عثمان بن عفان (رض)
والسادس (كارشاشاه) بباد كاشانك بباد عجميا على اسم المدير الأعظم
من الأجسام السابعة وهو الشمس ، بمدينة فراتة ، خربة المتصم باقة ، وأما
السابع فهو بأعلى الصبي بباد ولد عابور بن يعقوب بن يافث بن نوح وأفرده لليلة
الاولى إذ كان منشا هذا الملك وندى وباعت الامور إليه . وجملة بقية أبيات في
كل بيت مما سبغ كوى يقال كل كوة موروقة من الخسنة والبيريز من أنواع
الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من باقوت وزمره على اختلاف ألوان
الجواهر ولحم في مـردا الهيكل سر يذقلونه في بلاد الصين بما يزخرف لهم
الشیطان . من بيان

وذكر ابن النديم في الغررست : من سنة الصمد أعظم الملوك وعبادتها ،
على هذا أكثر العامة . ولها بيت عظيم في مدينة . إيران ، يكون نحو عشرة آلاف
ذراع في منله ، بين أنواع الصحرو وآجر ولذهب والفضة . وقبل الوصول
إلى هذه . يشاهد القاصد إليها أنواعا من الأضداد والتماثيل والصور والتخييلات
التي تـم عقل من لا يعرف كيف هي وأنى شيء موضوعا . وقال لابن النديم رابع
من أهل نجران أنقذه الجانيث إلى الصين ومكث هناك ست سنين ووافيه ابن النديم

(١) على هوامش نفع الطيب ج ٣ - ص ١٤٣

بدار الروم وراء البيعة واقفه يا أبا الفرج ، لو عظم أحدنا من النصارى واليهود والمسلمين الله عز وجل تعظيم هؤلاء بصورة ملكهم ، فضلا عن شخصه نفسه ، لانزل الله له القطار ، فأنهم إذا شاهدوها وقع عليهم الأفكل والرعد والجزع حتى ربما فقد الواحد عقله أياها . فقال ابن التميمي - ذلك لاستحواذ الشيطان على بلدهم وعلى جملتهم يستفهم لبطلوا عن سبيل الله قال يوشك أن يكون ذلك (١) .
وخلاصة كلام المسعودي وابن التميمي في ديانة الصين : محصورة في النقط الآتية :

١ - كان أهل الصين يعتقدون بخالق له جسم ، والمكواكب السماوية التي تؤثر في حياة بنى الانسان في خيرهم وشرهم . فصبوا لها الهياكل والتماثيل وقربوا لها القرابين وندروا لها النذور .

٢ - كان أهل الصين يعتقدون بأرواح الآباء وعملوا لهم التماثيل بعد وفاتهم وأقبلوا يعبدونها ظناً منهم أن هذه العبادة تفيدهم في حياتهم الدنيا .

٣ - دخلت الديانة البوذية الصين من الهند كما دخلت الديانة المانوية من إيران فانتشرت فيها .

٤ - كان خواص المملوك يعتقدون الملك بالسجود فقدم الروام في هذه المادة حتى أصبحت جزءا من معتقداتهم فيما بعد .

بقطع النظر عن الاسماء المفروضة التي وردت في المسعودي وابن التميمي ، مثل : صرون ، و ، عبرور ، و ، بقران ، ، توافق على بيانها في نشأة هذه المعتقدات وانتشارها في الصين وأنا لنجد اليوم أن بعضها لا يزال باقيا على حاله الأولى ، فنلا الاعتراف بتأثيرات الاجسام السماوية في حياة الانسان وأرواح الآباء ونصب التماثيل لها وإنشاء الهياكل . والمراد من الآباء في عرف الصين السلف الصالح وكفار الصين بينون الهياكل لاسلافهم الكبار فقط . بل لوعناء المسلمين أيضا .

و اتقد بنوا هيكل السيد الاجل عمر شمس الدين بولاية بونتا^(١) وهيكل التاخذ
بحكومة هاي نان (Hainan)^(٢) . وقرأنا من أيام قرية في جريدة إسلامية صينية
خبراً أن عضواً من أعضاء لجنة التعمير ، النظام التابعة للحكومة المركزية ، قد اقترح
بناء هيكل لفائده لم معروف في تاريخ الصين اسم (جان يو چون Chang Yu Chun)
تذكارة للخدمات الجليلة التي قام بها في أثناء ثورة الدنيين على الممول في الشهر الثاني
من القرن الرابع عشر للميلاد فرمى فيها سهما مصيها ناجحاً^(٣) .

والديانة البوذية لا تزال سائدة في الصين في صورة شبه رسمية ، وأما ديانة الطاوية
فقد تدهبت إلى الصين عند فتح العرب لبلاد الفرس وقرار يزدجرد إلى جافغ آن
كما بدأ من قبل لكن ليس لهذه الديانة وجود في الصين الآن كما أن انتشارها
في الصين لم يكن نافذاً بالغا في القرن السابع من الميلاد . وأما عبادة الملوك والسجود
لهم فظلت بقوة إلى آخر عهد (مانشور) . فعلى الانقلاب السياسي في سنة ١٩١١ م
على هذه المادة الحثينة من أصلها

وعند العرب معلومات وافرة عن صناعات الصين المختلفة مثل الحرير والنسيج
والفخار وغيرها وانورد لنا بعض ما قالوا في هذا الصدد .

قال القزويني وهو من معاصري ابن بطوطة : لأهل الصين يد باسطة في الصناعات
المدققة ولا يشحون شيئاً من الصناعات غير معادتهم . وأى شئ رأوا أخذوا
عليه عبيداً ويقولون : أهل الدنيا ما عدا ناعى إلا أهل بابل . بأنهم عوروا بالغوا
في تدقيق صناعة القرش حتى أنهم يصورون الإنسان الضاحك الباكي ويفصلون
بين ضحك السرور والحجل والثلجة^(٤) .

من هذه السمات نفهم أن الصينيين كانوا يشحون بما لديهم من الصناعات

(١) حاضرم العالم الاسلامى ج ٢ - ص ٢٢٣ .

(2) Chao Ju-Kua : P. 188

(3) Tuh Chuh Magazine, Nanking, Vol. 111, No. 5, p. 54

(٤) آثار البلاد ص ٢٦ .

الدقيقة ولا يرون لم نظراء في الدنيا، غير أنهم اعترفوا بصناعة أهل بابل في النقوش والتصوير واعتقدوا أن صناعاتهم أرق وأبرع من جميع الأمم الأخرى غير أمة الصين . لأنهم يخاطبونهم ، كما جاء في القزويني بالعور . غير أهل بابل بالعمى ومعنى ذلك أنهم هم أولوا الأبصار فقط .

لم يكن القزويني أول من تكلم في هذا الأمر . لأن المسمودي قد تكلم قبله بقرين ، وله قول شائق في هذا الموضوع . فاقراً ما يلي في كتابه : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ، حيث يقول : « أهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدّم فيه أحد من سائر الأمم . والرجل منهم يصنع بيده ما غيره يعجز عنه ، فيصده به باب الملك ينصبه على بابه متى وفته إلى سجنه . فإن لم يخرج أحد فيه عيباً أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه ، وأن أخرج أحد فيه عيباً أطرّحه ولم يحزه . »

كان ملك الصين ، بهذا الطريق ، يجمع أربع الصناعات وأهمهم من ناحية ، ويشجع صناعة الفنون الجميلة بالانعام الجزيل من ناحية أخرى ، ففرق هذا الفن وكثر صانعوه حتى نافس بعضهم بعضاً في براعة الفن لدى الملك وكاله . واجتهد كل واحد في إخراج عيب من مصنوعات الآخر ، لقد روى المسمودي ، أن رجلاً من صناع الصين صور سنبلة سقط عليها صفور في ثوب حرير . فلم يترك الناظر في أنها سنبلة حقيقة سقط عليها صفور في الثوب عند باب الملك مدة حتى اجتاز به . أدب فعاب العمل ، فأدخل إلى الملك وأحضر صاحب العمل . فسأل الأحدث عن العيب فقال : المتعارف عند الناس جميعاً أمالها ، وقد صور هذا المصور السنبلة قائمة لا ميل فيها . وأثبت الصفور فيها متصبها فأخطأ . فصدق الأحدث ولم يشب صاحبه بشيء ، وقصدهم هذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وأعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد بيده (١) .

وأقوال ابن بطوطة الذي زار بلاد الصين في أوائل القرن الرابع عشر من

الميلاد ، وشاهد يد الصينيين في هذا الفن ، تؤكد ما ورد في المسعودي والقزويني
فانه يقول - وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا من سواهم
فان لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط
مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها ، إلا ورأيت فيها صورتي وصور أصحابي منقوشة
في الحيطان والكواغذ ، موضوعة في الأسواق . ولقد دخلت إلى مدينة السلطان
مع أصحابي ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشياء مررت بالسوق
المذكورة ، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الكواغذ وقد ألصقوه
بالحائط ، لجعل كل منا ينظر إلى صاحبه ، لا يتخطى شيئاً من شبهه (١) .

كانت صناعة الحرير في الصين مشهورة عند العرب قبل ظهور الاسلام ،
وعرفوا قيمته بعد اتصالهم بها مباشرة . فأكثر حكايات العرب في كتبهم من
الحديث عن هذه الصناعة . وأقدمهم من أهل القرن التاسع للميلاد .
ويظهر من كلام علماء العرب ، أن أواخر العمل في صناعة الحرير هو رفته وأحسن
الحرير أرقه ، وقد كان الأمراء يفاخرو بعضهم بعضاً في حمل الثياب من هذا
النصف من الحرير في أيام الصيف . وهو من أغل صنف لا يعمل مثله إلى بلاد
العرب أيام سليمان السمراني . وما ورد في الجزء الثاني من رسالة التواريخ ،
يهديك إلى إبداع الصينيين في صناعتها وتفتيم في رقتها فقد روى أبو يزيد عن
رجل من رجوة التجار قد صار إلى خصي من خصيان الملك ، انقلبه إلى مدينة
خائفه ، لتغير ما يحتاج إليه من الامتعة الواردة من بلاد العرب . فرأى هذا الناجر
على صدر ذلك الخصي خالاً يشف من تحت ثياب حريرية كانت عليه . فقدر أنه قد
ضاعف بين ثوبين منها . فلما ألح في النظر ، قال له الرجل ، عجبت من حال يشف
من تحت هذه الثياب . ففحصك الخصي ، ثم طرح كم قبضه إلى الرجل وقال له :
أعدد ما على منها فوجدتها خمسة أقية بعضها فوق بعض والحال يشف من تحتها .

والذي هذه عفته من الخرب ، خام مقصور الذي يابسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب (١) .

أما الفخار الصيني فقد وجدت ذكره في ابن الفقيه وذلك يدل على أن العرب كان لهم علم بهذه الصناعة على الأقل في القرن التاسع من الميلاد . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجار العرب كانوا ينوردونها إلى بغداد في زمن العباسيين وعندنا شهادات تاريخية في المحفورات التي أحرقها الملقون بمدينة سامراء ومن هذه المحفورات قطع من الفخار الصيني لدى يرجع تاريخه إلى عصر (تالغ) وسنعود إلى التكم في هذه النقطة ، عند ما نذكر في العلاقات الصناعية .

في زمن ابن بطوطة كان الفخار الصيني يحمل إلى بلاد المغرب ، وأما طريق صنعها للابن بطوطة ، ملاحظة دقيقة كما ترى :

قال ابن بطوطة : — أن هذه الصناعة تكون بمدينة الزيتون وبصين السكلان ، أو بمدينة الصين كما جاء في الادويسي قال : الفخار الصيني يصنع بمدينة الزيتون وبصين السكلان . وهو من تراب جبل تنفذ فيه النار كالقمح وهذا التراب كالطفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتي القيلة بالأحمال من ، فيقطمونه قطعاً على قدر قطع المعجم عندنا ، فيقلمون فيه النار ويوقدون النار عليه ثلاثة أيام ، وإذا صار ماداً يحنوه بالماء وييسوه وطبخوا به ندية ولا يزلون يعملون به كذلك إلى أن ينلاني . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني وكانوا قبل ذلك يحمرون التراب فالجيد ما حمر ذهباً كاملاً ولا يزد على ذلك ، والدون ما حمر عشرة أيام وهو هناك بقيمة الفخار بلادنا . وأرضهم ثمنا ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب وهو أبداع أنواع الفخار .

ومن صناعات الصين التي ذكرها كتاب الإسلام ، طريقة نقل الكتب وحفظها ، وذلك يوجد في تاريخ البناكيته وهو أبو سليمان داود ، ولد بمدينة

بنا كيت بما وراء النهر، كان شعرا ممتازا في قصر غازان خان وألف كتابا معروفا باسم تاريخ البنا كيتي في سنة ٧١٧ هـ - سنة ١٣١٧ م.

وقد أشار إلى هذا الكتاب الاسناد براون، في الجزء الثالث من أدبيات إيران وبين فيه طريقة نقل الكتب عند الصينيين في تلك الفرون. ورواية تقول أن البنا كيتي قد نقل قوله في هذا العدد من رشيد الدين فضل الله، وعلى كل حال نعتقد أن ما جاء في تاريخ البنا كيتي أكثر تفصيلا مما ورد في جامع التواريخ.

قال البنا كيتي: «من عادات الصينيين أنهم استنسخوا ولا يزالون يستنسخون الكتب القديمة التي يريدون حفظها، بطريقة خاصة ليس للتبديل فيها حيل، ولا للتغيير فيها طريق ذلك أنهم إذا أرادوا أن ينقلوا كتابا ذا أهمية كبيرة في نظرهم، واستبقوه صحيحا سليما من التغيير، أو من الوقوع في الاغلاط يأتون بأمر الفاسخين ويأمرونه أن يستنسخ صفحة صفحة من ذلك الكتاب، بخط واضح جميل على وجه من لوح خشبي، ثم اجتمع العلماء الكبار ونظروا فيها بكل دقة واهتمام، فصححوها وضبطوها حتى اطمأنوا إلى خلوها من الخطأ، ثم وقعوا بأسمائهم على ظهر ذلك اللوح، شاهدين على صحة الصفحة المنقولة، ثم أمروا الاخصائين من النفاش أن ينقشوا ذلك اللوح حتى يبرزوا الحروف منه إرازا تاما، فإذا انتهوا من نقل جميع الصفحات بتلك الطريقة وضعوا الأرقام، على كل لوح من الألواح المنقوشة، ثم حفظوها في الصناديق كما يحفظون هود النضة والذهب في الخزائن، ثم ختموا على أغشية الصناديق بالشمع الأحمر، ثم سدوها إلى رجل أمين، منتخب من بينهم، يحافظ على هذه الصناديق في مكتبته، ومعه يكون بطرف الصناديق الذي عليه الختم، فإذا جاء أحد يطلب نسخة من الكتاب، يجب عليه أولا أن يذهب إلى النجدة ويدفع ما يلزم من الرسوم المقررة من الحكومة، ثم يؤتى الأمر بفك الختم وإخراج الألواح المنقوشة واحدا بعد الآخر، فطبعوا بها على أوراق القرطاس كما يفعلون في ضرب النكاح بالمقالب، فلما أتموا طبعها، سلموا جميع الأوراق المطبوعة إلى الطالب، فلذا

لا يمكن أن يقع نبي من التغيرات زيادة حرف أو نقصانه من أية نسخة من الكتب (١).

وكان عند علماء الإسلام علم ببعض الأدوية الصينية منها «ماميران» Mamiran. ولقد ذكر أبو منصور مؤلف «كتاب الانبيا» عن «مناقب الادوية» في القرن العاشر من الميلاق. خاصة دوائية في «ماميران» أصلها من الصين وتوجد في تركستان بهذا الاسم أيضا. وهو نوع من العقاقير سماه أطباء العرب «ماميرون» ويقول ابن البيطار الذي تقدم ذكره في فصول كتاب الإسلام والصين، على رواية الجافقي، أن «ماميران» يستورد من الصين وخاصة من تلك التي في كوركوم وهو يوجد في الأندلس وبلاد البربر واليونان. ويرى الشيخ داود أن أحسن ما جاء من الصين، أصفر اللون. ولقد ذكر ابن الصبغة سيرة «ماميرون» من الصين قائلا، أن هذه الجذوة خاصة كوركوم. ويقول الخساج محمد في بيانه عن بلاد الحطاة، أن هناك جذوة، تسمى بحال فانهو، حيث ثبت راوند، ويسمونها «ماميرون» مربي، وهو غال جدا، واستعمله على الاغلب في علاج الامراض خصوصاً في علاج القيور الماتية. فطحنوها مع ماء الورد ومسحوا بها عين المريض فتأتى بنتيجة عجيبة. لقد ذكر علماء العرب، قول علماء الإسلام في خاصة هذه الجذوة، فإن «وولف» (L. Heatt Row well) يذكر في سنة ١٥٨٣ م، أن الماميريون الصينية التي تعالج بها القيور، من نوع أصفر، مثل كوركوم. لاشك أن ماميران، نوع من العقاقير، مشهور في علاج القيور، يستورد إلى الهند عن طريق سنغافورة في كمية كبيرة. وكان الصينيون يستعملونها في علاج أمراض كثيرة وفي تطهير العيون المملئة (٢).

ومنها ورد الصين. قد تكلم ابن البيطار عن نوع من الورد أصله من الصين ويسمونه «كسرين» وكل جيني باللغة الفارسية، هو ترجمة معنى لورد الصين في

(1) E. Browne : Literary History of Persia. Vol. 111. p. 102

(2) Sino-Iranica : § 547.

العربية وله كلام عن « شاه صيني » ، أيضا . ووصف أنه قرص صغير رقيق أسود اللون مصنوع من لبن نبات ، يفيد في ترميد وجع الرأس الحامى ولسعة ملتهبة في الجلد فيسحق ويوضع على محل الداء . ولقد شرح الأستاذ ستايجس (Steignes) في « حجم الفارسية » ، أن شاه صيني « عصير من نبات » . جبي ، من الصين يفيد في علاج وجع الرأس .^(١)

ومنها (السوك) . . السوك في العربية ، نوع من المقاقير مركب من عدة عناصر نباتية . وبناء على ما قاله ابن سينا ، فإنه في الأصل علاج سرى معلوم عند الصينيين فقط يات به من الاملاج وسماه أهل الصين (Aumlai) ، إذن ، فإنه علاج في ابن سينا كلمة محرفة عن (أرملائي) ، صينية الأصل . .

وأما العرب فكلام عن نباتات أخرى في الصين ، قلما يكتفى إليها أهل الصين أنفسهم ، كذردما ، فنلاء ، عبا ، ونبو ، مانجو ، معروف عند المصريين الآن . أصله من الهند ويعتبر في تلك الديار ، ملك الهواكه . ونجد الحديث عن هذه الفاكهة في رسالة ابن بطوطة ويعتقد الهندو أن المانجو لا توجد في البلاد الأخرى . غير بلاد الهند والبلاد المجاورة لها مثل بورما وبحرين . ويظهر أن زراعة أشجار المانجو في مصر لم تكن إلا من عهد قريب . ولعلها قد بدأت في عصر محمد علي الكبير . لكن هذه الفاكهة كانت توجد في الصين في القرن الثالث عشر من الميلاد وهجرتها من الهند إلى الصين ، قد وقعت بدون شك قبل هذا الزمان . لأن ابن البيطار ، وهو عالم عربي في النباتات ، ذكر في جمیع المأثورات ، أن عثيا ، توجد في بلاد الهند والصين . ولا يزال يزرع هناك بحبوب الصين — كاتون ، ويوتان ولوفى مقدار قليل .

لقد تكلم ابن البيطار عن نبات آخر ، صيني الأصل ، وهو « بيش » ، ويرى عن ابن شجبون ، أن بعض الأطباء ، يقولون ، أن « بيش » ، ينبت في الصين على حدود الهند ، وله ساق أطول من نواع ، وأوراقه مثل أوراق الخس الأفرنجي ، أو أوراق

(1) Siao-iranica : p. 552.

الشكوريا (Chacorea) الهندى والناس يأكلونه مثل الخضراوات في تلك الناحية من الأرض (١).

ومن المعلوم أن بلاد الصين كثيرة الجبال ، خصوصا على حدودها ، فيسبب المرور بسبب الجبال الشاهقة ، أو الأودية العميقة ، لكن عقل الانسان لا يفر من هذه الصعوبات الطبيعية ، ولا يهجر عن التغلب عليها . فأوجد الصينيون جسرا معلقا ، على تلك الأودية ، تمتد بين الجبلين الشاهقين . وهذا النوع من الجسور ، كانوا يعملونها بالجبال الخفيفة ويربطون عليها شيئا مثل زنبيل كبير ، طويل الشكل يصلح لاختذ الانسان والبهائم فيه . فوضوا على كل طرف من الزنبيل جبلا ، يصل إلى عمود الجسر بالجبال . وعينوا الناس بكل طرف من الجسر ليسانوا العابرين عليه ، وكان ذلك إذا جاء المارون من الجنوب مثلا . وأرادوا جهة الشمال ، يركبون ذلك الزنبيل عند حد الجسر ، فيجره الناس الذين بالشمال حتى يصلوا سالمين وكذلك يفعلون بالبهائم في مرور تلك الأودية .

وهذه الحيلة لا تزال موجودة في بعض مقامات ولاية سي جوان ، ويوتان على حدود التبت والبرما . لكنها لم يذكرها أحد من علماء الغرب ، ولا من علماء الصين ، إلا الدكتور (سون بات سين) إذ تكلم عن حكمة الصينيين في كتابه (الأصول الثلاثة) ، وقال ذلك في هذا القرن - القرن العشرين .

لكن العرب قد لاحظوا هذه الطريقة المجدبة في المرور ببلاد الصين قبل ألف سنة وذكروها في كتبهم ، ولعل أول من ذكر هذا الأمر من العرب ، هو أبو دلف اليوناني ، فنقل عنه ابن التديم وما أورده ، في الفهرست ، ماذا عمل الصينيون في التغلب على صعوبات الطبيعة في تلك القرون وهو يقول : بين التبت والصين واد لا يدرك غوره ، ولا يعرف قعره ، مهول وحش ، من جانبيه الغربي إلى جانبه الشرقي ، نحو خمسمائة ذراع وعليه جسر من عقب عمك حكمة الصين وحناعها وعمره ذراعان ولا يمكن تمييز الماشية عليه من الدواب وغيرها

إلا بالشد والجذب ، فانه لا ينهياً ولا تستقر عليه البهيمه وكذلك أكثر الناس
يجعل البهيمه والإنسان في مثل الزنبرك ويسحب الرجال الذين قد تعودوا العبور
عليه (١) .

نكتفي بما أوردناه من الكتب العربية ، شهادة على معلومات علماء العرب
والاسلام عن الصين في القرون الوسطى . ونستأنف البحث عن العلاقة التجارية
في الباب الآتي :

الباب الرابع

في العلاقة التجارية

إن العلاقة التجارية بين الصين والعرب ، قد بدأت قبل الإسلام بمدة قرون وكان ذلك كما أسلفنا ، بطريق البر والبحر معا ، إلا أن طريق البر كان أكثر تنظيما في ذلك الوقت . وقد كان التجار يحملون بضائعهم بالمراكب إلى الصين أيضا وذلك قد يئنا من قبل . فلا نرى حاجة إلى إعادة الكلام فيه . ونختص هذا الباب لبحث العلاقة التجارية بين بلاد الصين والعرب في زمن الإسلام .

يظهر من المكتب التاريخية والرحلات القديمة ، لكتاب المعتبرين في الثقة والمصحة ، مثل ابن خردادبه ، وسليمان السيرافي ، وابن بطوطة ، وغيرهم من العلماء ، أن التجارة بين الصين والعرب ، قد أصبحت منظمة في القرن الثامن من الميلاد . ثم ازدهرت في التاسع إلى القرن الرابع عشر ، أي بعد انقراض حكومة المغول في الصين وكان ذلك في سنة ١٣٦٧ م . ودليلا على ما قلناه أن كتاب العرب الذين قد كتبوا عن الصين ، عاش أكثرهم في غضون هذه القرون وأولهم ابن خردادبه ثم سليمان الناجر السيرافي ومعاويه كافي زيد الحسن السيرافي والمعمودي . وبفضل وجود هذه التجارة واستمرارها بين موالي الصين وموالي بلاد العرب ، زاد علم العرب عن الصين من ناحية ، وزاد علم الصينيين عن بلاد العرب من الناحية الأخرى . انظر إلى ما يأتي . فتجد أن هاتين الايتين كانتا مرتبطتين بصلات وثيقة من الناحية التجارية أيضا .

أما طريق التجارة بين هذين البلدين ، في زمن الإسلام فهو مثل ما كان فيما قبله . وكان ذلك بالبر والبحر معا . إلا أن طريق البحر في عصور الإسلام ،

صار أكثر استعمالاً ، بخلافه قبل الإسلام ، فلما نرى أن أكثر الكتاب كانوا
يتمتعون بطريق البحر أكثر من طريق البر ، نجاءوا ، أو فر بيان عنه في كتبهم .
وأما طريق البر فلا تجد عنه شيئاً في كتب العرب ، إلا ما جاء في عجائب
البلدان ، لأن ذلك الشيء . وما كتبه الثاقوت والفراء ، فيقول عنه ، وسعود
إلى أبي دلف ، عند ما شكك عن طريق البر إلى الصين .

وهنا يزيد أن تلقى نظرة ، على طريق البحر ، والمراسي التي بين خليج فارس
والصين ، لأن معرفة أحوال التجارة ، متوفرة على معرفة هذه الأمور . وبما
لا شك فيه ، أن أول موانئ العرب في التجارة البحرية في زمن للإسلام ، مع
الصين ، هو مدينة البصرة ، التي أنشأها الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين ، وكانت
تنافس سمرقند في التجارة والعمران في القرون الوسطى . لكن الدهر قد أخفى
على مدينة سمرقند وبما آثارها من الوجود . غير أن البصرة لا تزال مودعة
بين المدن البصرية فأصبحت الآن من أهم المراكز التجارية في العالم .

فالمراسي التجارية التي كانت تقل البضائع من البصرة ، إلى الصين ، تمر
بطبيعة الحال ببلاد عمان ، ومسقط ، وجزيرة البحرين وأبلة ومرمر بخليج فارس .
وكانت عدن أيضاً من أهم المدن التجارية بتجارتها مع العرب ، لأنها قد وقعت موقع
مركز التجارة في البحر الأحمر بين مصر وسواحل خليج فارس . ولقد روى
الاستاذ هيرت Hirth ، عن كورموغيتسي ، أن تجارة الصين مع المدن ، كانت
موجودة في القرن السادس من الميلاد ، ومن الأشياء التي ذكرها كوزمو ، حبيب
الصين الذي كان يأتي إلى سيلان أولاً ، ثم يحل إلى عدن . وابن خردادبه لم
ينكر عدن أيضاً ، فإنه قال أنها من المراكز المهمة ، لا يزرع بها ولا يضرع ، وبها
العنبر والعود والمسك ومنتجات الهند والصين .^(١) ويؤيد هذا القول
الادريسي ، إذ قال : إن مدينة عدن صغيرة ، لكنها مشهورة بأنها مرمى السفن

التجارة التي تبحر منه - إلى الهند والصين. وتأتى من الصين أنواع من البضائع مثل الحديد والمنسك والكاغذ والنفار والكافور والدار الصينى وغير ما من الأشياء الأخرى (١).

فالمراسى التي كانت المراكب التجارية تفت بها في طريقها إلى الصين : هي ملابار ، وسيلان ، ومآبد ، وممير ، وسماطرة ، وجاوة ، ونونكين . وأما المدن الصينية التي كانت مقترحة لتجارة العرب وغيرهم من الإيرانيين والروم ، فهي كانتون ، وجوانجو ، ويانجو ، وهانغجو ، وبلا شك فيه ، أن جزيرة سيلان ، قد وقعت موقعا مركزيا للتجارة بين الصين وخليج فارس في زمن الاسلام ، كما كان في زمن قبله . وعندنا أدلة من كلام كوزمو ، الذي عاش في القرن السادس الميلادى . لقد نقل كلامه الأستاذ ولسن ، مؤلف : خليج فارس ، وهو يقول : من بين التجار الذين يشتغلون في مبادلة البضائع بين الصين وخليج فارس في القرن السادس للميلاد ، العرب والإيرانيون والأحياس ، وكان مركز اجتماعهم في تلك الأيام جزيرة سيلان (٢).

أما في زمن الاسلام ، فأقدم مصدر للعلاقة التجارية ، هو ما كتبه ابن خرداذبه ، عن طريق البحر من البصرة إلى خانفو (كانتون الآن) . ثم سلسلة التواريخ السليمان السمرقاني ، فالمعلومات التي وجدت في الكتب الأخرى عن هذه التجارة ، مأخوذة من هذين المصدرين . غير أن ابن بطوطة قد ذكر جانباً من هذه التجارة في زمانه . لقد أشرت في فصل : كتاب الاسلام والصين ، إلى ما نقل المتأخرون من السالطين عن البيان عن أحوال الصين واختلاف بعض أقوالهم في بعض الأمور . وهنا لا نريد أن نكرر ما قلناه سابقاً ، بل نرجع رأساً إلى ابن خرداذبه وسليمان ، ننظر ماذا قالوا في القرن التاسع للميلاد عن طريق البحر إلى الصين ، حينما كان أهل أوروبا لا يشعرون بأهمية التجارة البحرية وتأثيراتها في العلاقات الدولية .

(١) Wilson: The Persian Gulf. p. 57.

(٢) ابن خرداذبه ص ٦١ .

كان طريق البحر إلى الصين كما جاء في ابن خردادبه ، عن سرنديب ثم تيمومة (وجاء في ابن الفقيه قيومة) ، وذكر ابن خردادبه أن في تيمومة ، الدود الهندي والكافور ومما إلى فار مسيرة خمسة أيام ، وبها العود القهاري وأوز ومن فار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام وبها العود الصيني وهو أفضل من القهاري لأنه يفرق في الماء لجودته وثقله وبها بقر وهو اميس^(١) .

ومن الصنف إلى لوقين (تونكين) وهي أول مرافئ الصين مائة فرسخ في البر والبحر ، وفيها الحجر الصيني والحارير الصيني والغضار الجيد الصيني وبها أرز ومن لوقين إلى خانقو وهي المرفأ الأكبر . مسيرة أربعة أيام في البحر ومسيرة هذين يوماً في البر ، وفيها الفواكه كلها والبقول والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر ، ولكل مرفأ من مرافئ الصين نهر عظيم تدخله السفن يكون فيه المد والجزر^(٢) .

وما كتب ابن خردادبه ، عما يتعلق بالصين من الناحية التجارية هو من مجرد هذه بحسب لاف سليمان السيرافي ، فإنه سافر إلى الصين مراراً . والجزء الأول من سلسلة التواريخ من مشاهداته التي حصلها في رحلاته البحرية . ومنه تعلم أن السفر البحري من خليج فارس إلى الهند والصين إذا كان في الحالة العادية ، كان يضم عدداً كبيراً من التجار الذين يترددون بين الهند والعراق ، أو بين الصين والعراق . ومن أقواله المتعلقة بالموانئ التي تقف بها السفن وتضمن البضائع أو تفرغ بها ، أن أكثر السفن الصينية تحمل من السيراف وأن المئذ قد يحمل من البصرة وعمان وغيرهما إليها فيما بها في السفن الصينية . وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء ١٢٠ فرسخاً فإذا عجز المئذ ، يملأون إلى مقيط والمسافة إليها نحو ١٢٠ فرسخاً . وفي شرق هذا البحر فيما بين سيراف ومقيط من البلاد ، سيف بن الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفيه جبال عمان . وفيها الموضع الذي يسمى الدودور ، وهو

(١) ابن خردادبه ص ٦٨ .

(٢) ابن خردادبه ص ٤٩ .

مضيق بين جبلين تسلطه السفن الصفار ولا تسلطه السفن الصبغة لكبر ما
وضعا، هما.

ثم إلى صجوانه محاب وإلى بلاد الهند وتقصده المراكب إلى كوم، وإلى كرم على
نهر السفن الصينية. ثم إلى هر كند، وكلاء مار، ثم تيرمه (جاء في ابن خردادبه
نيمومة)، ثم كندونج، ثم صنف، ثم صندوفولات، ثم إلى أبواب الصين، وهي جبال
في البحر بين كل حيلبر فرجة تر فيها المراكب. فإذا سلم الله من صندوفولات،
خطفت المراكب إلى الصين في شهر، إلا أن لجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة
أيام^(١)، فإذا جازت السفينة الأبواب ودخلت النور، صارت إلى مار صذب
وإلى المارضع الذي ترسى إليه من بلاد الصين وهو خانفو^(٢).

وهنا كتب ديران تشو، في أوائل القرن التاسع من الميلااد عن سفر
(وجراودي) من السيلاان إلى الصين في سنة ٧٧٧ م. فمهم أن إيران كانت لها
سفن تجارية تنقل بين موافق الصين وخليج فارس، لأن (وجراودي) حينما
وصل من شمال الهند إلى الدلائق وجد هناك سفينة إيرانية مشحونة بالبضائع
والأمتة التي من الأحجار الكريمة. فاستمر إلى (پالم بانغ) (Palembang)
مع الجار الإيراني، بعد الإقامة بها أسبوعاً، فمر پالم بانغ ووصل إلى كاتشون في
سنة ٧٢٠ م^(٣).

ويظهر من التاريخ أن بحر الهند كان تحت نفوذ ملاحه إيران قبل الإسلام.
فلما ظهر الإسلام في جزيرة العرب وانتشر إلى الممالك المجاورة في بقعة عقود من
السنين، وقويت سيطرته في البر والبحر، حلت ملاحه العرب محل ملاحه الإيرانيين
في خليج فارس، كما أنه قد حلت محل ملاحه الروم في البحر الأبيض. إننا القوة التي

(١) نجد هذا البيان في ابن الفقيه الذي نقل عن سليمان كما أشرت إلى ذلك

في صفحة

(٢) سلسلة التواريخ ص ٢٠ - ٢١

(3) Hadi Hasan: History of the Persian Navigation, p. ٦8.

كانت تنافس قوة العرب في البحر بالشرق في الفترة التي بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر من الميلاد ، هي قوة الصين تحت أبناء السماء . فلعلم حقا أن نفوذ العرب البحري في الشرق كان قويا جدا لا يكاد يساويهم فيه أحد من الأمم ، لكن الصينيين ما كانوا متأخرين عن العرب في الملاحة البحرية ونفوذهم البحري لم يكن أقل من نفوذ العرب ، خصوصا بسواحل الهند وخليج فارس . وعندنا شهادات من الكتّاب العربية ، تؤكد ما قلناه في هذا الصدد . أولا نفهم من كلام سليمان السيرافي أن مراكب الصين إلى خليج فارس في زمنه ، كانت أكثر من مراكب العرب إلى الصين ، لأنه ذكر مراكب الصين يسيراف ولم يذكر مراكب العرب بكتاتون أو بجاوة . ومع هذا ، لا نشك في أن السيرافيين كانت لهم سفن من عندهم تنقل بين سواحل الهند والعراق من جهة وبين خليج فارس والبحر الأحمر من جهة أخرى وقد لاحظ أبو زيد السيرافي ، سفر السفن السيرافية إلى البحر الأحمر وإن كانت لم تذهب بعيدة عن جدة ^(١) .

فأفنى الأدلة التي تدل على نفوذ الصين البحري بخليج فارس في القرن التاسع من الميلاد ، هو وجود نفوس الصين يسيراف ولاند ذكر أبو زيد الحسن السيرافي في الجزء الثاني من سلسلة التواريخ ، أن هذه "ملوس مصنوعة من نحاس وأخلاق من غيره ومعدجة به ، والفلس منها في قدر الدرهم البغلي وفي وسطه ثقب واسع يدخل الخيط فيه وفيه كل ألف فلس منها ، فقال من ذهب ويظلم الخيط منها ألف فلس على رأى كل مائة عقدة فإذا ابتاع المتابع ضياعا أو متاعا أو بقلا ، فما فوقه دفع من هذه الملوس على قدر الثمن وهي موجودة يسيراف وعليها نقش بكتابتهم ^(٢) (رسم الفلس الصيني الذي ذكره سليمان التاجر السيرافي في سلسلة التواريخ) .

(١) Wilson : The persian : Gull. p. 58.

(٢) - سلسلة التواريخ ص ٧١ .

وإذا نظرنا إلى ما كتب المسعودى في مروج الذهب ومدن الجواهر نجد أن بعض أقواله يوافق ما قال سليمان السيرافى . فان المسعودى الذى اجتمع مع أبى زيد الحلى بالبصرة في سنة ٨٨٠ م ، قد حكى عن تاجر سموقدى خرج من بلاده ، ومعه متاع كثير إلى العراق بطريق البر . لحمل من حمازه واتحد إلى البصرة وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان وإلى بلاد كلة فتبى إليها مراكب الاسلام من السمرافين والمانيين في ذلك الوقت . فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم . وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك . لأن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والآلة والبصرة .

اتفق المسعودى مع سليمان في أن مراكب الصين كانت تأتي إلى بلاد عمان وسيراف ، واختلف معه في أن كلة - صارت ميناء للمراكب الواردة من سواحل فارس والبصرة وسيراف في وقته . ولم يكن لكلة مكانة في التجارة البحرية في زمن سليمان . وقولها على كل حال لا يخرج عن الإشارة إلى نفوذ الصينين البحرى في خليج فارس ، سواء كانت مراكبها ترسى على سيراف أو على كلة .

ويظهر من قولها أن السفر من خليج فارس إلى كانتون في ذلك الوقت ، كان بمراكب الصين لكثرة ورودها إليه . فظل هذا النفوذ إلى زمن ابن بطوطة . لأنه لما وصل إلى كاليفوط (Calicut) بسواحل الملابار ، وجد أن وقت وصوله غير موسم سفر المراكب الصينية ، فاضطر إلى الانتظار هناك ثلاثة أشهر حتى تسافر مراكب الصين . ففي هذا يقول : « أقنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر وبحر الصين لا يسافر فيه إلا مراكب الصين » . وقوله هذا يكشف لنا عن أن الصينيين كانوا قابضين على زمام الملاحة في البحر الهندي وإن كان يشاركونهم غيرهم في بعض الأحيان .

فالمراتب الصينية التى كانت تختلف إلى سواحل الهند وخليج فارس ، من أنواع مختلفة ، فالنوع الكبير منها يقال له « جنك » (Junk) ، والمتوسط يقال له

(زر) والصغير منها ، كسك . ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قاما ، فما دونها إلى ثلاثة وقاما من قضبان الخيزران ، منسوجة كالخصر ، لا تحط أبدا ، ويشيرونها بحسب دوران الريح وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ، ويتقدم في المركب منها ألف رجل منهم ستائة من البحارة ، ومنهم أربعائة من المقاتلة يكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصف والمثل والربيع . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلات وهي مدينة الصين . وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب ، يصلون ما بينهما بأغصان ضخمة جدا موصولة بالارض والطول بمسامير ضخام ، طول المسار منها ثلاثة أذرع ، فإذا انقضى الحائطان بهذه الخشب ، صعدوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفنوهما في البحر وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب ، تكون مجاذيفهم . وهي كبار كالصواري يجمع على أحدهما العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويحذفون وقفا على أقدامهم ويجمعون للمراكب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والنداس ، وعليها المفاتيح ويدها صاحبها ويحمل معه المجاري والنساء وربما كان الرجل في مصريته ، لا يعرف به غيره عن يكون بالمركب حتى يتلاقيا ، إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحارة يكتنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والخبثيل في أحواض من خشب ووكيل المركب كانه أمير كبير . وإذا نزل إلى البر . مدت الرماة والخيشان بالخراب والسيوف والطبول والأبواق والنفير أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم فيه ، ركزوا رماحهم على جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يمد بها وكلائه إلى البلاد ، وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين (١) .

نظم بما ورد هنا ، نظام المراكب الصينية التي كانت تنقل بين كانتون وخليج فارس وحياة البحارة مع عائلاتهم فيها . فلا تحتاج إذن إلى مزيد بحث في هذا الأمر .

فتجه في السطور الآتية إلى المراسي الشهيرة التي كانت ترمى بها المراكب في سيرها بين موانئ العراق والصين .

ومن هذه المراسي ، هرمز . وفقد خصص الأستاذ ولسن ، مؤلف « خليج فارس » فصلاً طويلاً لهرمز ، ويبحث فيه من الناحية التاريخية ، ومن الناحية الجغرافية . وإذا أنت أحييت أن تعرف هذه المدينة القديمة ، تستطيع أن ترجع إليه فيما كتب في هذا الباب . لكن مولانا السيد سليمان الندوي ، أحد متاعير هذا اليوم ، لا يكون أقل من الأستاذ واسن في البحث عن هذه المسألة التاريخية . فانه خصص عدة صفحات في كتابه (هند وعرب كي تعلقات) بإسكان الآردو ، لمرفأ هرمز وما جاء به من البحوث عنها ، كله مستند إلى أهميات الكتب العربية . ولا يقتبس بعض الأقوال من السيد الفاضل ، إذ كان كتابه في تناول يدي في الوقت الحاضر . لكنني أكتفي بما وجدت في (مطلع السعدين) لعبد الرزاق السمرقندي الذي عاش في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ومن كلامه تعرف أهمية هذه المدينة من الناحية التجارية والملاقات الدولية في القرون الوسطى .

قال عبد الرزاق : لما وصل إلى هرمز في سنة دبلو مائة من قبل شاه رخ ، صاحب إيران وتوران إلى ملك الصين ، أن هرمز مرفأ عظيم يخليج فارس ليس له نظير على وجه الأرض ، ولهذا المرفأ اسم آخر ويسمونه اجروم . حيث يجي التجار من الأقاليم السبع ، من مصر والشام ومن العراق وبلاد فارس . ومن خراسان وما وراء النهر ، من تركستان وبلاد قفجاق وقندوك وجميع الممالك الشرقية ، مثل الصين وما صين (حاجين) وخانيق ، ومنا أناس يقطرون على شواطئ البحر ويأتون بالاجار من الصين وجاوة والبنغال والسيلان ومن بلاد زوباد وديا مل (جزيرة مالديب) وملابار وأخيشة وزنجبار وسجامر وجلمرك وكجرات وكاباي وعدن وجدة وينبع ، والجاوون يأتون هنا من أنظار العالم ويفرغون بدون صعوبة ما جاءوا به من البضائع استبدالاً بما هو نظير له مما أرموا .

لقد كثرت الحديث في الكتب العربية عن سواحل ملابار وسرنديب، وأحوالها التجارية معروفة عند طبقات العلماء. وما لاشك فيه أن هذه البلاد كانت من أهم المراكز التجارية بين الصين والعرب كما عرفنا ذلك من ابن خردادبه، وسليمان المبراني والمسمودي وابن بطرطة وغيرهم من الكتاب المشهورين في التاريخ والامم. إن ملابار، كانت مجتمعاً للتجار الصينيين والبرانيين كما أنها كانت مجتمعاً للتجار الفحشيين ولاجاش، وأما التفاصيل فنجد ما في كتاب السيد سليمان التدمري في باب التجارة الأندلسية بين الهند والعرب. وهذا الكتاب يضم خمسة أبواب في أكثر من ١٠٠ صفحة من القطع الكبير. وخلق بين يدي هذه المسائل، من علماء الاسلام. من يفسر هذا الكتاب وهو بلسان الاردن، إلى اللغة العربية، فقد حوى من النوادر ما لا يحصى.

ومن بين المراسي التي ترمى بها المراكب الصينية والعربية، (مآبد) وهي على جنوب الهند، مواجهة جزيرة سيلان. ولقد ذكرها المسمودي والادريسي في علاقتها بالصين من الناحية السياسية والتجارية. فنقول المسمودي ما يأتي: «ولهم مدن كبيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة وملوكهم تستعمل الحصان في عمليات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين. والمآبد مجاورون لمملكة الصين، والرسل تخلف بينهم بالهدايا وبينهم جبال شعبة وعقبات صعبة. وأهل المآبد، ناس عظماء البطش والقوة. وإذا دخل رسل ملك المآبد مملكة الصين وكل ملك الصين بهم ولا يتركهم ينتشرون في بلادهم خيفة أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم، لكبر المآبد في نفوسهم»

ومن قول الادريسي: «إن أهل المآبد أشبه بأهل الصين من غيرهم». أعني كل من جاور الصين من الأمم وملوكها عبيد خصيان حسان وخدم يبيض وبلادهم

وجزيرتهم تتصل بالصين ، وهم براسلون ملك الصين ويصادونه ، وهذه الجزيرة
مراكب الصينيين الجارحة من جزائر الصين واليا تطلع وبها تحط ومنها تخرج
الى سائر النواحي (١) .

من هذه الكلمات ، يتجلى نفوذ الصين في هذه الجزيرة من نواح كثيرة .
أولاً أن صاحب المآبد كان يقلد الصين في بعض العادات مثل استخدام الحصيان في
العبارات ولم يكن هذا معروفا في الهند القديم .

وثانياً كان يرسل رسالة الى الصين بالهدايا والتحف لتحسين العلاقة السياسية
والتجارية . وأخيراً أنها قاعدة التجارة البحرية الى اليها تطلع المراكب الصينية
وبها تحط ومنها تخرج الى سائر النواحي كما نرى ذلك في الادريسي .

هناك مرسى آخر من الصين والبلان يقال له : يالم بالنع (بشرق مساطرة
وبسيف العرب (جزيرة الرافى) في كنهم من القرن التاسع الى القرن الخامس
عشر الميلادى . لكن ما جاء في كتاب (جيوكوا) من مملوءات عنها ، لم يذكر
في كتب العرب . لانهم لم ينظروا الى هذه الجزيرة إلا على سبيل الاجمال . نعم يتجلى
من كلامهم أهمية هذه الجزيرة في التجارة البحرية والمواصلات البحرية ، فغير أن
أنواع الصادرات والواردات لم تذكر أبداً . وتستطيع أن تقرأ ماذا في (جوفانكى)
أو التذكرة عن البلاد الأجنبية ، يقول فيه (جيوكوا) علاوة على حاصلات
خاصة لهذا البلد ، منها الصدف والكافور والعود والقرنفل والصندل والقافلى
وجميع الأنواع من الاعواد الطيبة هناك . نجد لؤلؤا وماء الورد ، والسكندر والمر
والصبر والذئبت واصطارك والعاج والمرجان وعبون الهرة والفبر ومنسوجات
القطن الأجنبية وكل هذه من واردات البلاد التى تحت سيطرة العرب .

أما الأجانب الذين اجتمعوا بهذه الجزيرة لأجل التجارة ، فيستبدلون هذه
الامثلة بالذهب والفضة والفخار والعنابر ونياب السكناجب والسندس والاسبرق
والسكر والحديد والارز والراوند والكافور وغيرها من الاشياء .

لجلاوة أيضا من المراسى التي ترسى بها مراكب التجارة الصينية، وهي معروفة عند علماء العرب والاسلام منذ زمان قديم، وكان لها اتصال بالصين في الشرق وبالغرب في الغرب من ناحيتي التجارة والسياسة، ولقد زيني كلام في هذا الصدد إذ قال: أن الجلاوة وهي بلاد على ساحل بحر الصين بما يلي بلاد الهند في زماننا لا يصل التجار من أرض الصين إلا إلى هذه البلاد، والوصول إلى ساحلها من بلاد الصين متعذر بعد المسافة^(١) واختلاف الأديان. فالتجار يجلبون من هذه البلاد العود الجاوي والكافور والسنبل والقرنفل واللبان والنفط والصينية منها يجلب إلى سائر البلاد^(٢)

لقد زار هذه الجزيرة ابن بطوطة وذكر بعض حاصلاتها مثل العود والقرنفل والكافور وشجرة اللبان وهي شجرة (لستك) المعروفة الآن. وكانت الصين تستورد هذه الأشياء منها لقرنها.

ولمؤلف، التذكرة عن البلاد الأجنبية، ملاحظة خاصة عن هذه الجزيرة، فقل عنها جميع الكتاب العرب، وهي أن أهل جاوة كانوا يضربون النقود من سبائك النحاس والفضة والتكار وكان الستون من هذه النقود، تساوي مثقالا من ذهب و ٣٢ منها نصف مثقال منه. ولقد ذكر كليم الأستاذ هيرت، مترجم التذكرة عن البلاد الأجنبية، في هذه المسألة، استنادا إلى (تاريخ كراوفولد — History of Crawford) (ص ٢٨١ من الجزء الأول) وقال: من بين الآثار القديمة الذهبية التي اكتشفت بكثرة بجاوة، أنواع مختلفة من النقود المصولة من النحاس والتكار، لكن نقود الذهب المصورة القديمة، لم تكشف حتى الآن ولو مرة واحدة، وأما نقود الفضة، فتوجد مرة أو مرتين فقط. ومن رأى الأستاذ هيرت، أن المسلمين الأولين الذين سيطروا على زمام هذه البلاد، قد

(١) وقول لفرزوي في هذا غير صحيح لأن مراكب الصين كانت تصل إلى البصرة في القرن التاسع للميلاد.

(٢) آثار البلاد ص ١٨

علموا أهلها استعمال الذهب نقداً ، والدليل على هذا ، أن جميع الأنواع من النقود الذهبية ، التي قد اكتشفت في جاوة إلى الآن ، توجد عليها نقوش عربية وأسماء السلاطين المسلمين الذين عملت لأجلهم . وقد اكتشفت في جاوة سكة نحاسية عليها عدة صور خيالية وعليها حروف عجمية ، متعذرة القراءة والفهم الآن ، واعتقد علماء الآثار أنها من أقدم العملات في جاوة وهي من عملات الملوك البوذية الذين كانت (ما جيب ميت) عاصمتهم فلما جاء المسلمون وورثوا أرضهم باذن الله ، عملوا نوعاً من النقود من هذا المعدن أصغر مما كان في عهد البوذيين . وفي زمن ابن بطوطة كان عليها الملك الظاهر شافعي المذهب . وكانت الداماسة في التجارة يقطع قصدير وبالذهب العقيق ، للبر غير المسبوك ^(١) .

وأما الأرض التي بعد جاوة ، فتكلمها الصين ، وسنذكر مرافقها ، إن شاء الله تعالى بعد أحوال التجارة بطريق البر عن آسيا الوسطى في زمن الاسلام . وقد قلنا من قبل أن طريق البر بين الصين والفرار ، كان عن تركستان وماوراء النهر والمدن التي بهذه الطريق ، هي كاشغر وقرغانة وسمرقند وبخارى وخجوا . قدينة صغدا كانت نقطة مركزية في هذه التجارة قبل الاسلام فلما بلغ الاسلام تلك البقاع الفاصية وقبت الدول الصغيرة أمام قوة العرب ، سقطت مكانتها التجارية لأن مدينتي بخارى وسمرقند ، قد نهضتا وانتشرت آثارهما إلى المدن المجاورة فكسحتنا عظمتها حتى أصبحت صغدا لا مكانة لها أمام مائتي المدينتين الساميتين .

لا شك في أن زمام التجارة في آسيا الوسطى في القرون الأولى للهجرة ، كان في أيدي العرب الذين قد فتحوا هذه المدن أو أكثرها ، فاستحكم حكمهم هناك . لكن الخلافة العباسية ، بعد عصر هارون الرشيد والمأمون أخذت تفقد قوتها في تلك الولايات الفاصية بينها الوسطى ، وكان ضدها في أمور خراسان

(١) ابن بطوطة ج ٢ — ص ٢٣٧ (بولاق)

وما وراء النهر سبب نهضة قواد الاتراك من قبائل مختلفة . فأسس الظاهريون
وبنو بويه والسامانيون دولهم في خراسان وبخارى وسمرقند والمزوتوبون في أفغانستان
ولم تطل هذه الأسرات في حكمهم والتفوذ ، فكر ظهورها في آسيا الوسطى ،
أفاد تلك البلاد من بعض النواحي .

ومن المعلوم أن الأدب كان يزدهر في خراسان تحت بني بويه ، وفي غزنو تحت
محمود بن سبكتكين ، وفي بخارى تحت السلاطين السامانيين . وأما التجارة فقد
تمهضت إلى حد كبير خصوصاً في المملكة السامانية ، حتى رأى كتائب العرب من
الضرورة أن يدوروا هذه الحركة في كشمير لكي يعرفوا الأجيال اللاحقة . وما ذكر
في المكتب العربية عن الحركة التجارية نعيم أن المملكة السامانية كانت مركزاً
عظيماً لتجارة العالم الإسلامي ، إليها ترد البضائع من كل ولاية بعيدة أو قريبة ،
ومنها تصدر إلى جميع الجهات من أقطار العالم الإسلامي .

وما هو ذا ما نقل الأستاذ برتولد (Berthold) عن المقدسي في هذا الصدد .
قال : أن البضائع التي كانت تصدر من مدينة ترميد ، صابون ، وحلثيت ومن
بخارى المنسوجات البديعة والسجاجيد الجميلة والمفروشات النخيلية والمصاييح النحاسية
وثياب طبرستان والسروج . المنسوجات الشنوية (مصر) والشحم وجلود الضأن
والدهون والطور . ومن أرمينية المناديل ، ومن دابوسية وودهار ، المنسوجات
الودهارية التي تصنع بصبغة واحدة ، يجمعها خلفاء بغداد ، تطلس خراسان . ومن
رحيم جان ثياب الزمام من الصوف الأحمر والسجاجيد والجلود والأواني النحاسية
والقنب والكثير . ومن خوارزم ، الديالاب وجلود السمور والقاقمور وفرو
الثعالب والفنك وجلود كلاب الماء والأرانب المنقوشة وجلود المعز والشموع
وعشور القمان والنبال والقلائص المرفقة بشكل ، المصنوعة من الدروة ، وغروبة
السك وأسنانها وزيت الخروع والحرير وجلود الخيول المدبرغة والعسل والنسور
والسيوف والألمحة والمواد الخالجي . ومن السلافيا العبيد ومن بلغاريا الضأن
والانعام ويصدر من خوارزم أيضاً العنب والزبيب واللوز والمشم والسجاجيد البطانية
والاطلس والنفطيات والمنسوجات والأقواس الآلية التعويج (لا في أيدي الأبطال
والزبدة والخميرات والامماتك والاحذية ومن سمرقند المنسوجات المطرزة بخيوط

الفضة الملونة وأواني النحاس الكبيرة والجرارات الخجلة والحياض والركاب والاجام والاسار. ومن ديباق الاحواف. ومن يثا كيت مصنوعات تركستان، ومن الشاش السروج المصنوعة من جلود الخيل والاوراق والحياض والجلود الواردة من بلاد الانراك، والمصليات وقلائد الجلد والعمرة والافراس البديعة والابرة واقطن للانراك والمفص. ثم تصدر من سمرقند الاحاسر إلى بلاد الترك والمنسوجات الحمراء المبروقة باسمه ومرجل. هناك، ونياب السيد (بلاد الفرس) والحرير والمصنوعات الحريرية والبندق وغيره من أنواع الخرز. ومن فرغانة واسفياب عبيد الترك ومنسوجات بضاء، والاسلحة والسيوف والنحاس والحديد، ومن تراز جلود الماعز ومن شلجي الفضة. وإلى هذه الأماكن تساق الخيول والخيول من تركستان ومن الخطل أيضا. وأما اللحوم التي يتغذى، أو البطيخ الذي يقال له (الشق) هناك ليس له نظير. وكذلك الاقواس بخوارزم والفخار والشاش والكواشف بسمرقند. (١)

ونظرا إلى كثرة الامتعة التي عدها آفا، فقد أن الاصطخري كان صادقا فيما قال عن ثروة أهل ما وراء النهر وغناهم. ومن كلامه أن أهل ما وراء النهر أغنياء في كل شيء، غير محتاجين إلى حاصلات بلاد أخرى حتى قال: أما نواحة ما وراء النهر فاني لم أر ولا يلقى في الإسلام، بلد أحسن خارجا من بخارى، لأنك إذا علوت من قلعتها، لم يقع بصرك من جميع الواسي إلا على خضرة يتصل خضرتها بلون السماء. فكان السماء بها مكتبة خضراء مكتوبة على بساط أخضر يلوح القصور فيما بينها كالزهر وأراضي مناعهم مقوم بالاستواء كأنها المرآة (٢)

من شواهد استثناء ما وراء النهر عن غير ما من البلاد، أنها تملك أكثر من عشرة آلاف رباط في كثير منها، إذا نزل انزل، قم، علف دابته، وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك (٣) ويؤكد القزويني وقامية الجيش وهذا أهل ما وراء النهر بقوله

(١) Turkistan Down to the Mongol Invasion, pp. 235 - 236.

(٢) أقاليم الأرض ص ٢٦١

(٣) أقاليم الأرض ص ٢٥٨

أنها من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيرا وليس بها موضع خال عن العبارة
من مدن أو قرى أو مزارع أو مراعي ، وواقوها من أصح الادوية ومياهها أعذب
المياه وأخفها . وبلادها بخارى وسمرقند وجند وخجند وأهلها أهل الخير والصلاح
في الدين والعلم والسباحة فان الناس في أكثر ما وراء النهر ، كانوا في دار واحدة
وما ينزل أحد بأحد إلا كأنه نزل بدار نفسه من غريب وبلدى ، وهمة كل امرئ
منهم على الجود والسباح فيما ملكت يده من غير سابقة معرفة أو توقع مكابأة (١)
ثم كانت هي أقوى الولايات في عهد نوح بن أسد من ناحية الجبل والشمال
وذلك قد علمناه مما كتب نوح بن أسد الى عبد الله بن طاهر ، إذ كان المتعمم
يهدده قال : بما وراء النهر ثلاث مائة ألف قرية ليس من قرية إلا أخرج منها
فارس ورجل (٢)

أما الصناعة فلا شك أن نهضتها ، بما وراء النهر ، كانت متأثرة بصناعات
الصين التي قد حدث عنها ابن الفقيه وقارن بين صناعات خراسان وصناعاتها .
وكان العرب الفاتحون قد وجدوا مصنوعات الصين بهذه البلاد وفي أسواقها .
ومن الجائز أن استهلكها قد نفص إلى حد ما ، إذ نهضت الصناعات المحلية في عصر
العباسيين تحت رعاية السامانيين ولقد ترقى هذه الصناعات إلى درجة بالغة حتى
تمكن أهل ما وراء النهر من تصدير أشياء كثيرة إلى الصين فيما بعد ، ولقد تسكلم
الادريسي في هذا الصدد قائلا : يحمل أهل ما وراء النهر إلى الصين كثيرا مما
عندهم من الصناعات والجواشن والآتاس والمفاصع والنياب والماسك ونحو ذلك
مما يحتاجون اليه ويصرفون (٣) . أثر الصناعة الصينية في صناعات
المسلمين بما وراء النهر كان واضحا جدا ، فبدأ العرب يدهون فعلا ، جميع
الاوراق التي تحمل فيها جمال الفخ أو كال الصناعة الصينية مع أنها من مصنوعات
ما وراء النهر (٤)

(١) آثار البلاد ص ٣٧١ (٢) أقاليم الارض ص ٢٥٩

(٣) ترمذ المشتاق ج ٢ ص ٢٩٧

(٤) Turkistan Down to the Mongol Invasion. p. 256 .

وأما الشيء الذى أحرز أعظم الشهرة من بين صناعات ما وراء النهر ، فى العالم الاسلامى فهو منسوجات الحرير واقطر . التى كانت تصنع بوادى زرفشان ، ومصنوعات الحديد التى بفرغانة ، خصوصا الأسلحة التى تباع فى بغداد فاشتهرت فى أسواقها . لا تشك فى أن العالم الذى أثر فى ترقية هذه الصناعة المعدنية ، بفرغانة ، هو وجود ما جم الفهم الذى توجد بكثرة ببلدة إسماعلة . فوجود الفهم هناك مهل الطريق لسناعات الحديد حتى استطاعت فرغانة تصدير كمية كبيرة من الأسلحة إلى الصين شرقا وإلى بغداد غربا .

تأثرت صناعة ما وراء النهر إلى أعظم حد بدناعة الصين من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى فبها تأثير مصر أيضا . وذلك ظهر فى اسم منسوجات الديبقة (المنسوية الى ديبق) التى كانت تصنع بواحي خوارزم ، ومن الثياب الاشملوى كما ذكره المفردى ، مع أنها لم تكن من مصنوعات أشمون بمصر .

بعد هذه الحاصلات التى تحتاج إلى الكسب على حسب مصاعى الناس ، وتنمى بقوة الأيدى واجتهاد الأفراد ، هناك فيما وراء النهر أشياء طبيعية ، لا تحتاج إلى الجهد فى كسبها ولا الكد فى تحصيلها . فإن قدرة الله ، وفطارة الأرض ومزاج الجو ، قد أعدتها لأهل تلك البقاع فى وقتها وعلى ما يلزم . ومن هذه الأشياء الطبيعية التى يتمتع بها أهل تركستان وما وراء النهر بلا تعب ولا مشقة ما ينتج من الأشجار وما ينتج من الأنعام ، فنظر الى تلك الجبال المحضرة الممتدة بين فرغانة وبلاد الأتراك ، نجد فيها من أعشب وجوز وشماع وسائر الأنواع من الفواكه الأخرى التى لا تعرف أسماؤها ، وورود ونعنعج وباسمين وزعفران وغيرها من الرياحين — كل ذلك مباح لأهل تلك الناحية^(١) ثم انظر الى بلاد الأتراك بخلافهم . رجيحون تجدد أن أهلها من أصحاب الأيل والاشنام والحيول ولا يقار وعندهم وفرة من اللبن واللحوم ووفرة من الزبد والألبان وزيادة عن الحاجة من الفرو والاصواف ، كل هذه نعمة الحياة وأقواء نفعية . فياخذون ما يسد حاجاتهم

ثم يبيعون ما زاد عنهم من حاصلات وماشية الى التجار الذين حضروا بلادهم من الصين والهند والعراق والروس .

ففي عهد السامانيين كان الطريق بين حدود الصين وخراسان آمنا وكان السفر بينهما على سهولة والمرحلة كانت تسمى في تلك الايام برباط وذلك تعرفه من أبي دافد اليبغى الذي سافر الى سندابل ، في دولة دبلوماسيه الى ملك الصين ، ثم رجع الى بخارى بأمره صبيحة الخويج ابن نصر أحمد الساماني الذي كان عظيم الشأن ، كبير اللطائف ، فيستعصر في حته أهل الطولي ، ونخب عنده موازين قوى القدرة والحول قدون ما رآه في هذا الطريق في غرائب البلدان ، وقيل عنه الفزدق وياقوت ، وقالا عن أسامة بأهل قبيلة وصلنا اليها بعد أن جاوزنا خراسان برما وراء النهر من مدن الاسلام ، فبادر في بلد يعرف بالحركاء فقامنا في شهر ثم خرجنا الى قبيلة تعرف بالطغمداخ ، وسرنا فيها ، ما في أمن ودعة يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ، ويقودون الأنارة الى الحركاء اقربهم الى الاسلام . ثم انتهينا الى قبيلة يقال لها الخرخيز (قرقيز) ، ولهم بيت عداة وقلم يكثرون به . ولهم رأى ونظر ولهم كلام موزون يتكلمون به في أوقات صلاتهم ، وأعلامهم خضراء ، ويصلون الى الجانب ويمطون زحل والزهرة . ثم اتينا الى موضع يقال له الغليب ، فيه نواحي عرب من تخلف عن تبع ما غزا بلاد الصين ويتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكثرون بالعربية ولا يعرفون قننا ويمدون الأصنام ولهم أحكام ، وحظر الزنا والعشق وما حكمهم به ندم ملك الصين ثم انتهينا الى مقام الباب وهو بلد الرمل تكون فيه حجة الملك وهو ملك الصين . ومنه يستأنس لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم .

فدنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك ، يغير لنا عند رأس كل فرسخ ركوب . ثم انتهينا الى وادي المقام ، ثم أشرقنا على مدينة سندابل وهي قصبة الصين وبها دار المملكة ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع الى دار الملك وبها بيت عبادة عظيم ، أعظم من بيت المقدس وفيه تماثيل وتماوير وأصنام وبد عظيم .

وعلى طول الطريق وجد أبو داف النبع كثرة البر والشعير والارز والدخن
والبقول الصحرانية والفواكه وأصناف اللحوم من البقر والضأن والماعز وتغذى
بها بدون دفع ثمنها. وذلك دليل على رعاها الجيش وحكم الرجال وسلامة
الحياة هناك.

وبعد السامانيين جاء قوم يقال لهم (فراخطاي) على مسرح تركستان وأصلهم
غير معروف عند طبقات المؤرخين. ولقد خدموا الأستاد رتولد فصلاً طويلاً
الاربخوم، لكنه لم يأت رأي قاطع فيما يتعلق بأصلهم. ففي عهد (فراخطاي) ،
كانت التجارة بين الصين والممالك الإسلامية برا تجرى في بحرهما الطبيعي إلى أن
ظهر الخلاف بينهم وبين خوارزم شاه. وكان ذلك في أوائل القرن الثاني عشر من
الميلاد. طاعت بينهم الحروب المتداولة حتى انتهت بإبرام معاهدة صداقة بين
خوارزم شاه وروساء فراخطائيين في سنة ١٢٠٩ هـ. وعلى أثر هذه المعاهدة ،
سافرت قافلة تجارية من إيران إلى تركستان الشرقية وهي تركستان الصينية بينها
وكان مع هذه القافلة الشيخ السدي الشيرازي ، صاحب كلستان وبوستان فزار
كاشغر ونحدث إلى أباها عن الإسلام ومحمد هذا الدين الحنيف

ففي أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، كانت التجارة البرية قد كسبت أهمية
أعظم من التجارة البحرية لأن التجارة عن طريق البحر كانت عرضة
مضطربة بسبب الحوادث التي ظهرت في خليج فارس. وقد وقع خلاف بين
صاحب هرمز وصاحب كيش فسمى كل جانب في منع تجارة لده من الخروج من
ملكته إلى ملكة غيره ، فأصحاب السفن التجارية التي وصلت من الهند والصين ،
وأرسلت على المرسى لهذا أو لذلك. كانوا بطيئة الخال غير أحرار في الخروج من
المرفأ ، فامتنعوا حيناً عن الدخول من التجارة. برا عن طريق هرمز وكيش ، فبدب
هذا الاضطراب في التجارة البحرية ، نهضت تجارة البر فكثرت الرواد بين غرب
الصين والبلاد الإسلامية عن طريق تركستان .

ويظهر من التاريخ أن هذه التجارة قد اصطفت في القرن الثالث عشر من

الميلاد بالصيغة الحكومية حين نافي خوارزم شاه، في قوة والباطلة، جنكيز خان الذي ظهر في منغوليا وفتح نصف بلاد الصين. فبعد محمد خوارزم شاه وفدا برياسة بهاء الدين الرازي إلى الصين ليحقق ما وقع هناك من التطورات والتغيرات ثم سافرت في أثره قافلة تجارية من مملكة خوارزم شاه، وتوغلت إلى منغوليا عن طريق شمال (تيان شاه) وأما كيف حصل عن هذه القافلة، فقد كورة في كتاب الجويني. وكانت بقيادة ثلاثة التجار الكبار وهم أحمد الخجندی وابن أمير الحسن وأحمد البلخي. وكان هؤلاء حملوا معهم المنسوجات المزركشة بخيوط الذهب والقماش الزماني لحظ وأصر جنكيز خان بفرارهم في مرافقة بهاء الدين الرازي وطالبوا أكثر ما يلزم لكن على كل حال، أمر جنكيز خان بتوقيض بالش، ذهب عن كل قطعتين من المنسوجات المزركشة، وبالش، فقتل عن كل قطعتين من القماش الزماني وقد لاحظ الجويني، أن المغول في هذا الوقت أظفروا إلى المسلمين بهين الاحترام والذهظيم، ففسبوا لهم غياما بضياء وأنزلوهم منازل التكرمة والاحترام. فلم ياتهم من هذا الاكرام فيما بعد ذلك قد نشأ من الخطايا التي جناها المسلمون على أنفسهم.

كان جنكيز خان في بادئ الامر رجلا المسلمين، فقد بعث رسولا منه وقافلة تجارية إلى غرب آسيا، ودعا الزبارة وقد خوارزم شاه. وبناء على ما ورد في النسوي كان محمود الخوارزمي وعلى خواجة البخاوي ويوسف كوكا الاقراي، على رأس هذا الوفد حملوا الهدايا الثمينة إلى شاه باسم جنكيز خان، واعتدوا منه أن يحافظ على الصداقة القديمة التي كانت بينهما. لكن الخدعة التي وقعت سنة ١٢١٨ م بمقام أترار، قطعت حبل هذه الصداقة وحوالتها إلى عداوة مستحكمة بين خوارزم شاه والعباسيين كان من أبرز نتائجها. فموط بغداد فيما بعد.

لكن التجارة بطريق البر بين الصين، وبلاد الإسلامية في عهد المغول الذين تمكنوا من توحيد تلك آسيا تحت سيطرتهم بعد تخريب بغداد وغزاهم لم تكن بمقطعة، لأننا نقرأ بعض التفاصيل في تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله الذي

ذكر في كتابه غير مرة ، قدوم التجار المسلمين لجانياتي ، بالمرصعات والمزوكشات والجوامع للبيع إلى أغنيائها وأمرائها . وكان في تردد التجار المسلمين إلى عاصمة الصين ، زيادة ما حوصلة في إيرادات خزانة الدولة . فلما اشتد قبلاي خان على المسلمين في عهده ، بسبب نية (ماركوبولو) الرحالة التي في ، الذي أحرز بعض الثقة في تلك الأيام عند هذا العاهل المغولي في خايبالي وحرمهم من كل الذبيح والزواج على طريقة شرعية إسلامية وذكروهم على الدول بقوانينه يساق ، وهي مجموعة من أحكام سننكيزية ، لمنع التجار المسلمين عن زيارة عاصمة الصين حيناً من الدهر نشأ من ذلك قصر تخلف في إيرادات ولم يبلغ هذا الحكم القاضي إلا بعد شذوذه بقله الإيرادات وكساد التجارة إلى مد بالغ (١) .

وأما الطرق المؤدية إلى عاصمة الصين ، فهي تنحدر كما نقل ذلك ، السرايايوت عن رشيد الدين فصل الله ، من كابل إلى بنجاب ، ثم إلى دهلي ، ثم إلى بنغال . ومنها تدخل الصين عن طريق التبت (٢) .

وأما التجارة بعد هذا القول فذكر ما صاحب خطاي بابه ، باللغة العربية كتب في أواخر القرن الخامس عشر من الميلاذ لفدنتل الاستاذ شيفر وهو عالم فرنسي ، بعض الأبواب لهذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ألهم بها بحث عن علاقات المسلمين بالصين (Les Relations des Musulmans avec Chinois) وروى عن تاجر مسلم في ثلاثة أن ذلك ثلاث طرق لدخول الصين : طريق عن منغوليا ، وآخر عن خن وثالث عن كشمير . ولا شك أن طريق منغوليا هو الذي كان تجار تركستان وما وراء النهر يعمرون . وأما الذي عن كشمير أو عن خن ، فكان للتجار الذين وردوا من بلاد الهند . وأنا سأؤكد أن هذا الكتاب يحوى بعض البيان عن جميع التاجر والبضائع التي كانت تباع في الصين في القرن الخامس عشر من الميلاذ ومن العجيب أن الأسود واقم وكانت أيضاً من سلع التجارة

(1) H. Howarth : History of the Mongols. P. 245.

(2) Elliot: Vol. I. P 72. -

في تلك الأيام وكان أسد واحد يسافر ثلاثين ألف قطعة من الفماش في أسواق الصين^(١).

أما تجارة العرب في الصين فمما أدته كثرة وافرة فيها يملق بها من المصدرين العربي والصيني.

فن المصدر العربي نعرف أن من أهم مدن التجارة للعرب في الصين ، لوقين وخانفو وحدان وموسه وسينية الصين وسيل. واقعد كر ابن خرداذبه عن لوقين وهي (نونسكين) الآن. أنها أول مرفأ الصين ، فيها الحجر الصيني والخزير الصيني والغضار الصيني الجيد وما أورد^(٢) ثم تكلم عن خانفو وهي (كانتون) الآن قائلا : أنها المرفأ الأكثر فيها القواكه على اختلاف أنواعها والبقول والخضرة والشعير وقصب السكر. ولعلين السيراقي. كلام عنها أيضا. فإنه قال أنها مرفأ السفن ويجمع تجارت العرب^(٣) وقال أبو دلف اليزمي مدينة التجار والأموال خانفو، طولها أربعون فرسخا. وجاء الإدريسي فأكد ما قال السابقون بقوله أنها من أعظم مرفأ الصين وبها ملك مهاب، له ملكة حميدة الخصال وقبيلة كثيرة وأجناد وأسلحة وأعمالها بأكلون الأرض والنازجيل والألبان وقصب السكر والفل^(٤). ويظهر أن ابن بطوطة لما ذهب إلى الصين لم يرد هذه المدينة الكبيرة لأنه لم يذكرها في رحلته ، لا صراحة ولا إشارة.

واقعد ذكر كثير من كتاب العرب مدينة حدان ، منهم المسعودي والإدريسي وذكر ابن بطوطة هذه المدينة تحت اسم الزيون. وهي أول مدن الصين التي

(١) تمدن عرب ، ترجمة بلكرام ص ٥٥

(٢) ابن خرداذبه ص ٦٩

(٣) سلسلة التواويخ ص ١٣

(٤) ابن النديم ص ٩٩

(٥) ترجمة الشافعي ج ١ - ص ١٢٩

نزل بها . فالضبط في ابن بطوطة ، أقرب إلى الصحة ، لأن الاسم الأصلي هو (Tche-Tung) وهي مدينة جوان شو الآن . ولقد رأى ابن بطوطة هذه المدينة وقال عنها هي : مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكتخاب والاعطاس وتندب إليها ، ومرساها أعظم من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها . رأيت بها نحو مائة جنك كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة . واجتمع بها كثير من تجار المسلمين والعلماء المشهورين ، وسند كرم في محل آخر .

وأما مدينة سومة ، في نزعة المشتاق للأدريسي ، فلم أستطع تحقيق إسماها الأصلي في المراجع الصينية . ويظهر أن المراد بها هو مدينة (سو-جو Su-Chow) وذكر أنها مدينة مشهورة معلومة مذكورة ، كثيرة التجارات ، متصلة العمارات ، جامعة الخيرات ، وأموالها كثيرة وتجارها مباركة موفورة . وقراها معترف به في الآفاق ومتصل بكل الأمصار ويصنع بها الغضار الصيني الذي لا يبدله شيء من نثار الصين جودة وبها طور كثيرة مشهورة ومعمل الحرير الصيني الرفيع التقسيم ، المحكم الصنعة الذي لا يقرون به غيره .

وأما صينية العين التي وردت في كتب العرب ، فهي اسم غير صيني وضع لمدينة في الصين ، ويظهر أنها محرقة عن كلمة فارسية وهي : مهاجين ، كما جاء في تحقيق الأعراب لصديق الأصفهاني المتوفى سنة ١٦٨٠ م . وهما : في السنسكريتية وفي الفارسية القديمة : معناه : كبير . فهم أجين معناه : الصين الكبرى . . وقول ابن بطوطة يؤكد هذه النظرية . فإنه قال : أنه سافر إلى مدينة صين كلان ، من الزينون ، في ٢٧ يوما . وصين كلان ، هي صين الصين (أو صينية العين في الإدريسي) . فكلمة : كلان ، معناها كبرى في العربية بالضبط . وبناء على ما جاء في المغرب ، لابن سعيد المغربي الذي عاش في القرن الثالث عشر من الميلاد ، أن صين الصين ، هي عاصمة بلاد : نزي ، أي ولاية فوكين الحاضرة (١) .

التي كان وجودها يكافون ، وجراشو ، وهاتج جو ، يدل على اهتمام الحكومة الصينية بهذه التجارة ، قبل الترخيص لأي مركب بالسفر أو تمرير شحنته ، قطاب من اليابان ، أن يقدم كدفع لمناجر بالمركب إلى ناظر الإدارة المذكورة . فتجى عليها الضرائب ورسومات النقل في مياه الصين ، وكانت البضائع الثمينة أو النادرة ، متنوعة التصدير ، وكان العمل على نهيب البضائع ، موجبا العقاب بالسجن على قدر الجريمة .

ويجب على اليابان أن يسلم جميع المركب من المنحدر والبضائع إلى الماء ، ودين بإدارة المراقبة عند الوصول إلى مرفأ سائو ، وبودعه في شارة الحكومة حتى وصول آخر المركب لموسم التجارة ، ثم توضع ملاون في المانة من البضائع ، ضريبة أو رسوم للحرك ، ويرد الباقي منها إلى أصحابها وسائجان الناجر السيراتي ملاحظات في هذه الفظة أيضا ، قال :

وإذا دخل البحريون من البحر ، فبعض الصينيون مانعهم ويحرمونهم في الشبوت وضمانه الفرك إلى ستة أشهر ، إلى أن يدخل آخر البحريين إلى بلادهم من كل عشرة ، ثلثها ، ويسلم الباقي إلى التجار .

وقيل القرن التاسع من الميلاد ، انتقل قديم كير من الجارة البحرية إلى مدينة (جوان شو) في ولاية فركين ، بقرب أموي الخطيرة . وكانت هذه المدينة من قبل ، علاقة تجارية مع اليابان وكوريا وجوة وغيرها من جزائر الملايا والغرب الذين وصلوا هناك في أواخر القرن التاسع من الميلاد ، وجدوا بها البضائع ليقاع الصين الثانية ، التي لم يكن من السهل الحصول عليها بخافو . بعد زمن قليل نهضت (جوان شو) إلى الدرجة الأولى من بين المراتب البحرية ، فكثير الزوار من العرب والابرايين إليها بوجود هؤلاء التجار بهذه المدينة ، شملت فيما بعد ، في العالم الإسلامي إلى نفوذ البرتغاليين في الشرق ، لاسم الذي وصفها به أن بطوطه في رحلته وهو الزيتون ، الخريف من اسمها الأصلي (Tchre-Tung) .

ولعل الحوادث التي ظهرت في الصين في أواخر القرن التاسع من الميلاد، حين ثار الثوار على الأمير هانور (Hi-Chune) ٨١٤ - ٨٨٩ م، ونهبوا سوجو وجانغ شرة، دخلت هذه الحركة التجارية حينئذ من الدهر، فاجتنب التجار الأجانب الذين كانوا يقيمون بخاتو وجوان شو، مقامات الفتنة ولجأوا بأموالهم وأنفسهم إلى سواحل جزائر موزمبيق، حيث نأى المراكب عن سيرا ف وبلاد عمان ومن مدن الصين أيضاً.

وأما المراكب التي كانت تفر بالهضائع بين الصين وخليج فارس فيها ما هي مينة ومنها ما هي عربية، لأن ساليان والمدودي وابن بطوطة، قد ذكروا مراكب الصين بخليج فارس، بالسرقة وسواحل الهند، ومراكب العرب إنما ذكرت في بعض النسخ الصينية، وهو ما في جوفانكي، أو التذكير عن البلاد الأجنبية، بلويوكو، الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر من الميلاد، وأنه قد دون ما رأى وما سمع، في تذكيره عن الجانب، إذ كان مشغلاً في مصب المرافئ السام للبحارة الأجنبية ولاية فوكين، فكلما في هذا الصدد - حجة لا ترد - ولم يكن حديثه مفصلاً على المراكب، بل تعداه إلى نفوذ تجارة العرب في الصين أيضاً.

وقد تعددت تجارة العرب في الصين بعد تلك الفترة من الفتنة والفساد التي ذكرها ابن الأثير وأبو زيد، جاءوا ببضائع شتى إلى كانتون وجوان شو، وإنما نقرأ في تاريخ الصين لهذا العهد، أنهم كانوا يتعاملون مع العرب في القرن العاشر من الميلاد، كما يتعاملون مع أهل جزائر ملایا وسيام والجاوة وسامطرة وجزيرة نيكوبار والهند، فأثروا ببضائع البلاد التي مروا بها في طريقهم إلى الصين، كما أنهم قد حملوا المنتجات من بلادهم، فلواءات الرنسية من بلاد العرب كما ورد في سلسلة التواريخ، كانت: البامج والكندر والحنس والصف والكاغور وقرون السكر كدن.

فناديخ سونغ (Sung) قد ذكر أسماء الواردات والصادرات التي حصلت

بوساطة العرب أو الإيرانيين في أواخر القرن العاشر من الميلاد، وهي الذهب والفضة والفلس الصيني والمسكوكات والرخاس والمنسوجات على اختلاف ألوانها وأشكالها والفخار والتضار والاعواد والبطور وقماش القطن والصدف وقرون الكركدن والمقيق والبلور والعاج والمرجان والعمر وفلانن الثؤلث والآبنوس.

وكان لحكومة الصين احتياز عظيم بهذه التجارة وزادت أهميتها في القرن العاشر حتى وضعت الحكومة يدها على زمام التجارة وجعلتها نوعاً من احتكاراتها ولتسيطر الأعمال التجارية تحت أمر بطور الصين وفودا إلى الخارج وكانوا يحملون معهم الخطايات المحتومة بخاتم الامبراطور ومقدراً عظيماً من الذهب والفضة لتفقات الدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب (Nanhai) وترقيهم في زيارة الصين وعدم برخصة خاصة لبضائعهم، فكانت النتيجة التي ظهرت من مساعي الحكومة في تشييط التجارة الخارجية واضحة جداً حتى امتلأت مخازن الحكومة في غضون أيام فلانن بالعاج وقرون الكركدن والثؤلث، اللازورد والاعواد وجميع الأنواع من المتاع التي وردت من الهند وخليج فارس والجزائر التي في بحر صنف، ولاتعداد الاسواق لهذه البضائع الواردة في ملكة الصين، كان الناس يرغبون تحت تأثير الدعايات المفاضة في شرائها بالذهب والفضة أو بالقماش الصيني الحرير والأرز وغيرها من منتجات الصين. وكانت التجارة الخارجية موزدا من موارد الدولة، لذلك اهتمت بها واطمأنتها نظماً دقيقاً.

ولقد قلنا فيما سبق أن المراقبة على التجارة البحرية كانت قائمة بكاتون منذ القرن الثامن من الميلاد، وقد ذكرها ليان السيراتي في كتابه. ثم أتمت هذه الادارة فيما بعد وأطلق عليها اسم إدارة البحر في سنة ٩٨١ م بسبب التقدم التجاري وتطور العلاقات التجارية بالخارج. ولتحصيل أوفر حظ من مافع التجارة، أسست دار البحر في تلك السنة وبعد نصف سنيين أعلنت احتكاراتها التجارة الخارجية. وبناء على هذا الاعلان، أصبحت التجارة مع الاجانب عن غير طريقها موجبة العقاب بالنقل إلى جزائر مجهولة.

يقول جويوكوا، اتسع هذا النظام إلى مرفأ آخر بعد عدة سنوات ، فأنشئت
الجناك العامة بمصحة (كييانغ شو) وصدرت الأوامر إلى جميع المراقبي ، أن
الاعطور والبضائع المظيمة القيمة القليلة الورد ، يجب أن تودع مخازن الحكومة
بعد ورودها إلى المصيرة أما بكاتون ، وأما نجوان شو ، أو بنوكتين ، أو بليانغ شو
ففي سنة ٩٩٩ م أسست إدارة فرعية بحركية في كل من مدينة هانغ شو ، (وهي
الحناءة في ابن بطرطه) ومنغ شو . وقد قيل أن هذا قد جاء بناء على طلب المأمورين
الاجانب ، ترويجا لاعمالهم وتخفيفا مسئولياتهم ^(١) ، وفي عهده تاني جو ، وعهد
تاني جونغ ، (٩٦٠ - ٩٩٧ م) من أسرة سونغ (Sung Dynasty)
أنشئت وظيفة جديدة يقال لها ، زي به شي ، أي مراقب التجارة البحرية وكان
من واجباته ، تفتيش شحنات السفن وجمع الضرائب وهي عشرة في المائة
بالنسبة إلى قيمة البضائع ^(٢) .

من المعلوم أن مدن (كاتون) في (كانغ تونغ) و (منغ شو) و (هانغ شو)
في (جيكيانغ) و (جوان شو) في (فوكين) ، كلها على شواطئ البحر . فطبيعي
أن تأتي إليها السفن من جميع البلاد التي كانت لها علاقة تجارية بالصين . وفي بادئ
الأمر كانت إدارة الجمر قائمة بمدينة (كاتون) فقط . فلما اتسع نطاق التجارة
وصكتر ورود السفن من الخارج ، عجزت هذه الإدارة عن مراقبة التجارة
الخارجية التي تقدمت سريعا فزاد النشاط وكثرت الحركة . فدها الحال إلى إنشاء
إدارات أخرى بجميع المراقبي وعين فيها المأمورون المسئولون عن إدارة المراقبة
بكاتون وغيرهم لتنظيم شؤونها . فعند ورود السفن ، كان المراقبون ووكلاء
التجارة ، يصعدون إليها ويختبرون ما فيها من الشحنات والبضائع فقدروا قوتها
على كلمة التجار أنفسهم . ثم يأخذون رسوم التفريغ على أساس عشرة في المائة
بالنسبة إلى القيمة الأصلية . وأما ضرائب الأثاؤ والكافور وجميع الأنواع من

(١) Chao Ju-Kue, P. 20

(٢) يظهر من هذا القول أن رسوم الجمر قد خفضت منها ٢٠ في المائة
بالنسبة إلى زمن سليمان

البضائع النفيسة، فتؤخذ من جنسها على قاعة سابقة، فالجار يستطيعون بعد ذلك أن يبيعوا متاجرهم في أسواق الصين بحرية كاملة.

ويظهر من كلام (جويوكوا)، أن هذه المراقبة كانت شديدة جدا، حتى إذا كان أحد من التجار يتعزى على مثل شيء من مفهوم قيل دفع الرسوم المطلوبة فقد عرض بضاعته للصادرة، وبقي للمقاب. (١)

فالمراقبة الشديدة التي تجرى في هذه الأيام، لم تكن مقصورة على السفن الواردة، بل تعدتها إلى السفن الصادرة أيضا. وكانت هذه المراقبة تنفذ على المراكب الصينية فقط، لأن مراكب العرب ومراكب سمرقند، إن لم تتوقع عودها إلى الصين ثانية، فلا يؤخذ أصحابها، ولا يسجل إلى مؤاخضة أصحابها، إن أرادوا لو الأمر ذلك. وإن عادوا فرحنا، فالمراقبة للسفن الواردة، نفذ فيهم كما تقدم أما المراكب الصينية، التي تهاجر إلى البلاد الأجنبية، فيعبد كل ما فيها من الرجال والبضائع في دفتر خاص في مكتبة المراقبة. ويؤخذ أصحابها عند العودة، إن وجدوا شيئا مفقودا منهم وليس عند أصحاب السفن بيان واضح مقبول عن الشيء المفقود. ولأنه بقيت هذه المراقبة إلى زمن ابن بطوطة (ولم يبق وقت قدوم البرتغاليين إلى بحر الهند)، فتبناها في رحلته، بالمبارات الآتية.

وعادة أهل الصين إذا أراد جئك من جنسهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يصادف فيه من الزمان والخدم والبحرية وحيث يباح لهم السفر. فإذا عاد الجئك إلى الصين، صعدوا إليه أيضا. وقالوا ما كتبوه بأشخاص الناس. فإذا نفدوا أحدا من أيدهم طالبوا صاحب الجئك به، فلما أن يأتي به زمان على موته أو فراره، أو غير ذلك من أحداث له، وإلا أخذ فيه. فإذا فرقوا من ذلك، أمروا صاحب المراكب أن يلى عليهم نهرا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم يزل من فيه ويحضر حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإن عثروا على ملة قد كتبت عنهم، عاد الجئك بجميع ما فيه مالا من الحكومة (٢)

(1) Chu Ju-Kua. P. 20

(٢) ابن بطوطة ص

وأما الملاحة في القرن الثاني عشر من الميلاد ، فقد تقدمت تقدما عظيما باستعمال ابرة المغناطيس ، كما يسميها العرب . وكانت هذه الأبرة معلومة عند الصينيين من عهد قديم باسم (الأبرة المشيرة الى الجنوب) . فتعلم العرب منهم في أسفارهم البحرية الى الصين ومنكلم عن مدا في آخر باب من هذا الكتاب ، حين بحث في نتائج العلاقات . وما تكتنف هذه الاشارة فقط . وقد أفادت هذه الأبرة المغناطيسية السفار البحرية افادة كبيرة . وسهلت السير في البحار ، وأمنت التجار من الضلال . وكانت النتيجة الطبيعية أن تقدمت التجارة البحرية بين الصين والعرب وذلك ما نراه في زيادة الرسوم والضرائب والإيرادات الحكومية . فلقد أخبرنا جويركوا ، أن الضرائب على الواردات في سنة ١١٧٥ م ، وفي السنين اللاحقة قد بلغت ٥٠٠٠٠٠ مثقالا من الذهبية ، وأما ما أخذ من أجناس البضائع ، ضريبة عليها ، فغير محسوب في هذا المبلغ .

وبناء على ما ذكر في جوفانكي ، من أن العرب كانوا يشوردون الكندر من مريد وصحار وحضرموت ، والمرة من جنوب العرب وعدن ، وبسلاد السوماليين ، والفاطر من جنوب العرب وسماطرة ، والبخور من اليمن والاشياء الآتية من الممالك التي تحت حكم العرب السترك السائل ، وبخور الايران ، والاعواد ، والقرنفل ، وجوزة الغصص ، والخلثيت ، والصبغ والمرجان ، والمزجاج ، والبلور ، والؤلؤ ، والعاج .

كان للتجار المسلمين حرية مطلقة في الانتقال بين بلدة وأخرى في داخل بلاد الصين ، كما لهم حرية في الإقامة ، بأي مرفأ من المرافئ . ولحفظهم من الوقوع في الخطر وتأمين أموالهم وأنفسهم ، وكانت الحكومة الصينية ، قد وضعت قانونا خاصا يقضي بتسجيل المسافرين في داخل حدود الصين وما معهم من الامتعة والاموال ، وقانونا آخر يقصد به مراقبة الفنادق بجميع المدن . فكانت حكومة الصين ساهرة على حفظ أموال الاجانب وحياتهم ، وتنفى عناية خاصة براحتهم وتأمينهم إذا انتقلوا من مدينة الى مدينة أخرى ومدة إقامتهم بها . وكل ذلك نستطيع أن نعرفه من الكتب العربية . فسلجان السير في الذي ذكرته غير مرة ، قد تكلم

في سلسلة التواريخ ، عن تسجيل المسافرين وما معهم من الامتعة وكان النظام في ذلك أن من أراد سفرا في بلاد الصين من بعضها إلى بعض ، يجب عليه ، أن يأخذ كتابين من الملك والخصى ^(١) . أما كتاب الملك ، فللطريق باسم الرجل وامم من معه وكم عمره ، وعمر من معه ومن أى قبيلة هو وجميع من بلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد أن يتموا إلى شئ يعرفون به ، وأما كتاب الخصى ، فيالمال وما معه من المتاع ، وذلك لأن في طريقهم موظفين ينظرون في الكتابين فإذا ورد عليهم الوارد ، كتبوا : ورد علينا فلان بن فلان العلاني في يوم كذا وشهر كذا وستة كذا ومعه كذا ، لئلا يذهب من ماله الرجل ولا من متاعه شئ. ضياعا فنى ذهب منه شئ ، أو مات ، علم كيف ذمب ورد عليه أو على ورثته من بعده ^(٢) وهذا يشبه جواز السفر في الوقت الحاضر بجميع لوازم وحقوق صاحبه في البلاد التي يسافر إليها .

وكانت التجارة في الصين تجوز بمقد الدين ، وأصحابه فلما أنكروا حق ذوى الحق عند النزاع . لأن الحكومة كانت تشكل المتكرين بعقوبة جسيمة ومالية معا وطريق عقد الدين عديم في ذلك الوقت ، كما ورد في سلسلة التواريخ ، أن أحدا إذا كان له على رجل دين كتب عليه كتابا ، وكتب الذى عليه الدين أيضا كتابا . وعليه بعلامة بين أصبيه الوسطى والسبابة ، ثم يجمع الكتابان ويطويان جميعا ثم يكتب على فصلهما ثم يفرق فيعطى الذى عليه الدين كتابه باقراره ، فنى جعد أحدهما غريمه ، قيل له : أحضر كتابك ، فان زعم الذى عليه الدين ، أنه لا شئ له ودفع كتابه بخطه وعلامة وذمب كتاب صاحب الحق . قيل للعاقد الذى عليه الحق ، أحضر كتابا بأن هذا الحق ليس عليك فنى ما بين عليك صاحب الحق الذى جعده ، فطليك عشرون خشبة على الظاهر وعشرون ألف فككوج فلوسا . والفككوج ألف فلس ، يكون ذلك قريبا من ألفى دينار والعشرون من الخشبة فيما ، وونه .

(١) ويراد بالملك مناحكم البلد وبالخصى وكيل التجارة .

(٢) سلسلة التواريخ ص ١٥

فليس يكاد أحد يبلاد الصين يعطى هذا من نفسه مخافة تلفد النفس والمال، ولم تر
أحدا أجاب إلى ذلك، وهم يتدافعون بينهم، وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون
بشاهد ولا يمين^(١).

وأما مراقبة القنادق فكانت للأغراض السامية التي قلنا تلذت إليها أمم العصر
الحاضر، وهي منع التجار من الوقوع في الفساد. وكان تدبير الحكومة في ذلك كما ورد
في ابن بطوطة، أن التاجر المسلم إذا قدم على بلد من بلاد الصين، خير في النزول
عند تاجر من المسلمين المستوطنين، أو في الفندق. فإن أحب النزول عند
التاجر، حصر له وضعت التاجر المتوطن وأبقى عليه منه بالمعروف فإذا أراد
السفر، بحث عن ماله، فإن وجد شيء منه قد ضاع غرمه التاجر المستوطن الذي
ضمنه وأن أراد النزول بالفندق، سلم ماله له صاحب الفندق وضمنه وهو يشتري
له ما يحب وبما يسهل. وأما اتفاق ماله في الرحلة فشيء لا سبيل إليه ويقولون
لا نريد أن نسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا^(٢).

هذا ما كان عند ورود التاجر من الخارج. وأما سفرهم في داخل الصين، فشهد
ابن بطوطة بما يلي، أن بلاد الصين، آمن البلاد، وأحسنها حالاً للمسافرين. فإن
الإنسان يسافر متفردا مسيرة أربعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا
يخاف عليها. لأن نظام المراقبة على القنادق كفيل بحفظ المسافرين من مدينة
إلى مدينة. وكان الترتيب في ذلك، كما جاء في ابن بطوطة، أن لهم في كل منزل، يلازم
قندقا، عليه حاكم يسكن به في حماية من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب
أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من
بيوت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم. فإذا كان الصبح
جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه وكتب بها قصيرا، وبعث معهم من يوصلهم
إلى المنزل التالي له. ويأتي ببرامة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه، وأن لم

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٥

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٥١ (بولاق).

يفعل ، طاليه هم وهكذا العمل في كل منزل ببلاد الصين . وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافرون من الأزواد واللازم .

وقدر البيع والشراء والاخت والعطاء في زمن ابن بطوطة ، في الصين بالأوراق المالية التي سماها ابن بطوطة « دراهم الكاغذ » وكل قطعة ، منها على قدر كلف مطبوعة بطابع السلطان . وإذا استخرقت تلك الكواغذ في يد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضا عنها جدرا ودفع تلك ، ولا تعطى على ذلك أجرة ولا سواها . لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان . وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء ، وكانت الأوراق المالية في ذلك العهد أوثق في المعاملة من الدرام والدينارين عند الخايمير في الصين ، وكلام ابن بطوطة شاهد عيان إذ قال : « وإنما مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء لم يؤخذ منه ولا يكلف إليه »^(١)

(١) ابن بطوطة ج ١ - ص ٢٤٩ (بولاق) .

الباب الخامس

في الملاقة الدينية

كان للعبيدين دين قبل وصول الديانات الأجنبية إليهم ، وبين على الأوهام والخرافات ، كما كان شأن كل أمة من الأمم في جاهليتها الأولى . وكانوا يتخذون الأجسام السالوية والظواهر الطبيعية معبودة لهم ، غير مدققين بخالفات جوار ، تحت تصرفه كل شيء من الموجدات والكائنات . فعددت آلهتهم وتفرقت طريق عبادتهم (١) .

فالحكام الذين ظهروا في أرض الصين بعد زمن الخرافات ، مثل (لوتس) و (كانفوشيس) و (ماتي تس) و (مونشيوس) ، لا أحد منهم قد أتى بكتاب سماوي ، أو نظام ديني يسلط فيه الصينيون كافة ، إلا أن كلامهم يدل على عقيدة ، بذات ما وراء الطبيعة . فالطريقة عند (لوتس) شيء ليس بصوت ، ولا بصورة ، بقي دائما ولا تنفني إلى الأبد ، ووجوده قبل كل شيء غيره ، وهو أصل جميع الموجودات ، وروح جارية فيها .

فهذا التعريف لطريقته يوافق ما تقدمت به منات الله ، وأما السام ، في عقائده (كانفوشيس) فهو صاحب السلطة العليا لدى إذا غاظه الإنسان بارتكاب الكبائر ، فلا سبيل له إلى الجاه حتماً لذلك يقول : أين الدعاء من أغاظه السام . .

ليس هناك فرق كبير بين السام ، كانفوشيس و السام ، مونشيوس ، لأن الثاني كان تلميذ الأول . فحذا مذهبه في التفكير والبحث المنطقي وأما (ماتي تس)

فدينته دين المحبة . والاخاء . بحسب الأمن والسلام ، وبكره الحرب والقتال . ومبادئه
حبه ، تشبه مبادئ الحب المسيحي ، وأصول إغاثة مثل أصول أخاء الاسلام .
لكنه لم يضع ظاهرا لاضهار هذا الحب أو هذا الاخاء . فالكذب عن الله والاعتناع
عن نهب مال الناس ، وعدم السرقة وتحريم الخمر ، هو كل ما يستفاد من دواعي
الذخايب ومثوبات التأخر . ولا نرى غير هذا في دينه .

هذه الديانات تختلف كلها عن الاسلام في مسألة الحشر والنشر والحياة بعد
الموت من ناحية الاعتقاد . وفي مسألة المظاهر الدينية من ناحية العبادة . لأن أهلها
لا يصدقون بالحشر والنشر ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات . ولعل هذا هو السر
الذي أتى به أهل الصين في عقائدهم القديمة . مع أن أغلبهم قد اعتنقوا الديانة
البوذية إلى أصلها من الهند ولم تحدث فيهم أي تغيير من جهة الاعتقاد . مع أنها
قد أثرت في آدابهم وفلسفتهم تأثيرا واضحا . فالرجل الديني من أهل الصين ،
هو مجموع هذه العقائد والمبادئ التي ترجع إلى ديانات مختلفة ، منها ما هو مبادئ
كانافوشيرسر ، ومنها ما هو من عقائد لوتس ، ومنها ما هو من الأصول البوذية
ومنها ما هو من المسيحية . فتشخص واحد يمكن أن يمشي على هذه العقائد المختلفة
في مختلف أوقاته في الحياة بدون إحداث أي تضاد ورجحان في حياته العقلية .
فالصيني المدين اليوم ، هو به ذى مسمى ، كأنواشي ، وتووي في وقت واحد . أي
أنه حر في عباداته الدينية . بخلاف هذا أو ذاك . متى شاء غير مقيد بدين .

ومن الديانات الأجنبية التي تسربت إلى الدين قبل الاسلام . المانوية والمجوسية
والنسطورية . فدهول المانوية إلى الصين كان في القرن السابع من الميلاد عن طريق
تركستان ، لأن أكثر أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل الاسلام . فانتشر في شمال
الصين حتى أسس الهياكل لهم في الشطر الأول من القرن الثامن في بعض المدن
الشهيرة ولهم معابد كثيرة في ولايات هانان ، وشانسي ، وكثرة أتباع هذا الدين
يمكن أن تقدرها من الواقعة التي وقعت في عهد (دوجونغ Wu - Chung) ٨٤١ -
٨٤٦ م) إذ كان هذا الإمبراطور متشبها بعقيدة لوتس ، ومتشبها لها . فأمر

باعتقاد الديانات الأخرى . فهدم معابد المائوية والمجوسية والنسطورية . فقتل في عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسمة من رافعات المائوية ، ثم خفيت هذه الديانة من الصين^(١) .

أما المجوسية - كما أشار - أليان - الديرافي واليهودي وغيرهم من كتاب العرب - فقد دخلت الصين قبل الإسلام ، على الأقل بقرن لكنها لم تنتشر في دائرة واسعة النطاق . فلما فتح العرب بلاد إيران ، وقضوا على دولة كبرى ، فبرز جرد إلى الشرق ولجأ إلى عاصمة الصين . فأنشأ فيها معبدا للمجوسيين . ثم جاء بعض علماء المجوسية وبنوا دعوتهم في شمال الصين . لكن هذه الديانة لم تكن مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا في هذه الطائفة ، قتلوا بحداء لا يكادون يستحقون الذكر . وقد حبت آثارهم في سنة ٨٤١ م كما أفلما .

أما الديانة النسطورية ، فرسولها إلى الصين كان في سنة ٦٣٥ م وكان ذلك بناء على ما ثبت في كتاب تاريخية وجدت بمدينة (جيانغ آن)^(٢) . فأول من جاء إلى الصين الدعاية إلى النسطورية كان رجلا يدعى (أولوبن : Oloben) ، ويظهر من تاريخ الصين ، أنه استوطن بجانب - آن ، وبني معبدا للنسطوريين فيه واحد وعشرون رافعا ، وكان أولوبن ، رئيسا لهم ، ثم انتشرت هذه الديانة إلى بعض المدن الصينية الأخرى وأنشأوا فيها معابد ، فقتلوا أعمالهم على ألواح الحجر ونصبوها في المعابد ، تخليدا لذكرهم إلى ما شاء الله . أما النصوص التي توجد في هذه الشواهد الحجرية فمؤرخة الآن في تاريخ الصين العام^(٣) .

ويوجد ذكر ذهاب النسطوريين إلى الصين في بعض المکتب العربية أيضا . فقد روى ابن الأثير ، في الفهرست ، أن الجلائقي قد بحث سنة من علماء النسطورية إلى الصين للدعاية . فأتى خمسة منهم ورجع سادس وهو من أهل نجران إلى الروم بعد الإقامة بالصين نحو ست سنين ، في سنة ٣٧٧ م .

(1) Yang Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization. P. 267

(2) Hirth : China and the Roman Orient . - 286 .

(3) Yung Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization. p. 267

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة في أرض الصين ، وكادت تؤثر في حياة الصينيين لولا أن الخط لم يكتب ها في الشرق فأخرج المبشرون بها ، وهدمت ما أبداها في أواخر القرن التاسع من الميلاد . وحكاية الزامب من أهل نجران تشير إلى ذلك .^(١)

ولقد أطلت الكلام في ذكر هذه الديانات الأجنبية قبل الإسلام . مع أن الإسلام هو محور بحثي في هذا الباب لأن الأغلاط التاريخية التي تتعلق بوصول الإسلام ، لا يمكن أن تصحح إلا بسرد نبذة عن الأديان التي سبقتها . ولقد قيل أن الإسلام وصل إلى الصين في عهد (كاتو وانغ Ki Wang) من أسرة (سوي Sui) ومعنى هذا أنه دخل الصين بين ٥٨١ و ٦١٥ م وهذا مستحيل ؛ لأن عمداً صلى الله عليه وسلم لم يكلف الرسالة إلى الملم كافة إلا سنة ٦١٠ م .

والذي أراه أن القائل بهذا القول ، قد التمس عليه الأمر ، بحسب المجوسية التي دخلت الصين في أواخر القرن السادس الميلادي . دين الإسلام الذي دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته مظهراً في الأدلة والحجج ، إذ قال أم ديانة جاءت من الغرب ،^(٢) ففهم من الغرب ، والغرب ، ووقع في الخطأ دون أن ينتبه إلى أن الإسلام لم يأت له وجود في جزيرة العرب ، حتى السنة الثامنة بعد تهاجرة من تاريخ الميلاد . ولدي شك بأن وصول الإسلام إلى الصين قد وقع بين ٨٩ و ٦٠٥ م ، ثم شك برأيي بحاقف الواقع والتاريخ فالحقيقة أن الديانة التي قد وصلت إلى الصين في عهد (كاتو وانغ) هي الديانة المجوسية ، لا الإبراهيمية . وعندنا أدلة قلبية في المكتب الصيفية ، عند تلك الأدلة القلبية ، التي أشرنا إليها آنفاً

(١) ابن التديم ص ٤٩١

(٢) والمراد من الغرب ، في اصطلاح كتب الصين القديمة ، ما وقع في غرب الصين إلى البحر الأبيض واستبول .

تقدم بوصول البحرية في هذا العهد ، فالتا تعرف تماما أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى (جانغ - آن) في أول عهد (كائي وانغ) وأنشأوا المعابد هناك وعمروها وكانوا يتفنون في صنوتهم بأنشيد دينية ومن هذه الأناشيد نوع يقال له : « موفوتس » (莫浮提) يوجد ذكره في ديوان لغات الصين (١) . وقدر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأناشيد الدينية للمجوسيين الذين وردوا الصين في (عهد كائي وانغ) وهذا دليلنا قطع على خطأ من ادعى دخول الإسلام الصين في هذا العهد .

وأما اتصال الإسلام بالصين ، فذكرنا ذلك عن طريقين : طريق البر ، وطريق البحر ، ولقد بحث في باب العلاقة السياسية ، أن فتية بن مسلم الباهلي الفاتح لسكائنفر ، هو أول من بحث واتصل من العرب عن طريق البر إلى إمبراطور الصين في أواخر سنة ٧١٤ م (٩٦ هـ) فعرضوا عليه أحد أمور ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب ، وذلك من الوجهة التي بحيث لا يحتاج إلى زيادة بيان ؛ وأما تحديد الوقت الذي وصل فيه الإسلام بحر إلى الصين ، وعلى يد من كان ذلك ؟ فقد اختلفت فيه كلمة المؤرخين من عرب وصينيين كما سيأتي ذلك قريبا .

ولا نشك في أن الصينيين قد سمعوا كثيرا عن العرب قبل الإسلام ، بواسطة التجار الذين كانوا يتفنون بين (جانغ - آن) والفرانج ومن كانتون وخليج فارس ، كما كان العرب قد عرفوا كثيرا عن بلاد الصين ، إذ كان الإسلام لا يزال في مهده بكافح جملة قريش وعادهم (٢) . ويضلل هذا التعارف العلمي ، كالصينيون على علم بالتغيرات التي ظهرت في بلاد العرب في أوائل القرن السابع الميلادي ، حين علمت كلمة الحق على جبل البارز ، وأنتم في نور الهداية في غار حراء . فلذلك

(١) ديوان لغات الصين ج ١ : باب ص ٣٠٣ .

(2) Les Relations des Musulmans avec Chinois . p.2 .
- ١٤٠ -

وأما الكتب الصينية أخذت تعرض لذكر الانقلابات التي ظهرت في بلاد العرب في عدة مواضع . ومن رأى الأستاذ بریش فائدر ^(١) ، أن الأقوال في مؤلفات الصين القديمة عن البلاد الأجنبية ، أحسنها هو ما قبل عن العرب وأحوالهم ، وقال إن الآراء يكتفون من بطون بقراءة تاريخ (نانغ) وتاريخ (مونغ) وتاريخ (يوان) في أبوابها عن العرب ، لأن الصينيين في تلك الصور كانوا مطلقين جيد الاطلاع على أحوال الخلافة التي كانوا يسكنونها ملكة (نانغ) في كتبهم . وأما أصل كلمة (نانغ) في كتب الصين ، فلاستاذ نيومان (Neumann) البيان الآتي : « من اليقين أن العرب كانوا معروفين في المؤلفات المنسوبة إلى زرادشت وفي دساتير (Desatir) باسم « تازی » (Tozi) .

ومن المعلوم أن العرب منذ ظهور صاحب الرسالة في أواخر القرن السادس الميلادي بدأوا في النهضة والتقدم . وبسبب هذه النهضة كانوا يذكرون في تاريخ الصين لهد نانغ المظلمة (٦١٨ - ٩٠٧ م) التي كانت تحكم ملكة الصين الواسعة بالشرق ، كما كان الخلفاء يسيطرون على غرب آسيا . وإما الحديث عن العرب يوجد في « جيوتانغ شو » أي كتاب نانغ القديم ، وفي « شينغ شو » أي كتاب نانغ الجديد ، كما يوجد في « تهونغ ديان » (Thong Dian) فيه باب خاص للعرب . وإليك بعض ما ورد في هذه الكتب دلالة على أن الصينيين كان لهم علم بظهور الإسلام في بلاد العرب وانتدازه إلى البلاد المجاورة لها . مثل الشام وإيران ودمشق وغيرها .

يقول « كتاب نانغ القديم » : إن بلاد (نانغ) أي العرب ، بغرب إيران منهم بنو قريش ، والديانة في أيديهم . فنفرع من قريش يطان ، بنو هاشم ، وبنو أمية . ومن بنو هاشم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان شجاعا ، ذا دلم واسع ، فانتخب ملكا عليهم . وقد قاتل من حاله حتى غلب عليهم وسلط على يثرب

(١) كان طبيباً بالسفارة الروسية في بكين وله كتاب باللغة الانكليزية سماه « معلومات الصينيين عن العرب » ، طبع لأول مرة في سنة ١٨٧١ م بلندن .

وفي كتاب نافع الجديد ، ما يأتي : إن بلاد العرب شاملة الأرض التي كان قسم منها تحت حكم الإيرانيين ولربما أُنوف شائعة . ولحي سود ، يحملون السوف برائط العضة . لا يشربون الخمر ولا يعرفون موسيقى . ولأنهم يضاء يتقنن ، حينا يخرجون من البيوت . وفي بلاد العرب دميد عظيم ، فيه يخطب ماكم مرة كل أسبوع قائلا : إن الذين يقاتلون في سبيل الله وقتلوا من أيدي الأعداء ، يرفعون إلى الجنة ، ومن غلب على أعدائه يكون مميدا . فلذا أهل العرب كلهم محاربون مقاتلون شجعان ويصلون خمس مرات كل يوم . وأما أرض بلادهم فكثيرة الحجارة ، غير ثلاثة ترواحة ، فالكسان يستغلون بالصيد والقتص والرعي ويبيعون على الحرم والألبان ، وعدم جواد يقطع ١٠٠ ميل في يوم واحد . وعدم الأبل أيضا (١).

ويذكر تاريخ الصين أيضا أن هناك حاكمًا جبارًا من من أمية يسمى معاوية ، الذي وسع سلطه إلى بلاد الخيرة . وكان الرابع عشر من ملوك هذه الأسرة ، هو مروان الذي قتل أخاه . غضب منه زمام الخلافة . وفي هذا الوقت ، كان أبو مسلم الخراساني يثق مع عبد الله بن عباس على إمارة ط بن أمية ، فدعوا الناس إليهم ما ، وأعلن أن من يتحزب لعمره ما ، يعب عليه أن يلبس اللباس الأسود . وأما الذين قبلهم ، فمرفرا بالعرب ذري الملابس البيضاء . فجمع أبو مسلم جماعة عظيمة من الناس وقتلوا مروان آخر الخلفاء من بني أمية . وبعد ذلك انتخب أبو العباس . وهو من بني هاشم . ملكا فمخلعه أبو جعفر المنصور بعد وفاته (٢).

هذه أدلة قوية تشهد بأن الصيدين لم يفعلوا عن أحوال العرب والإسلام الذي قد أخذ . يبله إلى آسيا الوسطى ، وإلى الهند في عصر بني أمية .

(1) Chang Shih - Tung Ancient China's Relation with the Arabs. ■ 45 Breitshneider : p. 7.

(2) Breitshneider : p. 9 : The Old Tang Shu : p. 198. ; The new Tang Shu : p. 221. : Ancient China's Relation with the Arabs. pp. 10 & ■.

أما وصوله إلى الصين بحرا فاختلفت فيه آراء العلماء . وخصوصا فيما يتعلق بسنة الوصول وبالشخص الذي جاء برسالة الإسلام ، بطريق البحر إلى الصين . يقول « جيرو تانغ شو » وكتاب تانغ القديم ، أن وفدا من العرب قد وصلوا إلى عاصمة الصين في السنة الثانية لعمد (برنخوى) ، أى في سنة ٦٢٨ م . فخلوا بين يدي الإمبراطور يقولون : إن ملككم يطلب أمير المؤمنين ، وحكومتهم قد أسست من ٢٤ سنة وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الآن (١) . وهذا المصدر يذكر وصول وفد آخر من العرب بعد أربع سنوات في سنة ٥٥ م . ويوجد حديث عن هذا الوفد في كتاب تانغ الجديد أيضا فيؤكد هذا القول . ما ورد في « تنونغ ديان » يبين عن العرب قائلا : إن وفدا من العرب قد ورد عاصمة الصين أيام (برنخوى) فوصف بلادهم بما يلي : إن بلادنا بغرب إيران وغلبا عليها وعلى بلاد الشام . وعندنا نحو ٥٠٠ و ٤٠٠ مقاتل ، لاني . يستطيع أن يمد طيقتنا أيما ندرجه . ولما حكومتهم قد مضى عليم : م عاما بعد الأسيس . وعلى العرش الآن الملك ايزاك (٢) .

وقد ورد في « منغ شو (Merg shu) وكتاب عن ولاية فوكين ، أن في شرق (جوان شو) الجنوبي جيلا دفن فيه شيخان من أهل المدينة ، وهم أباه المسلمين يحكى المسلمون من أهل مدينة (جوان شو) ، على لسان الرواية السائرة أن المدينة كان بها محمد رسول الله صلى الله عليه . سلم ، ولد في أرو . عهد (كاتو تانغ) لحكم عليها عشرين عاما وهو صاحب الكتاب ، يعز الحسانات ويكره السمات فيدعو الناس إلى الحق بأمره ، ينشر الإسلام على حسب الوحي ، وكان له أصحاب بعث منهم أربعة إلى الصين أيام (ووتو - ٦١٨ - ٦٢٦ م) . أحدهم استوطن بمدينة (كانتون) فبث الفتاة هناك . والثاني بمدينة (يانغ شو - Yang shaw) فوقف حياته لنشر الإسلام بها ، وأما الثالث والرابع فسافرا إلى (جوان شو)

(1) The Old Tang Shu: p. 198 .

(2) Ancient China's Relation with the Arabs . P. 53 .

فلما توجبا إلى رحمة الله، دفنا بذاك الجبل . . . ومن المشهور بين الأعمال أن صاحب المقبرتين، كما من العرب، قدما إلى الصين في عصر تانغ، وبمدينة جوان شو جامع تاريخ بناته غير معروف بالضبط (١).

وذكر الأستاذ هيرت، مترجم « هوفلنكس »، عن « و. ف. مائرز (W. F. Mayers) وهو مستند إلى تاريخ منغ (Ming) »، أن الإسلام قد وصل إلى الصين بحرّين ٦١٨ و ٦٢٦ م لأن أربعة من الصحابة قد جاءوا بدين الإسلام في غضون تلك السنوات، وواحد منهم كان يثب دعوة في كاتون. والثاني في بانغ شو والثالث والرابع في جوان شو (٢).

ويقول هزلف « هري دوى يوان لاي (Hui-Hui Yuan Lai) » أي أصل المسلمين في الصين: إن الإسلام قد وصل إلى الصين في سنة ٦٢٨ م. وكان السبب في ذلك، أن الإمبراطور (تشنغ كوان: Tcheng Kuan) قد رأى في منامه، أن شيئا معما يدفع عنه وحشا مفترسا غريب الشكل، وقد هاجمه ولم يجد مفرا منه. فلما أصبح وسأل الوزراء عن التعبير. قال قائل منهم: إن الشيخ المسمّى هو العرب (بالعرب)، عديم قوة وبسطة، والوحش المفترس الغريب الشكل الذي حاكم الإمبراطور، هو عنصر اعتدائي. أو شخص قاتل في البلاد، فلا يمكن قوه إلا بقوة المسلمين. فبعث الإمبراطور سفيرا إلى بلاد العرب، متمسّا من ملوكهم، أن يرسل عدة فرق من الجيوش إلى الصين. فبعث ثلاثة آلاف من جنود المسلمين بثلاثة آلاف من جنود الصين فكان هؤلاء الآف الثلاثة من العرب هم آباء المسلمين في الصين. وكان الوفد الذي جاء إلى الصين ردا لزيارة الوفد الصيني، مكونا من ثلاثة أشخاص وهم الفيس والايوس والوقاص، فات الأولان في الطريق، متأثرين من حرارة الجو ودراسة الحر. وأما الوقاص فقد قدم إلى الصين معاف سليما فأكرمه الإمبراطور إكراما فاقا فقال لدى

(١) Ancient China's Relation with the Arabs, p. 84.

(٢) China Review Vol. VII. 276. ; Chao Ju-Kua : - 15

الامبراطور : إن الكتاب المقدس الذي نزل من السماء عليهم هو (الفرقان) —
 واتفق معه مؤلف الفصل من العرب (Si Lai Chun-Puh) ، في النقطة
 المذكورة ، وزاد عليها أن الوقاص الذي وصل إلى عاصمة الصين ، كان عن طريق
 بخارى وحامى (Hami) فعاد إلى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات ،
 في المرة الأولى للكتيب الدينية ، وفي الثانية لخدمة من القرآن الكريم ولاستشارة
 النبي صلى الله عليه وسلم ، في مسألة الدعوة والإرشاد في الصين . فقال له رسول الله
 خذ معك ما نزل من الآيات ، وأما الآيات التي سألقاها من الوحي فاني أبينها
 إليك إذا نزلت . وفي المرة الثالثة لبيان رسول الله ، حين سمع أنه مريض ولزم
 الفراش . ثم رجع إلى الصين بنسخة كاملة من القرآن ، وهي في ثلاثين جزءا و ١٩٤
 سورة ١٦٦٦ آية . مات بكاتون وله مقبرة هناك باقية إلى الآن . . .

ومؤلف ، علافة الصين القديمة بالعرب ، قد نقل منا مرسوما ، عن أسقف
 روسي اسمه ، أرشبا نديوت بالاديرس (Archimandrite Palladius) ، الذي
 اكتشف هذا المرسوم ببيكر في سنة ١٨٧٨ م . وهو باللغة الصينية . فكان من
 قول الأسقف إن المرسوم الأصلي كان باللغة العربية . ثم نقل إلى لغة الصين . فن
 هذه النسخة الصينية . نقله الأستاذ مورجان الانكليزي ، إلى اللغة الانكليزية ،
 فأنشره في مجلة ، دى فونيكس ، في عدد مارس سنة ١٨٨٢ م . وأما مؤلف ، علافة
 الصين القديمة بالعرب ، فلم يشر منه عن نسخة صينية الأصل . وما يرد هنا منقول
 عن مجلة ، دى فونيكس ، رها هو ذاته . وقد ورد في السنة السادسة لعمد (تسنغ
 كوان : ١٣٢ م) ، ابن حرة ، خال النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى الصين مع
 نسخة من القرآن وكان بصاحبه ثلاثة آلاف من الجنود . وكان رجلا متدينا ،
 جميل الهيئة ، جميل الاخلاق . فسر برؤيه فأنفق ثاقى جونغ ، وأكرم أصحابه جميعا
 وأبقاهم في العاصمة (جيانغ - آن) وبقي لهم جامعا فيها . مكث أتباعهم وأنزع نطاق
 دعوتهم حتى أنشئ مسجدان آخران ، بكيانغ نينغ (نانكين) وكاتون . ثم بحث
 ابن حرة مع أصحابه في أركان الدين وأحكام الاسلام ونظامه وقوانينه . فتمت

الرجال الدينيين على ثلاث درجات : الامام ، والخطيب ، والمؤذن ، ووظائفهم نشر مبادئ دين الاسلام ودعوة الناس إلى الفلاح والخير، وحثهم على التمسك بالفضائل ، وإنذار من لا يحترمون الدين بالعقاب .

فقرروا أربعة عشر قراراً في ترويج الآداب الاسلامية العامة :

١ - آداب الزواج .

٢ - منع زواج بنت المسلم بغير المسلم ، واعتبروا حدوث ذلك إثماً كبيراً ، والوسطاء وأولو الامر يعتبرون مشتركين في الجريمة والاشم .

٣ - آداب الميت عند الاحتضار .

٤ - طريق دفن الموتى .

٥ - آداب تشييع الجنازة .

٦ - تلاوة القرآن على الموتى والتصدق على الأيتام والمفقرات .

٧ - وجوب التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل ، لأن يوم الحشر ليس بيميد وإن طالت حياة الإنسان ، فيجزى الله على العمل الصالح ويماقب على العمل السيئ ، وذلك يكون شديداً لا مفر لاحد منه .

٨ - منع الخمر والتدخين ، لأن الدخان يضر الرئة ، والخمر يقتل النفس .

٩ - منع البقاء والميسر . لأن البقاء فاحشة يسلب رداء الحياة ، والميسر سوء يؤدي إلى إفلاس الاخلاق ، فيسقط صاحبه إلى الفدك الأسفل من الرذيلة .

١٠ - منع الربا ، لأن الشريف يكره أن يشرب من دم أخيه .

١١ - جمع الزكاة والصدقات على جهة درجة الفقى والثروة . والفقر لا يجبي منه شيء . بل يبحث على الكسب والاستقلال في المييشة .

١٢ - إنشاء المدارس ، نشر مبادئ الاسلام .

١٣ - تحديد آداب الاعياد محافظة على النظام

١٤ - إلزام الرجال الدينيين تأدية واجباتهم ، وأما الممائد والمساجد ، إذا عدم

منها شيء ، فيصلح من تبرعات خيرية .

وحاصل الكلام ، أن كتاب الله بن القدماء لم ينفقوا على سنة وصول الاسلام
بحرا إلى الصين كما أنهم لم يستطيعوا الاتفاق على من هو الاول الذي قد جاء
بالاسلام عن طريق البحر إليها . وبناء على ما ورد في كتاب تانغ القديم والجديد
وفي «خونغ ديان» ، أن الاسلام قد وصل إلى الصين في سنة ٦٥١ م . ويذكر
«منغ شو» ، أنه وصل بين ٦١٨ و ٦٢٦ م . وكذلك يقول تاريخ منغ . لكن
المرسوم الذي اكتشفه الأقف أرشبا ندرت بالاديوس ، يدعى أن وصول
الاسلام قد وقع سنة ٦٢٢ م . ويرغم مؤلف «أصل المسلمين في الصين» ، أن
الاسلام وصل في ٦٢٨ م وكذلك مؤلف «التسلل من الغرب» ، حتى ذهب بعض الكتاب
إلى أنه وصل في عهد (كائي وانغ) من أسرة صوي ، أي بين سنة ٨٩ و ٦٠٥ م
وهذا الأخير باطل من غير شك . لأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لم يكلف بالرسالة إلا بعد هذا التاريخ بحمس سنوات ، وأما ما جاء في «منغ شو»
وفي «تاريخ منغ» ، فليس مقبولا عند الباحثين المحققين . لأن السنوات التي بين ٦١٨
وبين ٦٢٦ م ، هي المدة التي اشتغل رسول الله (ص) في دعوة كفار قرش إلى
الدين الحنيف . وكانت هذه الدعوة لم تنجح في خارج بلاد العرب ، إلا في أواخر
السنة السادسة للهجرة وهي توافق ٦٢٧ م .

ومن المعلوم أن هذه الدعوة محدودة في إرسال البعثات إلى إيران
والامبراطورية البيزنطية والحبشة . وأما سنة الوفود فقد وقعت في السنة التاسعة
لهجرة (٦٣٠ م) وقد ذكر هذه الوفود أن هشام في كتابه بالتفصيل . وعدم
ذكره وقد الصين يفهم منه أن الصين لم تدع إلى قبول الاسلام في حياة رسول الله
صلى الله عليه وسلم . ثم هناك غلظ واضح في «منغ شو» لا يحتمل أدنى شك .
وهو أن محمدا (ص) ولد في أول عهد (كائي وانغ) وهو يوافق سنة
٥٨٩ م ^(١) . مع أن بعض الكتب الأخرى تدعى أن الإسلام قد دخل الصين في
هذا العهد ^(٢) .

(١) ولد النبي صلى الله عليه وسلم في سنة ٥٧٠ م

(2) Kin Chih-Tang: Studies on the History of Islam in China, P. 43.

ولا أعرف مبلغ العدة فيما ذكر في المرسوم الديني الذي اكتشفه الأستاذ
أرشيا ندريت بالاديس إذ قال إن ابن حمزة، خال النبي (ص)، ذهب إلى الصين
مع ثلاثة آلاف جندي عربي في سنة ٦٢٢ م. لأنها هي السنة التي مات فيها صاحب
الرسالة، وتنتخب أبو بكر (رض) خليفة للرسول على المسلمين، وكان نفوذ العرب
السياسي، حتى عهد أبي بكر (رض)، لم يمتد، إلا إلى العراق والشام وتاريخ
العرب لم يذكر قائدا اسمه ابن حمزة في عهد رسول الله (ص) أو في عهد أبي بكر (رض)
الله عنه ولا نجد خلا للذي (ص) اسمه ابن حمزة، ولا نجد هذا الاسم بين الصحابة
أيضا. نعم ادعاء أن نسخة كاملة من القرآن الذي لم يجمع في صورة الكتاب إلا في
عهد عثمان (رض)، ذهب من إلى الصين قبل جمعه، لم يغم عليه دليل. ثم القوانين
التي ذكرت في المرسوم، بعضها من اختراعات الفقهاء بعد زمن رسول الله بكثير
مثل آداب الميت عند احتضاره، وما يوافق بالجازة، وآداب الأعياد وإنشاء
المدارس ويعتقد أن هذا المرسوم ليس في زمن الخلفاء الراشدين، وليست له قيمة
تاريخية يعتد بها.

وأما ما ذكر في أصل المسلمين، فلا نجد فيه شيئا يدعونا إلى الاعتقاد
بصحته لعدة أسباب:

أولا إن رؤية الإمبراطور (تسغ حكيوان)، لا تدل إلا على
الإنعام والحرافات، التي كانت مسيطرة على أذهان الصينيين، فيعتقدون بصحتها،
والحقيقة أن قصة هذه الرؤيا، تشابه تماما الرؤيا التي رآها (هان منغ في Han
Ming-Ti) قبل خمسة قرون إذ رأى في شام، تمثالا ذهبيا لاهما بالانوار
فبعث رسولاً إلى الهند فأقْبى بتمثال (بودما) وجعل يبعدها فيقبه أناس آخرون.
هذا هو أصل دخول الديانة البوذية. فغير كاتب، أصل المسلمين، هذا التمثال
الذهبي، إلى شيخ مهم ونسج حوله قصة تخالف الدلائل العقلية والنقلية معا.

وثانيا: إن هذا الكتاب كما ثبت فيما تقدم، ألف في سنة ١١٦٢ م. وهو
حديث العهد بالنسبة إلى كتاب نافع القديم أو الجديد، الذي قد سبقه كتابه
بثمانية سنة على الأقل. فانشر هذا الكتاب لأول مرة في عساكر المسلمين، وكان

ذلك ، كما ذكر في نفس الكتاب ، أن الإمبراطور (كانشي (Kang-Si) وهو
عاهل ثان لأسرة مانشو (Manchu Dynasty) ، حينما عاد في سنة ١٦٩٧ م ، من
غزوته قبيلة (قرطان) في منغوليا ، مر بقاصروه وبات ليلة عند أكها
المعروف به ما ، وهو مسلم . فدار الحديث بينهما في الأديان فسأله الإمبراطور
(كانشي) عن وصول الإسلام إلى الصين وسبب وصوله . فأجاب بالسلب والجهل
فقال الإمبراطور : عندي كتاب تجد فيه ما يجب أن تعرفه ، قال الحاكم : أنا
أمرى لا أعرف القراءة ، لكنني أتقبله بالشكر الجزيل ، وأريد أن يحسن القراءة واستفسره
عن محتوياته (١) .

فأمر من تحته من الأمراء أن يستنسخ كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب (٢)
نشاع في عساكره وانتشر . وأما اسم المؤلف - فمما ثبت في مقدمة الكتاب -
هو : لي جيلي ، غير معروف في طبقات العلماء ، نقل عنه (بايوجو - pei yang - Chu)
مؤلف : السبل من الغرب ، في سنة ١٠٦٦ م . فالمسلمون من بعدهما يستحسنون
على منوالها عند ما يبحثون عن مسألة دخول الإسلام في الصين بدون تدقيق
ولا تحقيق ، بل يعمدون في تصديق هذا القول الذي يخالف التاريخ والواقع ، من
كل وجه ، إلا قليلا من رسم الله .

وثالثا : إن صاحب أصل المسلمين ، ذكر أن إمبراطور الصين ، بعد
ما رأى في المنام ، وما سمع من التعبير لروايه ، بعث سفارة إلى بلاد العرب ملتصبا
من رسول الله (ص) أن يرسل عدة دعاء إلى الصين ، مبشرين وخصرين . وأن
هذا الافتراء صادر عن التاريخ لأنه إذا وقع مثل هذا فذهب وفد من الصين
إلى بلاد العرب ، في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذكر في السيرة النبوية
أو على الأقل في تاريخ العرب . ثم ذكره رجلا من الصحابة اسمه سعد بن وقاص ، إذا كان
المراد به هو سعد بن أبي وقاص ، فاتح القادسية ، فذلك لا يوافق الواقع ، لأننا

(١) أصل المسلمين ص : ١١

(2) Ancient China's Relations With the Arabs P. ٦٥.

لعمري من المصادر العربية ، أن سعد بن أبي وقاص ، لم يذهب إلى الصين أبدا .
فإن حياته معروفة في تاريخ الاسلام ، خلاصتها أنه حضر غزوة بدر والحديبية ،
وكان أحد أعضاء مجلس الشورى ، وثقافته الأعلى في واقعة العادسية . فبني مجازيا
حينما ظهر النزاع بين علي وبين معاوية رضي الله عنهما . فأتى بالمعيق على عشرة أميال
من المدينة المنورة في ٨٠ من عمره المديد في سنة ٤٥ هـ كما ذكر في الواقدي فصله عليه
مروان بن الحكم ودفن بالقيع . وافق على هذا صاحب الاستيعاب ، وصاحب أسد
الغابة ، والواقدي .

وهنا نقول عند المسلمين الصينيين لا يجد جوابا إلى اليوم . وهو من صاحب
القبر الذي بكاتون . إن لم يفر سعد بن أبي وقاص إلى الصين ومات هناك ، فإن
المسلمين في الصين جميعا يعتقدون أن الجامع الذي أنشئ في كانتون ، أسمه ، وأى
شن نزي ، أي جامع الذكرى الثاني (ص) من مؤسبات سعد بن أبي وقاص .
ولقد بناء كما يقولون ، عندما وصل إلى كانتون ، فاستوطن هناك داعيا ومبجفا .
فأتى بكاتون ودفن بمخارجها . وعلى قبره شاهد من الحجر منقوش عليه ما يأتي :
هو زعيم لقب بوقاص من أهل (تيان فان) ، قال النبي رسول الله
(ص) من ناحية الأم . أمر باتيان نسخة من القرآن إلى الصين . وكان وصوله إلى
(جانتج - آن) في السنة السادسة لعمد (تانج كون) من عوامل أسرة (تانج)
(٦١٣) . فوجد (تانج ناني جونغ) رجلا عالما ، صالحا واعظا عبقريا في العلم .
فأسكنه في (جانتج آن) ، ولأجله أسس أول بيت لله فيها ، وعمرها بأربع دينة
والمسلمين . فقام بالدعوة والارشاد وأشر تعاليم القرآن فاعتنق كثير من الناس ،
دين الاسلام على يده حتى انتشر الاسلام ، وكثر أتباعه . فأمر (تانج ناني جونغ)
بعد - تين قلائل ، بإنشاء جامع في كل مكان من مدينة نانسكين وكانتون لجمع كلمة
المسلمين فيها . فركب البحر بعد ذلك من كانتون ، يريد بلاد العرب . فإذا

(بحين شى^(١) ، خطر باله ، أنه مأور بالاقامة في الصين للدعوة ونشر الاسلام وأنه غير مطالب بالعودة ، ولوجه نحو الصين مرة ثانية غير أنه توفي إلى رحمة الله في المركب ، وكانت جثته المباركة سالمة عند وصول المركب إلى كاتون . فدفنت بخارجها .^(٢)

نسأل الآن ، هل صحيح ما جاء في هذا الشاهد ؟ وهل هناك أدلة تشهد بصحتها ؟ نقول : لا نعرف مبلغ صحة ما نقل في هذا الشاهد المحجى بناء على عدة أسباب :

أولاً : إننا لا نجد النصوص الأصلية التي نقلت في الحجر على قبر أول داع لدين الاسلام بمدينة كاتون . وما نقل صاحب . علاقة الصين القديمة بالعرب ، من العبارات لهذا الشاهد التاريخي ، هو عن مؤلف ، علوم الاسلام القويمة ، الذي كتب كتابه في سنة ١٨٠٢ م ، وهو مشكوك في صحته ، لأن المؤلف لم يذكر سنة نصب الشاهد . ومن الظاهر أن مؤلف ، علوم الاسلام القويمة ، لم يستند إلى مرجع ولا أصل . والدليل على ذلك ، أنه قد ذكر شاهد ضريح النبي (ص) في كتابه أيضا . فيقول فيه : أن (صوى وين في (Sui Wen Ti) ، قد بعث سفيرا إلى رسول الله (ص) ، يدعو إلى الشرق فمتع واعتذر . فاكنتي بإرسال سعد ابن وقاص مع أكثر من مائة عربي إلى الصين ثم عادوا بعد سنة^(٣) .

لا نعلم أن هناك شاهدا لهذا (ص) النبي (ص) قد كتب باللغة الصينية ، وليس لنا علم بشاهد عربي لضريح المبارك ، وفيه العبارات المذكورة التي استند اليها هذا المؤلف . ثم كلمة ، حين ، تدعونا إلى الاعتماد بأنه مؤلف ، علوم الاسلام القويمة ، قد تأثر بمؤثرات لغة تمارسية حتى كان لها بعض الأثر في الصين منذ عهد المغول .

(١) (جين شى) هي ميناء بحر الهند على ١٨ محطة إلى مكة على ما ورد في بعض الكتب الصينية .

(2) Ancient China's Relations With the Arabs . p. 78.

(3) Ancient China's Relations With the Arabs . p. 76 .

نستطيع إذن ، أن هذه الأقوال ، إذا لم تكن من اختراعاته ، بناء على حسن الظن به وحسن العقيدة فيه ، يدورن نظر إلى الواقع وحقيقة الأمر فلا شك أنه نقاها من الكتاب الذين قد عاشوا في زمن قبله . في عهد المغول . العهد الذي كانت الكلمات الفارسية مثل ، بغمير ، (آلي) ، و ، جين ، (الصين) ، و ، قران ، (القرآن) تستعمل فيه في مجتمعات المسلمين بكل حرية حتى أصبحت جزءا من لغتهم العامة .

ثانياً — أن هذا الشاهد يدعى بأن سعد بن أبي وقاص ، قد ذهب إلى (جافغ) آن (أولاً فائداً الجامع هناك بأمر الأمير بطور . ثم أنشأ مسجدين آخرين ، أحدهما بناءً مكيين ، والثاني بكاتلون . لكن الكتابة التاريخية (Inscriptions) التي توجد في جامع (جافغ — آن) ، وهي تحمل تاريخ ٧٤٢ م ، لم يذكر كما سنرى ، اسم سعد بن أبي وقاص . والأمر الذي يتفق عليه المؤرخون جميعاً ، أن هذه الكتابة هي أقدم شهادة كتابية ، لدخول الإسلام في الصين ومن المذكور فيها ، أن هذا الجامع قد أُنشئ في سنة في الشهر الثالث من السنة الأولى لعهد (تيانغ باو (Tieu-pao) ٧٤١ م ، فتم في اليوم العشرين من الشهر الثامن في السنة التالية فكان الاسم هناك ، بدر الدين . وتشهد هذه الكتابة بأن الجامع ليس من مؤسسات ابن أبي وقاص ولا من الآثار الإسلامية قبل سنة ٧٥٠ م . وإذا سلمنا أن هذه الجوامع الثلاثة من مؤسسات رجل واحد ، فلا مندوحة لنا أن نسلم أيضاً أن الجامع بكاتلون ، كان بناؤه بعد بناء جامع (جافغ — آن) . فؤسسه الذي مات بكاتلون ودفن بها غير سعد بن أبي وقاص المعروف في تاريخ الإسلام ، وصاحب الفتح ورسول آخر (لا يزال مجهولاً عند المؤرخين) ، ليس له أية علاقة بعصر النبي (ص) ولا بعصر الخلفاء الراشدين .

ثالثاً — أن الكتابة التي في جامع (جافغ — آن) لم تذكر اسم سعد بن أبي وقاص وكذلك جميع الكتابات القديمة . فثلاً ، الكتابة التي توجد في جامع (جوان شر) ، وقد كتبت وتحتت على لوحة من الحجر في سنة ١١٣١ م ، مع

أنما ذكرت بعد ظهور الإسلام في بلاد العرب وانتشاره إلى الشرق والمكتاتبة التي في جامع (عنف شوي) ببلد بلاد الدين بين سنة ١٣١٤ و ١٣٢٠ م. أيضا ساكتة عن سعد بن أبي وقاص. ثم الجامع الذي بكانتون قد أجريت فيه عدة مرات من التصليحات والآرميات مرة في سنة ١٣٥٠ م. اذ كان الحاج حسن تولى أمانة الجامع (وقد نصب شاهدا لهذه التصليحات) غير أنه لم يذكر اسم سعد بن أبي وقاص.

والحاصل أن جملة المكتاتبات التاريخية التي قبل وجود أصل المسلمين، وعلوم الإسلام القوية، و الدليل من القرب، بفرون، سواء كانت منقوشة في لوحات الأحجار، أو مكتوبة في صدور الكتب، لم تعرض لسعد بن أبي وقاص ولم تشر أدنى إشارة إلى سمره إلى الصين، ولم يذكر لأول مرة إلا في أصل المسلمين (١٦٦٣ م) بدون إشارة إلى مرجع أو مصدر. ثم في هذا الكتاب تجد أشياء كثيرة تذكر ما تقول، مما أجبه سعد بن أبي وقاص بالشعر الصيني للإمبراطور حين سأل عن الإسلام وحقيقته.

وبناء على ما أوردناه من الأدلة والبراهين نقول موقفين أن صاحب الضريح في كانتون غير سعد بن أبي وقاص، بل هو الفارسية ومن الممكن أن أحدا من هؤلاء ذلك الاسم قد سافر إلى الصين في أواخر القرن الثامن لميلادي. فأت هناك ودخل بها، وبطل أنه كان زعيما من زعماء العرب المستوطنين في الصين وكانت له مكانة عظيمة لدى الإمبراطور وأعيان المسلمين هناك، فلذلك كانوا أولا يراون يعاقمون قومه، لأن أسف أن التاريخ لم يخبرنا باسمه الحقيقي. ولا تعرف هل يظل هذا الاسم مجهولا هكذا إلى الأبد، أو يصحح معلوما يوما من الأيام في المستقبل.

ومع هذه الاختلافات في تاريخ وصول الإسلام ومع هذه الاختلافات في أول شخص جاء بالإسلام إلى الصين، نقول مطمئنين، أن وصول الإسلام، بحرا أم لا، من حوله را، لأن نتيجة البحيرة التي قد بدأت قبل النبي (ص) تساعد على إحصاء الإسلام إلى جوانب الصين التي كان العرب يترددون عليها ولو بصفة غير رسمية. وأما وفد العرب الذي وصل إلى عاصمة الصين، رسميا فكان في

سنة ٦٥١ م ، كما أثبتنا ذلك سابقا عن المصادر الصينية . فعم لا نجد حديثا عن هذا الوفد في الكتب العربية القديمة ، لكن الخبر الذي وجدناه في «تاريخ شو» القديم والجديد ، بأن وفدا من العرب ، قد وصل إلى الصين في السنة الثانية لعمد يونغوى . وعلى توافق سنة ٦٥١ م ، لا يخاف الحقائق التاريخية : لأن السنة الحادية والخامسين بعد المائة السادسة للميلاد ، توافق سنة ٢٠٠ للهجرة في عهد عثمان (رض) (١) وقوة العرب العسكرية قد وصلت إلى أوجها ، من ناحية ، وإلى السند من ناحية أخرى (٢) . ثم الاحوال التي ذكرها هذا الوفد لدى امبراطور الصين ، عن بلاد العرب ، صحيحة على الأقل إلى ثمانين في المائة من الصحة . فكلما « أمير المؤمنين » ذكرت لأول مرة في الكتب الصينية في صورة محرقة إلى (Kami momnie) فقال أعضاء الوفد أن ملكهم يقال له « أمير المؤمنين » وحكومتهم قد أسست منذ ٢٠٠ سنة . وأما الآن فعلى العرش الملك الثالث (٣) . وأما قوله (منذ ٢٠٠ سنة) فلعل ذلك ، إما من الاغلاط الطيمية في «تاريخ شو» وأما نحن من المترجم الذي قام وسيطا بينهم بين الوفد وامبراطور الصين . لأن الكلمة الصينية التي تعادل « ثلاثين » في العربية هي « سان شيه » . فإذا نحن المترجم في القطعة [] نية من الصوت أو في « شيه » ، فليس بعدا أن نصبح « سان شيه سي » ، أى « أربعة وثلاثين » . فأثبت في تاريخ نافع الحكمة « سان شيه سي » بدلا من كلمة « سان شيه » . وهذا عمل قريب في جميع التبادلات التاريخية غير اننى لا أصر على صواب رأي هذا ، أن ظهر دليل جديد على هذا الخطأ التاريخي فبناء على ما ورد في «تاريخ شو» القديم والجديد ، فيما يتعلق بوصول الاسلام الى الصين بحرا وقد حقق هذه القطعة مستشرق كبير هو الاستاذ (برانش) ندرا انى على جانب من الثقة الى يؤكد ما التاريخ والواقع في اصدار حكم على هذه

(١) انتخب عثمان (رض) خليفة ، غرة المحرم سنة ٢٠١ هـ ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م

(2) Ameer Ali : Short History of Saracens . p . 47 . ; Gibb : P . 15 .

(3) Breitschneider : P . 8 . ; Ancient China 's Relations with the Arabs . pp . ٨ & ٩ .

المسألة التاريخية الى اختلف فيها كثير من الباحثين ، بسبب اختلاف الأقوال التي وجدت في المصادر الصينية ، بأن أقول : أن الاسلام قد وصل إلى الصين بحرا بصفة رسمية في سنة ٥٥٠ م . وأصر على إبقاء هذه النظرية ، مادمت لم نعلم على شهادات تاريخية أقوى مما ذكرناه فيما تقدم . وقول أيضا أن هذا الوفد لم يكن له علاقة بالجامع الذي بناه - آن أو بكاتون . لانا نعتقد أنه من مبادئ السنوات المتأخرة عن زمن الخلفاء الراشدين .

ومنى هذا أن وصول الاسلام إلى الصين بحرا ، أسبق من وصوله برا ، عن طريق تركستان بست وستين سنة هجرية ، أو أربع وثمانين سنة ميلادية . لأن فتح قتيبة بن قيس لمدينة كاشغر ، كان في سنة ٥٩٦ - ٥٧١ م .

وكانت السنة الحادية والخمسون بعد المائة السابعة للبلاد ، أو السنة الثلاثون للهجرة . هي فاعلة الوفود بين العرب والصين وبين البلاد التي كانت تحت حكم العرب حتى آخر عهد منغ (Ming) وكل ذلك سنبينه في باب العلاقة الدبلوماسية أن شاء الله تعالى .

وأما انتشار الاسلام في موانئ الصين في القرون الأولى للهجرة ، فكان ذلك يرجع إلى فصل البحار العرب الذين هم من استوطنوا في الصين حتى آخر يوم في حياتهم . نعم أن التاريخ لم يحدث عن خروج العرب في المرة التي بين سنة ٦٥١ و سنة ٨٥١ م ، لكن وجود القبور العرب والجامع المذكور لنبي (ص) بكاتون ، يشهد على أن عدد المسلمين بذلك المدينة لم يكن قليلا . وهذا الجامع القديم ، ولو أننا لا نجد شيلا إلى معرفة من بناه ، وفي أي سنة بنى وإلى هو أقدم من مسجد (جونغ - آن) ، أو الذي بناه من أقدم هذه . يمكن أن نرى المدقول ، أن تاريخ بناءه لا يعد كثيرا عن تاريخ بناء المسجد الذي بناه جونغ - آن ، سواء أكان ذلك قبله أو بعده . وفي الشطر الأول من القرن التاسع الميلادي لما فر سليمان السيرافي إلى كاتون (خانفو) الأعمال التجارية ، وجد بها كثيرا من المسلمين ، يولى عليهم القاضي منهم ، وأمورا

من صاحب الصين فأذا كان العيد، صلى بالمسلمين وخطب، ودعا لسلطان المسلمين^(١)

ونفهم من هذا القول، أن حياة المسلمين هناك من الناحية الدينية، أصبحت منظمة في النشط الأول من القرن التاسع للميلاد، وكانت حالها كما هي في الممالك الإسلامية الأخرى.

ويظهر من عمارة الجامع، أن المسلم الذي بنى هذا المسجد، بناء على شكل ميكل الصينيين لأننا لا نجد أي فرق بين عمارة المسجد وعمارات الهياكل الصينية الأخرى في الشكل الظاهري، وأما المنارة التي نراها، ثمّة بجانب المسجد، فلا شك أنها شيء خاص بالعمارة العربية، لكن بناءها لم يكن في وقت واحد مع بناء المسجد. ويقول الدكتور كار Dr. Katz في دليل كاتون: «أنها بنيت في سنة ٩٠٠ م على التقريب. وكانت هي الجزء الذي لم تصبه النار، إذ كانت تذهب بعمارة المسجد كلها إلى بقايا في سنة ١٣١٣ م^(٢)».

بنيت للمرة الثانية بين ١٣٤٩ و ١٣٩١ م بعد حادثة النار، بتحكم الأمير محمود حاكم كاتون حينذاك. وكان الإمام هو الحاج حسن فكان من الذين اشتركوا في هذا العمل الحثيث والذين سبوا جيش التركي الأسفل وكان من أمراء كاتون قصبوا لوحة حجرية نقشت فيها أعمالهم الحادة مع ذكر تاريخ تجديد البناء. وهذه اللوحة لا تزال باقية في الجامع حتى الآن في حالة جيدة. فنزل عباراتهم، مؤام، وعلاقة الصين القديمة بالمرب، في كتابه وكذلك مؤلف الدراسات عن تاريخ الإسلام في الصين^(٣).

جددت الترميمات في هذا الجامع في سنة ١١٦٩ م، في عصر (منغ) على

(١) سلسلة النوارخ ص ١٤

(2) Broomhall: P. 110

(3) Ancient China's Relation with the Arabs. P. 87.
Studies on the History of Islam in China. P. 53.

نفقات مسلم كبير موظف بكانتون ، معروف باسم (هونغ يونغ) في تاريخ الصين . وكان وفد من العرب قد وصل الى كانتون في هذه السنة برئاسة عبد الله فقدم الهدايا الى امبراطور الصين وبعد الانتهاء من مهماته الرسمية ، عاد مع رفاقه الى كانتون فاختاروا مكانهم بداخل هذا المسجد . وبعد أيام قليلة أصبح عبد الله هذا زعيما لآخواته المسلمين في تلك المدينة .

وأما مقبرة العرب التي في كانتون ، فهي واقعة بخارج باب الشمال على نصف ميل ، فيها أكثر من أربعين مقبرا ومبانيها على الطراز العربي كما هي الحال في البلاد الأخرى من الممالك الإسلامية . وقد ضربت عليها القباب التي تشير بلسان حالها الى أن أصحاب تلك القبور ، كانوا من ذوى المكانة العالية في عصورهم . وبين هذه القبور ، قبر ينسب الى -مدن بن أبي وقاص- وهو في الحقيقة لغيره كما أثبتنا ذلك آنفا

وما دقق حاجي محمود ابن الحاجي محمد افندي الرومي الذي زار هذه القبور في اليوم العشرين من ذي القعدة ، من السنة الواحدة بعد الف ومائة وستين للهجرة (١٧٥١ م)

وكان انتشار الإسلام في عهد (نانغ) لم ينحصر في مدينة كانتون . بل توغل الى مدن أخرى ، منها جزيرة (هاى نان Hainan) المواجهة لولاية (كوآنغ تونغ) . وقد استولى الصينيون على هذه الجزيرة قبل الميلاد بقرنين على الأقل . لكنهم لم يهتموا بها من الناحية التجارية والسياسية حتى أوائل القرن السابع الميلادي فقسمت في سنة ٦٢٧ م ، الى ثلاثة مديريات فهي : على كل مديرية رئيسا يدبر شؤونها وفي سنة ٧٨٩ م زيد فيها ، باط عسكري .

وأما المعاديات والهجمات في هذه الجزيرة ، فهي مختلف كثيرا عن أمل الهين حتى عن سكان كوآنغ تونغ مع أنهم أقرب الناس مجاورة لهم . فالمسكن في هذه الجزيرة من أصحاب الصدق والوفاء يجتهدون في العمل والكسب ، ويتعمدون ضروب الألوان من التعب والمشقة . ويشغل أكثرهم في صيد السمك . نعم

لا يوجد فيهم غنى كبير أو أثر عظيم ، غير أنهم رجال اقتصاد في المديونة ومن ذوي الاعتدال في النفقات . فلذا لا ترى فيهم فقيرا ولا مة . ولا حتى في السنة السوداء (١)

هذه الصفات الحميدة التي رويت عن أهل (هاى نان) في الكتب والبحاث ، قد تكون من أثر الإسلام الذي وصل هناك بواسطة التجار العرب في عهد (تاتس) . لأن الكتب القديمة تشهد بوجود تجار العرب في هذه الجزيرة . ففى بعض الأحيان تعرضوا فيها للصوم البحر ونهب أموالهم .

وفى الكتب الصينية القديمة توجد بعض الاسماء لحولاء الصوم ، منهم « جن ووجين » من سكان (جن شو Tsisnchow) وهى غاى مين الآن . كان هذا الصل يملك ثروة عظيمة وعد من أغنى الناس فى الجزيرة وكانت عنده مخازن قد ملئت من قرون كركدن والماج وغيرها من البضائع الثمينة . وكان أصل ثروته من تجار العرب ، وذلك أنهم لما كانوا غرقى فى البحر ، وضع يده على أموالهم ولقد روى فى بعض الكتب الصينية ، أن سكان تلك الجزيرة كانوا يعرفون السحر . فتجار العرب أو المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى بحر الصين ، لما ضلوا سبيلهم فى البحر بسبب العاصفة أو العارقان ، يرسلون مراكبهم فى ساجل (جن شو) فسمد هذا الصل الى جبل قريب وضع مراكبهم من الخروج بوسيلة السحر الذى عرفه ، فذهب أموالهم فأصبح عندئذ غنيا (٢)

ويقول مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » فى موضع آخر وهو يقول عن تذكرة غزوات (تاتس نانى هامو) الى الشرق ، أن (هانجوفانغ) وكان لصا مشهورا فى عصر (تيان باو) ، كان ينهب عادة ثلاث سفن إيرانية كل سنة فأخذ ما فيها من البضائع والأموال والجواري وذهب بها الى القرى بشمال المدينة على مسافة ثلاثة أيام ، أو الى جنوبها على مسافة خمسة أيام (٣)

(1) Ency. Brit. Art. Hainan

(2) Ancient China's Relation with the Arabs, P. 99.

(3) Ancient China's Relation with the Arabs, P. 99

نظم من هذه الأقوال ، أن العرب والابرايين - وهم مسلمون بدون شك - قد وصلوا إلى (هاى نان) فى عهد (نافع) بغض النظر عما أصابهم من الفرق والنهب وما إلى ذلك من المصائب والآفات

ويوجد فى كتاب ، جو فانكى ، ما يأتى ، أن الدينيين قد أنشأوا معبدا لربان مسلم فى جهة الشرق من مدينة (غاى شو) ليصلوا فيه . واليه يأتى أصحاب المراكب ليقدموا التذوق لروحهم ، إذا مروا هناك . ويقال لهذا المعبد ، ييجو توكا ، ميرو . قال الأستاذ هيرت وهو يستند إلى مدونات كانتون الرسمية بأن فيها ذكرا عن معبد يقال له جواين ميرو Chao Yin Miao والمعبد فيه هو ييجو أى الربان . وهذا المعبد معروف بين الأهالى بمعبد المعبود الاجنبى . ولحم الخنزير يحظر فيه التذوق . ويقول مؤلف علاقة الصين القديمة بالعرب أن هذا المبد على ٣٥ ميلا من المدينة بحجة الشمال الشرقى على خور يسمى بحيرة فيلوفر فالمعبود الذى يقدرونه هو ربان ، وفى سنة ١٣٧٠ م فى عهد الامبراطور (هونغ - وو Hung - Wu) رفع درجة هذا المعبود إلى درجة آلهة المياه . وحظر لحم الخنزير فيه قربانا . فكان أصحاب السفن يأتون إلى هذا المبد ، يقدمون القرابين والتذوق وهو مشهور الآن بمعبد الربان الاجنبى .

قلت فيما سبق أن الصينيين يعتقدون بأرواح العالمين . وأثرها فى دفع الآفات وتحقيق السعادات ، فينشئون المآبد والهيكل لها ويقربون لها القرابين ويذرون لها التذوق . فليس عجيبا أنهم قد بنوا هذا المعبد لربان كبير من العرب ، مات هناك ليمدوا روحه تقربا وتقولا كما يفعلون مع السيد الاجل فى ولاية يونان . والدليل على أن الربان كان مسدا ، هو حظر لحم الخنزير فى التذوق والقرابين . والحقيقة أن لحم الخنزير فى الصين من قديم الزمان إلى الآن ، يعد حادا فاصلا بين المسلم وغير المسلم . فالمسلم المصطفى يتجنب هذا الشيء . الحديث كل الاجتناب ، بل يذكره النظر اليه ، يظهر أن كرامة لحم الخنزير أمر غير خاص بالمسلمين بل ينظم جميع

المسلمين في جميع الاوطان لان دينهم يحرمه، وقد اثنى ابن بطوطة على الصينيين عرضهم
لحوم الخنازير في الاسواق واليوم نجد في (غاي شو) قبيلة اجنبية الاصل وقد روى
أن آباءهم وردوا هناك في عهد سونغ (٩٦٠ - ١٢٨٦ م) وعهد يوان (١٢٧٧
١٢٦٧ م) من خليج فارس في المراكب، فاستوطنوا في سواحلها والذين يسكنون
بوسانيا، كلهم من ذريات أولئك الاجانب، ويلقبون في اسمائهم بأبي فلان
ويحظرون لحوم الخنزير على منافع ارواح آباءهم، كما هو الحال في بيوت غير
المسلمين ولهم عيد عام يصلون فيه ويتعبدون، فيبشرونهم الجسدية وأصواتهم اللسانية
كلها تشابه العرب غير أنهم قد تعودوا بعض عادات الامم التي فترهم يتغلبون في
صيد الاسماك ويخرجون عسرها، ومنهم من يملك عشاريات عظيمة نتيجة اجتهاده
وكسبه، وهم في الزواج لا يختارون أهل القبيلة وانما يختارون الزواج من المحارم.
ولا يتزوجون من غيرهم، ولا يتزوج غيرهم منهم، يقطنون بالامكنة الساحلية، يرب
عليهم الريح دائما، وأما بيوتهم - سواء كانت خضوعية أو عمرمية -، فليست من مباني
طالبة فالعوام منهم يسكنون الاكواخ، وأما الادارات فمن هذه الاكواخ ايضا.
فمن يسكن بقرب الماء، يصبح في الامواج ويمشي في العواصف، وأما الذين يبعدون
عن الماء فساكنهم من الاكواخ حقيرة، والامراء منهم لا يتزوجون في الخراف
والزينات، بل يقتنون بمنازل قوية البناء متينة الاركان وفي (غاي شو) - ست
لهجات منها لهجة اجنبية يتكلم بها أهل بوسانيا (١)

نجد في غاي شو الآن، نحو ألى حائلة من المسلمين، أكثرهم اجانب باعياوا
أصلهم، وما أربع مساجد جوامع يجتمعون فيها أيام الجمع والاعياد. ولا شك
أن دم العرب لا يزال يجري فيهم مع اختلاطهم بالسكان الاصليين. واعتقد أنهم من أهل
سواحل عمان أو من حضر موت. لان التباين كانوا يحبون ركوب البحر ولم
طائلات في سائر غون حتى الآن (٢)

(١) Ancient Chinese's Relation with the Arabs . P. 100

(٢) ساقى غون Saigon ميناء كبير شهير ببلاد أنام التي يقال لها الهند

إن الإسلام قد وصل إلى (جوانشو) وإلى (يانغ شو) وإلى دهانغ شو ، أيضا . وكان ذلك على أغلب الظن قد وقع في عهد (تانغ) . لأن هذه المدن كانت من الموانئ الشهيرة التي قد فتحت أبوابها لتجارة العرب والبرانيين منذ القرن الثامن الميلادي غير أننا نجد عن الأتباع يهضر التفصيل لليلة الهدية في هذه المدن في ذلك الوقت وذلك لعدم الأدلة المكتوبة في تاريخ الصين القديم . وأما ما ذكر في « تذكرة فوكين » وتاريخ ، تنغ عن وصول الإسلام إلى (جوانشو) و (يانغ شو) في السنة العاشرة للهجرة ، فليس من البيان الصحيح ، كما أشرت إلى ذلك من قبل . لأن وصول الإسلام إلى الصين ، قبل تعميقه في بلاد العرب نفسها وقبل انتشاره إلى سواحل الهند ، إن لم يكن مستحيلا ، فعل الأقل من غير المقبول عقلا . ومع هذا ، اعتقد أن وصول الإسلام إلى تلك الموانئ في أيام متأخرة من عهد (تانغ) يكون من أمور واقعة يؤكدتها تاريخ (سونغ) ٩٦٦ - ١٢٧٦ م) . أنك تجد الحديث عن وجود المسلمين بجوان شو ، في عهد (سونغ) ، في « تذكرة جوانشو » . وكان من بين أشهر المسلمين ، أبو الشوقين ، وهو من العرب الذين وصلوا إلى الصين واستوطنوا يكايتون للتجارة . فانتقل أبوه إلى (جوانشو) في آخر القرن الثاني عشر للميلاد . وبناء على ما ورد في « تذكرة جوانشو » ، أن أبا الشوقين مع أخيه الأصغر كانا يشتركان في تأمين سواحل فوكين ، حين كثرت لصووس البحر فيها وهددوا سلامة أبواب التجارة وحياتهم . فترقى بسبب هذه الخدمة الجليلة ، إلى منصب مراقب سواحل فوكين . ثم إلى منصب أمين الأمور البحرية على ولاية (كانغ تونغ) و (فوكين) وهو منصب مراقب عام على السفن والمراكب (١) .

في « جوانشكي » أو « التذكرة عن البلاد الأجنبية » ، نجد بيانا عن مسلم آخر استوطن بجوان شو ، قريبا إلى - ، كان ناجرا معروفًا باسم السيراتي ، أصله من بلاد العرب واستوطن بضاحية جنوب (جوان شو) وكان ذا ثروة عظيمة

مطلق الدين ، فاعل الخيرات ، ساهرا على المسكرم الى امتاز بها قومه . فاشترى أرضا ورقها لمدايق مواطنيه الذين قد لقوا حتفهم بهذه الديار القريبة فدقروا فيها ^(١) .

فلنفرض أننا لم نجد هذه البيانات في الكتب الصينية ، شهادة على وصول الاسلام الى تلك المدينة في ذاك الزمان . إذن في يستطيع أن يتسكّر وجود الجامع الطاهر الذي أنشئ في سنة ١١٣٦ م بحوان شو . الا يكفي هذا الجامع دلالة على كثرة المسلمين بتلك المدينة العظيمة ، في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ؟ لقد قام هذا المسجد في ضاحية الجنوب التي كانت مستوطنة التجار العرب وإيران وتوجد فيه لوحة حجرية مكتوبة بيد عالم اسمه ، ووكان ، . ويقول مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، . - أن ووكان ، كان عالما من علماء إيران ، عاش في عهد (كي جينغ Ki-Cheng ١٣٤١ - ١٣٦٧ م . فانه قد ترك كتابا في تفويض البلدان في عشرين جزءا . وأما ووكان فذكر في هذه اللوحة التذكارية بعد بيان وجيز عن حالة الاسلام في بلاد العرب قائلا : - أن نجيبا مظهر الدين جاء في مركب تجارية من سيراف الى (جوانشو) في سنة ١١٢١ م) فأنشأ مسجدا بضاحية جنوبها واشترى الأراضي ورقها للمسيح وعمره بالصلاة والمبادات حتى زمن متولى أحمد الذي غفل عن واجباته وترك المسجد خربا حتى سنة ١٣٠٠ م . قدم في هذه السنة ، خضر ، رئيس محكمة (فوكين) ، فدعا إليه شيخ الاسلام برهان الدين والخطيب شرف الدين وجماعة من المشهورين . فسألهم عما يشكون منه فذكروا له تخريب المسجد وعدم اهتمام الناس بأمور الدين . فوكل تادرو خواجة الذي قدم من طارغان أن ينظر في هذا الامر فاجتمعوا وتبادلوا الرأي فاخترخوا إصلاح ما خرب من المسجد . ففرح الناس جميعا سراء أكانوا من طبقة العوام أم من طبقة الخواص . فكان بتلك الضاحية منظر عظيم معروف باسم علي من عائلة (زكين) فأخذ على عاتقه جميع النفقات اللازمة لأعمال الترميم فتم الامر ووقه الحمد .

(1) Chao Ju-Kua : p. 199.

ويقول (دوكان) في آخر التوضيح المذكورة — « أن برهان الدين قد بلغ ١٢٠ عاما من العمر وكان عالما عميقا وعلما ، حسن المعاملة ، قوى الجسم ، كرجل في مقبيل العمر . وكان رئيسا دينيا بالجامع وأما المتولى فهو أحمد ^(١) .

لقد زار هذا الجامع ، ابن بطوطة ، فاجتمع فيه بأكار العلماء المستوفين بمدينة (جوانشو) مثل تاج الدين الأردوبيلي وكان الدين عبد الله الإصفهاني وبرهان الدين الكازروني . ومن قوله أن كمال عبد الله هو شيخ الإسلام ، وشرف الدين التيريزي من كبار تجارها وبرهان الدين من مشايخها الفضلاء) وأما زعم المسجد فقد وقع بعد رجوع ابن بطوطة بعدة سنين فقط .

ومن المدن التي دخلها الإسلام في عهد (تايغ) مدينة (جانغ — آن ، عاصمة الصين حينذاك ، فأرخ العرب شاهد على ذلك مع غصن النظر مما جاء في الكتب الصينية ، فالعنة التي بثها فتية بن — إلى اليا من إلى عاصمة الصين برباط هيرة بن مشهورج ، في سنة ٧١٥ م — ١٥٩٦ م ، من الحقائق التاريخية التي اتفق عليها جميع المؤرخين . وقد ذكرتها بالتفصيل في باب العلاقة السياسية ولا حاجة بي إلى إعادة ذكرها هنا . وأما الكتب الصينية فقد ذكرت وصول وفد العرب رحبوا إلى (جانغ — آن) في سنة ٦٥٩ م . فقالوا للإمبراطور أن حكومتهم قد أسست منذ ٣٤ سنة وعلى العرش الملك الثالث الآن . وذكر (تايغ شو الجديد) ، أن وفدا آخر من العرب وصل إلى عاصمة الصين في سنة ٧٠٣ م .

وأقرب الجياد والخيول والسروج الخيلة ، هدأ إلى الإمبراطور . (بونغ جونغ) فلما ملأوا بين يديه واضوا أو يسجدوا له بحمد التظيم ، كما كان الوفود من البلاد الأخرى يفعلون ، وتطلبير أنهم لا يهابون في بلادهم إلا الله القهار وكان وزير المراسم يمين من أقبض وهم يملهم ، لكن وزيرا من وزراء الدولة تقدم ، وشفع

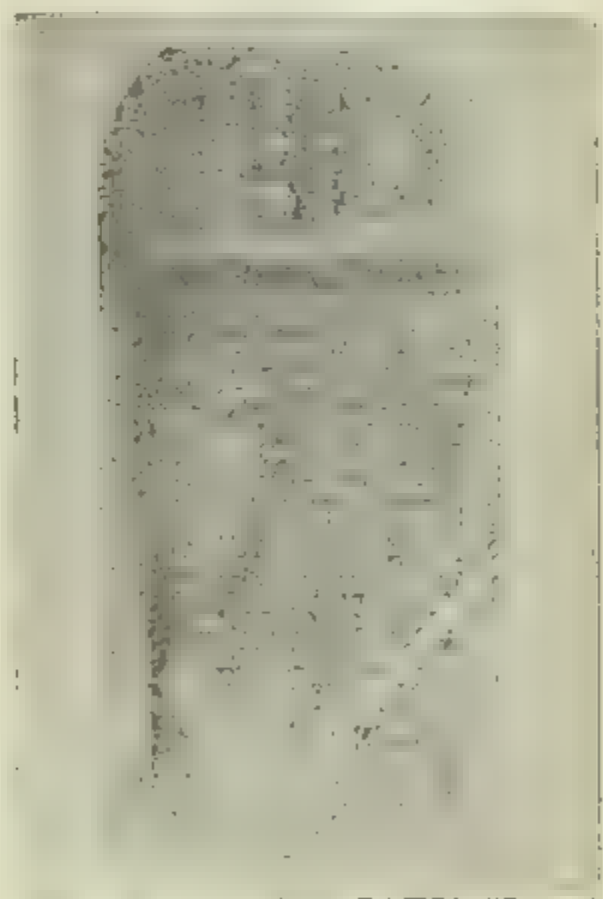
(١) تستعمل كلمة (متولى) في الهند وإيران في معنى (مدير المسجد) وهو المراد هنا .

لهم بحجة أن آداب الدولة تختلف باختلاف الأمم فلا ينبغي أن يمتد رفضهم
للسجود للامبراطور ، ذنباً من الذنوب التي يعاقب عليها بالقتل في بلاد الصين ^(١) .
وبرى المحققون في تاريخ الصين ، أن الوفد الذي وصل إلى عاصمة الصين سنة
٧١٣ م كما ذكره وانغ شو الجديد ، هو الوفد الذي بعثه قتيبة بن مسلم في سنة
٧١٥ م . لأن ، نانغ شو الجديد ، ذكر وصول هذا الوفد في أوائل عهد كافي
وانغ ، ومن المعلوم أن عهده كان مستمرا من ٦٩٣ إلى ٧٢١ م . فمضى ، أوائل
عهد كافي وانغ ، ليس من الضرورى أن يراد به سنة ٧١٣ نفسها ومن الممكن
أن يراد بها ثلاث السنوات الأولى من هذا العهد لأن الصينيين إذا قالوا في
« أوائل الشهر » ، فالمراد منه عادة ، هو « الأيام العشر الأولى من الشهر » . وعلى
هذا القياس يكون تعديرهم في « أوائل الشهر » أو « أواخر الشهر » . وهذا
يكون اصطلاحهم في الأمور التي تتفق بالزمان . ويظهر أن هذا الرأي مقبول عند علماء
التاريخ على اختلاف جنسياتهم وطبقاتهم ، ثم أن اختلاف المصدرين الصينيين
والعربي في تدوين واقعة تاريخية تتفق بالقرن الثامن الميلادي ، هذا الاختلاف
الذي لا يتجاوز ـ اثنين ، لا يكون تخلافا كبيرا يجب أن يرفض أو يذهب إلى عدم
الصحة بالسكينة

وبوصول هذا الوفد ، بلغ صوت الاسلام مدح الامبراطور وأهل العاصمة
وكان ذلك أمرا بدعيا لا يحتاج إلى أى دليل عقلى أو نقلى ، ولولم تكن هذه
الوفود ، فالمسجد الذي أسس في سنة ٦٩٢ م ، في (جانتش — آن) عاصمة
الصين حينذاك ، يشهد أن المسلمين قد وصلوا هناك على الأقل في أواخر القرن
السابع الميلادي فكثير عددهم حتى احتاجوا إلى إنشاء مسجد جامع لصلواتهم في
منتصف القرن التالي ، وفي هذا المسجد لوحة حجرية لا تزال موجودة بالحروف
المنقوشة فيها وإن كانت لا تقرأ إلا بعد التدقيق والامعان . ألا أنها دليل
على ما نقول .

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 46.

وأكثر المؤرخين ينكرون صحة النصوص الموجودة في هذه الكتابة التاريخية فينسبونها إلى اختراعات الأيام المتأخرة عن تأسيس المسجد بقرون . وذلك بناء على عدة أدلة علمية . وهذه صورة فوتوغرافية لهذه الكتابة التاريخية الموجودة في جامع (جامع - آن) باللغة الصينية طيما . والآن نحاول أن نتحقق هذه الكتابة ونحللها بعد نقل معانيها إلى اللغة العربية .



أقدم كتابة (Inscription) إسلامية باللغة الصينية منقوشة في الحجر .
يقال أنها كتابة تذكارية لتأسيس جامع (سي - آن) سنة ٧٤٢ م

- ١ - صدر الكتابة : ، تذكار لتأسيس المسجد .
- ٢ - السطر الاول من التبيين ، كتابة التذكار لتأسيس المسجد .
- ٣ - السطر الثاني من التبيين : (إختار نصوص الكتابة) (وانغ كوتخ) Wang Kung
الدكتور في القانون ، ورئيس إدارة المالية والاحصاءات .
- ٤ - وأما نصوص الكتابة فكما يلي :

والذي لا شك فيه إلى الأبد ، هو الحق ، والذي يحس به في كل وقت هو القلب . فكان الانبياء متفقين على الحق باتفاق شعور قلوبهم ، فيجمعون على عدم التصديق للمشرك وإن اختلفت بصورهم ، أما الانبياء ، فقد بموا في كل مكان ، فيعرفون بتأكيدهم لكلمة الحق ودعوتهم إلى فهمه بالقل ، ومن المعلوم أن ظهور محمد النبي العربي (ص) قد وقع في بلاد العرب ، بعد (كانهوشوس) بزمن بعيد وفي مكان قاص ، في بيئة غريبة ، ولغة غير مفهومة عندنا . لكن ما هو السبب الذي جعلها متحدين في المبادئ ، وما هو المبدأ الذي قد دعا إلى توافق تعاليمهما إنما ذلك هو اتحاد شعور القلبين ، في رفع لواء الحق كما متفقين . لقد صدق القائل في سالف الزمان - إذ قال أن قلب الانبياء لا يختلف بكثرة الأشخاص ، والحق لا يتفاوت بتفاوت الأزمان .

لا ريب أن زمت قد مضى ، ونحمة قد فنى : لكننا نعرف من الكتاب والاحاديث أنه ولد ما لا على خوارق المادة ، عارفا بدقائق ما تحت الأرض وما فوق السموات ، وحقائق التخليق وأحوال الكائنات ، مطلقا على أسرار الحياة والممات ، ضليعا بمعلومات عن فوائد طهارة الابدان ومبادئ تربية الاخلاق ، فيعلم الناس قتل النفس الامارة بالصوم ، وإظهار الاخلاص بإيفاء العهود ،

وقهر الشهوات بأفعال الخيرات، وتطهير القلوب بشعور مصير الخلق والتعاون بالواجب والتعاطف بالاشتراك في الاحوال والمآثم

حاصل الكلام أن شئون الحياة ، كبيرة كانت مثل مسائل الاخلاق ، أو صغيرة مثل حركات المآكل والمشرب ، كلها مرسوعة في نظام مفيدة بحكم دقيق ، نظرا إلى الخوف من غضب الله ووجاه رحمته .

نعم هناك بعض التفاصيل يتفرع من هذا التعليم ، أمكنها تسوق إلى غاية واحدة لإجلال الله تعالى الكائنات والموجودات ، كقبي هذا الدين الذي لا يدع إلا إلى كلمة الوحدة ، ويرشد العقول إلى فهمها ، فإن أصوله توافق قول الامبراطور (يو - Yao) : « ملأوا السماء الأعلى » ، وقول الامم اطور (شانغ - Shang) : « ملأوا أمور دنياكم بالعبادة » ، وقول (وين وانغ - Wen Wang) : « إله العبادة للخالق » ، وقول (كانفوشيوس) : « أين الدعاء من إغاظة السماء » ، فواضح أن هذه الأقوال من منبع واحد ، فإن الانبياء يتحدون في الشعور والايمان

ولا يخفى على القارى . أن إيمان الانبياء لا يتفاوت ، وشعورهم لا يذابن ، فتجد في تعليم أحدهم تلاميذ الآخر ، غير أن تلاميذ محمد (ص) التي شاعت في بلاد العرب ، لم تكن مسموعة عند الصينيين ، فوصلت إلى الصين في عهد (كافي وانغ) ، ثم انتشرت في جميع أرجائها حتى عهد (تيار باو - Tian Paو) ، فدارأى دين النبي العربي (ص) يتفق مع ديانات حكماء الصين في إرشاد الناس إلى صراط مستقيم . أمر رئيس المهندسين واسمه (لوتيانجو) في عمل الرتبب لأسير - مجد يجمع شمل عامة المسلمين ، كما أمر بدر الدين أن يدبر أمور الدين فيه وهو عالم ضليع بالعلوم ، فقبل وظيفة الإمامة في المسجد للجماعير في الصلاة والعبادة

لقد بدأ العمل في يوم مبارك من الشهر الثالث في السنة الأولى لعهد (تيان باو) ولتم نأؤه في اليوم العشرين من الشهر الثامن ، ثم فترج لإمام بدر الدين نصب لوحة حجرية تخليداً للذكرى هذه الاحمال الخالدة لكبة تكون نسيا ونسيا

يمرور الزمان ، ولكي يستطيع الباحثون أن يمتدوا إلى معرفة أحوالها السابقة وحقيقتها القادرة

..... مخطوطة في فصل الحريف سنة ٧٤٢ م .

ويقول الذين ينكرون أصل هذه الكتابة ، أن هناك عدة دلائل في الكتابة نفسها تدل على عدم صحتها

أولاً : أن نص هذه الكتابة تدعى دخول الآلة - الآلة في الصين في عهد (كانغ وانغ) أي بين سنة ٦٠ و ٥١٩ م . ومن هذا أن الإسلام قد دخل الصين قبل البيرة وهذا مستحيل . لأنه يحتاج إلى واقع والحقيقة ، وهذا رأى مارشال بروم مال

وثانياً : أن كلمة ترانغان مذكورة في هذه الكتابة وتاريخ الصين يشهد بأن هذه الكلمة لم يستعملها في معنى بلاد العرب إلا كتاب عصر (مينغ Ming ١٦٦٠ - ١٦٤٢ م) لأن العرب كانوا معروفين في تاريخ (فانغ) باسم (نانشي) وهي كلمة معروفة عن تزي العارسية وتعرف بلاد العرب في عهد (يوان) باسم (بلاد تيان فان) أي بلاد الكمية . وعلى هذا يعتقد الدكتور ديريريه (Durie) أن تاريخ هذه الكتابة لا يكون أقدم من ١٣٥١ م .^{٢١}

ثالثاً : أن عبارة الكتابة من ناحية الأسلوب لا تشابه الأسلوب الذي كان شائعاً في عصر (تاغ) وكثير من كبار المؤرخين قد حقق عبارات هذه الكتابة فلم يجد فرقا بين أسلوبها وبين أسلوب الآلة في عصر (- وانغ) ثم ترجمة صوتية على أقرب الصوت للكلمة ، نجد أنها على أنها من صناعة أهل عصر (مينغ) (١٣١٨ - ١٦٤٢ م) ومن رأى هذا العلم أن العبارة الموجودة في الكتابة غير العبارة الآلية . يعتقد ذلك إلى درجة اليقين غير أنه يقول من الممكن أن لوحة التفكير قد نُسخت في سنة ٧٤٢ م ، ولها عبارة أصلية كتبها الدكتور (وانغ كوانغ) غير المكتوبة الآن لأن ترجمة الدكتور المذكور توجد في تاريخ الصين

() سنة البيرة . م .

(٢) الإسلام في الصين لمارشال بروم مال ص ٨١

لهذا العهد وكان من الأدباء البارزين وإنما وقع التغيير في الكتابة وكان ذلك بمجرد العبارة الأصلية من اللوحة في عصر (منغ) إذ كانت الترميمات والتصلحيات قد أجريت في المسجد من حين لآخر، فوضعت في محلها عبارة أخرى لاهل هذا العصر ثم نسبت الى الدكتور (وانغ كونغ) كما كانت وكذلك أبعدوا تاريخ التأسيس كما كان فلذا يرى أن الكتابة الموجودة نفاير أسلوب عصر (نانغ) مع أنها منسوبة الى هذا العصر واسم الدكتور (وانغ كونغ) لا يزال منقوشا في لوحة التذكار وكذلك تاريخ التأسيس

هذا وأما الأستاذ (جين يوان) أستاذ التاريخ في جامعة بكين

ولا شك أن الترميمات قد وقعت في هذا المسجد التاريخي عدة مرات وقد سجلت هذه الترميمات وقائع شمس الرسمية في السنين الآتية

أجرى ترميم هذا المسجد لأول مرة في سنة ١١٢٧ م في عهد (سونغ) على نفقات الأمير عبد الله، وللرة الثانية والثالثة في عهد (يوان). فكانت إحداها على نفقة السيد الأجل في سنة ١٣١٥ م. وأما المرة الرابعة فكانت في عهد (منغ) إذ كانت الصين تحت حكم السلطان (هونغ - وو : Hung-wu) على نفقة الحاج جهان الخصي الشهير عند هذا الإمبراطور.

ولوقوع هذه الترميمات في عصور مختلفة، يميل كل باحث في أصول هذه الكتابة التاريخية إلى الاعتقاد بأن التغيير قد وقع في عبارة الكتابة الأصلية ولعلها في المرة الثالثة أو المرة الرابعة. قال ميسونيرسان دابري، صاحب المهدية في الصين، باللغة الفرنسية - أن هذا المسجد كان يحمل أسماء شتى في عصور مختلفة. وبناء على رأيه وهو يتكلم عن المراجع الصينية بدون ذكر اسم الكتاب أو اسم المؤلف، أن هذا المسجد يسمى باسم «تشنغ جيونزي» أي «عبد الدين الطاهر» ثم غير إلى اسم «تافغ منغ نزي» - 明寺، أي

معبد النور المشرق. لكن السيد الأجل الذي رمم هذا المسجد في سنة ١٣١٥ م، بإذن الإمبراطور، ببدل هذا الاسم إلى «تشنغ جيون نزي»

أي معبد الدين الظاهر الحقيق . ولأن الكتابة تحمل الاسم الأخير في صدر
سطورها ، ذهب المارشال بروم حال إلى ترجيح أن لوحة التذكارات نفسها قد نصبت
في سنة ١٣١٥ م .

وأما لاوي أن رأى الأستاذ جين بران ، أستاذ التاريخ في جامعة بكن
أقرب إلى الصواب . لأن وقوع الصينيين في الاغلاط التاريخية لا يستمد الجحالة
أو لحسن الظن . وأما الافتعال فصداء ، فذلك من صناعات المستشرقين ، كما فعلوا
بتاريخ الاسلام وتاريخ الامم الشرقية ، وكل ما ارتفع من الاغلاط التاريخية في
أصل المسلمين . والمثل من الغرب ، وفي الكتابات التي تحمل تاريخ منع ، قد
نشأ لأحد الصينيين .

وأما الكتابة التي في مسجد (جانغ - آن) ، وقد بنى في القرن الثامن
الميلادي ، فيظهر من الدلائل العلمية ، أن التغير قد وقع في نصوصها . وعلاوة
على الدلائل التي أدلى بها ، مؤرخ الصين ، جين بوان ، عن هذه الكتابة ، أجد
فيها أدلة أخرى في تأييد نظريته .

أولا . أن جميع الكتب القديمة من عهد تانغ الى عهد يوان ، لم تذكر وصول
الاسلام إلى الصين في عهد كافي وانغ (٥٨١ - ٦١٨ م) بخلاف كتب عهد متغ . فانها
تذكر ذلك . فلذا نجد أن كثيرا من المؤلفات لهذا العهد ، قد ذكرت وصول
الاسلام في عهد (كافي وانغ) ، ولعل لهذا سببا غير معلوم عندنا حتى الآن .

ثانيا . أن عبارة الكتابة من ناحية المعاني تشبه كثيرا النصائيف التي ألفها
المسلمون في عصر متغ ، مثل : تيانفان ديايلى ، و : نياغان شلى ، و : جى شن
شيلوه وغيرها من الكتب التي أخرجهما الكتاب المسلمون ، فلا نرى هذه المعاني
المشتركة بين تعاليم كانغوشويس وتعاليم الاسلام في الكتابات التي يكاتون
أو بانغ شو ، أو نجوان شو .

ثالثا . وهو أقوى الأدلة عندى في ثبات وقوع التغير في نصوص الكتابة
التي بمسجد (جانغ - آن) . أن هذه الكتابة قد ذكرت اسم الامام وهو بدر

الدين، (۱۷۶۳) ومن شاذ أن تجد اسمها في الأصل يضاف إلى الدين، وهذه العادة لم تذكر شائعة في اقربون الأثرى للهجرة بين العرب، فلما يستعملون اسمها كمذا أو أمثالها من كل ما يضاف إلى الدين، — لا يثبتهم حتى اليوم، ولا شك أن هذه العادة من خصائص أهل خراسان وبلاد الفرس وما وراء النهر بعد دخولهم في حظيرة الاسلام، وهم كانوا مولعين بتسمية أبنائهم باسم شظرة الآخر يحمل كلمة الدين، مثل سراج الدين، وتاج الدين، وآفتاب الدين، وهرمان الدين، ولم حرا.

نعم، من الممكن أن يدور الدين هذا، المذكور في الكتابة الصينية من أصل عجمي، جاء إلى عاصمة الصين في القرن الثامن الميلادي، فكان من المكر أن اقتصد هذا لو لم نثر على شهادة تثير الشك في هذا الاعتقاد وهذه الشهادة هي كتابة عربية وجدت في مسجد (جانتغ - آن) نفسه، ومن عجيب الاتفاق أن هذه الكتابة العربية، قد نشرت على ظهر تلك الكتابة الصينية التي بحثنا عنها آنفا، إذا انضنا نظره إلى وحدة هذه الكتابة، يرى أنها مكتوبة بالخط العربي الجليل، وهذه الكتابة تحمل تاريخ ٩٥٩ هـ - ١٥٤٥ م. وأما عباراتها فواضحة جدا، تستطيع أن تفهمها بسهولة من أرادها إلى آخرها، وبظاهر من محتواها أنها شاهد للشيخ من الصالحين، والله كان إماما بالمسجد يسمى بدر الدين بن شمس الدين الدوسكانسكي مات بجانتغ - آن ودفن هناك، فكتب أهل المدينة له شاهدا يدعى أنه من سلالة أهل البيت وليس بينه وبين صاحب الرسالة (ص) سوى ثلاثين أباً فلما وجدنا اسم بدر الدين، منها في هذه الكتابة العربية فطنت إلى بدر الدين الذي ذكر في الوجه الثاني من الشاهد، وإذا كان الأستاذ جين يوان، مصيها فيما زعم من وقوع التغير في عبارات الكتابة التي يرجع تاريخها إلى ٧٤٢ م. في عهد (منغ) (١٣٦٠ م - ١٦٤٢ م)، وإذا سلمنا أن هذين الاسمين لرجل واحد جاء ذكره في الكتابتين - العربية والصينية، فما لا شك فيه أن التغير قد وقع في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، إذ كان بدر الدين إماما في جامع (جانتغ - آن).

ومع اعتقادي بهذا التغير في عبارات الكتابة، أعتقد أيضا أن الكتابة نفسها،
وكانت لها عبارة أصلية من آثار الإسلام التي يرجع تاريخها إلى سنة ٧٤٢ م وهي
شهادة صائبة ناطقة بوجود المسلمين بعد صفة الصبر في ذلك الوقت.



كتابة عربية على ظهر الكتابة الصينية، السابقة للذكر بجامع (سى - آن)
وهي شاهد للشيخ الامام بدر الدين بن شمس الدين السوكاكي المنوف
سنة ٩٥٢ - ٩٥٤ م

ويحسن أن أختتم هذا الباب بكلمة عن وصول المسلمين في عهد (تايغ) إلى سيللا، «ينا، قديم في كوريا». يقول مؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب» : «أن كوريا، كانت مدممة إلى ثلاثة أمثالك : (كوجولي) بشمالها تتصل بالصين، وييجي بغيرها، وسيلو (وهو سيللا في جغرافية العرب) بشرقها الجنوبي. قبض الجنرال (سوتيفان) على (بيجي) وضمها إلى ممتلكات الصين في سنة ٦٦٠ م. ثم قبضت الصين على (كوجولي) في سنة ٦٨٠ م، فبقيت (سيلو) مستقلة إلى حين معارضة مع أسرة (تايغ) ثم زال استقلالها في أواخر القرن التاسع الميلادي وفي الفترة التي كثرت فيها الاضطرابات والثورات بين ٩٠٢ و ٩٢١ بالصين، استقلت كوريا فصارت دولة ذات سيادة مختارة»^(١).

وأما سيلو أو سيللا كما ورد في الكتب العربية، فقد ذكرها غير واحد من العلماء منهم ابن خردادبه والقزويني. وأما وصول المسلمين إلى هذه المدينة، فقد سكبت عنه تاريخ الصين، لكن علماء العرب قد لاحظوا وجود المسلمين بها حينما تكلموا عن مناخها وتجارة العرب، فيها. وإنك تجد في ابن خردادبه، ما يأتي : «وفي آخر الصين بازار قالهوا، جبال كثيرة وملوك كثيرة، وهي بلاد سيللا فيها الذهب الكثير، ومن دخلها من المسلمين استوطنها لطيبها، ولا يعلم ما بعدها»^(٢).

ولاشك أن المسلمين الذين قد دخلوا هذه البلاد لتجارة والكتب، لما رأوا خصب أرضها وطيب هوائها، استوطنوا هناك وأسسوا ممالكهم فيها وكانوا يجلبون كل المنافع المتاحة لهم حتى يقول مؤلف «علاقات الاسفار» : «أن بلاد سيللا غنية جدا، خصوصا بالذهب. فالمساوون إذ دخلوها، يسحر أعينهم جمال البلاد حتى استوطنوا بها ولم يرضوا بالخروج منها»^(٣).

(١) والحديث عن هذه الاضطرابات في ابن الأثير والمحمودي و«بيان السيراني

(2) Ferand : 33

(٣) ابن خردادبه ص ٧٠

فان بيان ابن خردادبة الذي عاش في القرن التاسع الميلادي عن وجود المسلمين
بتلك البلاد دليل على وصولهم هناك قبل تلك المدة . إذ اقل منهم وصلوا هناك
في أوائل القرن الثامن ، ولا شك انهم بالمخالفة في البيان وتقديره . اذا أكدنا
ما ذهبنا اليه

ويظهر من التاريخ ، أنهم ولو وصلوا هناك في تلك الأيام ، انهم لم يتخذوها
وطأ دأبها ، كما فعل العرب في جزيرة (هني نان) و (حواشو) و (كاتون)
وعندها من موافق الصين . فلذلك لا نجد في أي مصدر إشارة الى استقرارهم هناك
في الأيام المتأخرة الى القرن العاشر للميلاد .

وأما العدد القليل الذي بكوريا الآن . فليس من ذريات أولئك المسلمين
الذين دخلوا بلاد سيلا في القرن التاسع الميلادي ، بل من المهاجرين من منشوريا
ومن الصين ، وحائهم لدينية ضعيفة جدا ، حتى لا نجد الأمايق الطاهر بينهم وبين
كفار كوريا إلا في النخرج من أكل لحم الخنزير . وثمة يهدمهم الى الصراط المستقيم

الباب السادس

في العلاقة الدبلوماسية

(١) من عهد (تانغ) إلى عهد (منغ)

أن المراد بالعلاقة الدبلوماسية في هذا الباب ، هو السفارات التي توجد بين العرب والصين في عصور مختلفة لأغراض شتى ، منها ما يتعلق بالدين ، ومنها ما يتعلق بالتجارة ، ومنها ما يتعلق بإيجاد حسن الجوار . يختلف هذا الباب عن باب العلاقة السياسية في أنه مقصور على البحوث التي تتعلق بالحروب والحركات العسكرية . وأما هنا فذكر حركات السفراء والوفود ، سواء أكانوا من العرب إلى الصين أو من الصين إليهم كما سنرى كل هذا في الصفحات الآتية :

لا ينبغي على القراء ، أن هذا النوع من العلاقة ، قد بدأ في زمن الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين لأن تاريخ الصين يشهد بوصول وفد من العرب إلى ماصمة الصين في السنة الثانية من عهد . يونغزي ، وهي توافق سنة ٦٥١ م . وكان غرض هذا الوفد ، كما رأى الفارسي . في الباب السابق ، إخبار أمير طور الصين ببيعة محمد (ص) رسولاً من بين العرب ، داعياً إلى التوحيد ، وقوم معاني الحياة بالعدل . فاقبض أئرم . وفود آخرون فيما بعد . ولا شك أن تاريخ العرب والإسلام قد سكت عن حركة أكثر هذه الوفود ، غير أن تاريخ الصين لم ينكرها ؛ بل ذكرها في كتب مختلفة لعصور مختلفة . يوجد ذكرها في تاريخ الصين ل عهد تانغ .

لقد سجل مع كتب الصين القديمة وصول أربعة وثلاثين سفارة من بلاد ناشي ، (العرب) في قرن ونصف قرن من ٦٤١ إلى ٨٠٠ م . وكان مع وفود العرب ، وفود من البلاد الأخرى ، مثل فرغانة وسمرقند ومن بلاد الأواغرة — ومن

أرمينيا وسرنديب وبلاد الفرس . ومعنى هذا أن سفرهم كان عن طريق البر ، كما كان عن طريق البحر .

ولقد بحثنا في المصادر العربية ، عن هذه السفارات وأغراضها وأسماء رؤسائها فلم نذكر إلا على قليل من المعلومات ، ولا ندري إن كان ذلك ناتجا عن جهالة الكتب التي ادخلت فيها المعلومات الضرورية عن هذه السفارات ، أو عن عدم تدوينها أصلا . ولنتفقد أن قلة تباحثنا في هذه الناحية من البحث ترجع الى السبب الثاني لا إلى الأول . ولو أن لدينا تصديقات من المصادر العربية لهذه السفارات التي ذكرت في الكتب الصينية ، لكان سهلا علينا أن نتهدى إلى معرفة حقيقتها وحقيقتها ما ذهب تاريخ الصين اليه من الادعاء بأنهم قد جاءوا لتقديم الهدايا وحاصلات بلادهم وفي بعض الأحيان لتقديم الخراج . إنك تقر أنك لم تقرأ كل هذا فيما يلي .

وهناك مسألة أخرى شأت عن سكوت المصادر العربية ولم نجد شيئا إلى معرفة حقيقتها حتى الآن . ألا وهي ، كم سفارة جاءت من الخلفاء ، وكم أميرا من العرب الذين كانوا مشرلين على زمام الحكم وبأيديهم عقائد السلطة بما وراء النهر وخراسان ؟ والظاهر أن السفارات الرسمية التي نبذلت بين أباطرة الصين والخلفاء الأمويين لم تكن كثيرة لأن الكتب العربية لم تذكر إلا عدة بعثات ، منها ما بعث في حكم فتيبة بن مسلم ، ومنها ما بعث من أبي الجعفر المنصور ، وأما العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء العباسيين ، فلا أشك في وجودها ، لأن الأخبار عن وصول الوفود من العرب ذوي الملابس السوداء قد وردت في مواضع عديدة في كتب الصين القديمة وإن نقصت منها بعض التفاصيل .

ومن تاريخ (تانغ) ، نعرف أن سبع عشرة سفارة قد وردت من العرب إلى عاصمة الصين في زمن الأمويين ، وخمس عشرة ، في زمن العباسيين . فالسفارات العباسية ابتدأت من سنة ٧٥٢ م ، وما قبلها من الوفود قد وفدوا في زمن بني أمية . إن السفارات التي بعثت إلى عاصمة الصين في عصر بني أمية ، كما وجدناها في جغويانكوى 冊府元龜 كانت في القرنين الآتية .

٥٥ و ٦٨١ و ٧٠٣ و ٧١١ و ٧١٦ و ٧١٩ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٨ و ٧٢٩ و
٧٣٢ و ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٥ و ٧٤٧ م.

ويقول هذا المصدر ، أن السفارة التي وردت في سنة ٦٥٥ م ، كان معها وفد
من آرمينيا ، والتي في سنة ٦٨١ م ، معها وفد من فرغانة ، والتي في ٧١١ م ، ليست
من بلاد العرب بل من مدينة الري ، وفي هذه السنة نفسها وصلت سفارة من
سرنديب وفي سنة ٧١٩ م ، جاء وفد من العرب ، كما جاء من فرغانة ومن سمرقند
وجنوب الهند . وفي سنة ٧٢٥ وصلت سفارتان ، الأولى في الشهر الأول والثانية
في الشهر الثالث ، وكان سليمان رئيسا لهاتين السفارتين ، ورافقه ١٣ عضوا من العرب
فكان الغرض في المرة الأولى هو التفتة بعد أول السنة الصينية ، وفي المرة
الثانية تقديم حاصلات بلاد العرب ومنها الخيول والمنسوجات صوفية .

ولا نستطيع أن نعرف من المصادر الصينية كم سفارة وردت من
الحلفاء الإمويين إلى عاصمة الصين ، لأن كلمة (تانغ) في تاريخ (تانغ) ولوان
المراد منها العرب ، ، لكن ليس من الضم وري أن يراد بها العرب الذين بدمشق
أو بالعراق . ومن المحتمل أن يطلق على العرب الذين استوطنوا آسيا الوسطى أو
غرب الهند . ويظهر أن السفارات التي جاءت في حكم أمراء العرب بما وراء النهر
وخوارزم ، كانت أكثر ، حيث خلفاء بني أمية في دمشق قال السفارة التي تقدمت
إلى دجلة اليقين أنها بعثت من دمشق ، كانت في سنة ٧١٦ م . لأن تاريخ الصين
ذكر هذه السفارة بوضوح جدا حتى رفع كل الشكوك في عدم صحتها . يقول
« جفويواسكوي » — في الشهر السابع من السنة الرابعة بعد (كاني يوانغ) وهي
توافق سنة ١٦ م ، وردت سفارة من بلاد العرب مبعوثه من أمير المؤمنين سليمان ،
لتقديم الهدايا إلى امبراطور الصين ، وكانت مشتملة على عبايات منسوجة من
خيوط الذهب ، والمقيق ورشاشات العطور وأشياء نفيسة خاصة ببلاد العرب .
فوصفوا بلادهم وقد دعوا اليه يانافا كافيا عنها . فأهم الامبراطور على السفير برتبة

الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه بقاتق الاحترام ومزيد الاحترام^(١). ولا نعرف سفارة أخرى، غير هذه السفارة جاءت من دمشق رأساً، لأن السفارات التي قبل سنة ٧٩٧ م ولو فيها تاريخ الصين إلى بلاد تاشي، (العرب) لكنها غير معلومة من أين وصلت. وأغلب الظن أنها وردت من الهمال أو القواد الذين وصلوا إلى ما وراء النهر، يحملون لواء الفتوحات والانتصارات. وأما ما وصل من وفود العرب بعد سنة ٧٩٧ م، فكلمها من عمال العرب الذين بأسيا الوسطى. لذلك إذا نظرنا إلى البيان الذي يوجد في تاريخ الصين عن سفارة سنة ٧٩٩ م، فظن ذلك بالبديهة بأن العرب الذين وردوا في هذا البيان، غير الذين بدمشق. لقد أدعى تاريخ الصين أن وفودا من العرب قدموا في هذه السنة، لفدوم الخراج. كما كان يفعل وفود فرغانة وسمرقند وجنوب الهند^(٢) ومن المعلوم أن العرب في زمن الامويين لم يدفعوا الخراج لأية دولة من الدول. ثم الخراج لا يدفع إلا من دولة مغلوبة على أمرها، إلى دولة مسيطرة عليها. فالعرب لم يكونوا مغلوبين أمام القوات الصينية في أواسط آسيا. فلا معنى إذن، لكلمة الخراج، هنا. بيد أنه من الممكن أن بعض الهمال فيما وراء النهر قد أمسكوا أشياء إلى إمبراطور الصين، وبعثوا بعتات خاصة لهذه الأغراض، أو لأغراض أخرى كجس نبض سياسة الصين وأحوالها الداخلية. فادعى تاريخ الصين أن هذه الهدايا هي الخراج من العرب. والله أعلم بالصواب.

وأما السفارة التي وردت في سنة ٧٢٥ م، فن قائد من قواد العرب بما وراء النهر بدون شك^(٣) وأقولنا هذا، بعض الأدلة. وبناء على ما جاء في تاريخ الصين نفهم أن وفد العرب، قد ورد مرتين في هذه السنة. فكانت المرة الأولى في الشهر الأول والاخرى بعد شهر. ويذكر أيضا أن رئيس الوفد في كل مرة، هو سليمان يرافقه ٩٣ رجلا من العرب، ومن اليقين أن مدة وجيزة نحو شهرين،

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 61

(2) Ancient China's Relation with the Arabs. p 61 .

لا تنكحى لفارس أو راجل أن يقطع تلك المسافة البعيدة بين عاصمة الصين وهي (جيانغ - آن) وبين دار الخلافة وهي دمشق. فإذن السفارتان إذن لم تكونا إلا من بلدة قريبة من حدود الصين، وذلك لا شك فيه.

أما رئيس الوفد - هيجان، فمن كان وما علاقته بالعرب فيما وراء النهر؟ ويظهر من تاريخ العرب في آسيا الوسطى، أنه - هيجان بن أبي الساري الذي اشترك في محاصرة خجند، بلدة قريبة من كاشغر، تحت قيادة سعيد بن عمر الخراساني وكان ذلك في سنة ٢٤٠ م^(١) ولعل أسد بن عبد الله بعثه إلى الصين في سنة ٧٢٥ م^(٢) لطلب الصداقة من إمبراطور الصين وترغيبه عن مساعدة رئيس الأتراك الذين كانوا يهفون لطريق العرب في قترحاتهم إلى الشرق، ويقاتلون مضاعف حكوماتهم التي لم تستقر إلا بسبب الراجاع أقاتهم بين الصينيين والمصريين في تلك البقاع من أرض الله.

يخبرنا تاريخ الصين بورود وفود العرب في سنتي ٧٢٨ و ٧٢٩ م. ولا أظن أن الوفد الذي قدم في سنة ٧٢٨ م. كان من بلاد العرب لأن اسم رئيسه، وهو - ديدو، كما ثبت في المصادر الصينية، لا يدل على عروبة صاحبه. قال - جوفو وانسكوي، أنه قائد من قواد العرب، جاء إلى عاصمة الصين مع ثمانية آخرين من أصحابه. بأنعم الإمبراطور عليه برتبة الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه مع أصحابه بالخفاوة والاكترام. ومن المحتمل أن هذا القائد تركى الأصل كان تحت حكم قائد من قواد العرب ببغداد أو حمير قائد، وكان من بين عمال تلك البلاد وقتئذ، نصر بن سيار وأسد بن عبد الله وسعيد بن عمر الخراساني. ولم أستطع أن أصل إلى معرفة من كان يشغل منه يدوم هؤلاء القواد الثلاثة، لأن سكوت المصادر الصينية والعربية حال بيننا وبين ذلك فاكثفت بنا أوردناه هنا فالسفارة التي وقعت في سنة ٧٢٣ م. كانت من جنيد، قائد من قواد العرب تحت إمارة نصر بن سيار في عهد الخليفة هشام الأموي وكان من بين الذين قد

(1) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 63.

(2) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 67:

اشتركوا في فتح بخارى وسمرقند للمرة الأخيرة، وبنوا على تخريبات الاستاذ
«جيب»، أن جنيداً قد اتصل بأمير طور الصين في آخر عهده بسمرقند في سنة
٨١١٥ م. ٧٧٣ م. يظهر من اسم رئيس هذه البعثة، وهو مسلم ترخان، كما ورد
في فتوحات العرب لآسيا الوسطى، للاستاذ جيب، أن أصله من الترك^(١)
وأغلب الظن أن زملاء الدين رافقوه إلى الصين أيضاً من الترك.

فالسفارات التي وردت إلى عاصمة الصين في سنوات ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٧ م،
كلها من عمال العرب بأواسط آسيا. فالتى ترأسها حسين، كما جاء في تاريخ الصين في
سنة ٧٤١ م، كانت من الناس^(٢) ولعل حديثاً هذا كان أحد الشخصيات البارزة
التي تحت سيادة نصر بن سيار في آسيا الوسطى لأنه كان، وسوفاً بزعامه العرب في
تاريخ الصين، فأنعم عليه الامبراطور، برتبة «القائد اليمين»، وخلع عليه خلع
سنية مع منطقة منسوجة بخيوط الذهب. يقول الاستاذ جيب — «أن نصر بن
سيار بعد أن استقر في سمرقند، بعث عدة سفارات إلى الصين، واحدة منها في
سنة ٧٤٤ م، وكان ذلك لتنظيم العلاقة التجارية توطئاً متقناً، وكان مع هذه
السفارة، وفود من الهند وقرغيزستان والكاشغور وزابلستان، وأما السفارتان اللتان
في سنتي ٧٤٥ و ٧٤٧ م، فكانتا أيضاً من، لأنه أول من شمر بأن أركان
الحكومة بما وراء النهر تحتاج إلى دعم الطبقات المتوسطة، خصوصاً طبقات
التجار والزراعين^(٣)» وتقدّر فعل بقدر استطاعته كل ما يلزم لأنماض التجارة في
الولايات التي كان والياً عليها.

وبقيام الخلافة العباسية في سنة ٧٥٠ م ابتدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء
بغداد وأباطرة الصين وأهم السفارات التي وقعت في هذه الأيام ما كان مبعوثاً
من قبل أبيه العباس مؤسس الدولة العباسية، وأبي جعفر المنصور، مؤسس دار
السلام، وهارون الرشيد بطل العهد الذهبي، وكان العباسيون في تاريخ الصين،

(1) Gibb : P. 77.

(2) Gibb : P. 80.

(3) Gibb : P. 92

معروفين باسم «خشي ناشي» أي العرب ذوي الملابس السود تميزوا عن الآمويين الذين عرفوا باسم «بني ناشي» أي العرب ذوي الملابس البيض، وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين في نصف قرن بين ٧٥٠ و ٨٠٠ م لكنه لم يذكر أغراضها ولم يلم بتفقه بلها سوى أنه قال أنها جاءت إلى الصين لزيارة ودية أو لتقديم الهدايا، وبناء على ما ورد في «جغويونكوي» أن هذه السفارات وقعت متتابعة في سنة ٧٥٢ و ٧٥٣ (و ٧٥٤ و ٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٨ و ٧٦٠ و ٧٦٢ و ٧٦٩ و ٧٧٢ و ٧٩١ و ٧٩٩ م). ويروي هذا المصدر أن ثلاث سفارات قد وصلت في سنة ٧٥٣ م في الشهر الثالث لتقديم الحاصلات وفي الشهر الرابع لزيارة ودية وفي الشهر الثاني عشر، تقديم ٣ جوادا هدية إلى إمبراطور الصين. وأما السفارة التي جاءت في سنة ٧٥٦ م فكانت مشتملة على ٢٥ عضوا ورئيسها من زعماء العرب الكبار.

ومن المصادفة الغريبة أن سفارة العباسيين التي وردت إلى عاصمة الصين في سنة ٧٥٨ م وكانت مشتملة على ستة أعضاء، اجتمعت مع سفارة من بلاد الأواهرة وكانت مكونة من ثمانين عضوا فكانت كل جماعة تريد أن تدخل قاعة التشریفات قبل غيرها فتنازعنا عند الباب، فإذا بأمين التشریفات، يصلح ما بين الجماعتين بادخال كل جماعة من باب مستقل.

هذا هو كل ما نستطيع أن نحصل عليه من المعلومات عن أحوال هذه السفارات وأغراضها من المصادر الصينية وأما المصادر العربية فلم تتكلم فيها أبدا، وما ذكره الشيخ يرم التونسي في كتابه «صفوة الاعتبار في متودع الاقطار والامصار» عن إرسال أبي جعفر المنصور أربعة آلاف من صناديد المسلمين إلى الصين^(١)، لا يدل الا على حضور سفراء الصين لبغداد وكانت هذه البعثة العسكرية من نتائج زيارة وفد الصين لبغداد ثم لا نستطيع أن نقطع، بماذا فعل الخليفة المهدي في رد وفود الصين الذين وفدوا عليه (٢) من قبل الإمبراطور (تة جونغ Teh - Chung

(١) صفوة الاعتبار ج ١ — ص ٢٢

(٢) مروج الذهب ص ١٢٢

بين ٧٨٠ و ٧٨٥ م ومن المظنون أنه قد اكتفى بأرجاع هذه الوفود بالهدايا الى امبراطور الصين ، بدلا من ارسال بعثة خاصة لرد هذه الزيارة . ونستقر على هذا الرأي ، بناء على عدم ذكر ورود الوفود من بغداد في تاريخ الصين بين ٧٧٤ و ٧٩١ م وقد انتهى عهد خلافة المهدي قبله بسنوات . قليلة ^(١)

أنا هنا نواجه مشكلة تاريخية كانت أمامنا عند البحث عن العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء الامويين لا نعرف كم سفارة قد وردت من بغدادكم عاملا من عمال العرب بآسيا الوسطى ، ونميل الى الاعتقاد بأن هذه السفارات التي ذكرناه ، أنها كلها من الخلفاء . العباسيين لولا أن هناك بعض أدلة على ورود سفارة الى عاصمة الصين من عمال العباسيين بمروءة النهر . فزلا أبو مسلم الذي قبض على زمام خراسان ، بعد وفاة نصر بن سيار وكان أكبر الدعاة للدولة العباسية في تلك الولايات قد ارسل عدة بعثات الى الصين فذكر الاستاذ جب عن هذه البعثات قال :

من الظاهر أن ابا مسلم قد شعر بأهمية الاتصال بقصر امبراطور الصين ، لأن تواتر السفارات من العرب ذوى الملابس السود يذكر في تاريخ الصين ابتداء من السنة التي بعد واقعة تالاس وهي سنة ٧٥١ م وقد حضرت ثلاثة وفود في سنة واحدة ومن الممكن أن هذه السفارات كانت لها مقاصد سرية وذلك أن العرب أرادوا أن يطلعوا على تطورات الحروب الداخلية في الصين ، وأن كان معظم المصلحة في ترغيب طبقات التجار الى التفاهم والتعاون مع الحكام العباسيين بإبرام معاهدة جديدة للتجارة مع الصين ووضع نظام جديد يقتضيه الوقت ويلائم الحال ^(٢)

وبناء على هذا البيان ، لا نكون من المخطئين ، إذا قلنا أن السفارة التي وردت إلى الصين في سنة ٧٥٢ م ، كانت من أبي مسلم الخراساني ، ولم تكن من أبي العباس . غير أن التحقيقات التاريخية تكشف وتؤكد لنا أن العلاقة السياسية بين الخلفاء العباسيين والصين ، كانت أقوى وأوثق مما كان عليه الخلفاء الامويون . وهذا

(١) استمرت خلافة المهدي من سنة ٧٧٥ الى سنة ٧٨٥ م

(2) Gibb : P . 97

شهادات كثيرة تدل على وجود علاقة وثيقة بين بغداد وحاصرة الصين، حتى يقول بعض الباحثين أن الصناع الصينيين كانوا موجودين بمدينة الكوفة في سنة ٧٦٢م أى بعد تأسيس الخلافة العباسية بانقضى عشرة سنة فقط. وعلى هذا رأى الأستاذ (بليو - Pelliot) وافق منه الأستاذ جاستون فيت (G. Wiet) . ويظهر أن بعض المحققين من علماء الإسلام في هذا العصر قد قبل هذا رأى بلا تحفظ ^(١) وأما الصينيون فأنهم يعتقدون هذا القول، إذ كان اختلاف الوفود بين (جانب - آن) وبين بغداد لم يقطع حتى القرن الثانى عشر للبلاد، كما سترى ذلك حين نبحث عن علاقة أسرة (سونغ) بالعرب . لأن واقعة مثل هذه كانت من الممكنات التى تؤكد لها الحوادث التاريخية، فتلا اكتشاف المغفورى الصينى بسامرا، الذى يرجع تاريخه إل عهد (تانغ)، دلائل قاطع على استيراد المصنوعات الصينية إلى بغداد فى القرن التاسع الميلادى ^(٢) : وقد يكون هذا بوساطة التجار وقد يكون بوساطة السفراء . وأغلب الظن أن المصنوعات الصينية التى أتى بها السفراء إلى بغداد، من قبل ملوك الصين، هدية إلى الخلفاء العباسيين، كانت مشتملة على أشياء شتى منها الفضار والخزف ومنها الحرير والكنخاب ومنها الشاى والمسك فإن الصبر كانت شهرة عظيمة فى هذه الصناعات والحاصلات وما اختير منها هدايا للخلفاء كان من أعلاها صناعة وأنهاما بجالا . وأرضها ثمنا . ومن الطبعى أن كل مارق وراق من هذه الهدايا كان الخلفاء يحفظونه فى الخزائن ويقتنون به أكثر من غيره من الأشياء وإذا القينا نظرة إلى الفهرست لأثاث قصور الخلفاء فانا نجد فيها أشياء كثيرة من صناعات الصين ^(٣) . فهذه الصناعات تخبرك بعلاقة بغداد بأمبراطور الصين فى الأيام الحالية : وهذه الحالة لم تكن فى عهد الأمويين دخلت الصين منذ منتصف القرن التاسع الميلادى فى عهد ملوها بالحوادث والاضطرابات

(١) التصوير فى الإسلام عند الفهرست . ص ٣٣

(٢) يقول الجلبى : أغلى البضائع من الفضار يقال له : مغفورى .

(٣) تمدن العرب : ترجمة بلكرامى ص ٥٠٤

التي قضت على أسرة (تونغ) في سنة ٩٠٦ م : وبعدئذ مرت على مسرح سياسة الصين خمسة أسر حاكمة قصيرة الحكم . واحدة بعد أخرى في غضون ست وخمسين سنة : فلم تستقر واحدة منها على كرسي الحكم مدة تستحق الذكر : لأنها ظهرت وغابت دون أن تترك أى أثر في حياة الصين الداخلية : فهذه الحوادث والانقلابات التي ذكرها أبو زيد البراقى وابن الأثير ، قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة : فلذا لا نجد في كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب إلى الصين أو في الصين بين سنة ٨٥٠ و ٩٥٠ م . يمكن مع ظهور أسرة (سونغ) في ميدان الصين السياسى ، فتح تاريخها صفحـة جديدة ، فالرابطة التجارية والدبلوماسية التي كانت متقطعة بين الصين والعرب في القرن السابق ، قد أوتقت من جديد . فأخذ تاريخ الصين يدون للمرة الثانية حركات العلاقة لهذا العهد الميعون حتى ذكر ٢٥ سمارة قدمت من العرب بين ٩٦٠ و ١١٦٤ م

ونفهم من التفاصيل التي وجدناها في تاريخ (سونغ) ، أن أغلب هذه السفارات ، كان في تحيين العلاقة التجارية بين الصين والعرب . لكن التي جاءت من قبل التجار أنفسهم ، أكثر من التي جاءت من قبل الخلفاء . ويظهر أن أكثر هذه السفارات قد اختارت طرق البحر ، وقيلاً منها جاوزت أوساط آسيا إلى الصين لأن السفن قد ذكرت في مواضع عديدة أثناء الكلام عن هذه السفارات . وأنفل هنا ما ورد في تاريخ (سونغ) ، مع رجائي إلى كتاب الإسلام أن يعلقوا عليه من المصادر العربية ، أن رأوا ضرورة إلى ذلك

يقول مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، ، أن في الجزء القديم بعد المائة الرابعة من تاريخ سونغ ، فصلاً خاصاً يتعلق بالعرب . فقد ابتدأ الكلام بملاحظة على ظهور الإسلام في بلاد العرب قاتلاً : أن الذين من بنى مروان يقال لهم (العرب ذوو الملابس البيضاء) والذين انضموا إلى خلافة بغداد بعد أبي العباس ، سماهم تاريخ الصين (العرب ذوو الملابس السود) .

وقد بدأت العلاقة بين أسرة سونغ ، التي حكمت الصين أكثر من ثلثمائة

سنة (٩٦٠ — ١٣٧١ م) وخلفاء بغداد . منذ سنة ٩٦٦ م . اذ كان أبو القاسم مطيع الله على كرسى الخلافة في ذلك الوقت كان سائح صيني معروف باسم « ابن جونغ » قد رحله الى الغرب . فبعث الامبراطور « سونغ تاي جونغ » بواسطة رسالة ودية الى الخليفة مطيع الله ، يرجوه أن يمد اليه يد الصداقة فرد هذه الرسالة بارسال بعثة خاصة من بغداد في سنة ٩٦٨ م تحمل الهدايا الى الامبراطور المذكور .

وكان هذا الامبراطور — مثل كل مؤسس دولة في القرون الوسطى — شجاعا ، مدبرا متفوقا ، بعيد النظر ، بقدر العلم والعلماء . وان لم يكن هو نفسه عالما أو فاضلا ، فيعرف الصالح من الطالح ، ويميز رجال الخير من أشخاص الشر يقول كاركون ، مؤلف « تاريخ ممالك الصين » : أنك تستطيع أن تعرف أوصاف هذا الماهل العظيم وشخصيته ، من حزن العالم عليه ، حين ارتحل من هذه الحياة الدنيا ، ومن زفرات الصدور ، حين يذكر بعد سنين من وفاته . وهو الذي بعث اليه الخليفة أبو القاسم مطيع الله سفارة في سنة ٧٣ م (١٣١٢ هـ) مع هدايا ورسالة ودية وكان رئيس البعثة رجلا يسمى كما جاء في تاريخ الصين ، « برهان » (١) .

كانت هذه السفارة هي الرابعة من العرب ذوى الملابس السود حسب الترتيب الذي وجدناه ، في تاريخ سونغ وفيه نجد أن السفارة الثانية كانت في سنة ٩٧٩ م .

فأنتم الامبراطور على رئيسها نعمان وبلقب « واى خوا جيان جونغ » 懷化將軍 أي وأمين الحضارة ، قد كتب هذا على ورق مذهب في خمسة ألوان ثم منحه أباه وفي هذه السنة ورد سفراء من فرغانة وقيل أنهم قد قدموا الهدايا الى الحاكم (كيانغ — نان) فأبى قبولها ، فأتته الامر الى الانصر . فإذا بمرسوم يمنع تقديم الهدايا الى الحكام الأيالية .

وأما السفارة الخامسة فكانت في سنة ٩٧٦ م . برأسها عبد الحميد ، ولحق بعدها في السنة التالية كانت برياسة أبي سيناء ومعه نائب يسمى محمود والقاضي أبو لؤلؤ .

(١) تاريخ ممالك الصين ج ٢ - ص ١٨٢ ، وعلاقة الصين القديمة بالعرب

وخدام جاحظة أعينهم ؛ سود أبدانهم ، يسمونهم « عبيد الجبشة » ثم وردت سفارة أخرى في سنة ٩٧٩ ، وكذلك بعد أربع سنوات أي في سنة ٩٨٠ م . فالسفارة قد قدمت بنا وداوراء النهر أيضا ؛ برأسها حاجة يحمل الهدايا الى الامبراطور ، من انواع البرنيان والكندر والسكر وماء الورد والمطور ومهنوعات زجاجية

وأهم السفارات هو ماورد في سنة ٩٩٤ و ٩٩٥ ؛ والتفاصيل التي وجدناها ههنا في الكتب الصينية تكشف لنا صورة حقيقية عن الزروة التي اكتسبها التجار العرب في أسواق الصين في القرن العاشر والقرن الذي بعده فكانت هذه السفارة ليست من خليفة بغداد ، بل من تاجر عربي عظيم بكاترين وله مراكب تجارية تجرى في البحار وقد استوطن قهازم أطريلا . رأما اسمه فقد عرف في اللغة الصينية حتى كدنا لا نعرف أصله - اذ قد كتب فيها هكذا الى « برهم » 海國
وأعتقد أنه محرف عن « ابراهيم » وأخطب الظن أن ابراهيم هذا هو ابراهيم بن اسحاق تاجر كبير معروف في أواخر القرن العاشر الميلادي . ولقد ذكر عنه ياقوت في معجم البلدان ما يأتي . وأما ابراهيم بن اسحاق الصيني فهو كوفي ، كان يتجر الى الصين . فكتب اليها

ولعلول اقامت بالصين قد تعلم اللغة الصينية وأجاد الكتابة بها ، كأحد فضلها الكبار . ومن رسالة وقعها الى امبراطور الصين ، تسمى في عرف الادباء الصينيين رسالة المقدمة الى الامبراطور (Address to the Throne) ، نفهم أنه قد أحاط بدقائق اللغة والاسلوب التي كان منتشرا في البلاد حينذاك وكانت قدرته في الفهم والكتابة ، لا تقل عن أي فاضل من فضلاء الأدب الصيني في ذلك العصر ؛ وأنت لا نستطيع أن نتصور فضله الحقيقي في هذا الباب ، إلا اذا عرفت أسلوب الادب الصيني القديم والدق الادبي الذي هو مقياس لتقدير كل قطعة أدبية ذات مغاز ومعان ، كما أننا لا نستطيع ان نتصور كذب الجاحظ وأسلوبه الادبي العالي ، إلا بعد

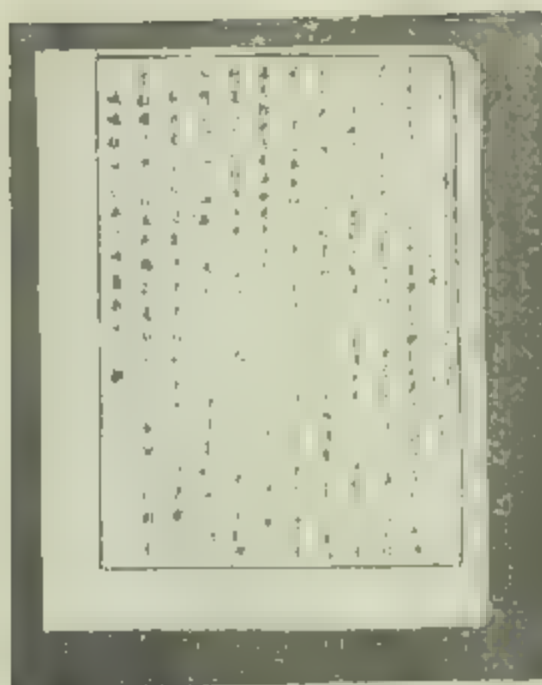
مدة طويلة قضيناها في المطالعة وكسب ذوق صحيح في الأدب العربي والافئكون
من المخططين في تحكيم كتاب فيما يتعلق بمنزلة وأسلوبه في الأدب بسبب الجهل لما
حوله وما يتعلق بمصره

وأما منزلة ابراهيم بن اسحاق في ميدان الادب الصيني في القرن العاشر الميلادي
فسكا رأينا في رساله المقدمة وقد تكون ماثلة الى ناها محمود بن الحسن بن محمد
الكاظمي الموفى في سنة ٤٦٦ هـ ١٠٧٤ م في الأدب العربي ، وكان هذا العالم
الصيني التركستاني قد تمكن من تفهيم الجاحظ في الكتابة العربية وذلك ظاهرا
جدا من مقدمته الى كتابها في ديوان لغات الترك وهو كتاب عربي يبحث في لغات
الترك المنتشرة من حدود الصين الى اناضير

ولم يذهب ابراهيم بن اسحاق نفسه إلى طامة في سنة ٩٤٤ م لان المرض قد
منعه عن التحرك ، وقد وصله إلى مدينة كانون ، حيث رديقا من صدقاته ، ومروفا
في تاريخ الصين ، باسم (ليف) ، ثم اعه إلى قصر الامبراطور ، فوكاه في ربيع
رسالة المقدمة ، والحرابا إلى امبراطور الصين وقد نقلها ها صورة من عدم
الرسالة ، ولعل بعض القراء يفهمونها في اللغة الالمانية فيطاردون بالنكات الالمانية
التي تميز عن نقلها إلى اللغة المخلطة اليها ، وعنا ترجمه وحده ، ما تعد فقد كثير من
بداقها الاصلية وعناصرها الالمانية

في صورة فوتوغرافية ص ١٩٣

نص رسالة المقدمة ، التي رفعت إلى امبراطور الصين
من ريان العرب ، ابراهيم بن اسحاق الكوفي ٩٩١ م



ترجمة رسالة مقدمة الى امير اطوار الصين

من : بان العرب ابراهيم

... أن الكبرياء لا تحيط الا بالقمر ، والامهار لا تسيل الا الى البحر كحكمة
الرحمة التي تجلب ذات غريب الى طاعة ، أو كسياسة المين التي تجذب اذن بعيد
الى السمع والطاعة وذلك لأن أوصاف صاحب الجلالة على قوانين السموات
والارض منطبقه وسياسته كالكبرياء كسبح في مسالكها دائرة وعواطفه على
أهل البلاد كالانهار جارية وإحساناته الى لأمم بالجهات الاربع كأقطار الرحمة
بالغة فيمدحه أنوار غير متمدين وأنوار اليه بتوادد التحف وافدين .

كنا في بلاد دانية ، فيها عادات مختلفة ، فقط في آدابنا صيت ركن الدولة الزاهرة
فدحركت القلوب الواجفة الى رؤية الشمس ، والآمال الى وجه الصفاء . كنا بأوطاننا

لجاء أمر من رئيس الجالية الأجنبية يكاثرون بطلب حضورنا [إلى العاصمة]، تمجيداً لمحاسن صاحب الجلالة، وإجلالاً لميضان العواطف الملكية على الأجانب، بمرور عام من ذات جلالة العلية، إلى صاحب كاثون، ترخيصاً بفتح أبواب المرافى للمناجر من البلاد القاصية.

فركبنا البحر ورافقنا بعض الخدام بنية حضور القصر ذى القنتين، تيمناً برؤية موطن الامبراطور، ونبركاً بارشاداته الحكيمه، وقد بدا للقلوب الطامئة.

وصلت الآن إلى مدينة كاثون، غير أنني لا أستطيع مواصلة السفر إلى الباب العالي بسبب الضعف والشيخوخة، والمرضى المزمعين عن المشى والحركة فالأمانى في قصد العاصمة العامرة، وهذه حالتى، تثير الإعين باكية والقلوب ناكدة.

ومن الاتفاق أن يحضر (لياف) العاصمة وافداً، فركبته في تقديم عديدة حقيرة إلى السدة الامبراطورية، مشتملة على قطعات من برنيان وأدوية وغير ما من حاصلات بلادنا، فأرجو التفضل بالقبول:

وتفاصيلها

- | | | |
|---------------------|-------|--|
| (١) العاج | | خمسون عدداً |
| (٢) الكندر | | ألف وثمانمائة مائة رطل (صيني) ^(١) |
| (٣) البرنيان الأحمر | | قطعة واحدة |
| (٤) البرنيان الملون | | أربع قطعات |
| (٥) قاش الموت | | قطعتان |
| (٦) التوتيا | | قارورة واحدة |
| (٧) أعجوبة غريبة | | قطعة واحدة |
| (٨) ماء الورد | | مائة قارورة |

فأنت ترى في هذه التقدمة بعض التعبيرات الأدبية الصيفية الخاصة واستعاراتها فضلاً، إحاطة الكواكب بالقمر لا يراد بها السكال في الجلال كما هو شأن الأدب

(١) الرطل الصينى أكبر من الرطل العربى بربع رطل عربى

العربي بل يرادها التنظيم للذات المركبة، ورجوع الاجسام الصغيرة الى الوحدة الكبيرة في خصوصياتها وعلقاتها كسبل الأنهار الى البحر. ثم موازنة أوصاف الامبراطور قوانين السموات والارض. وسياسته التي لا تخرج عن الطريقة المفردة، كدوران السيارات السبع في مسالكها الخاصة، وسبل القلوب الى رؤية الشمس والآمال الى وجه السماء كلها تعبيرات خاصة بالادب الصيني القديم، خصوصا في رسائل المقدمة من وضع الى رفيع، أو وزير الى ملك. وقد حاولت أن أنقل المحاسن الادبية الى اللغة المترجمة بما حسب الطاقة، فلم أطلع إلا في نصفها وأما النصف الآخر فيحتاج الى قلم بايع يستطيع على وفاء المقتين العربية والصينية ويستطيع إبراز خصائصهما.

ففضل الامبراطور وأنعم على ابراهيم بن اسحاق برسالة شنية يشكر له فيها هداياه شاعدا على القبول، كما أكرم عليه بحضرة اشرف وحناطات فضية في مقابلة هداياه لقد دهن تاريخ الصين وصول ربان عربي كبير في سنة ١٩٥٠م، معروف باسم أبي عبد الله الذي اسمه ابراهيم السابق الذكر، يحمل رسالة مقدمة وهدايا الامبراطور. وتفاصيل الهدايا، كما جاء في تاريخ الصين، هي ما يلي:

- | | |
|------------------------|------------------|
| (١) الكافور | مائة مثقال |
| (٢) سرر كلاب البحر | مائة عدد |
| (٣) ملح السين | في عبوة فضية |
| (٤) الزئبق | ٢٦ قارورة |
| (٥) السكر | ثلاثة جرار كبيرة |
| (٦) النمر | سنت صناديق |
| (٧) الثوابل | ست قوارير |
| (٨) ماء الورد | عشرون قارورة |
| (٩) البرنيان | قطعتان |
| (١٠) المنسوجات الصوفية | ثلاث قطع |

(١١) منسوجات الجوت ثلاث قطعات

(١٢) سلطان الكندر عدد واحد

فلما ورد أبو عبد الله إلى العاصمة ، جاء أمين القصر ، ودله على قاعة التشريعات . فلما مثل بين يدي الامبراطور ، قال بواسطة الترجمان : « أن أباه ابراهيم قد أبحر إلى كاتون ، لطلب أسباب الرزق وكسب المنافع فلم يرجع منذ خمس سنوات » . فلما بأمر الوالدة للبعث عنه . فوجده في مدينة كاتون . ولقد تكلم عن إقامات امبراطورية من وسائله وخداه وعمامة . وركشة مزخرفة بزهرتين فيها صورتان لانتقاء ، إحداها منقرشة بخوط الفضة والاخرى بخوط الذهب ، وعشرين قطعة حريرية لأمرني أن أحضر إلى العاصمة لرفع كلمة الشكر إلى السدة السامية على هذا العطف الكريم ، وتقديم بعض أشياء صغيرة من حاصلات بلادنا .

فأله (سونغ ثائي جونغ) عن بلاده فأجابه قائلا : « إنها قرية من بغداد ، ونحت أمر حاكمها ، وواقعة بين الجبال والبحار » .

ثم سأله : « ماذا تحصلون من جبالكم وبحاركم ؟ » فقال : « الفيلة والكركدانات والادوية » .

« قال له بإية حيلة تصيدون الفيلة والكركدانات ؟ »

« قال أما الفيلة فتخدع بالفيلة وتربط بالجبال . وأما صيد الكركدن ، فيصعد الصياد إلى الأشجار العالية ، أخذا الأقراس والسهام ، منتظرا ظهورها ويحيطها . فيقتلها بالسهم . وأما صيدها فلا يحتاج إلى الرمي بالسهم بل كفي بإيد صيدها » .

فأمر الامبراطور بأن يخلع عليه خلعة ويهدم عليه بأشياء أخرى ثمينة ، وأنزله عنده ضيفا عدة شهور . ثم ودعه بحفاوة واكرام ، ورد الهدايا بأحسن منها من ذهب وحرير وشكر له ما بعث به أبوه إليه .

ويقول تاريخ الصين لهد (سونغ) : « أن السفارات التي وصلت من بعد ،

(١) يظهر من هذا الوصف أن البلد المراد هو الكوفة . فصدقنا بأن « يوفيم » الذي ذكر في تاريخ الصين ، هو ابراهيم بن اسحاق الكوفي كما ورد في معجم البلدان

كانت في سنوات ٩٩٧ و ٩٩٩ و ١٠٠٠ و ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٧ و
١٠٠٨ و ١٠١٩ و ١٠٢٣ و ١٠٥٥ و ١٠٦٨ و ١٠٧٤ و ١١٠٩ و ١١٢٩ و
١١٣١ م

ومن إلقاء نظرة يسيرة الى تواريخ هذه السفارات ، نعرف أن أكثرها قد
ورد بين ٩٩٩ و ١٠٢٣ م ثم أخذت تنقص بعدئذ ، لأسباب غير معروفة . ثم
نقصت من القليل الى الأقل حتى انقطعت بعد سنة ١١٣١ م ، وكانت أسرة
(سونغ) لا تزال باقية - باقية الى قرن ونصف قرن آخر - لأنها لم تقرض إلا
في سنة ١٢٧٦ م

وفي بعض الاحيان كانت السفارة من غير العرب ترد معهم في وقت واحد
فتلا السفارة التي جاءت في سنة ٩٩٧ م ، كانت معها سفارة من «هالم بانغ» ، جنوبي
سماطرة . فقد اشتركنا في الاحتفال بعيد القناديل ، وحضر أعضاءها وليمة
هذا العيد .

أما أسماء رؤساء السفارات فقد دون تاريخ الصين بعضها دون بعض . وذكر
أن جيا هو اسم لرئيس السفارة المبعوث في سنة ١٠٠٠ م ، من ريان عربي . فنكرم
الامبراطور بمنحه خيلا مسرجة مع رسالة تفيض بالمعطف والكرم . والتي جاءت
في ١٠٠٣ م ، كان رئيسا أبا رشيد الساماني وأهدى الى الامبراطور مقدارا
عظيما من اللآلئ والجواهر . ومن اسم الرئيس نعرف أن هذه السفارة لم تكن
من العرب ، بل من الدولة السامانية التي كانت بينها وبين الصين علاقة من قبل ذلك
الآوان كما سنرى .

فكان الرئيس للسفارة التي وردت في سنة ١٠١٩ م ، أبا محمود التبريزي
ونائب الرئيس أبا قاسم . وقد دخلوا المين بطريق البر . وكان أول البلدان الذي
وصلوا اليه هو «شانشو» ، ثم ولاية فانصو ثم «جنشو» . ومن هذا القول نعرف
أنهم جاءوا من إيران ، ومن المعلوم أن إيران قد وردت منها عدة سفارات في
هذه الأيام ، لأن الحديث عنها يوجد في تاريخ الصين ، فتلا في سنة ١٠٢٣ م

جاءت منها سفارة عن طريق البحر فوصلت أولا إلى كاتون ، ثم إلى العاصمة . وقد قيل أن السفارة الإيرانية قد وردت للمرة الرابعة في ١٠٥٥ م وكان رئيسها أباسعيد ، وكان رسلا فاضلا ، نال منزلة عالية عند الامبراطور حتى وُظفه في الحكومة وجعله سديرا لإدارة التوظيف والخدمة في مدينة ، وونينغ ، وهي (نانشانغ Nanchang) الآن .

وجاء في تاريخ الصين حديث عن سفير اسمه سادات نور ، كان مأورا في سنة ١٠٦٨ م في إدارة المراقبة على الاجانب فنرى إلى منصب القاضي بكاتون ، ويظهر أنه كان ذا ثروة وافرة ، فاقترح تعيينه مدينة كاتون ، على نفقته الخاصة ، فلم يقبل صاحب المدينة ذلك ، وفي سنة ١٠٧٢ م تمت شخص من رؤساء تبريز ، وقد حفظ تاريخ الصين اسمه في رسم ، أبي تبريزي ، ، ابتداء به يسمى محمدا إلى عاصمة الصين لتقديم الهدايا إلى الامبراطور وكان يلبس الملابس العربية ، كما ورد في علاقة الصين القديمة بالعرب ، وفي نفس السنة ، وردت سفارة من الموصل ومن ملابار ، ويذكر تاريخ الصين أيضا وصول سفارات إسلامية في سنة ١١١١ و ١١٢٩ و ١١٣١ م . لكنه لم يذكر من أية بلاد كانت . ولا أسماء الرؤساء . وأغلب الظن أنهم جاءوا من العرب الذين كانوا بالبلاد المجاورة للصين .

هذا من جهة العلاقة الدبلوماسية بطريق البحر ، وأما من جهة طريق البر ، فقد نقل مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، عن تاريخ (كين) قائلا - أن سفير الدولة السامانية قد ورد إلى عاصمتها بشمال الصين في سنة ٩٢٤ م . ثم ورد في سنة ١٠٢٠ م ، أتى بالميل هدية إلى ملوك (كين) ويطلب يد ابنته لأحد الامراء السامانيين ، في سنة ١٠٢١ م ، جاء السفير مرة أخرى إلى عاصمة (كين) لفرض المذکور ، فخير أميرة من بنات (دوسيل) وهو أحد الامراء الكبار ، إلى الدولة السامانية وزوجها بابن سلطانها .

فملكة (كين) المعروفة في تاريخ الصين قبل أيام المغول ، من التي اشتهرت في الكتب العربية باسم ، ماصين ، وفي الكتب الفارسية باسم ، ماچين .

وكانت لها علاقة وثيقة بالدولة السامانية منذ يوم تأسيسها بأواسط آسيا، وكانت في يادى الامر منحصرة في ناحية التجارة التي أشرنا اليها من قبل ثم انضمت الى الناحية السياسية والدبلوماسية، فقد جاء ذكر هذه الناحية في الكتب العربية فضلا عن الكتب الصينية، ولعل أيا ذلك مصر بن مهليل الينجى، هو أول العرب الذين كتبوا عنها ثم نقل عنه ياقوت والقزوينى، وأما أبو دلف هذا، فكان رئيسا لبنة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني الى أمبراطور (كين) بسندابل، ومن كلامه أن ملك الصين واسمه قالين بن الشيخير هو الذى بعث رسولا الى نصر بن أحمد أولا، راجيا في مصاهرته وطامعا في مودته، وكان يريد أن يستطاع ابنه نصر لابنه، فأبى ذلك نصر واستنكره لحظر الشريعة زواج المسلم من غير المسلم، غير أن قالين استرضاه ببن. بيع بنته يابنه، فأجاب الى ذلك فأتوه أبو دلف هذه الفرصة وقصد بلاد الصين على رأس بعثة دبلوماسية لنصر بن أحمد الى أمبراطور (كين)، فلك بلاد الأتراك التي ذكرتها عند ما تكلمنا عن تجارة البر الى الصين، حتى وصل مع رفاقه الى مدينة سندابل، وبها دار الملك قالين. فعرض الرسول عليه ما جاء لأجله وهو طلب يد بنت قالين لنوح بن نصر، فأجاب به الى ذلك، وأحسن منوى أبى دلف ومن معه من الرجال، وأقاموا عنده ضيوفا مدة، حتى أنجزت أمور المرأة وتم تجهيزها، فسلمها اليه براضا نحو مائتى خادم وثلاثمائة جارية، فحملت الى نوح بن نصر بخراسان تزوجها^(١) فتولدت عن هذا الزواج علاقة وثيقة بين دولة السامانيين وبين مملكة كين بشمال الصين.

ونظرا الى أن عهد حكومة نصر بن أحمد استمر من سنة ٩١٣ الى ٩٤٤ م، وأن عهد حكومة نوح بن نصر، كان من سنة ٩١٢ الى ٩٥٤ م، نستفد أن هذا الزواج قد وقع بعد سنة ٩١٣ م لأن تاريخ الصين قد ذكر وصول سفارة من الدولة السامانية في سنة ٩١٤ م، ومن الجائز أن هذه هي بعثة الخطبة على رغم سكوت تاريخ الصين في هذا الامر. وأما خطاب سلطان سامان الى أمبراطور الصين يطالب

فيه بدأ ميرة صينية لابته في سنة ١٠٣٠ م ، فمن الظاهر أنه جاء من آخر سلاطينها وهو أبو ابراهيم بن اسماعيل بن توح الثاني الذي تولى أمور الدولة بعد وفاة عبيد الملك في سنة ١٠٠٥ م . عندئذ تهاب على أرهم الاواغرة الذين كانت لهم يد بيضاء في نشر الاسلام في تركستان الصينية وذلك قد يضاف في كتابي : الاسلام وتركستان الصينية .

ويظهر المغول في القرن الثالث عشر الميلادي ، تحول مجرى العلاقة بين الصين والعرب إلى ما بين الصين والامم التي خضعت لسيادة المغول . فانقطع تاريخ الصين عن ذكر وصول سفراء العرب لكنه ظل يدون حركات السفراء من الممالك الإسلامية إلى الصين فالسفارات التي جاءت إلى بلاد الصين في عهد (يوان) (١٢٧٧ - ١٣٦٧ م) ، حينما سيطر آل جنكيز عليها وعلى أغلب الممالك الإسلامية في الشرق الاوسط والافرنج ، وكان أكثرها من خراسان ويران وقد وردت من الهند في بعض الاحيان فالتعاسيل عن هذه السفارات قد توجد في المصادر العربية والفارسية ، فضلا عما ذكر في المصادر الصينية .

ولقد سبق الكلام عن البعثة التي أرسلها محمد خوارزم شاه ، إلى بكين ، برئاسة بهاء الدين الرازي عند ما كنا نتكلم عن العلاقة التجارية ، وكان ذلك للاطلاع على الاحوال التي كانت قائمة في الصين بعد استيلاء المغول عليهم . فأرسل جنكيز خان أيضا بعثة برئاسة محمود الخوارزمي وعلى خراجة البخاري ويوسف الانزاري كما ورد في النساب ، ردا لسفارة محمد خوارزم شاه ابنه وحلوا هدايا ثمينة نفيسة إليه ، باسم جنكيز خان . وكان ذلك قبل حادثة الانزاري التي وقعت في سنة ١٢١٨ م فلما انقسمت الامبراطورية الجنكيزية إلى أربع دول ، بعد وفاته بين أبنائه الأربعة . وصارت بلاد الصين من نصيب قبلاي خان وكانت العلاقات الدبلوماسية بين الصين وأمراء المغول في أواسط آسيا والعراق قد توقفت بأواصر المصاهرة فتبادلت السفارات بين قبلاي خان ، صاحب (خانباق) وبين هلاكو بالعراق ، انتهت كل واحد للأخر . بمادية فوز الاول في فتح الصين ، والثاني في

الاستيلاء على العراق ؛ غير أن هذه التهم لا نعلمنا كثيرا . إذ لم يكن أحد منها مسلما . والسفارة التي تمنا جدا ، هي ما جاءت من آياقة خان بن ملاكو ، لحل قبلاي خان على اضطهاد المسلمين واستنكار حركاتهم في الصين ، وكان السبب في ذلك أن بعض المسيحيين الذي نالوا نفوذا عظيما عند ملاكو وقد تزوج من امرأة مسيحية^(١) ، قد و - و - و إلى آياقة خان وقالوا : أن في القرآن ، وهو كتاب المسلمين المقدس ، آية تأمر بقتل المشركين ونصها هو : اقتلوا المشركين حيث وجدتمهم^(٢) ، فكانت هذه الدسائس حرمت كثيرا من المسلمين ، من الخدمة في قصر المغول بباران . فبعث سفارة خاصة تله على إشارة المسيحيين المقربين إليه ، إلى خاتباتي ، ليخبره بما وقع في القرآن من آية خطيرة على حياة المغول ، ونصحه بأخذ الحذر من المداين دائما . لأنهم يرون أن قتل المشركين فرض يأمرهم به القرآن . فكان لهذه السفارة أثر عظيم في نفس قبلاي خان . وكان يتساهل في الأمور الدينية على اختلاف مبادئها وعقائدها . ففهم دفعة بعد وصول هذه السفارة ، واتخذ موقفا حازما في اضطهاد المسلمين والصين - أمرهم باتباع اليساق (الاحكام الجنائية) في أمر الزواج . وأنزل الأئمة من المنابر وأكره المسلمين على أكل اللحوم المذخوقة على طريقة المغول ولم يفكر قبلاي خان في هذا الحكم القاسي ، إلا بعد سبع سنوات . وكان ذلك بسبب فقه ورود انتجار المسلمين من الخارج فقصت إيرادات الدولة إلى حد لا يحتمل فقدم على ما فعل بالمسلمين ورفع عنهم هذا الحكم الظالم القاسي بثلثائه وأتى لانتاؤل هذه النقطة ببعض التفاصيل ، إن قدر لي أن أكتب ، تاريخ الاسلام في الصين ، في الأيام المقبلة .

ويظهر من تاريخ المغول أن آل جنكيز ، ولو انفرد كل واحد بدولة مستقلة ، يمتثلون بسطة الخان الأعظم عليهم . فيظفرون إلى أوامره ونواهيهم بين التنظيم والاحلال . ويقبلون نبريكا ، إذا خلف أحد منهم أباة في الإمارة والحكم . ومادام جنكيز خان حيا . كان هو الخان الأعظم (القان) فأعظم على أولاده

(١) Arnold : The Preaching of Islam. P. 22

(٢) أو لاق مغول ص ١٦٤

بمباشرة من الألوأب غلب هذا ملك العراق وذلك ملك الصين . فلما مات عنهم ، خلفه ماغوخان في عظمة الخانية ، واتخذ مدينة فراقم عاصمة له وأنعم بالانقلاب على أمراء المغول الذين بآسيا الوسطى والشرق الأدنى . لجأ هذا الحق من نصيب قبلاى خان الذى تمكك أرض الصين سيدها عليها منذ سنة ١٢٧٧ م . وكان له معاصر في إيران ، اسمه آراغون خان الذى أوتى العرش بعد تاقودارخان فبعث قبلاى خان سفيرا خاصا إليه ، يسمى ، أورد وقتا ، كما ورد في ، مطلع السعدين ، وكان ذلك في سنة ٦٨١ هـ - ١٢٨٥ م ليقلده المنصب الملكى على العراقيين العربى والعجمى رسميا . وبعد عدة أسابيع وصل وزير من المجلس الامبراطورى الاعظم معروف باسم ، جنكسانك ، فولاد الى إيران فأقام في سراى منصورية بالاران Arran وكانت هذه المدينة عاصمة المملكة المغولية بالعراق وبها يقم وكلاء الصين السبائيون الذين يمثلون الخان الاعظم في قصور أمراء المغول في إيران ، أثناء حكم آراغون خان وغازان خان وأولجايتو خان . وكان يرافق هذا الوزير مترجم يسمى عليا ، ، وكان من المبعوثين أيضا (١)

وفي آخر عهد آراغون خان ، أنعم الخان الاعظم المقيم بداندو (٢) على غازان خان في سنة ١١٩٠ م بقلب ، جن يوان وانغ (٣) . أى أمير التأمين للبغداد الثانية فبعث لاجل هذا الغرض سفارة خاصة

فالسفارة الرسمية التى وقعت لأول مرة بين امبراطور المغول في الصين وبين غازان خان ، حين تولى مقاليد الحكم على إيران بعد وفاة أبيه آراغون خان ، كانت في سنة ٦٩٧ - ١١٩٨ م . ولقد دون الوصاف هذا الواقع في كتابه ، ترجمة

(١) جاء في ، مطلع السعدين ، هكذا - جو آراغون بسراى منصورية اران رسيد ، أمير فولاد جنكسانك وعلى كلمجى وديكر ايلجيان ازبندكى قان برسيدند . . . وينست وهشم ذى الحجة سنة ٦٩٤ هـ أورد وقتا ازبندكى قان برسيد ويرليغ آوردكه آراغون بجای پدر خان باشد .

(٢) العاصمة العظيمة والمراد هو دشانبالى .

الامصار . عند ما تكلم عن علاقة إيران بالخان الاعظم بخان بالق . ومن كلامه يظهر أن هذه السفارة كانت مكونة من عضوين : هما نذر الدين أحمد وبوقا ايلجى . فذلك يقول : أن غازان خان العادل يمث في سنة ٦٩٧ هـ - ١٢٩٨ م ، نذر الدين أحمد وبوقا ايلجى ، سفيرين الى تيمور خان مع هدايا من جواهر ونياب موشاة وحرير وفهود - جديرة بالقبول لدى ذاته الخاقانية . فأنتم عليهما بعشرة آلاف تومان ذهب كراس مال للتجارة ، وكان نذر الدين قد جهز جميع الاشياء اللازمة للسفر بحرا بالمراكب والجنود . فشحنا بمناجزة الخصوصية من جواهر ولآل . وأضمة أخرى لأقربائه وأصدقائه . وشيخ الاسلام جمال الدين في بلاد الخاقان . وكانت زرافته في هذا السفر البحري فرقة عسكرية من الرماة المشتعلة على الانراك والإيرانيين . وكان الطريق غرقا في البحر ، فقرر أن حياته وحياته رفاقه في المراكب وما معهم من الآوال . معرضة لتلف بين عشية وضحاها . مهددة كل ساعة على وجه الماء . فلما قدموا أخيرا حدود الصين ، اتصلوا بالمأمورين والموظفين . فأوصلهم محطة بعد محطة على حسب عادة بلاد الخان . وجزروهم بالخيام والحاجيات الأخرى اللازمة للطريق . ولم يكافؤوا شيئا من الرسوم أو الضرائب حتى وصلوا الى أردو . وهي الرباط الامبراطورية بداند وبقراب خان بالق .

يقول الوصاف ، أن تيمور خان كانت ملازما الفراش مريضاً في ذلك الوقت . لكن الوزراء الأربعة الكبار قد حضروا مجلس الاستقبال وجلسوا على المقاعد الذهبية بجانب السجادة الامبراطورية في عزة وحرية . وأما بوقا ايلجى الذي ظن أن سلاما محضاً كان يكفي في المقابلة الأولى بدون الجنو أمامهم ، كما هي العادة في قصر المقول بالصين . فقاموا باحتجاج شديد على تقصيره في الآداب الرسمية عند المقابلة التشريفية .

لكن بوقا - وكان حاضر الذهن ، فصيح اللسان - أجاب في الحال : . أن الامبراطور ، يحذرنى من الجنو أمام أى ركن من أركان الدولة ، أو أمام أى نبيل

من بيوت النبلاء، حتى أرى وجه الخاقان المبارك، آية الرغاية والهناء. فأجازوا
بسدند، دخولهما على تيمور خان ومقابلتهما له شخصيا. فمرضا عليه الهدايا
النادرة التي كلفها غازان خان تقديمها إليه فاستلمها بالشكر والتناء. وأما المتاجر
التي كانا يحملانها في المراكب، فقد وضعت أمام الاميراطور، فأعجب بها غاية
الاعجاب. فأصدر مرسوما في وقت تيجيز المنازل والطعام والنياب والخدام
للسفيرين ومن معهما من العساكر والاصدقاء، بمناسبة الفصول الاربعة. وأمر
أيضا بوضع خمسة وأربعين من الخيل تحت تصرفهم

ولقد مكثا في الصين أربع سنوات ثم ودعوهما في سنة ٧٠٢ هـ - ١٣٠٢ م
توديعا عظيميا منظويا على النجدة والاحترام. ومنع الاميراطور نظر الدين بشا من
بنات الامراء. وعلى يده أرسل رسالة الود وهدية الصداقة الى غازان خان،
مصحوبة بالمنسوجات الحريرية التي كانت وقعت في نصيب هلاكو خان وبقيت
في الصين منذ زمن ما افرو خان ولم ترسل الى صاحبها حتى يومنا هذا.
وفي رواية أخرى أن تيمور خان قد كلف سفيرا خاصا بالسفر الى إيران في
مركب خاص، لا لبلاغ صداقة واحترامه الى غازان خان

فأبحر نظر الدين بعد قليل الاكرام الذي سر به غاية السرور، من عند
اميراطور الصين، مصحوبا بسفير خاص من تيمور خان وثلاثة وعشرين مركبا،
فيها أمتعة نادرة هدية لصاحب إيران وأمراتها. فأت سفير تيمور في الطريق عن
يومين الى معبر، وكذلك نظر الدين، فدفن بمعبر بجنب مقبرة عمه، وكانت وفاته
كما أخبرنا الوصاف، قد وقعت في سنة ٧٠٣ هـ - ١٣٠١ م^(١)

وأما تيمور خان الذي خلف قبلاي خان على أرض الصين، قد بعث
سفارتين في حياته الى إيران فكانت إحداها في رد زيارة السفارة الإيرانية
المذكورة. وأما الثانية فكانت في سنة ٧٠٥ هـ - ١٣٠٣ م للأنعام على خدائده
بلقب «كوان نينغ وانغ» أي أمير الأمن للأرض الواسعة. وقد قيل

آن سفارة قد وردت من ایران فی سنة ۷۱۴ م ، لكن أغراضها
غير معلومة عدنا لسکوت التاريخ عموما .

ولقد ذکر رشید الدین فضل الله فی تاریخه المبراه من أمراء جغتایین ، اسمه
ایسن بوقا ، فرغ لواء العصیان علی الخان الأعظم ، وخرج علی خراسان بین سنة
۷۱۳ م - ۷۱۵ م . فرقع أعضاء السفارات الی کائنات مبعوثه من خانات الی
طورس ، فی بدء وقاسوا منه ما قاسوا من قوة وظفر بهجن القلم والسان عن
وصفها وما عوذوا الذی وحدناه عن هذه الواقعة فی تاریخ رشید الدین .

• ایلیجان قان کنور ملک آر بودند ، تمامت رابستگرفت اول نوقتیهور
چنگسنگانک واکه قان ر دست او خاتونی جهت ایلیجانو . سلطان می فرستاد بهزار
بانصد سر او لاخ ابشارا بر لایق فرغانه بشهر اندکان (اندجان) کردانید
وایلیجان دیکر که ارغشای وایده بودند وچرخ رستگار ، دیکر ظرائف پیش
الجانیتو سلطان میآوردند بسند . وایلیجان رنگا شفر فرستاد و مقید و محبوس کرد

در اثنای این حالت ایلیجان قان مقدم ابشار فولاد چنگسنگانک باهفتاد
نوکر از حضرت الجانیتو سلطان بازگشتند بودند ، بر عزیمت قان بایلیکهای
وتقد و قهای ایران زمین بالوس ایسن بوقا رسیدند ، ارغشایت شغب و خشم
ابشارا تمامت ملاکت کرد و مریجه داشتند تمامت ناراج نوده و الترجمة می کابلی :
• کان فی ملکته (ایسن بوقا) سمره الخان الأعظم ، فقیص علیهم اجمعین .

وفی اول الامر کان نوقتیهور الوزير الذی قد بعث الخان الأعظم علی یده ،
أمیره الی سلطان الجانیتو : أرسله ایسن بوقا ، والامیره الی آندمان بولایه
قرعانه تحت مراقبه ألف و حسیله فارس ، واما السمره الآخرون الذین وردوا
من بلاد الخطا ، وقد حملوا معهم النور ، وطیور الصيد و البضائع النفیسه الی
السلطان الجانیتو ، فنهیم ایسن بوقا عن القصر ، وأرسلهم الی کاشغر فالقاهم فی
الحبس . أثناء هذه الأيام ، رجع سمره الخان الأعظم ، و فی مقدمتهم فولاد
الوزير ، مع سبعین عساکرا من جهة السلطان الجانیتو ، قاصدين القان ، حاملین

التحف والهدايا النادرة من حاصلات أرض إيران (١) فاغناظ منهم آيسن وقا واشتد حتى أهلكهم جميعا وسلب جملة ما كان معهم من الأموال .. (٢)

وبعد نحو ١٢ سنة من هذه الحادثة، في عهد أبي سعيد بهادر خان، أرسل آيسون تيمورخان أمبراطور الصين، سفارة إلى أمير شهر يعرف باسم، جويان، في سنة ٥٧٢٦ هـ - ١٣٢٤ م وكان هذا قد سافر من بغداد إلى هرات، لأنه اغناظ من السلطان أبي سعيد، بسبب الكلام الذي يتعلق بابنته بغداد خاتون. فتركه وتوجه إلى هرات. ففتح سفير الصين أثره هناك حتى وجده وقدم إليه رسالة ودية من أمبراطور الصين، وأنتم عليه بلقب « أمير الآراء » في ملكة إيران وتوران. فاستقبل السفير بكل إجلال، وودعه بقاتل الإكرام.

وبعد بضع سنوات، لما هجره الجيوش الذين كان يقودهم إلى قتال أبي سعيد، سافر إلى ما وراء النهر مع قصد الاستغاثة من أمبراطور الصين في استرداد إيران إلى مملكته من يد أبي سعيد.

في زمن ابن بطوطة كان أمير خوارزم، أميرا كبيرا يسمى قطلودور (أى الحدود المبارك) ويظهر من الإشارة التي نجدها في رحلة ابن بطوطة، أنه كانت له علاقة بأمبراطور الصين وكانت للقواكة اليابسة تحمل من بلاده إلى ملكة القباآن وكان مع ابن بطوطة من سار إلى خوارزم، شريف من أهل كربلاء، اسمه على ابن منصور. فعزم على السفر معه إلى الهند: ثم أن جماعة من أهل كربلاء وصلوا بقصد السفر إلى الصين، فسافر معهم: نعم أن ابن بطوطة لم يذكر غرض سفر هذه الجماعة، لكن الظن الغالب يذهب بنا إلى الاعتقاد بأن لهم مهمة ضرورية حملهم على سفرهم إلى الصين لغرضاتها، فلذا سافروا.

ثم سافر ابن بطوطة إلى الصين في سنة ٧٤٣ هـ - ١٣٤١ م، لم يكن بصفته سائحا جوالا بل كان بصفته سقيرا من قبل تغلق شاه، صاحب الهند إلى أمبراطور

(1) Blochet : Introduction à l'Histoire des Mongols de Fadliah Rachideddine p. 234.

الصين وهو (هيون - تي Hyun - Ti) (١٣٣٢ - ١٣٦٧ م) ، آخر ملوك المغول من آل قبلاخ خان ، وكان السبب في ذلك أن ملك الصين قد بعث إلى تغلق شاه ، مائة مملوك وجارية وخمسة نوب من الكنخاب وخمسة أمان من المسك وخمسة أنواب مرصعة بالجواهر وخمسة من العرش مزركشة وخمسة سيوف وطالب من تغلق شاه ، أن يأذن له في بناء بيت الاصنام الذوكان بسمل واليه يحج أهل الصين ، وتغلب عليه جيوش الاسلام بالهند ، فخر به ، قلنا وصات هذه الهدية إلى السلطان تغلق شاه ، كتب اليه بأن هذا المطلب لا يجوز في دولة الاسلام لإعانة ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بأعطائها أجمع لك بناء والسلام على من أتبع الهدى .

فكافأه على هديته بخمير منها وذلك مائة فرس من الجياد مرسية ومجموعة ومائة مملوك وجارية من كنفار الهند ، مقنيات ورواقص ومائة نوب برقية ، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن ، فقيمة النوب منها مائة دينار ، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالخز وهي التي يكون أحد طرفيها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعائة نوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ، ومائة نوب من الشيرين ياف ومائة نوب من الشان ياف ، وخمسة نوب من المرغز مائة منها سود ومائة منها بيض ، ومائة منها حر ، ومائة منها خضر ، ومائة منها زرق ، ومائة شقة من الكشان الرومي ، مائة قطعة من الملف وسراجة وست من القباب ، وأربع حلك من ذهب وست حلك من فضة منيلة ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كشلها ، وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه ، إحداهما مرصعة بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الفهد بالجواهر وقفا مرصع بالجواهر وخمسة عشر من الفتيان .

فبعين السلطان للسفر مع ابن بطوطة هذه الهدية ، الأمير ظهير الدين التنجاني وهو من فضلا أهل العلم والفقه كافرورا (الشرذار) واليه سلم الهدية وبعث معهم الأمير محمد المروزي في ألف فارس ، ليوصلهم إلى قاليقوط ومنها يركبون إلى

الصين، وكان في مرافقتهم وسل ذلك الصين وهم خمسة عشر رجلاً يسمى صغيرم ترسي، وخدمهم نحو مائة رجل، فاقعدوا في محطة كبيرة وأخذت كل جماعة طارية ١.

كان سفر ابن بطوطة من دهل في السابع عشر لشهر صفر سنة ٧١٣ هـ - ٣٤١ م، لكنه لم يذكر تاريخ وصوله إلى الزيتون، وأغلب الظن أنه قدم هناك بعد ثلاثين. لأنه قد أقام بحزيرة عالديب نحو مئتين عند انطاس، فالمدّة التي قضاها في البلدان الخاضعة بين الزيتون والزيوط لا تقل عن سنة. وعلى هذا نحن نعتقد بأن قد وصل إلى الصين في سنة ٧١٧ هـ - ١٣١٥ م. وكانت مدة إقامته في الصين لم تتجاوز سنة كاملة. لأن قد مر بالشام راجعاً في سنة ٧١٩ هـ ٣٤٧ م.

وكان ابن بطوطة آخر سفير من دول إسلامية إلى ملوك المغول بالصين ورجوعه انعكس في باب العلاقة الدبلوماسية بدولة يوان، التي زال حكمها من أرض الصين بعد ربع قرن من ذلك التاريخ. ثم عليها صاحب جديد، غير من كان عليها وكانت لهذه الأمرة الجديدة علاقة متينة مع الممالك الإسلامية، واستمرها في الفصل التالي.

(ب) العلاقة الدبلوماسية في عهد (منغ) ٣١٨ - ١٦٤٣ م

أن الأمرة الحاكمة لأن أسست في ديار الصين بعد آل قبلاي خان. هي أمرة (منغ) (Ming) حكمت الصين نحو ثمانمائة ومضى منها أربعة عشر ملكاً، فكان المؤسس لهذه الأمرة العظيمة هو (منغ تاى جر) (Ming Tai - Tau) الذي استمر عهده الزاخر من سنة ١٣٦٨ إلى سنة ١٣٩٦ م.

من بين ملوك هذه الأمرة، أفراد مشهورون منهم جن جونغ (١٤٠٣ - ١٤٢٤ م) دى جونغ (١٥٢٢ - ١٥٦٦ م) ودين جونغ (١٥٧٣ - ١٦١٩ م) وأما صوان جونغ (١٤٢٦ - ١٤٣٥ م) فلولاه لم يحكم الصين إلا عشر سنوات.

لكنه أوجد في عهده الوجيز ، علاقة مع الدول الإسلامية التي بأواسط آسيا وغربها ، أوثق مما كانت عليه في عهد أسلافه وخلفائه .

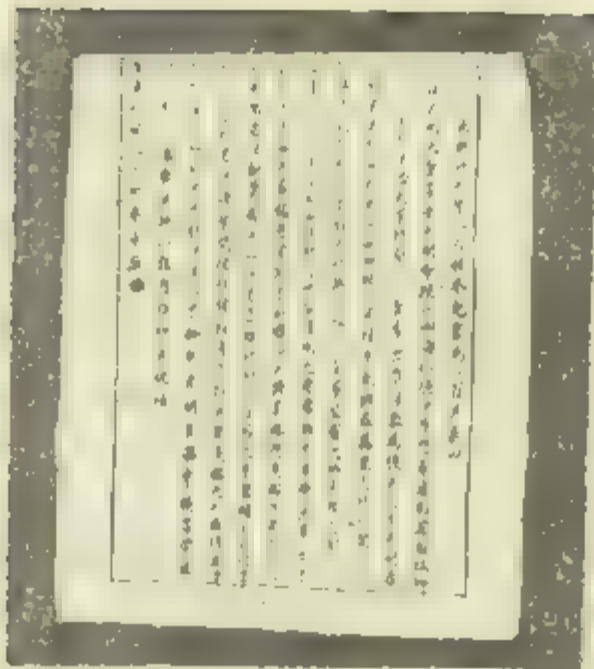
وهذا هو العصر الذي ازدهر فيه الإسلام في الصين فظهر أثر هذا الازدهار في كل ناحية من النواحي . في ناحية العلم والتفكير ، وفي ناحية الأمور السياسية والخارجية ، وفي ناحية الصناعة والهن ، والناحية التي تهتمنا هنا هي ناحية العلاقة الدبلوماسية مع الدول الإسلامية ، فلذا نخدص هذا الفصل للبحث عنها وترك النواحي الأخرى إلى مواعطها من هذا البحث

ونظرة خاطفة إلى الأمور الخارجية لهذا العهد ، تكشف لنا أن علاقات أسرة منغ بالدول الإسلامية قد اتسعت إلى أكبر حد لم يلفه أى عصر من العصور السابقة لأن دائرة علاقات (تانغ) و (سونغ) كانت منحصرة في الخلفاء بدمشق وبغداد وفي أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان كما كانت علاقات (يوان) منحصرة في ملوك المغول بإيران وأواسط آسيا ؛ وأما علاقات منغ التي نبحت عنها الآن فكانت تصل بمصر وعدة أمارات بشرق أفريقيا ، فضلا عن الواصلة التي قامت بينها وبين الممالك الإسلامية السابقة الذكر ، وإن الشواهد التاريخية من المصادر الفارسية تتعلق بوجود علاقة ودية ورابطة دبلوماسية بين أسرة منغ و تيمور كوركمان وبنيه فقد تبردت عدة سفارات بين ملوك منغ وآل تيمور بمصر قند وهرات

ومن المعلوم أن أمراء المغول فيما وراء النهر وإيران كانوا مستقلين ، إذ كان قبلاى خان وأولاده لا يزالون على عرش الصين لأنهم كانوا من أسرة واحدة ، وليس من الصعب أن يعترف كل واحد منهم باستقلال أخيه في دائرته الخاصة . لكن ملوك منغ ، الذين أخرجوا آل قبلاى خان من أرض الصين وردوا الحكم إلى أيدي الصينيين بأمر السماء ، لم يرضوا باستقلال أمراء المغول في تركستان وآسيا الوسطى فأخضعوهم إلى طاعتهم وكان تيمور كوركمان صاحب سمرقند في أول الأمر أيضا يخضع لحكم منغ تاي جو

وبناء على ماورد في تاريخ منغ أن سمرقند وبخارى ومراة وكشمير ، كانت
 قطع الصين في أول عهد (هونغ - وو) فكان أسعاجا يرسلون الانارة والمخراج
 والمهدايا الى منغ تاقى هو ويقول هذا المصدر أن صاحب سمرقند كان في ذاك
 الوقت هو تيمور كوركان وسماء الصينيون ، فوما تيمور مر لعد أرسل في حياته ثلاث
 سفارات الى الصين . وكانت الأولى في سنة ١٣٨٧ م ، برعاية مسلم كبير معروف
 باسم (ملا حافظ) قد أتى معه بـ ١٥ جواذا وثلاثين ، هدية الى منغ تاقى جو فأكرمه
 بالنع الاكرام وأنعم عليه بشمانية عشر ، تمالا من الذهب الأبيض ومن تلك السنة
 ظل تيمور كوركان يادى ملك منغ بالخيول والابل سنويا . وأما السفارة الألمانية
 فكما ذكرها تاريخ منغ ، كانت في سنة ١٣٩٢ م . فالهدايا التي جاءت بها هذه البعثة
 كانت مشتملة على ست قطع من البرنيان وأربع قطع من ثياب الصوف وشالين
 أحمرين ، وآخرين أخضرين ، وكية كبيرة من الزهر والذهب والسكاكين وآلات
 حديدية أخرى .

والسفارة الثالثة التي وصلت في سنة ١٣٩٤ م وعلى رأسها ، كما ذكر في كتاب
 الاستاذ بلوشيه مقدمة تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله ، محمد درويش برلاس ،
 أنت بمانتى جواد ، هدية الى امبراطور الصين ومعهما رفعت رسالة مقدمة من تيمور
 كوركان الى سنده العالية ونعرف من هذه المقدمة ، أن تيمور كان يدترف بسيادة
 امبراطور الصين عليه فلذلك يقول :



نص رسالة المقدمة ، التي رفعت الى امبراطور الصين
(مانج) من تيودور كو . كان صاحب سمرقند ١٣١٤ م

تبرك بالملك المعظم (داني ميك) ، الذي وحد بأمر الله ، الجهات الأربع ،
ووسع على الانعام الخفية والتممة ، وأنعم على المومنان الطيب والرحمة الذي يدين له
المملوك بالسمع والطاعة ، والذي ينظر اليه الملاطين بالاجلال والاحترام فالحق
الاعلى الذي أراد تأمين الدنيا وتصب لواء السلام مرفرفا على أعقابها ، قدر للملك
المعظم ، أن يكون قلبا تجمعا وير يدور حوله كل قريب وبعيد ، ونبراسا لاهل
البلاد الشامسة ، ينير كالكمر ، جميع أرجائها الواسعة .

فأنا تيودور الذي يقطن بعيدا بعشرة آلاف ميل فيها وراء الجبال ، قد سمعت
عن عظمة لطاف صاحب الجلالة ، وسعة كرمه كأنه ميل يجرى على الوضع والرفع
أو كأنه فيضان يعم القريب والبعيد لاحد له ولا قيد وليس له في الزمان نظير .

فالسعادات التي كان الملوك القدماء محرومين منها ومعدومة لدى - لاطين هذا الزمان كلها موجودة عند صاحب الجلالة ، حاضرة والبلاء التي لم تكن خاضعة لحكم الصين ، قد سلمت نفسها ، إطاعة للملك الأعظم وخضوعا لحكمه .

وكانت هناك بلاد ثانية انقطعت علاقتها بالصين : وجهات متوحشة ، عاص أمم في الظلام والجهالة ، أصبحت الآن كلها متيرة مستأنسة تحت رعاية جلالته فلا أحد من الشيوخ الا وله نصيب من السعادة والهناء ؛ ولا فتى من الفتيان ؛ إلا وله حظ من غبطة وحرور في الحياة ، كما لا أحد من أهل الخير إلا نال أو فر جزاء ولا عامل من ذوى الشر ، إلا انظر بعذاب السكال

وعلاوة على كل هذه ، قد تفضل جلالتهكم بإكرام الغرباء ، غاية الاكرام . فالأجانب الذين صاروا الى بلاد الصين ، تجارا ، أو ملأنا للعبث وكسب المال لقروا من دانتكم الكريمة عناية فائقة فأطمانهم على العواصم والمسجون التي فيها ابتسامة الحضارة وزمرة الحياة . ما أكبر سرورهم ، عند ما رأوا عظمتهما ، وما أعظم غبطتهم ، حين مشوا بين انصادات أراهم ما . لقد اعتقدوا أنهم قد خرجوا من الظلمات فأروا نور الشمس على جبين السماء . ثم الكشاف الذي وجهه جلالتهكم الى التجار ، لم يكن إلا نورا من العطف السامي ، يتجلى عليهم فتفتح الطرق واتصلت المواصلات فأمل البلاد القاصية مفتطرون لهذا العطف الكريم . فتهبطون الى مزيد فيض من القلب الجلالى الذى يكشف كل ما فى الخفاء ، كمثل كأس جشيد لا يخفى عليه العالم وما فيه

بنور كرمك امتدينا الى هذه وسعادة ، وبلطف عطفك ، عدنا الى رفاة ونعمة وأما القبائل التي فى ملكيتى فعند ما سمعوا هذا الخبر السار ، رقصوا طربا وفرحا وأما أنا عبدك الضعيف ، فليس عندى شيء أقابل به هذا الانعام السامى غير الدعاء لذات الجلالة المملكية بالتمتع بأطول العمر وأوفر حظ من السعادة وأقصى حد من السرور والنعمة

هذا هو كتاب تيمور كوركان الى ملك الصين ، داني ملك ، وهو (منغ ثاني جو) كما هو معروف في تاريخ الصين : فن كلمة (臣 : Chen) التي يستعملها الوزير انفسه ، اذ كان يقدم مذكرة الى الملك ، تملق بشؤون الدولة ، أو أمير قد خضع لحكم الصين ، عند ما كان يرفع رسالة يشكر بها لمن فوقه من السلاطين والملوك ، أو يلتمس بها منه بعض الانعامات ، — من هذه الكلمة — نفهم أن تيمور لم يكن مستقلا بالحكم في سمرقند حتى سنة ١٣٩٤ م . فاضطر الى الاعتراف بسيادة ملك الصين عليه ، حين أرسل رسلة إليه للمرة الثالثة ويؤكد هذه النظرية المصدر الفارسي . لأن الأستاذ بلوشيه ذكر في مقدمته : « أن هناك رسالة محفوظة في مطلع السعدين ، لعبد الوزير السمرقندي ، تدل على عدم استقلال تيمور في بلاده »

وردا لهذه السفارة ، بعث ملك الصين في سنة ١٣٩٥ م ، سفيرا اسمه « فوآن » مع هدايا من الحرير والياب الى تيمور كوركان . فعرضا عليه حين قاله على صفة نهر جيحون .

كان خضوع تيمور لم يصد عن نفس طيبة ، فلذا نراه يخرج على ملك الصين عندما قوى وفتح إيران وجزءا من جنوب روسيا . فقبض على تركستان وهزم على غزو الصين عن طريق بيش بالقي . فلم امبراطور الصين ذلك وأمر حاكم قانسو ، بالاستعداد للدفاع . لكن تيمور مات في سنة ١٤٠٥ م ، قبل تحقيق غرضه . وعندئذ انقسمت دولته الى قسمين بين ابنه وحفيده . فكان ابنه الرابع شاه رخ يحكم هرات ، وحفيده السلطان خليل يحكم سمرقند . وكان خليل هذا أبني علاقاته الدبلوماسية مع الصين ، كما كانت في أيام جده . وأنه قد بعث خداداد في مرافقة « فوآن » الذي سافر الى سمرقند أيام حياة تيمور كوركان ، واستبقاه هناك حتى يوم وفاته ، الى عاصمة الصين مع هدايا من حاصلات مملكته . قال سفير خليل عند ملك الصين حظا كبيرا من الاحترام والاكرام .

ثم أرسل ملك الصين سفيرا خاصا الى سمرقند لتقديم التعازي اليه في وفاة جده
تيمور وهدايا بما يناسب مكانة السلطان

ويذكر تاريخ الصين رواية أخرى وهي ، أن شاه نور الدين ، أحد قواد
تيمور كوركان ، كان يقدم أيضا الخيول والابل هدية الى ملك الصين ، فأرسل
، فوآن ، مرة ثانية الى سمرقند ، ردا لهدايا خليل ونور الدين فعاد في سنة
١٤٠٩ ، وكان معه سفير خليل ، يحمل الهدايا والتحف الى طنج تاقو جو ، وبعد
ذلك كان السفراء يأتون من سمرقند مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات

وأن شاه رخ الذي تمكن من التربع على كرسي الحكم في هرات ، كان يرسل
بين الصين والحبش ، سفيرا الى ملك الصين ، فمكثت علاقته مع الصين قوية وثيقة
ويظهر أنه قد أرسل سفارات الى ملك الصين ، أكثر مما بعث أبوه اليه . ويذكر
المصدران : الصيني والفارسي ، أن البعثة الأولى من شاه رخ الى الصين كانت في
سنة ١٤٠٨ م ، والثانية في سنة ١٤٠٩ م ، فاتممت برسالة رفعت الى ملك الصين
بد المودة والصداقة التي كانت موجودة بين وبين أبيه تيمور كوركان ، فرد
الإمبراطور ، داني ملك ، هاتين السمارتين ، بيمة خاضعة من بكين في شهر المحرم
سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م مع رسالة إمبراطورية الى شاه رخ بهرات ، وللهذه
الرسالة ترجمة فارسية ، نجدها محفوظة في ، مطلع المحدثين ، وما هي ذي ترجمتها
الى العربية .

وأن الله قد خلق جميع الخلائق ، ثم خلق ما بين السماء والأرض ، ليكون كل
واحد منها مسترجعا في ، الدميم ورافلا في الرفاهية مع تأكيد من أمر الله .

، لقد سمع الله لي بمالك على وجه الأرض ، أحكم عليها مطيعا لحكم الله ، أي
لست رجلا ، يفرق بين القريب والبعيد أو النسيب والغريب ، بل أنظر الى جميع
الناس بعين المساواة والمحبة .

، لقد سمعت أنك حسن الميرة على المهمة ، كامل العقل ، مخلص النية ، أعلى
من أقرانك ، وأرفع من أترابك ، حتى جعلت طاعة الله والمتطوع على الرعايا ،

والعناية بالمساكر والاحسان الى الزملاء وصلتهم ، سببا للعبادة ، ووسيلة الى الهناء . فلذا أرسلت سفارة خاصة لتليك ، خلة من الكتخاب ،

و لقد عظمت سفيري ، عند ما أرسلته للمرة الاولى ، فأكرمه لديك ، بعد وصوله اليك وأظهرت الولاء نحوى ففرح الكبار والصغار فى قصرى ، ثم بعثت ، ردا لسفارتى ، بسة فى وقتها ، أتت بالهدايا ، والتحف من جباد وأمتعة نفيسة من ديارك ، فأرى فى كل هذه علامة مودتك وآية صداقتك .

نعم ، لقد وقع فى مسمى المدائح العاطرة ، وإثناء البائع عن عواهل مغول منهم والدك فوما تيمور ، الذى قد قبل لإطاعى بأمر الله .

فهمت من الهدايا المقدمة الى ذاتى المحروسة ، ومن ورود السفارات منك النبا بين حين وآخر ، أن أهل بلادك كلهم فى راحة ورفاهية و جميع الأشخاص راغولون فى النعم والهناء ، وأنتك لتخطو خطوة أبك الجليل ، حمة وعملا ، وأما أنا فمن جانبى أرسل اليك ، وسوجو ، و داندك جينك ، و دسون قورنجى ، لإبلاغ تهنتى اليك ، والباسك خلعتى من الكتخاب ، وما هى إلا ومن من رموز الصداقة ومظهر من مظاهر المودة ، فأبست بعد هؤلاء أناسا آخرين لتقوية الروابط بالبعثات ، ومد الصلات وفتح طرق التجارة وتوثيق العلاقات الى ما يرام

وأما السلطان خليل فهو ابن أخيك ، فعليك أن تربيه تربية حسنة لاقفة وتودى وأجلك نمو ، بصفة أنك أخ لأخيك ، كما عليك أن تعطينى بالاخلاص وصدق النية — واليك هذا ^(١)

من هذا السند التاريخى الذى حفظ حفظه لنا عبد الرزاق السمرقندى فى كتابه ، مطلع السعدين . يتضح لنا ، أن ملك الصين ، ذاتى منك ، كان يعتبر تيمور كوركان وابنه شاء رخ ، من قابليه ، فلذا قال لشاء رخ أن آياه قد أطاعه ، فيجب عليه أيضا أن يعطيه كما فعل أبوه .

لكن من الاسانيد الاخرى التي وجدناها في مطلع السعدين ، نفهم أن شاه رخ لم يرخص بأن يكون تابعا لحكم الصين الى الابد ، فأعلن استقلاله ولعل هذا بعد سنة ۱۴۱۰ م . لان الرسالة التي بعثها امپراطور الصين الى شاه رخ في سنة ۱۴۱۹ كانت في غاية اللين والتواضع ولا نجد فيها تلك الكلمات التوبيخية التي كان يزجره بها في لرسائل السابقة ، كوالد يزجر ولده ، أو حاكم أدلى بعاقب من تحته من المأمورين ، بل على عكس ذلك ترى فيها كلمات التثخيم والتعظيم

وبعد إعلان الاستقلال ، أرسل شاه رخ رسالتين إلى ملك الصين ، إحداهما باللغة العربية والأخرى بالفارسية . فشرح فيها عقائد الاسلام ومزاياه ، ثم اسلام آبان وأسباب ذلك . وكان قصده بهاتين الرسالتين دعوة ملك الصين إلى اعتناق الاسلام . واليك نصوهر الرسالتين بلغتهما الأصلية مع ترجمة عربية الى الرسالة الفارسية تفهيمًا لمن لا علم له بها ، وهي كما يلي :

النص الفارسی

الترجمة العربية

بجانب ، دائم منك بادشاه از
شاه رخ سلطان سلام ما ، لا كلام
چون خداوند محكمت بالغة
وقدرت كامسة آدم را عليه السلام
بیسافريد و بعض فرزندان او را
بپیغام و رسول کردائید و ایشانرا
بخلق فرستاد تا آدم را باز در دعوت
کنند ، و باز بعض ازین بیخبران
را چون ابراهيم و موسى و داود و محمد
عليهم السلام كتابه ادو شريعت تعليم کرد
و خلق آن روز کاورا فرمود ، تا شريعت

إلى حضرة الملك . دای میشک .
من السلطان شاه رخ ، سلامنا ،
لا كلام .

لقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام
بحكمته البالغة وقدرته الكاملة وجعل
بعض أولاده أنبياء ورسلا وبعثهم
إلى الأمم ، ليدعوه إلى الحق . ثم
أول الكتب على بعض الأنبياء منهم
ابراهيم وموسى وداود ومحمد عليهم
السلام فعلمهم الشريعة وأمر خلق تلك
الأيام أن يعملوا شرائعهم ويطهروا

ایشان عمل کنند و بر دین ایشان باشند، و بمجموع این رسولان مردم را بدین توحید و خدا پرستی دعوت کردند. و از آفتاب و ماه و ستاره و سلطان و بت بر سفید بازداشتند. و هر کدام را از این رسولان شریعی مخصوص بود. اما همه بر توحید خدای متفی بودند و چون توبت رسولالت و پیغمبری بر رسول ما محمد مصطفی صلی الله علیه و سلم رسید، شریمنهای دیگر مذوخ گشت و او رسول و پیغمبر آخر زمان شد و همه طالبان امیر و سلطان و وزیر و غنی و فقیر و صغیر و کبیر را بشهرت او عمل میباید کرد و ترك ملت و شریمنهای گذشته میباید داد، اعتقاد بحق و درست اینست و مسلمات عبارات آریست.

پیشتر ازین بمحمد سال جنگیز خان خروج کرد و بعضی فرزندان خود در آن ولایتها و مملکتها فرستاد چو جی خان را بمحود سرای و قرم و دشت قفقاز فرستاد. در آنجا نیز بعضی پادشاهان، چون اوزبک و جانی خان و آرس خان بر سر اسلام و مسلمات بودند و بشرعت محمد علیه السلام

بعروه ادیانهم. و كان هؤلاء الرسل كلهم يجمعون على دعوة الناس الى التوحيد وعبادة الله وتهيئهم عن عبادة الشمس والقمر والنجوم والسلاطين والاولئان وكانت لكل رسول من هؤلاء الرسل شريعة خاصة كلها متفقة على توحيد الله. فلما نال رسولنا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم نعمة رسالته ودرجة نبوته نسخت جميع الشرائع الاخرى وصار غانم الانبياء ورسول آخر الزمان. فعلى كل ساكن في الدنيا، امير او وزير، غنيا كان او فقيرا، صغيرا كان او كبيرا، ان يحمل بشريته ويترك الملل الماضية وشرائعها. هذا هو الاعتقاد بالحق والصدق. واما المسلم فلا يعتبر الا بهذا لقد خرج جنكيز خان قبل سنوات فبعت بعض اولاده الى مالک وولايات فنكان جوجى خان مبعوثا الى حدود سراى وقرم وروادى قفقاز. وكان في تلك الجهات بعض الملوك مثل اوزبك و جاني خان و آرس خان. قد اعتقوا دين الاسلام وصاروا يعملون على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم. وكان

میکردند. ملا کو خان بلاد خراسان
و عراق و نواحی آن مقرر گردانید .
بس ازان بهضراز فرزندان او که حاکم
ممالک بودند ، چون آفتاب شریعت
محمد بر دل ایشان (مشرق) بود
بر سر اسلام و مسلمانان بودند و بادت
اسلام مشرف گشت با آخرت رفتند .
چون پادشاه راست کبری غازان
خان و الجایتو سلطان و پادشاه سعید
آب و سعید بهادر خان تانویست حکومت
و فرمانروائی و سلطنت و کامرانی به بدر
مقدم امیر تیمور کورکان ، طالب
زمام و پید ، ایشان نیز در جمیع ممالک
بشریعت محمد علیه السلام عمل فرمودند
و در ایام سلطنت و جهانداری ایشان
اهل ایمان و اسلام هارونق هر چه تمامتر
بود اکنون بلطف و فضل خداوند
آمالی این ممالک خراسان و ماوراء النهر
و عراق و غیرها در قبضه تصرف ما
آمده ، در تمامات ممالک حکم بموجب
شریعت مطهره نبویه میکنند و امور
معروف و نهی عن المنکر کرده و بر غر
و قواعد جنگی و خان مرتفع است
چون بغین و تحقیق شد که خلاص
و نجات در قیامت و سلطنت و دولت
در دنیا سبب ایمان و اسلام و عنایت

ملا کو خان مأمورا علی بلاد خراسان
و العراق . فولى بعض أبنائه حاکین
على تلك الممالك . فلما أشرقت شمس
الشریعة المحمدية على قلوبهم أصبحوا
مسلمین فغشاشوا سعداء مشرفین
بالاسلام حتى ارتحلوا الى عالم الآخرة
فلما انتقل زمام الحكم الى يد السلطان
السادل غازان خان والسلطان
الجایتو والسلطان أبی سعید بهادر
خان حتى وصل دور الحكومة
والسلطة والحکم الى غدومي والدى
الامير تیمور کورکان ، طیب افقشاه
كان يعمل أيضا في جميع الممالك على
شریعة محمد علیه السلام وكان اهل
الایمان والاسلام في أيام حکومتهم
وصلوا الى اكل درجة ، من العظمة
والرونق وأما الآن بفضل الله وكرمه
قد وقعت في قبضتنا بلاد خراسان
وما وراء النهر والعراق وغيرهما من
الممالك . فالحاکم فيها كلها بحرى على
ما تقتضيه الشریعة النبوية المطهرة .
وهی امر بالمعروف ونهى عن المنکر
وأما نواهی جنس کین وقوانینه فقد
رفت . ومن المحقق والیقین أن الخلاص
والنجات في الآخرة والسلطة في الدنيا

و دولتها لا تكون الا بالايان
والاسلام وفضل الرحمن قواجب علينا
أن نعاشر الرعايا بالعدل والانصاف
والمساواة وأرجو من كرم الله وفضله
ان يوفقهم في العمل بشريعة محمد رسول
الله ، كما أرجو ان يقوى ظهر المسلمين
في هذه البلاد لكي تتصل سلطنة الدنيا
بسلطنة الآخرة و (للآخرة خير لك
من الأولى ، متصل کرد

درب وقت ازان طرف ايلچيان
رسيدند و تحفها آوردند سلامتی
ایشان و معموری أن عمالك كفتند
و دوستی میان بدران بوده بر موجب
محبت الایاء ، قرابت الایاء ، ناره
كشمت ما نیز ازین طرف محمد بخشی
ایلچی فرستادیم تا خبر سلامتی رسانند
مقرو آنست كه بعد ازین راههای
كشاده باشد تا بازو كان بسلامت آیند
و روند كه معنی - باب آبادانی مملكت
و نيكو نامی دنیا و آخرت است . توفیق
رعایت اتحاد و مراقبت شرائط و داد
رفیق اهل طریق باد .

..... تم

..... تم

الرسالة العربية

وأما الرسالة العربية التي قد حفظها لنا ، مطلع السعدين ، فهي ، كما وجدناها في مقدمة تاريخ المغول (رشيد الدين فضل الله ، المستشرق الاستاذ بلوشه ، مايلي بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله محمد رسول الله ، قال رسول الله محمد عليه السلام ، لا يزال من آمنى أمة قائمه بأمر الله لا يتصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال ، كنت كنزا مخفيا ، فأحييت أن أعرف مخلقت الخلق لأعرف ، فلم أن حكمت جات قدرته وعلمت كلمته من خلق نوع الانسان ايثارا العرفان ، أعلاء أعلام الهدى والايماز وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، يعلم الشرائع والأحكام ومن الحلال والحرام وأعطاه القرآن المجيد معجزة ليفهم به المنكرين ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام وأبقى معانيه السكاملة وهدايته الشامعة ، آثاره الى يوم القيامة ونصب بقدرته في كل حين وزمان وفرصة وأوان في أقطار العالمين من الشرق والغرب والصين ذا قدرة وامكان وصاحب جنود مجتدة وسلطان ليروج أسواق العدل والاحسان ويبسط على رموس الخلائق أمنحة الامن والامان ويأمرهم بالمعروف وينهم عن المنكر والطغيان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة القراء ، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في (الملة) الزمراء . فوفقنا الله تعالى بسوايق لطفه ولواحق فضله ، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة وإدامة قراعد الطريقة الزاهرة وأمرنا بحمد الله أن تفصل بين الخلائق والرعايا في الوقائع والقضايا بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية ونبنى في كل ناحية المساجد والمدارس ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد لئلا يتدرس أعلام العلوم ومعالمها وينطمس آثار الشريعة وعراسمها ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطانها واستدامة آثار الحكمة وإيالتها بإعانة الحق والصواب وإمالة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض لتوقع الخير والثواب ، فالمرجو والمأمول من الجانب العالي وأركان دولته أن يوافقونا في الأمور المذكورة

(١) في الأصل (آثار)

و بشار کونا فی تشیید قواعد الشریعة المدونة. و رسولو الرسل و الفاضلین و یفتحوا المسالك للساخرین و التاجرین لینا کد آسیاب المحبة و الوداد، و یتواضد وسائل المودة و الاتحاد. و یستریح طوائف البرایا فی أطراف البلاد و یتنظم أسباب المعاش بین صنوف العباد و العباد. والسلام علی من اتبع الهدی و الله رؤوف بالعباد^(۱)

ذکر عبد الرزاق السمرقندی بعد هذا. سفارتین آخرین من ملوک مغلیه الی شاه رخ فی سنة ۱۴۱۷ و ۱۴۱۹ م ثم عدة سفارات من أمراء المغول فی ایران و هرات و سمرقند الی الصين فی السنوات المختلفة. ولذلك یقول

بادشاه دای مینک از ایلجیان فرستاده در ماه ربیع الاول سنة عشرين و ثمانمائة (۱۱۱۷) رسیدند. ایشان قیاباجین و تورباچین و جاتیاجین و نقیاباجین و باجید سوار و نجفة و بیلاق بسیار و شنغار و اطلس و کتخاب و ترغو و آلات جنگی و غیره رسانیدند و برای شاه زادگان و آغا یان علی حدة بیلاکات بادشاهانه آورده بودند و بکنونی مشتمل بر معانی که طرز رسائل گذشته باشد و ذریعة استعطاف آینده آمد منضمون آنکه از جانبین دفع حجاب سفارات و بیسکانگی باید نمود و فتح باب مواظت و بکانه کل فرمود تا رعایا و تجار تراد خود آیند و روند و راههای آیین باشد. در کورت اول ایلجیان آمده بودند چون مراجعت نمودند أمير سيد احمد ترخان اسپ بوزی جهت بادشاه روان داشته بود و در نظر بادشاه یغایت مستحسن نمود و برای او جویزی بسیار فرستاده بود و صورت آن اسپ را نقاشان آنجا کشید و بادو آختاجی که عنان اسپ را از دو طرف گرفته بودند ارسال نمودند و ایلجیان و امهمن دای کرده و مهمات ساخته جناحة گذشته روان داشتند و آنحضرت از شیر تراچی را همراه ایلجیان بجانب خطای فرستاد . . .

و معنی هذه العبارات بالعریة

ثم بعث ملك الصين دای مینک خان سفراء فوصلوا فی ربیع الاول سنة ۱۲۲۰ هـ

(۱) Blochet: P. 251-253.

(١٤١٧ م) وهم تواجين ونوباجين وحانباجين ونفاجين : جاءوا مع ثلاثة فارس وهدايا كثيرة ، منهم طيور الصيد ، أخضر وكغاب والقطار الصيني وغيرها من نواذر النعم ، وأما الهدايا التي أتوا بها للأمراء والنبلاء فكانت على حدة من كل هذه الأشياء . وأما الكتاب فكان يشتمل على ما في السابق ، متضمنا وسائل الاستطاف في السفر . فكانت تحوى الكلام على وجوب دفع الخراج من بين الجانبين من مقابلة ومباعدة ، وفتح باب المرافقة ، لما وصلة ، ليكون الرعايا والتجار أن يتفكروا فيها ، وأما على حسب مراتبهم ، فيكون الطريق آمنة من الخطر . لقد جاء السفراء من قبل ، فبارسمراد ، بعث الأمير السيد أحمد رخشان عن أبيهم حوادا يشيق الرج ، إلى ساحة الجلالة ، وتجهيز غاية الإعزاز وإليه أرسل أشياء كثيرة وصوره الجواهر التي رسمها باسم مع الله تسعين الممسكين بعدان الجواد بالجانبين ، وأما السفراء فقد أكرمهم غاية الأكرام وقضى لهم التهمات حتى ودعهم بكل حفاوة واحترام . فأرسل أردشير تواجين في مرافقة السفراء إلى الصين . . .

ثم في سنة ٨٢١ هـ (١٤١٩ م) وصل وفد من ملك الصين إلى سمرقند يحمل

الرسائل إلى صاحبها وعن هذا الواقع كتب عبد الرزاق في كتابه ما يأتي

لقد بعث داي مينك حان ملك الصين أولاً سفراء في هذه السنة إلى حضرة خاقان سعيد فريده بإرسال أردشير تواجين في مرافقة أولئك السفراء إلى ملك الصين ثم عاد أردشير وذكر أحبال البلاد وقدم سفرائها عن قريب . ففي آخر رمضان وصل فجاجين وخان ماجين إلى مرات ورفعا إلى خاقان سعيد هدايا نفيسة ورسالة مودة . وكانت رسالة ملك الصين تكتب على طريقهم الخاصة وذلك أن اسم الملك يكتب في صدر الرسالة وتحت أسطر الكتابة . فالمواضع التي يذكر فيها اسم الجلالة أثناء الكتابة ، إذا بلغت ، ترك عند حدها ، وتسلم باسم الجلالة من أول السطر الثاني . وكذلك يفعلون مع اسم الملك في الكتابة .

وهذه الرسالة التي أرسلت إلى خاقان في سنة ٨٢٢ هـ ، كانت مكتوبة على هذا النمط . وكانت رسالتهم تكتب من ثلاث نسخ وفي كل نسخة ثلاث لغات ، أحداها

تكون لغة الاغلبية وقصاف اليها لغتان أخريان قد تكونان من الفارسية والمغولية
وهي لغة الاواغرة، وقد ذكرنا من التركية والصينية الا ان اللغة الصينية تكتب
لرؤسا في كل نسخة من ثلاث الرسائل التي تعد للارسل تذكر فيها على التفصيل
جميع الاشياء التي في ضمن الهدايا من الحيوانات وغيرها.

وحنا عودج بالفارسية من الرسالة، لكل نسخة من النسخ الثلاث وكان في
كل نسخة تاريخ مكتوب بثلاث لغات. وهذا التاريخ يكون يوم كذا من شهر
كذا من سنة كذا في عهد الملك فلان. (من قول عبد الرزاق ان هذه الرسالة
التي تراها دجايلي، هي إحدى تاريخات التي بعثها ملك الصين داي ميكن الى شاه رخ)
وقها يقول

« داي ميكن بادشاه معظم ارسل بهر ما بدد شاه رخ سلطان تأمل ميكنم.
« جداوند آماي دانا وعافل وكامل بيا فرید اورا تا ملت اسلام مضط كند
بسیب آن مردمان مملکت خودند گشت اند

« سلطان روشن رأی ودانا وكامل وخر دمد وازمه اسلاميان عاليتر وبأسر
« خداوند تعالی تعظیم واطاعت بجا آورده ودركار آورزت داشت نموده كه
موافق تأيید آسمان است

ما بیش ترین ایلجیان امیر سوای ئیدا باجمعهم فرستادیم بنزدیک
« سلطان رسیده اند بآداب رسوم اکرام واعزاز بسیار فرموده اند ئیدا
وآجمعهم بمراجعت رسیده عرض نمودند رما هم روش و معلوم گشت وایلجیان
بیلوقا و غیره بلیدا و آجمعهم باهم برای ما هدایا شیر و امینان نازی و بوزان
و چیزهای دیگر فرستادند. هم برین درگاه رسانیدند ما هم را نظر کردیم
صدق محبت ظاهر گردانیده اند ما بغایت شاکر گشتیم و در دیار مغرب کجای
اسلامت از قدیم دایمان و صالحان هیچ کس از

سلطان عالی تر نبوده باشد و مردمان آن مملکت را نیک میتواند امان
تسکین دادان که بروفق رجاء حق است جل جلاله جکوبه

خداوند اعمال راضی و خشنود نباشد مردانه عز مردان با هم دیگر بدوستی بودند. دل بدل جو آئینه باشد. اگر چه بعد مسافد باشد، گویا در نظرسازی همت و مروت از همه چیز عزیز تر است. لیکن در تبع آن نیز چیزی عزیز شود. اکنون علی الخصوص لیدا و جانکقو با هم با ایلجیان بیک برقا و غیره را با هم فرستاده شد که نزدیک

سلطان هدایا سونکقوران هم دست که برسانند این همه سونقوران را با دست خود برانید، اینم و نیز هدایا که خواب مع غیر هم فرستاد شد. سونکقوران اگر چه در ملک چین ما نمی. شود لیکن علی الدوام از طرف دریا برای ما تحفه می آرند. سبب آن کمی نیست در آن جای شما نامه قابل همت عالی سلطان قریبی باشد. اگر چه اشیاء کینه است، لیکن حوصله محبت ما باشد. بقول

سلطان وصول آید من بعد میاید که صدق محبت زیاده شود و ایلجیان و ناچران بیوسته آمد

شد کنند و منقطع نباشند، نامردمان همه بدولت امن و امان و رفاهیت باشند البته خداوند تعالی لطف و رحمت زیاده کردند اینست که اعلام کرده شد... والترجمة العربية لهذه الرسالة هي كما يلي

تفضل الملك العظيم دای متلك، بارسال رسالة الى السلطان. أعني شاه رخ يقول فيها

ان الله قد خلقني من عباده حليما عاقلا. كاملا في الفهم، لينظم أمور الممالك الإسلامية وليكون سببا في إسماع البلاد رغناء أهلها

ان السلطان الكامل العقل، المتصور الضمير الذي يفوق جميع ملوك الاسلام، يطيع أمره، ويعظمه، ويمتاز بالأعمال لله، هو الذي يؤيده السماء بفضلها ولطفه

لقد أرسلت من قبل ليدا وغيرهم سفراء الى السلطان ، وثلقوا من عندهم
الحفاوة والاكرام ، وغاية التعظيم . وبعد عودتهم ، ارتحلنا عرضوا علينا من
الاجبار السارة . لجاء السمراتيك بوقا وغيره في مرافقة ليدا وجماعته اليها
بالهدايا من أسود وحياد عربية وقود وأشياء أخرى . فأوصلوها الى هذا
القصر . فرأينا فيها تجل الصدق والمحبة . وأشكركم غاية الشكر . لا يرجد في ديار
الغرب (غرب آسيا) وهم موطن الاسلام . أحسد من بين العقلاء القدماء
والصالحين الكرماء ، أعلى منزلة من السلطان . وآر القوم في ملككم فكاهم من
الرجال الصالحين وذوى السيرة الحسنة فالأمن شامل . والطعام أئمة مرفقة بظلم
على السكان وفاقا لمخاضة الحق ومشيئة الله عز وجل . لم لا . إذ كان الناس
يصادق بعضهم بعضا ، وقلب كل واحد منهم . مرأة للآخرين . وتوأن المسافة
بعيدة ، لكن الهمة والمرومة من أعظم الانبياء ومن أعزها . وكل شيء يتبع
الهمة والمرومة هو عزيز عظيم أيضا . أبعث الآن على الخصوص ليدا وجانكفر
وجماعتهم في مرافقة السفراء بليك بوقا وغيره الى السلطان ، بالهدايا من النور
التي كنت أطير من يدي وكذلك الهدايا من الكسحاب في أربعة أخرى . وأما
النور فلو أنها لا توجد في بلاد الصين ، لكن يؤتى بها تحفا اليها من أطراف
الانهار ولذلك أسباب كثيرة . وهذه الاشياء قد تكون سقيمة في بلادكم بالنسبة
الى همة السلطان العالمة ، لكنها آية من آيات المحبة التي توثق بقبول السلطان . ومن
بعد يجب أن تزيد تصدقة المحبة بينا بواسطة السفارات والتجار وعدم انقطاعهم
هنا ، ليسكون الناس على التمتع بالأمن والرفاهية في البلاد . .
والاعلان عن هذا هو من تأييد رحمة الله ومزيد لطفه . .

فرد شاه رخ سفارة الصين ببعثة في ذي القعدة سنة ٨٢٢ هـ (ديسمبر ١٤١٩ م)
وكان مع هذه البعثة سفراء من ميرزا بايرون غور ، وسبور غانكيش . ومن قول
عبد الرزاق السمرقندي أن سفراء شاه رخ قد وصلوا الى بكين في ذي الحجة
٨٢٣ هـ ديسمبر ١٤٢٠ م وأقاموا فيها الى ١٥ من جمادى الاولى ٨٢٤ هـ ١٨ مايو
(١٥)

١٤٢١ م . فرجعوا الى مرات ١٠ من رمضان سنة ٨٢٥ هـ / ٢٩ / ٨
سنة ١١٢٢ م

وتاريخ الصين يؤكد ما قلناه في هذه النقطة عن . مطلع السنين . ويذكر عدة
سفارات من أولاد تيمورغار الى ابن السبأ كالتى من شاه رخ وغيره من أصحاب
الاقطاعات والامراء الذين قد سيطروا على بعض البلاد فيما وراء النهر وخراسان
وابران . ككاشغند وكش وشاهر وخية وبديخشان واصفهان وشيراز وغيرها .
لقد روى صاحب . علاقة الصين القديمة بتركستان . اسنادا الى تاريخ منغ ،
قائلا : أن السفارة قد وردت من سمرقند حين كان يحكم عليها ميرزا أولغ بيك بعد
السلطان خليل في سنة ١٤١٥ م ، كما وردت من شيراز . لجأت منها للمرة الثانية
في سنة ١٤١٧ - ١٤١٨ م ، ومن شيراز واصفهان في سنة ١٤١٩ م ومن بخارى
في سنة ١٤٢١ م . ثم من شيراز في سنة ١٤٢٣ م . فرجع الامبراطور مى جونغ .
سفراء ميرزا أولغ بيك بغاقي الاكرام . فأمر . بن جونغ . وه لوآن . أن
يرافقهم وأرسل الى أيديهم نبشانه من الفضة الى أولغ بيك

في عهد . صوان جونغ . (١٤٠٦ - ١٤٣٥ م) جاءت من أولغ بيك
عدة سفارات مع الهدايا الى ملك الصين في سنة ١٤٢٦ و ١٤٢٧ و ١٤٢٨
و ١٤٢٩ و ١٤٣٠ و ١٤٣١ و ١٤٣٣ م . ولكل مرة من هذه السفارات رد
بالهبة من الامبراطور . صوان جونغ .

وقيل أن الهبة التى بعثها أولغ بيك في سنة ١٤٣٩ م . جاءت بحراد شى غرة
في الجبين والجحافل فاستغربه الامبراطور وأمر بتصويره . وأكرم
لذلك ، السفير الذى أتى به اليه وبالغ في الاكرام . وفي سنة ١٤٤٠ م ، أرسل
امبراطور الصين رسالة الى السلطان أولغ كورخان يقول فيها : إنك سلطان يحكم
في القرب القاصى ويقدم الانارة والمخارج بدون توقف ولا اقطاع . وأنه
لمستحسن عندي . فلذا أنعم عليك وعلى زوجتك وأولادك على أبدى السفراء
العائدين اليك ، بملحقات من ثياب الحرير ، تهديرا لمنزلك عندي . فأرسل مع

هذه الخلفاء بعض المدعووات الذميمة والعنيفة والزجر جديدا وعصا نفس عليها رأس التنين، وأعلى نوع من لـ روح والحرير المثلث^(١)

وبناء على رأى الاستاذ بلوش، قد وردت بعد هذه، عدة سفارات من سمرفند في سنوات ١١٩٥ و ٤٠٦ و ١١٩٤ م. ولقد تلقى الامبراطور دايج جونج، وفدا آخر ولعله هو الآخر الذى أرسله أولغ بيك إلى الصين^(٢)

ويشهد تاريخ الصين في عهد منغ، أن السلطان أبا سعيد الذى كان يحكم سمرفند، بعد أولغ بيك، بعث سفارات عديدة إلى الصين في عهد دايج جونج، (١٢٥٠ - ١٢٦٢ م) وفي عهد شيايغ جونج، (١٢٦٥ - ١٢٨٦ م) وكان أول الوفود منه في سنة ١٢٥٦ م. ولقد نكح تاريخ الصين عن هذه السفارة بما يأتي: «ورد السمراء من سمرفند في سنة ١٢٥١ م، لتقديم الخيول والابل والاحجار الكريمة فقال أمير التشريعات أن النظام القديم في القصر يفرض أوفر الإتاوات لسمراء وأما الآن فوصفوا الدرجات في الانعام من الناس من يستحق الدرجة الأولى من الانعام مثل السمراء ووكلائهم. ثم انعام كما كان لهم في الأيام الماضية. والذين يستحقون الدرجة الثالثة من الانعام، فلهم ثلاث قطع من سندس وأربعة ثياب من الكتان، وثوب من الحرير المذهب، وأما أتباع السمارة والخدام فلهم ثوب على حسب درجاتهم. وأما الانعام في مقابل الحيوان، فمن كل فرس أرغماكي (Argamak) أربعة ثياب من الكتان وثمانية قطع من سندس وعن كل ثلاثة إبل، عشرة قطع من زربفت، وعن كل خيل تاتاري على اختلاف درجاتها، ثوب من الحرير وثمان قطع من زربفت. وأما الزمرد فله ما يصلح للاستعمال ومنه ما لا يصلح لذلك. فوجدت عندهم ٢٤ قطعة من الزمرد صالحة للاستعمال ونحوه وذهبا ٦٨ رطلا^(٣) والباقي لا يصلح للاستعمال وهي ٥٩٠٠ رطل. وقلت لهم: أرجعوا بها إلى بلادكم. غير أنهم

(1) Ancient China's Relation With Turkistan, p. 530

(2) Blechet : p. 267

(١) الرطل الصينى يساوى رطلا عربيا وربعاه

أصروا على تقديمها إلى الملك . فلذا أتمسك الإذن من الـدة العالية بإصدار حكم فيما يتعلق بالانعام بثوب من ذريرت عن كل خمسة أوطال من الزمرد . ترجع السفراء وأرسل امبراطور الصين على أيديهم ، هدايا فادرة إلى إين سـعيد^(١)

من هذا البيان نفهم أن السفراء الذين جاءوا من صمرقند باسم تقديم الحراج أو الهدايا إلى الامبراطور ، هم التجار في الحقيقة ، ولا يريدون إلا كسب المال بتناحرهم . لكن الامبراطور كان على كل حال يقتبط بذلك الهدايا التي قدمت من قبل السلاطين بآسيا الوسطى فرأى نوعا من الحراج وإن كانت المعارضة تتطلب في نظره هذه الهدايا ، ما يساوى أكثر من القيمة الأصلية . فلذلك نرى أنه لم يعمل من رد السفارة وانعام بخلفة على المهادين ، ففي سنة ١٤٥٠ م . بعث الامبراطور سفيره . ما يون . وكان مسلما ، كما يظهر من اسمه ، إلى ديار الغرب . وكلفه بالانعام بخلفة على السلطان موسى كما كانت العادة في رد السفار في تلك الأيام ، وأما السلطان أحمد أو سعيد فأرسل أيضا عدة سفارات إلى بكين منها ثلاثة في عهد جنغ خوا . (١٤٦٥ - ١٤٨٦ م) ، في سنوات ١٤٧٨ و ١٤٨٠ و ١٤٨٣ . لقد روى في تاريخ الصين أن في مرافقة سفارة السلطان أحمد التي جاءت إلى الصين في سنة ١٤٨٣ م وفد من أصفهان وكان معهم أسندان ، مدينة إلى الامبراطور ، فلما وصل إلى مدينة (سوچو Su- Chow) بقانصو ، طلبوا من الامبراطور أن يعث وزيراً من الوزراء الكبار للاستقبال . فاستنكر ذلك أمير من الأمراء اسمه (لوبون Lu- Yun) واعترض على أن الأسد حيوان غير مفيد ، لأنه لا يجوز الاقربان في المعابد والمياكل ، ولا يجوز الركوب كالحيل والابل واخير ، ظنير الامبراطور ألا يقبل هدية مثل هذه . وأكد ذلك أمين التشرفات قائلا — أن الاستقبال للأسود خارج عن العرف العام والعادة المتبعة ، لكن الامبراطور لم يسمع كلامهما . فقبل من وفد أصفهان الاسدين . فكان بأكل كل

(١) علاقة الصين القديمة بتركستان : ص ٥٣٠

واحد منهما غنيا وعظيما من المال وعظيما من السمز وقارورة من الخل يوميا
وأما مربى الأسود فهو يهوان له وزق خاص من خزانة الدولة.

والسفارات الأخرى من السلطان أحمد كانت في سنوات ١٤٨٨ و ١٤٨٩
و ١٤٩٠ و ١٤٩١ م. وقد ذكر الأستاذ بلوشه كل هذه في مقدمته. وإذا
نظرت إلى ما جاء في «علاقة الصين القديمة بتركستان»، ترى بعض التفاصيل عن
بضع سفارات أخرى من البلاد الإسلامية المختلفة بآسيا الوسطى إلى الصين، منها
ما جاء من مالاقه (Malacca) في سنة ١٤٨٩ م ومنها ما جاء من طرغان في سنة
١٥٣٣ م ومنها ما جاء من سمرقند في سنة ١٥٣٦ م

وأما السلطان علي ميرزا الذي قتل في سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م، بيد محمد
خان الشيباني، فقد بعث وفدا أيضا إلى بكين ووصل إليها، كما ورد في مقدمة
الأستاذ بلوشه، في سنة ١٤٩٩ م.

إنما العلاقة بين بكين وعواصم ما وراء النهر، كانت تجري على نصائها في زمن
الشيبانيين وهم فرع من بيت جنكيزخان: عن شيان خان بن جوجي خان. قد
استقلوا آل تيمور من السيادة، حتى اضطروا ظمير الدين بابر إلى ترك وطنه
وركوب الخطر إلى الهند، ليبحث عن سخطه هناك وكان من مولاة محمد خان الشيباني
الذي أرسل خمس سفارات إلى بكين في سنوات ١٥٠٣ و ١٥٠٤ و ١٥٠٨
و ١٥٠٩ و ١٥١٠ م. وبعث بعد ذلك وفدا قوش كوني أربعة سفارات تحمل
الهدايا إلى ابن السلاطنة في الصين في سنوات ١٥١٥ و ١٥١٩ و ١٥٢٣ و ١٥٢٩ م
وكانت الأوليان في آخر عهد «وو جونغ» (١٥٠٦ - ١٥٢١ م) والآخران
في أول عهد «سى جونغ» (١٥٢٢ - ١٥٦٦ م).

تاريخ الصين لا يزال يذكر وصول السفراء مما وراء النهر. فنلا الوفد
الذي بعثه السلطان سكندر فوصلوا إلى بكين في سنة ١٥٨٣ م، ووفد آخر من

سمرقند بعد زوال الشيبانيين إلى أميراطور الصين في سنة ١٦٦٨ م ، ليرفموا اليه
بمين الولاء عن الأمير جنيد أمام كول .

انصل ملوك (منغ) من الناحية الدبلوماسية ، بسلاطين المسلمين في الممالك
الساحلية بالشرق من قارة آسيا ، منهم سلطان جاوة ، و سلطان بورنيو ، و سلطان
سماطرة ، و كان المسلمون في الهند يشتركون في إرسال الوفود إلى بكين ، و يذكر
تاريخ الصين عن ورود السفارة من سنال (الهند) برئاسة سيف الدين في سنة
١١٤٤ م ^(١) . و كان على عرش الصين في ذلك الوقت ، الامبراطور (جينغ جو)
و هو الذي سافر في عهده الحاج المجهل إلى جزائر جاوة و سواحل الهند و بلاد
العرب و هو ان شرق أفريقيا مرات عديدة للأغراض السياسية و التجارية .
و نقل هنا بعض ما جاء في المصدر الصيني عن هذه الوقائع المهمة .

لا يخفى على القراء ، أن العلاقة الدبلوماسية التي كانت موجودة بين ملوك
الصين و الخلفاء و عمال العرب في الولايات المختلفة بآسيا الوسطى ، قد انقطعت
عند سقوط بغداد و زوال الدولة العباسية ، فالغول الذين ظهروا في القرون
اللاحقة بعد دخول أكثر أمراءهم في دين الاسلام حلوا على العرب في السياسة
الإسلامية خصوصا في قارة آسيا من أقصاها إلى قصاها ، فلا ترى من حينذاك
علاقة الصين الدبلوماسية إلا بسلاطين المغول فطانت قوية موثقة بالعلاقة الجنسية
حتى زوال الشيبانيين في القرن السادس عشر ميلادي . لكن ملوك (منغ) الذين
قد أخرجوا آل قبلاي خان من ديار الصين - و لو أنهم كانوا يرون من المصلحة
أن يبقوا علاقاتهم بأمراء المغول من آل تيمور في بلاد تركستان و خراسان - لم
يقلدوا في سياستهم الخارجية ، خطوات قبلاي خان و أنهم يحصر الرابطة السياسية
في أبناء الدم و الجنس بل خرجوا على هذا التقليد و استأنفوا سياستهم الخارجية
تبادلة السفراء بينهم و بين أمراء العرب في البلاد الساحلية في خليج فارس و البحر

الأحر فأرسلوا سفراءهم إلى الإمارات التي يبلاد العرب مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وخطار واحد ، ، وعدن وإلى التي أقامها بسواحل شرق أفريقيا ، كعصر ومقدشو وبرابرة وبلاد السرمال وأشهرها كان في سنة ١٤٢٠ م تحت رياسة الحاج جهان .

وأما الحاج جهان فكان أحد الرعايا المسلمين المقربين إلى ملوك منغ ، ومن أعلام الدولة الذين كانوا يرفقون سيادة الصين على البلاد الساحلية المجاورة لها بين بحر الصين والمحيط الهندي ويكفيك في معرفة شخصية هذا الزعيم أن الصين تغتخر بوجوده في تاريخها باعتبار أنه أكبر البحارين الذين أنجبته الصين منذ فجر تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادي . لقد أتوا خدمات جليلة للصين خصوصا فيما يتعلق بالعلاقات الدولية في ذلك الوقت . وبها نال هو مقام محمودا عند الصينيين . وأما اسمه فيذكر في التاريخ والأدب كما يذكر في القصص والروايات . ويظهر أنه عربي الأصل ، نوح أجداده في زمن قبلاي خان من بخارى إلى بونان ، التي كان السيد الأجل وأولاده يحكمونها مدة طويلة . وأما تاريخ الانساب الصينية ، فنسب إلى عائلة (ما) ، وكلمة (ما) التي أصبحت اسمها رسميا لكثير من عائلات المسلمين في الصين اليوم ، ليست إلا محرقة من محمود ، أو من ، أحد ، أو من ، محمد ، وأعتقد أنه من أولاد محمود ، أحد أولاد السيد الأجل السابق الذكر . وأما حياته فموضوع البحث والتحقيق . ونود أن نكتب فصلا خاصا عنه في تاريخ الإسلام في الصين فيما بعد ، إن شاء الله تعالى . لقد سافر هذا الزعيم المسلم إلى البلاد الساحلية في جزائر جاوة والملايو وطلب قارس ، أكثر من مرة . والذي يهنا هنا ، من أسفاره ، هو سفره إلى مكة في سنة ١٤٣٠ م . وكان قبل هذا ، قد سافر مرة إلى هرمز في سنة ١٤١٧ م ، بصفته سفيرا من قبل الامبراطور ، جينج جونغ إلى صاحبها في سنة ١٤١٧ م ^(١) غير أن سفره في سنة ١٤٣٠ م ، كان في تجديد العلاقة التي كانت بين العرب والصين

(١) الدراسة عن تاريخ الإسلام في الصين للاستاذ جين كينانغ - ص ١٥٦

في عصور (نائع) و (سونغ) ، والتي قد قطعها منها ، حكم المقول على أرض آسيا .

فوصل الحاج جهان أولا إلى مدينة كولم ببلابار . فلما سمع أن كثيرا من التجار يسافرون إلى مكة المكرمة ، التي على مسافة أربعين يوما من هرمز ، كما ذكرها تاريخ (منغ) . تحرك شوقه إلى زيارة مكة في مركب من سراكب التجار ومضى في ذلك سنة في الذهاب والآياب . فماد بالعجائب والوارد من أحجار كريمة وقروح كركدن وأسود وذهاب . وكان معه مغير من أمير مكة . فأقام في الصين حتى سنة ١٤٣٦ م فرجع في مراقة سفراء جارة ، مع الهدايا من امبراطور الصين إلى أميرها . ثم ذكر أن أمير مكة قد بعث ولده السيد علي ، وسفيره السيد حسن ، إلى الصين فوصلوا عن طريق البر إلى فراخواجه^(١) حيث لقيا عصابة من القراصنة هجمت عليهما فخرج السيد علي في يده نيتي ، وقتل السيد حسن . وأما أموالها فنهبت . وأما التحقيقات التي أجراها حكام تلك الولاية بأمر الامبراطور فلم تأت بنتيجة مقبلة فذهب دم السيد حسن هدرا .

ويظهر من تاريخ الصين أن بعض حكام الصين قد عاملوا سفراء العرب أسوأ معاملة . فلذلك يذكر أن مسلما من العرب ، اسمه علي ، عزم على السفر إلى يوتنان . باحثا عن أخيه فادر الذي استوطن الصين أكثر من أربعين سنة ولم يعد . فشد رساله حتى وصل إلى مالاقه . ثم ركب موكبا لتاجر منها إلى الصين ، فاصدا بالماصمة لتقديم بعض الهدايا وبعد وصوله إلى كاتون ، صادر وكيل الجرك مناعه . فاشتكى إلى الامبراطور بالماصمة . فأمر أمين التشرفات أن يقدر أثمان الهدايا المصادرة بجازاء بالنقد ثمويضا فأذن له أن يدخل بلاد يوتنان ويبحث عن أخيه هناك . لكن وكيل الجرك المذكور الذي خاف من غضب الامبراطور عليه ادعى على

(١) ومدينة قرية بطرفان بتركستان

على جموعة رجال الفهر فرحاه بتهمة الدسيسة في بلاد الصين لأيقن الامبراطور بكلاهما وأمر باخراج على من الصين^(١).

ولا نظن أن هذا الواقع غير صحيح وإلا فلم لم يأت مؤلف ، علاقة الصين القديمة بالعرب ، ببعض التملقات عليه تركه تاما كما وجده في تاريخ (منغ) في الفصل الذي جاء فيه الحديث عن العرب ، لكن على كل حال قد وقع مثل هذا الحادث من حاكم يطمع في أموال السفراء فاعتدى عليه ثم اقضى عليه بأقارب لا صحة فيها مطلقا

غير أن العلاقة الدبلوماسية كانت باقية على حالها ولم تتأثر بمثل هذا الحادث .
فلذلك نجد أن تاريخ الصين لم يزل يذكر ورود السفارة من قبل السلطان أحمد مع بعثة من ممرقند وطرفان في سنة ١٤٩٠ م ، أتت بالخيول والابل والعقيق ، هدية الى الامبراطور . ففي سنة ١٥٠٩ م ، أمر الامبراطور بعد استشارة رئيس مربي الخيول ، حاكم ولاية قانسوان يبحث له عن خيار الجياد . فسأل الواردين من العرب . فقالوا : ان الخيول الفائقة من إنتاج العرب . فنشر مشورا يبحث على استيراد الخيول العربية وقد قيل أن سفيرا قد أرسل الى الممالك التي بما وراء النهر ، ليبحث العناية بين أمرائها بأن يبعثوا الجياد ، ان عزموا على إرسال هدية الى امبراطور الصين . ويظهر أن الخيول العربية قد بعثت من ملوك العرب أيضا ، لان التاريخ يذكر أن الشريف بركت الذي كان يحكم مكة المكرمة من سنة ١٤٩٧ م وتوفي في سنة ١٥٢٤ م^(٢) ، قد بعث الهدايا المسكونة من الخيول والابل والصوف والمرجان والاحجار الكريمة ، وسكاكين مصنوعة من عظام الاسماك ، الى امبراطور الصين في سنة ١٥١٨ م وهو - وو - جونج . فرد الهدايا بخطة عليها صرة اثنتين المصنوعة من خيوط الذهب ، والمسلك والالوان الفضية والذهبية . واذا ألقيت نظرة الى ما جاء في علاقة الصين القديمة بالعرب ، للاستاذ

(1) Ancient China's Relation Whith the Arabs. P. 304

(2) Wustenfild: Geschichte der Stadt Mecca 1861.

• جانغ سين لانغ ، في جامعة بوزيت (بكين) ، نجد تفصيلا يزيد عما ذكرناه هنا من سفارات العرب الى الصين وبناء عليه ، سفارات العرب قد وردت الى الصين من قبل أمم مكة في سنة ١٥٢٥ م وفي سنة ١٥٣٢ م وفي سنة ٥٠٣ م وكانت معهم في المرتين الآخرين سفارات من أمارات اسلامية بما وراء النهر وتركستان وسمرقند وحامى ، ومن الروم أيضا . غير أننا لا نجد التصديق على هذه الأقوال من المصادر العربية ولا من المصادر الأخرى ثم لم نعد على كتاب يذكر فيه تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب للقرن الذى نتكلم فيه الآن ، ولا عن القرون التى بعد هذا . غير البيان الذى وجدناه في عدة كتب صينية ، للمؤلفين الذين عاشوا في عصر (منغ) ، يصدق على أحوان مكة المكرمة من أكثر النواحي فثلا يقول : أن المسافة بينها وبين هرمز ، تكون أربعين يوما وليلة في البحر وقد قيل أن طريق البر مفتوح ، بين مكة والصين لكنه يحتاج الى سنة كاملة في قطعه . فالجوفى مكة في الفصول الأربعة مثل أيام الصيف ورجالها يحبون حلق رؤوسهم وليس العمامم ولناؤهم يعملان الضعائر من أشعارهن ويلبفنها على رؤوسهن ويسترن وجوههن بالحجاب حتى لا تراهن أعين الأجانب ، إن خرجن من بيوتهن .

أما انتم قلعة غربية واخر عندهم محظور وفي مكة مسجد سموه كبة ، حرمها المسجد الحرام في شكل قلعة لها ١٦٦ باب . وللكبة خمس عوارض مصنوعة من أطيب الأشجار وأرضها مفرشة بالعقيق الأصفر وجدرها ترش يوميا بماء الورد والكندر فالروائح الزكية تفوح منها دائما ، وأما البلاط ففيه ٤٦٧ سارية ^(١) من المرمر ، تسع وتسعون منها في الجناح الأمامى ، و ١٠٩ في الجناح الخلفى و ١٣٢ في الجناح الشمالى و ١٣٥ في الجناح اليمى . وأما الكبة فلها ستائر من حرير موركش بخيوط الذهب ، يلبسها في موسم الحج الذى يكون مرة واحدة في كل سنة وذلك في اليوم العاشر من الشهر الثانى عشر في تقويمهم ^(٢) ، وبمكة يترقال له

(١) يقول ابن بطوطة — في المسجد الحرام ٤٩١ سارية

(٢) علاقة الصين القديمة بالعرب — ص ٣٠٩ و ٣١١

وهمزم ، فالحجاج الذين يحيتون إلى مكة يشربون من هذا البئر ويقدمون ماءه ، وهذه هي البلدة التي زارها الحجاج جهان في عهد (صوان ته Sunn- Teh)^(١)

ولم يقصر تاريخ الصين لهذا العصر على ذكر علاقة مكة بالصين بل ذكر أيضا علاقات المدينة بها أيضا ، وقد أرسلت سفيرا إلى الصين في عهد (صوان ته) مع سفراء مكة وعن هذه السفارة ، جاء في علاقة الصين القديمة بالعرب ما يأتي : أن المدينة موطن الاسلام ، وهي قرية من مكة ، وفي عهد (صوان ته) ، بعث أميرها سفيرا إلى الصين ووصل مع سفراء مكة ثم انقطعت السفارة بينها وبين الصين^(٢) وبعد هذه الكلمات يذهب تاريخ منغ إلى الكشف عن تاريخ الاسلام وحياة النبي (ص) في المدينة ومادات المسلمين فيها .

وأما بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فالبالدان التي كانت لها علاقة دبلوماسية بالصين في القرن الخامس عشر للميلاد ، هي إمارة ظفار ، واحساء وعدن . وقد ذكر تاريخ الصين هذه البلدان في مواضع عديدة ومن المعلوم أن عدن كانت مركزا للتجارة بين البحر الأبيض والمحيط الهندي .

فالمرآكب الصينية التي كانت ترد إلى سواحل الهند تبحر أحيانا إلى عدن أيضا لتأخذ البضائع التي جاءت من مصر ومن البلدان الأخرى التي على سواحل البحر الأبيض . فعلاقتها بالصين إذن كانت من قديم العهد ، (إلا أن هذه العلاقة قد ترقصت في عهد منغ إلى درجة لم تصل إليها من قبل

فلذلك نجد معلومات وافرة في الكتب الصينية عن عدن لهذا العهد . وأكثرها في حاصلاتها ، وبعضها في أحوالها وعاداتها ، وبعض آخر في علاقتها بالصين ، واليك ما تمس الحاجة إليه . يقول تاريخ منغ في الجزء ٣٢٦ .

-
- (١) كان ذلك بين ١١٢٦ و ١١٣٥ م . سافر الحجاج جهان إليها مع سبعة أمراء أخذوا معهم المسك والزعافر والحرير في مركب صيني إلى صاحب مكة فعاد بعد سنة مع الأحجار الكريمة والمركردن ورسم للكعبة
- (٢) علاقة الصين القديمة للعرب — ص ٣١٣ و ٣١٥

إن عدن بلدة بغرب كولم ، منها الى عدن في البحر ، إذا كانت الريح في موافقة
السم ، عشرين يوما و ليلة وهي البلدة التي بعث صاحبها وقد ا الى الصين في سنة
١٤١٦ م ، جاوا بمحاصلاتها ، هدية الى الامبراطور فرد سفارتها بارسال الحاج
جهان إليها . ثم وردت منها أربع سفارات أخرى فأكرمها الامبراطور . ففي سنة
١٤٣٠ م ، أمر الامبراطور ، الحاج جهان ، أن يركب البحر للمرة الثانية الى
الغرب . لأن الممالك التي ما قد قطعت ارسال الهدايا الى الصين منذ سنوات .
فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور وكانت عدن من البلدان التي وصل إليها في
هذا السفر . فبعث أمير عدن وهو الملك نصر ، سفارة الى الصين وكانت تحمل
حاصلات بلدها فوصلت الى العاصمة في سنة ١٤٢٢ م ومكثت بها ثلاث سنوات
ثم عادت في سنة ١٤٣٦ م

فعدن مدينة كثيرة المنطة والشمير ، وسماها أقوياء الاجسام وفيها نحو ٨٠٠٠
جندي من المشاة والفرسان والركبان . تخاف منها الممالك المجاورة لها . فالامير
والرعايا كلهم يدينون بدين الاسلام ، وملكها يحظم الصين كثيرا حتى خرج مع
عساكره لاستقبال الحاج جهان ، عندما سمع أنه قادم سفيرا للصين وشرقه بمقابلة
شخصية فرخص لكل أمير من الامراء أو تاجر من التجار من وطياه ، أن يخرج
ما عنده من النفائس والنواذر في مبادلة ما عند الحاج جهان من البضائع والامتنع
واقعد سافر أمير من أمراء الصين وهو من عائلة تشو (Chow) الى عدن في
سنة ١٤٢١ م ، لحصل في سوقها عين الهرمة ، بلغ وزنها مثقالين ومرجانا بلغ علوه
ذراعين . فرجع بهما والأشياء الأخرى التادرة كاللؤلؤ . والياقوتة مختلفة
الالوان ، والزرافات والأسود والقهود المنجمة الاجسام ، والتمام والكراكي .
وكانت هذه الأشياء في البلاد الأخرى ، لا تبلغ ما في عدن ، من نفاسة وبذاعة
ويوجد في أرضها فواكه مختلفة الأنواع : وأنعام مختلفة الجنس ، ألا الاوز
والخنزير . وفي سوقها تجار في الكتب ومصانع للاراي الفنية والدمية . وقد

(١) لأول مرة بعد ذكر الياقوت في الكتب الصينية بكلمتها الأصلية

قيل أن الإمبراطور (سي جونج) Hui - Chung كان يحب أن يعمل الخواتم من العقيق الأحمر والأصفر. فأمر بإتباعه. وقيل له إن هذا النوع من العقيق لا يوجد إلا في عدن. وإذا كان صاحب العرش يحب اقتنائه فيجب أن يخطر خطوة السابقين بإرسال سفارة تحمل الهدايا إلى صاحبها وتشتري منها ما يريد من العقاقير فأصنى الإمبراطور إلى كلام القائل ونفذ ما أشار به.

ونكتفي بهذه الإشارات إلى تلك العلاقة النيرة التي كانت بين الصين وعدن من الناحية الدبلوماسية في عهد منج، وإن هناك بياناً مفصلاً في كتاب الأستاذ جونغ شين لانج. ويتوعد ست صفحات مع التعليل عليها، فمن طامع في المزيد من العلم فلا مانع أن يراجعها ويأخذ منها ما يريد.

وأما علاقة ظفار بالصين فتجد الحديث عنها في المصادر الصينية التي جاء فيها الحديث عن عدن وهي تاريخ منج، وسفارات الممالك الغربية، وهـ وانج منج سيفالو، وهـ مذكرة عن قانون وانج منج، وحاصل ما ورد في هذه المصادر عن علاقة ظفار بالصين، هو أن بلاد ظفار، يصل إليها المركب من كولم في عشرة أيام بلياليها، إذا كانت الريح مواتية والجو صحو، ولقد أرسل صاحبها وفدًا في سنة ١١٢١ م، مع وفد إسماء، وعدن إلى الصين. فأمر الإمبراطور الحاج جهان أن يسافر إليها، رداً على وفدها. ففي سنة ١١٢٣ م. جاء وفد منها للمرة الثانية، فرد الإمبراطور على هذا الوفد في سنة ١١٢٣ م. بأن يرث الحاج جهان إليها مرة أخرى وكان صاحب ظفار على قد أرسل سفارته إلى الصين للمرة الثالثة، فوصلت إلى العاصمة في سنة ١١٣٣ م، وأقام بها ثلاث سنوات، فرجع في سنة ١١٣٦ م، تحمل هدايا الإمبراطور إلى صاحب ظفار.

لقد وصفت هذه المصادر بلاد ظفار، (بالياتي) — أن هذه البلاد بشرقها وجنوبها بحر عظيم وبشمالها وغربها جبال سلسلة، وجوها في الفصول الأربع، مثل ما في الشهرين الثامن والتاسع في الصين، فيها مختلف الأنواع من الحبوب والفواكه وجميع الأنواع من البهائم والافعام، وأهلها شديدو البأس وأميرها

ورعاياها كلهم يدينون بدين الاسلام . وتوجد بها مساجد كثيرة وتعمل الاضاحى يوم الجمعة ، وعندئذ تغفل الاسواق ، فيقتل الاموال ، كبيرهم وصغيرهم جميعا ، ويلبسون الملابس النظيفة ويتعطرون ثم يذهبون إلى الصلاة ، وفي الايام العادية يبادلون نجار الصين بالكندر والفاطر والكافور وغيرها من البضائع ، وعندهم نقاعة شكلها شكل الطاووس رجلها يبلغ ثلاث أو أربع أقدام ، ولون ريشها مثل لون الورير ومشيا مثل مشية الناقة ، ويبادلون الامبراطور بها أحيانا (١) .

ويظهر من المصدر الصينى أن أحساء أيضا من البلاد التى كانت لها علاقة دبلوماسية بالصين وقد بعثت سفارة اليها فى عصر منغ ، فى الصين التى جاءت الوفود فيها من ظفار وعدن ، وقد وجدنا فى الجزء ٢٢٦ من تاريخ منغ ، بعض الكلمات عن هذه العلاقات ، حيث يقول : أن بلاد أحساء يصلها المركب فى عشرين يوما وليلة من كولم فى طيب الهواء وعدو الريح ، لقد بعثت سفارتها الأولى إلى الصين فى سنة ١١١٦ م ، فأمر الامبراطور رد هذه السفارة بإرسال الحاج جهان اليها ، ثم جاءت منها سفارات مع التى وردت من عدن وبرأوة (٢) ، فصار الحاج جهان اليها للمرة الثانية ، ثم انقطعت السفارة منها وانقطع رسم التهادى بينهم وبين الصين ، وأن هذه البلاد تقع على شاطئ البحر ، جوها دائم الحر ، وأرضها جعدة لا تصلح للحث ولا لزروع ، والمطر فيها قليل ولا يوجد فيها خضرافات . لكن يوجد بها الكندر والكافور والابل والحراف . وأهلها يصيدون الاسماك فى البحر . وكان أميرها قد سمع عن الصين وعيت أميراطورها : فهاذه بحاصلات بلاده ، فلما جبر عنهم ، هى القضة والذهب والفلفل والورد . ويبادلون بها حمرير الصين وغارما والأرز وغيرها مما يحتاجون اليه (٣) .

كانت هناك علاقة دبلوماسية بين الصين وبين بعض ممالك إسلامية بأفريقيا .

(١) تاريخ منغ — فصل الممالك الأجنبية

(٢) بلدة فى شرق أفريقيا

(٣) علاقة الصين القديمة بالعرب ص ٢٢٨

قد بدأت بمصر في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر من الميلاد، إذ كانت الصين لا تزال تحت حكم المغول من آل قلاي خان، وأما مصر في هذا الوقت، كانت في أيدي المماليك. وعندنا شهادات كثيرة تدل على هذه العلاقة، فقطع المنسوجات الحريرية التي وجدناها في دار الآثار العربية بالقاهرة، تحت أرقام ٢٢٢٤ و ٢٢٢٦ و ٢٢١٧، تنطق بوجود علاقة متينة بين الصين ومصر. وإنى لا أعتقد أن هذا النوع من المنسوجات الحريرية، من مصنوعات مصر وحدها، فيها صناعة الصين. وإذا كان الأمر على خلاف ما نعتقد، فأنتا نجد كثيرا من أمثالها في المتاحف ودور الآثار. وقلة وجودها في المتاحف الأثرية تشهد بأن هذه الصناعة كانت إما من تركستان، وإما من الصين، ولقد صنعها أمراء المغول خاصة لمساعدة السلطان محمد قلاوون، الذي نسج اسمه في هذه القطع من الحرير. ومن المعلوم أن الحرير الصيني كان من الهدايا الرئيسية التي أهداها أمراء طور الصين إلى ملوك الإسلام في العصور المختلفة. فلا عجب إذن أن أمراء المغول قد صنعوا بعض القطع الخاصة من الحرير فأرسلوها هدية إلى السلطان محمد قلاوون، فلذلك ترى قطعة من الحرير الذي تحت رقم ٢٢٢٦ في سجل دار الآثار العربية جامات صينية، في بعضها نسج بالحروف العربية: ناصر الدنيا والدين محمد قلاوون. وفي بعض آخر: عز أمراءنا السلطان الملك الناصر. وأقوى دليل على أنها ليست من منسوجات مصر هو الحروف الصينية التي تراها في قطعتين تحت رقم ٢٢٢٥ و ٢٢٢٧. ففسحها أولوا الأمر في الدار إلى الكوفية خطأ، لاسم يرونها تشابه الكوفية إلى حد كبير. فعندئذ أصدروا حكمهم بأنها من الخط الكوفي. وأما الحقيقة فالكلمة التي في قطعة ٢٢٢٥ هي كلمة صينية معناها: سعادة مكررة. والتي في قطعة ٢٢٢٧ هي كلمة صينية أيضا يراد بها طول العمر. إلا أنها كتبتا بطريقة قديمة تشبه الطريقة الكوفية من ناحية الكتابة. فلم يميزوا ما وقعوا في الخطأ في تعاريفهم العملية فيما يتعلق بهذه القطع من المنسوجات الأثرية.

ثم هناك أربع أوان كبيرة نستطيع أن نسميها: ففغوري، وهو أحسن وأجود من الفخار أو الفخار في مقابلة كلمة Celadon الإنجليزية، مخفوفة في دار الآثار العربية. نجد فيها أدلة واضحة على علاقة الصين بمصر في العرون

الوسطى . فإن هذه الأواني الأربع من صناعة الصين القديمة ، وجدت بجامع السلطان حسن وهي موضوعة الآن في دولايب في القاعة الثالثة عشرة من الدار تحت أرقام من ١٠٣٩ إلى ١٠٤٣ ^(١)

فالحقيقة أن سلاطين المماليك كانت لهم علاقة وثيقة بأمراء المغول في الصين . ويرى الأستاذ بلوشه أن سلاطين المماليك كانوا يستخدمون الأمراء للصينيين في بلاطهم وكلعته هكذا باللغة الإنجليزية

« In the 14th century in Egypt at the Court of the Mamluke Sultans of Cairo, a Manchu General, Khitai by origin, could write an excellent and remarkable history in a style of great refinement. »

وإذا بحثنا في المصادر الصينية ، وجدنا فيها الحديث أيضا عن هذه العلاقة . ولقد ذكر تاريخ منغ في الجزء ٢٢٢ . أن ملكة مصر ، كانت ترسل سفراءها إلى الصين في عهد الإمبراطور ، يونلوى ، (١٤٠٣ - ١٤٢٤ م) ، فكانوا يقابلون بحفارة وإكرام وفي كل محطة من المحطات بأرض الصين ، فالحفارة التي وردت إلى الصين في سنة ١٤٤٦ م ، كانت من قبل السلطان أشرف برسباي الذي حكم على الشام ومصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، فهداه الإمبراطور ، مانغ جونغ ، جميع الأنواع من الحرير ، بها الاسمونه ، شالو ، ومنا (بامر) وأرسل أيضا هدايا إلى الأمراء والأميرات من الإمارة الحاكمة بمصر وكانت الهدايا تختلف على اختلاف درجات المسمى ^(٢) ولقد عرفت عما تقدم علاقة الصين بمصر في عهد منغ . غير أن هذه العلاقة لم تنحصر في هذه المملكة من إقليم أفريقيا بل اتسعت إلى البلدان الأخرى ، مثلا مقدشو ، وبراون والجيب Jubba بشرق أفريقيا ففي تاريخ منغ بعض الحديث عن علاقة مقدشو بالصين فيما يلي أن بلاد مقدشو ،

(١) رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية للأستاذ حسن محمد الجواهرى ص ٨٤

(٢) يظهر أن بعض الأغلاط قد وقعت في تاريخ هذه السفارة ، لأن أشرف الدين برسباي قد توفي في سنة ٨٣١ هـ - ١٤٣٨ م . لكن من الممكن أن سفره قد غادر مصر قبل وفاته فوصل إلى الصين في سنة ٨٤٤ هـ

والسومال وغيرهما من ممالك أفريقيا ، قد أرسلت سفراها الى الصين في سنة ١٤١٦ م . فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور اليها مع سفرائها ردا لزيارتهم . فجاؤا وفودهم للمرة الثانية فأبحر الحاج جهان اليها مرة أخرى وحمل معه الهدايا الى أمراتهم ، ففي سنة ١٤٢٣ م . ودت وفودهم للمرة الثالثة فودعهم الامبراطور بحفاوة وإكرام . مع هدايا الى أمراتهم وأميراتهم . وأما مقدشو ، فيسلط أمامها بحر وعلمها جبال ، قليلة المطر والزراعة ، رجالها متحمسون ، يحبون الزمالة والفرسية ويطعمون أنعامهم الاسماك ، ولاغنياتهم مراكب التجارة يناجرون بها في البلاد البعيدة ، وحاصلاتها الابل والغنم ، والخيول والبقر والكافور والكندر وماجرهم الذهب والفضة والعود والبخار والارز . وأمراؤهم يحبون المعارف فيرسلون التحف الى امبراطور الصين^(١)

وأما براوة فهي بلدة تجاور مقدشو . قد بعثت الى الصين أربع سفارات في غضون سنوات بين ١٤١٦ و ١٤٢٣ . فقدموا مع سفراء مقدشو وهذا السبب سافر الحاج جهان اليها مرتين بأمر امبراطور الصين . ومرة ثالثة في سنة ١٤٢٠ م . وكانت هذه الاسفار كلها في رد سفارات براوة .

وأما السفارات التي جاءت من بلاد السومال والجب فوقعت أيضا في هذه السنوات . وكان الحاج جهان قد سافر اليها عدة مرات ردا لسفارتها ومن هذه الناحية كان الحاج جهان أكبر المسلمين البحريين الذين أنجبهم الصين وأعظم السفراء الصينيين إلى الممالك الاسلامية في المصور الماضية وبعد الحاج جهان انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب حتى القرن العشرين ، القرن الذي تنوع فيه أحوال العالم ، وتغير سلوك بلاد مع بلاد أخرى في الأمور السياسية والدبلوماسية بإنشاء القنصليات والمفوضيات والسفارات في البلاد الصديقة أو المهادنة ومع هذا التطور في الأمور الخارجية بقيت الصين منقطعة عن بلاد العرب من الناحية الدبلوماسية حتى الآن . ولا يعرف متى تأتي فرصة تسمح بإيجاد رابطة جديدة بين الصين والعرب حتى يتمارفا ويتصادقا كما كان في الأيام الماضية^(٢) .

(١) Ancient Chiua's Relation With Africa. P. 221-222.

الباب السابع

في العلاقة الصناعية والعلمية

ليس من السهل أن نتكلم في هذا الموضوع إلى حد يقع كل قارىء أو يرضى به كل طالب لأن المصادر التي نستطيع أن نراجعها ، أو نأخذ منها شيئاً من المعلومات ، قليلة جداً ، ومع قلتها لا نجد فيها إلا إشارة خفيفة في أكثر الأحيان لكن على كل حال أرى من الفائدة أن ألم بهذا الموضوع على قدر الطاقه واجبا أن ينهياً لأحد الباحثين في المستقبل ما لم ينهياً في فيشن الغليل ويطفىء الظلمة .

فالمراد بالعلاقة الصناعية ، يشمل المناطحات التي كانت من العيين فراحت في الممالك الإسلامية بوساطة العرب ، أو من العرب فراحت في الصين ، كما يشمل الأشياء التي قد صنعت في الصين لكنها متأثرة بالزخارف العربية والإسلامية أو في الممالك الإسلامية ، لكنها متأثرة من صناعة الصين الفنية . فالبحث إذن يحتوي على صناعة الورق وهي من العيين ، فأخذها المسلمون والعرب ، وعلى البارود ولعله من صناعة العرب ، فأخذتها الصين ، كما يحتوي على صناعة الفخار والحزف والمنسوجات الإسلامية التي ظهر فيها أثر الصين قليلاً كان أو كثيراً ، وصناعة البرنز الصيني الذي فيه أثر العرب والإسلام .

وأما العلاقة الفنية فكلامنا فيها يكون منحصراً في التصوير ، لأن الفنون الأخرى مثل الموسيقى وغيره ، لا نجد في عربيتها أثراً صينياً ولا في صينيتها أثراً عربياً أو إسلامياً . نعم ، نجد في العمارة علاقة فنية خفيفة ، نراها في محاريب مساجد الصين وفي مزارعها ، لكنها لا تثير الاهتمام إلى حد أنها تبحث في بحث خاص غير أننا نرى أن المحراب في مسجد كانتون مزخرف على الطراز العربي إلى حد يثير الإعجاب وقد يوجد

مثل هذا الخراب في المساجد الصينية الأخرى القديمة، لكننا لا نعرف حقيقةتها حتى الآن. غير أن هذه المسئلة تحتاج إلى بعض التحقيق وقد نقوم بهذا العمل في المستقبل القريب، إن شاء الله تعالى.

١ صناعة الورق بعد هذه الكلمة التمهيدية نذهب أولاً إلى البحث عن العلاقة الصناعية، وأول شيء يتناولته الكلام في هذا البحث هو الورق وهو بلا شك من صناعات الصين قد أخذها العرب في سمرقند، ثم روجرها في الممالك الإسلامية، فعملها منهم أهل أوروبا.

كان السور في ذلك على أرجح الشهادات التاريخية، أن العرب، كما عرفتم في باب العلاقة السياسية، قد قاتلوا الصينيين، الذين ذهبوا إلى مساعدة أمراء الأتراك خصوصاً آل أخشيد بفرغانة وسمرقند فهزمهم ثم مزجهم حتى أسروا منهم عدداً كبيراً. وذكر النعماني في «لطائف المعارف» أن أولئك الصينيين الذين وقوا أسارى في يد زياد بن صالح وكان قائداً لقوات العرب بما وراء النهر، علموا العرب صناعة الورق بسمرقند، وكان ذلك في سنة ٧٥٠ م.

أن تعلم العرب صناعة الورق من أهل الصين بسمرقند من الحقائق التاريخية التي يتفق عليها علماء الشرق والغرب على السواء، غير أن هناك، بعض الاختلافات في وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل هذه السنة، والكلام الذي وجدناه في «لطائف المعارف» النعماني يدل على أن مصنع الأوراق لم يكن موجوداً إلا بعد انهزام الجيوش الصينية أمام زياد بن صالح ووقوعهم أسارى في أيدي العرب في واقعة «نالاس» (٧٤٠ م) وكان من بين هؤلاء الأسارى من يعرف صناعة الورق، فعملوها العرب وأهل سمرقند فانتقلت موا إلى إيران ثم إلى مكة المكرمة. ومنها إلى صقلية ثم إلى أسبانيا وإلى أوروبا^(١) لكن الأستاذ غشتاف ليرن، صاحب «حضارة العرب» يعتقد وجوب مصنع الأوراق بسمرقند قبل فتح العرب لها، فلذلك يقول: «أن صناعة الورق كانت معروفة عند

(1) Legacy of Islam, P. 144.

الصينيين من قديم الزمان لهذه الصناعة قد أتت إلى سمرقند في القرن الأول الهجري . فلما فتحها العرب وجدوا فيها مصانع الأوراق^(١) واتفق معه الأستاذ (برنولد لوفر Berthold Laufer) باحث أمريكي مشهور ومتخصص في العلوم الصينية قال — أن الورق قد جلب إلى سمرقند من الصين لأول مرة في سنة ٦٥٠ م ، ثم في سنة ٧٧٧ م . فان ورق الصين كان معلوما في إيران إذ كانت تحت حكم آل السامان . غير أنها كانت تمتد من الصنائع الماهرة المخصصة لرسائل الدولة والملوك ، وإنما الرواية المشهورة تقول ان ورق الصين قد أورد إلى سمرقند في سنة ٧٥١ م ، وكان ذلك بواسطة الأسارى الصينيين ، وإلى مكة في ٨٣٧ م —
٢١٢ هـ ١٣١ .

وأمل هذه الرواية مبنية على ما ورد في لطائف المسافرين ، لأنه إلى وفي المسالك والممالك ، للجيون لكن الباحثين الآخرين يؤكدون ما قال الأستاذ لوفر ومنهم أ. د. جيون ، المؤرخ المعروف الشهير الذي قال على ما مش كتابه . انخراط الامبراطورية الرومانية وذوالها . ما يأتي . يوجد بيان غريب عن سمرقند في (Bibliotheca Aradio Hispan . tome I. P. 208 H. C.) ، استنادا إلى مقال مدير مكتب كاسيري ، الذي دوى مستندا إلى شهادة وثيقة . أن الورق قد ورد إلى سمرقند أولا في سنة ٤٣٠ م . ثم نقلت صناعته إلى مكة في سنة ٨٨٨ هـ — ٧٠٧ م . وفي مكتبة ألكسندريال ، توجد دفاتر أوراق ، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري^(٢) .

ولنا متشككين في قول الأستاذ جيون ، إذ قال أن صناعة الورق قد نقلت إلى مكة في سنة ٨٨٨ هـ — ٧٠٧ م . لأن نفوذ العرب الإسلامي إلى ما وراء النهر في عهد بني أمية ، خصوصا في زمن الوليد بن عبد الملك أرجح احتمالا فويا في

(١) تمدن عرب — ترجمة بلكرامجي ص ٥٤٣

(2) Sino-Iranica: «On Paper»

(3) Gibbon: il. P. 480.

نصدق هذا القول بعد ثبوت أن صناعتها قد عرفت في سمرقند قبل ٣٥ عاما لكننا نشك في قول الأستاذ كرد على حيث يدعى أن العرب كانوا يصنعون الورق بسمرقند في سنة ٦٥٠ م. بل نقول أن هذا محال، لأن هذه الصناعة لا يمكن أن تنحى إلى علم العرب إلا بعد ثبوتهم سياسيا إلى سمرقند، ومن المعلوم أن نفوذهم إلى أواسط آسيا قد توقف عند خراسان بعد الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين حتى زمن الوايد بن عبد الملك (٥٨٦ - ٧٠٥ م) وبناء على هذا أعتقد أن الأستاذ كرد على قد أخطأ في حكمه، بحجة أن بعض العلماء يذكرون ورود الورق من الصين إلى سمرقند في سنة ٦٥٠ م. وهذا القول في الحقيقة لا يقيد أن العرب قد مدرا أيديهم إلى هذه الصناعة وتلك السنة لأنهم لم يفتحوها إلا في آخر عهد الوايد بل يفيد الخبر عن انتشارها من الصين إلى سمرقند في سنة ٥٣٠ - ٦٥٠، وهذا هو ما قاله العلماء الآخرون. وأما معرفة العرب بهذه الصناعة فتلك ممكنة إذا فتحوا سمرقند، ولم يفتحوها إلا سنة ٧٦٦ - ٧٠٥ م.

فلما فتحها العرب، تعلموا هذه الصناعة من أهلها، ومن الظاهر أنها قد جاءت إلى علم المسلمين قبل واقعة نالاس بخمسين سنة على التقريب. وهذا هو رأى صاحب، نوات الاسلام، والأستاذ لوفر، وما وجدناه في جيون أيضا، يؤكد هذا الرأى، غير أننا لا نجد ما يؤيده في هذه النقطة من المصادر العربية، وما ورد في أطناف المعارف، يذهب بنا إلى (٥) سنة متأخرة، وأرجح قول الثعالبي على أقوال غيره، بسبب واقعة نالاس المعروفة في تاريخ آسيا الوسطى، وأما المصدر الصيني فقد اتفق مع الأستاذ الثعالبي في هذه النقطة.

والذى اخترع الورق هو تساي لون، على رواية مشهورة عند الصينيين وهو من أهل (هانغ جو)، عاش في القرن الأول للميلاد. وقد كثرت فيها أشجار التوت ويصنع من قشورها الورق. فصمت هذه الصناعة في بلاد الصين وانتفع أهلها بها. فلما حصل الاتصال السياسى بين الصين والعرب في آسيا الوسطى، تعلموها في سمرقند. ثم انتشرت سريرا إلى البلاد الإسلامية الأخرى

حتى قيل أن الورق كان يباع في سوق بغداد في سنة ٧٩٤ م — ١٧٨ هـ فيها سوق خاصة لهذه التجارة . وتوجد في متحف باريس بعض النماذج للأوراق المصنوعة ببغداد لذلك العهد ، عليها كلمات عربية ، وعلى قطعة منها حلول لمسائل رياضية . ويرجع تاريخ هذه القطعة الى سنة ١٧٠ هـ من صناعة شيراز . ويحفظ متحف لندن أيضا بعض نماذج من هذه الأوراق ^(١)

واقف جامدورق الصين الى علم المسلمين في شكل آخر ، غير ما ذكرناه . في شكل أوراق . ليه . ومن المعلوم أن الصينيين هم الاولون الذين قد أوجدوا أوراق المال . فنقلها المنقول الى إيران في سنة ١٢٩٤ م . فالأوراق المالية التي عملها الإيرانيون كانت على شاكلة ما عمما قبلای خان في الصين بلا أى فرق ، عليها حروف صينية تدل على قيمة الورقة المالية . وأغرب شيء يجب أن نلاحظه في هذا الامر أن المطبعة الخشبية التي استعملها الصينيون من زمن قديم قد استعملت لأول مرة في تبريز في طبع الأوراق المالية في سنة ١٢٩٤ م

لم يحرم الغربيون في القرن الثالث عشر الميلاد من علم الأوراق المالية التي كانت رائجة في الصين فان ما ركوبولو كان عالما بصناعتها . ولقد شهد بعينه في الصين أن الخان الأعظم ، كان يأمر الناس أن يأخذوا قصور الثوت ويصنعون منها الأوراق . ثم يقطعونها مربعة مستطيلة فيطبعونها فإذا هي أوراق مالية يشترون بها ويبيعون . وبناء على ما رواه ابن بطوطة ، كان أهل الصين في زمن لا يتبايعون بدينار ، ولا بدرهم ، بل يقطع كاشغ ، كل قطعة منها على قدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالثت وهو بمعنى دينار عند العرب . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد انسان حملها إلى دار الأوراق المالية فأخذ عرضها جردا . وكانت هذه الأوراق تعتبر عند الناس نقرة الى أقصى حد ، حتى لا يرضوا في التبايع إلا بها .

وكان آخرون من علماء الاسلام غير ابن بطوطة علما بصناعة الأوراق

المالية ورواجها في الصين فثلا أحد شباب الدين المتوفى سنة ٩٢٣٨ م بالقاهرة .
فانه قد ترك ثاكتابا جليلا في فن الجغرافية في ٣٠ جزءا . فذكر دراهم السكاخذ ،
كما سماه ابن بطوطة . إلا أن يانه لا يختلف كثيرا عما وصفه ابن بطوطة (١)
وكذلك تاج الدين حسن بن الحلال المرقندي . يقول أنه رأى في الصين نفودا
من الورق قيمتها من درهم الى أربعين ، الى خمسين ، والى مائة (٢) . وأقوى
الشهادات التي تدل على أن أصل الورق من الصين فانتشر الى العالم الاسلامي ،
بعد واقعة نالاس ، هي كلمة ، كاغد ، مستعارة الآن في اللغة الفارسية والعربية
معاً . وسنجد بعض التماميل عن أصل هذه الكلمة في آخر باب من هذا الكتاب

٢ - البارود : علماء العرب يفسون البارود وهو سفوف مخلوط من ملح
وكبريت ولحم صالح لحذف المقدورات ، الى اختراعات الصينيين ، لكن مؤرخي
الصين يتكرون هذا الفضل على أنفسهم بحجة أن تاريخ الصين يذكر خلاف ذلك .
والذي كان معروفا عند الصينيين منذ زمن قديم ، شيء غدير البارود ، يسمى
صواريخ نارية (Fire Works) كانوا يستعملونها في مناسبات الأفراح أو مناسبات
المآتم . ولقد اخترعوا هذه الصواريخ على مبدأ عقود القصب التي اذا أشعلت
بالتار ، تفجر صارخة مثل صراخ الألعاب النارية اليوم .

وأما القصب فهو كثير في بلاد الصين وبلاد المعجم ، يستخدمونه وقودا
بدلا من الخشب والفحم أحيانا . وعندما تشتعل النار فيها ، تحدث صواريخ
عظيمة بانفجار عقودها في الموقد فتترجوا به . فدخل في أذهان الناس شيء من
الدهب . فكان تمكريم في حدوث هذا الصوت الكبير المائل في عقود القصب
يؤدي الى إيجاد صواريخ نارية ، يصنعونها بالكواخذ الحشنة ، على شاكلة أنبوب
القصب ، من حيث أن يملأوا نوعا من سفوف كبريتية في وسط الأنبوب . ثم
يدون جانبيه بنوع من الطين سدا يسه عقود القصب . ثم يدخلون فيه خيطا

(1) B. Leifer: Sino-Iranica. P. 564

(٢) نبذة عن الصين لآل تربي أبي المر (باشا) ص ٦٠

من ورق رقيق مكبرت . فإذا اشعل هذا الخيط المكبرت إلى داخل الانبوب ، انفجر من وسطه بصارخة عظيمة كأنها صوت بندقية . ان هذا هو ما كان معلوما لدى قدماء الصين ، لكنها لا تفيد شيئا في الحرب أو القتال . كما يفيد البارود في المدفع فشان بين الصواريخ النارية وبين البارود . عملا وتأثرا . فأولها لا يكون الانوعا من الألعاب التي كان أهل الصين يستخدمونها في حفلات الافراح ، أو في مناسبات الماتم . وأما الثاني ، فلا يستعمل إلا في القتال والعراك بالارواح وإطارة الروس من الاجسام . ولم يعرف هذا الصينيون إلا بواسطة المغول في أول القرن الثالث عشر للبلاد . وبغض النظر عن المخترع له ، هل كان من العرب أو من أمة غير العرب ويقطع النظر أيضا عن أصل كلمة البارود ، تركية كانت أم فارسية ، ويقطع النظر عن تاريخ هذه الكلمة ، متى عريت ومتى استعملت للمرة الاولى في اللغة العربية ، يقطع النظر عن كل هذا ، نكاد نجزم بأن المغول لم يعرفوا استعمال البارود إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين في الميدان السياسي ، وتعلمهم إياه منهم . ولدينا أدلة تاريخية من المصادر الصينية عن هذه النقطة نورد عنها في السطور الآتية .

وفي تاريخ الصين اهد سونغ ، بعض التفاصيل عن استخدام المغول المدفع والبارود في الحملة على عاصمة الصين الشرقية وهي مدينة (كائ فانغ الحاضرة) . قد وقع هذا في أول القرن الثالث عشر للبلاد . وخلاصة الكلام ، إن المغول كانوا يستعملون المنجنيق ، كما يستعملون المدافع في حملاتهم على قلعة (لوانغ نه) وكانت حصنا حصينا لامرأة كين (Kin) . كان المغول يستخرجون الاحجار من الجبال ، وقطعوها قطعاً على حسب مظهرهم ، منها صغيرة ومنها صغيرة ، مستديرة على شكل البيض وكان على سور المدينة أكثر من مائة برج . فوضعوا على كل برج مدفعا حجرياً (هو منجنيق) يرمون به أحجاراً إلى داخل المدينة ليلاً ونهاراً ، حتى امتلأت الآواق والشوارع من كرات الحجر وهدمت البيوت من ضرباتها . وأما الذين في القلعة فقد حاولوا الدفاع عنها باستخدام جلود الجواميس والايقار وجعلوها مدفعة خارج البيوت ، منتشرة عليها مثل الخيام

فاذا وضعت عليها الاحجار لا تؤثر فيها: فلا يظهر في الجلود شيئا إلا بعض اعرجاج. فأطلق المغول عليها مدافع نارية تحرق كل ما وقعت عليه من جلود أو أخشاب أو بيوت.

وكانت المغول ينوون السور حول معسكراتهم، يمتد في بعض الاحيان إلى الخمسين ميلا، وحملوا عليها أبراجا يتحشون اليها عند القتال، وحفروا الخنادق حول السور إلى عشرة أذرع عمقا. ثم حددوا بين كل أربعين قدما، موضعا خاصا لنصب مدفع تارى فيه، سموه «صانعة» فيها رعاء حديدى للبارود يتفجر بالنار. فاذا انفجر يسمع صوته من بعد ثلاثين ميلا. ويصيب من بداخل أربعة أفدنة. كانت عند المغول يدقية نارية أيضا، ترس بالنار، تحرق من في حدود عشرة أقدام. فكان الناس يخافون القرب منها.

وثبتت من هذا النوع، أن المغول قد استعملوا المدافع الحجرية (المجانيق) والنارية في ضرب طاحمة الصين الشرقية. ومن المعلوم أن معارية قد استخدم المجانيق في محاصرة قسطنطينية في سنة ١٨٥٠. وكذلك استعملها الهجاج بن يوسف في محاصرة مكة، إذ كان يقاتل عيذاقة بن الزبير سنة ٧٣٥ هـ. وأما المغول فقد تعلموا استعمال المجانيق مباشرة أو غير مباشرة من العرب، في زمن خروجهم على الممالك الاسلامية. وبناء على ما ورد في «جامع التواريخ» لرشيد الدين فضل الله أن المغول لما حاصروا مدينة «سيانغ يانغ فو» (Siang Yang - fu) لم يستطيعوا فتحها، لاستحكام قلاعها وشدة المحافظة عليها. فطلبوا حناع المجانيق من بهليك ودمشق، وكان من جاءوا إلى الصين، تلبية لدعوة المغول، أبو بكر وإبراهيم، ومحمد وغيرهم من المتألفين. فعملوا لهم سبع مجانيق وخرّبوا بها مدينة «سيانغ يانغ فو» ففتحوها^(١).

وأما المدفع التارى الذى يحتاج إلى البارود في قذف مقنوفاته، فثبتت من المصادر الصينية، أنه من صناعات المسلمين، ومن المحتمل أنه من العرب لأن

(١) جامع التواريخ، في حكاية أحمد التايكني

عدة كتب في اللغة الصينية . نذكر استعمال ، مدافع المسلمين ، هوى هوى هو
 ، في محاصرة سيانغ يانغ فو . . لقد ورد في . يوان شى . (أى تاريخ المغول) في
 ترجمة القائد على يحيى الاويفورى الذى يشه قبلاى خان الى مهاجمة سيانغ يانغ فو
 قائلا أن في عسكره مسلحا ، يسمى اسماعيل ، كان يعرف كيف يصنع المدفع النارى
 فتمكن القائد المذكور من فتح المدينة بمساعدة هذا النوع من المدافع ، ويذكر في
 ترجمة . يوان شى جو . أى الامبراطور الاول لاسرة المغول - قبلاى خان ،
 أن قائدا له يسمى باسم لانغ كيا (Lang Kia) ، كان يستحضر كل من
 يعرف صناعة المدفع من ولاية . خوى . الى العاصمة ، وكان منهم ستانة من
 المغول والمسلمين والصينيين . فأرسلهم جميعا من المدفعين الذين كانوا ينادون Taidu
 وعلى رأسهم . جانغ لين . الى الحملة على الولايات الشرقية ، فالنوع من المدفع الذى
 استعملوه في هذه الحملة ، كان معروفا . بمدفع المسلمين . (Hui-Hui Biao)
 جاء في . تونغجيانغ ، أى تاريخ الصين العام في الجزء الرابع والتسعين ما يأتى
 لقد ظهرت الثورة في مدينة . فانغ . (Fang) ، في الشهر الاول سنة ١٧٢٢ م .
 فقتل حاكمها . وكذلك ظهرت الثورة في مدينة . سيانغ يانغ فو ، فقات فيها كثر
 من المغول . فأصدر الامبراطور وهو (قبلاى خان) أمرا الى قائد كبير معروف
 باسم على يحيى ، بأغاثة المدينتين على عجل . لحمل أولا على مدينة . فانغ . . وكان
 المسلون الذين في جيوشه ، يستعملون له نوعا من المدافع فاستخدمه في أعماله
 العسكرية حتى تمكن من فتحها ثم توجه بجيوشه الى . سيانغ يانغ فو ، وضمها به .
 فوقعت المفذوفات على عمارات عالية البناء . وقدرع الصاعقة عليها . فارتد السكان
 وارتجفوا من رعبه . وأما قواد الثوار فأكثرهم قد تسوروا السور وخرجوا
 خاضعين لأمر الجنرال على يحيى . فقبل تسليمهم ثم دخل المدينة وأمنها باسم الامبراطور
 فأقوى الشهادات التاريخية هو ما وجدناه في كلمة . هو . في ديوان لغات
 الصين . ويقول صاحب الديوان عن هذه الكلمة : وهى آلة نارية تستعمل في
 الحرب . لقد صنعها اسماعيل وعلاء الدين من أهل (القرب)^{٩١} ، للمغول الذين

(١) والمراد من . القرب ، هنا هو الممالك الاسلامية في آسيا

استعملوها لأول مرة في الحملة على مدينة سيانغ يانغ فو، في سنة ١٢٣٢ م. ومن ثم تعلم الصينيون استعمال المدفع الناري في الحرب^(١)

وجمة الأقوال تؤدي إلى أن البارود والمدفع الناري، وإن لم يكتوتا من اختراعات العرب فمن اختراعات المسلمين على اليقين. ونقول هذا بسبب عدم علنا بنسب اسماعيل وعلاء الدين المذكورين في تاريخ الصين.

وهنا سؤال وهو هل كان البارود والمدفع الناري معروفين قبل اسماعيل وعلاء الدين وبعبارة أخرى، هل سبقها أحد في صناعة هاتين الآلتين الحربيتين ومن كان مخترعهما الأول فهذا لا سييل لنا إلى معرفة حقيقة. غير أن البحث الدقيق في هذا الأمر، يؤدي إلى الاعتقاد بأن البارود الذي ظهر في الحرب في العالم، منذ يوم اختراعه، كان معروفا عند المسلمين على الأقل قبل القرن الثاني عشر الميلادي. لأن المسلمين كانوا يستعملونه في الحروب الصليبية التي قد نجم قرنهما في أوائل هذا القرن. وكان الصليبيون يصفونه بأنه «عامل مهلك في ازهاق النفوس». إذن فلم يأت إلى علم الصينيين بواسطة المغول إلا بعد مائة سنة. وكان ذلك في سنة ١٢٣٢ م.

وقد ثبت في تاريخ الإسلام، أن العرب قد استعملوا البارود في الحروب الأخرى ويقول الأستاذ ج. كوند في كتابه «سكوة العرب في أسبانيا»، أن العرب كانوا يستعملون البارود في أسبانيا قتلا كان اسماعيل بن فزاز، ملك غرناطة، يستخدم بعض الآلات الحربية في رمي المقذوفات النارية، حين ساصر مدينة بوذا (Boza) في سنة ١٠٢٥ م.

كما أن المغول قد استخدموه في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي في الصين، كذلك استعملوه في الهند في القرن السادس عشر. فان بابر الذي حارب إبراهيم لودهي

(1) Shih Pao Yueh kan: 15, Oct. 1934. Shanghai

سلطان دهملى فى واقعة بانى بيت فى ٢٦ أبريل سنة ١٥٤١م، وقد استعمل قاذقات نارية فى الحرب لأول مرة فى الهند قتل ابراهيم لودهى فى هذه الواقعة، وزالت حكومته. قاله قاذقات النارية اتى استعمالها يابر فى هذه الحرب، كانت بدون شك، تحتاج الى بارود وقد عم استعماله فى الصين قبل هذا بقرنين، بعد أن تعلموا من المسلمين الذين هاجروا الى الصين أيام قبلاى خان

الفنار والحرف: ذكر كثير من علماء العرب مهارة الصينيين فى الصناعات منهم الجاحظ والمنسودى وابن الفقيه، وابن بطوطة فقد قال الجاحظ: أهل الصين فى الصناعات، واليونانيون فى الحكم. وآل ساسان فى الملك، والأتراك فى الحروب، وقد عرض علينا صورة أجمالية تصور فوارق طبائع أمة من أخرى من هذه الأمم المعروفة فى التاريخ. فالرجل الصينى، خلق صانعاً لكل وطبيعته تميل الى الآلة، كفى الصناعات، فذوقها واشتهروا بها من قديم

ومن الصناعات التى نال بها الصينيون شهرتهم فى العالم، الحرير والفخار والحرف والتصوير فالحرير قد ذكرته ضمن بعض الأبواب السابقة وسأعود الى ذكره عند البحث عن المنسوجات الإسلامية التى يتجلى فيها أثر الصين. وهنا نلمح لما نال بالفخار الصينى الذى قد وصل عنه الى العرب فى أوائل القرن الثانى للهجرة. وإذا اعتقدنا بصدق ما قال الطبرى وابن الأثير، لزمنا أن نعلم بما وقع فى غزوة كش (٥٩٣هـ). انفق الطبرى وابن الأثير فى أن أبا داود بن ابراهيم الذى عينه أبو مسلم الخرساني، قائداً فى غزوة كش، لما فتحها العرب بعد حرب طاحنة، أخذ من الإغريد وأصحابه، من الآوانى الصينية المنقوشة المذهبة التى لم ير مثلاً، ومن السروج الصينية ومنع الصين، ومن الديبايج وغيره ومن طرف الصين شيئاً كثيراً^(١). وهنا وقعنا على تسرب علم صناعة الآوانى الصينية وغيرها من الصناعات الدقيقة الى العرب. فهاكوا صناعتها بديته، سر من رأى، أيام العباسين وبعدها أخرى بدم

(١) الطبرى ج ٩ — ص ١٥٠، وابن الأثير ج ٥ — ص ١٨٣

ومن المعلوم جدا أن مدينة سامراء أو من رأى، هي التي بناها الخليفة المعتصم في سنة ٨٣٨ م لنفسه وعلمه. لكن من جاء بعده من الخلفاء لم يجدوها ملائمة لأقامتهم بها فتركوها في يد الدهر حتى ذهب بنوهم وجولها إلى خربة تبكى عليها اليوم والقربان، ولم ينظر إليها أحد من المؤرخين أثناء هذه المدة الطويلة حتى القرن السابع. إذ جاء عالمان من علماء الألمان للتشقيب عن هذه المدينة على ضوء العلم الأثرى، وعن حالها في القرون الفارسية فالجهد التي بذلها في آثار سامراء أدت إلى اكتشاف جديد، يؤكد وجود علاقات صناعية بين الصين وعاصمة الخلافة العباسية في القرن التاسع الميلادي. لأن من بين حضريات سامراء بعض أوان إسلامية، صنعت على شاكاة أوان صينية، وعددا كبيرا من خزف الصين التي وردت إلى بغداد، أما بواسطة التجار وأما بواسطة السفراء الذين كانوا عوفدين إلى الصين أو إلى بغداد. وقد خصص مؤلف، دليل إلى المختار والخزف بالشرق الأقصى، ثمان صفحات للبحث عن مهمة الكشف للأواني الصينية بخربة (سامراء) وأحلامها وهي مشتملة على قفوفريات بيض ونغار أبيض ضارب إلى الصفرة. وسلاطون (Celadon) وخزف على اختلاف أنواعها وغيرها من الصناعات الخزفية المرفقة بالقوش، والخزف المتنوعة. وأن هذه الأنواع من الأواني الصينية، ما عدا ما يسمونه (سلادون) كلها من محاكاة صناعة الصين، وقد وصلت هذه المحاكاة إلى درجة يكاد الإنسان لا يميز بينها وبين صناعات الصين الأصلية، إلا باختبار الطين الذي صنعت منه، فالأواني المفردة (بفتح اللام) قد صنعت من طين سامراء. الطين الذي لونه يشبه لون الجلد المابوغ، وتصبح مسجوقا إذا كثرت بالسكين، وأما المختار الضيق الأصل فيتحمل ضرب السكين ولا يسحق إذا كسر. وأما القفوفري فأبيض اللون جميعا ومن بين الصناعات التي صنعت في سامراء محاكاة للصناعة الصينية، نوع من الأباريق له قفوفير مستقيم ومقبض عليه إذن أو عروة، ونفوش أخرى خاصة

للأواني الصينية التي قد صنعت في عهد (تانغ) (٦١٨ - ٩٠٦ م) . وهي ذو خطوط وزجاجة صفراء اللون ، مع زركشة في لون أحمر قان . وقطعات أخرى حوك فيها فن الصين ، منها طاسات ذات أوراق وزجاجة .

أن المحاكاة في صناعة الفخار الصينية وفي صناعة الخزف الصينية قد وقعت في بلاد شتى من البلاد الإسلامية ، منها إيران ، وسمرقند ومصر والشام ولقد ظهر أثر الصين قويا جدا في الخزف الإسلامي الذي صنع في هذه البلاد . وأما ناحية المحاكاة فلم تكن منحصرة في الألوان والأشكال لحسب بل في الزخرفة والنقوش أيضا . فقد عثر على بعض نماذج في بلدة سوسا (Susa) ، الفخار الإيراني الذي صنع على شاكلة أواني تانغ . ففي الرسم الذي تحت رقم ١٠ ، في كتاب (ديماند)^(١) نرى ممثلا فيه أشكال بعبية مبنية على خرافات ساسانية مع بطور منقول عن فن الصين . ومن قول الأستاذ ديماند ، أن الإيرانيين قد نجحوا نجاحا تاما في محاكاة الصينيين في صناعة الفخفوري الأبيض اللون ، في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من الميلاذ . ولديه بعض النماذج من هذا النوع من المفقوريات وهناك نوع آخر من الخزف المصقول الذي صنعه الإيرانيون في القرن الثاني عشر والثالث عشر وهو يمتاز عن أنواع أخرى بالرسم والنقوش الملونة . فقيده الأستاذ ديماند برقم ١٦ في كتابه . فالمسكة والطيور والأوراق المعوجة التي تراها في هذا الخزف المصقول ، هي من محاكاة فن الصين . مثله نموذجان وممن يرجع تاريخها إلى سنة ٥١١٢ - ١٢١٥ م ، في مجموعة ماسي (V. E. Macy)

استمرت هذه المحاكاة إلى القرن السابع عشر من الميلاذ ، خصوصا في صناعة الفخار والفخفوري وكان ذلك متأثرا بصناعة الأواني الصينية التي استوردتها إيران وملكها . لحاكمها في الوخارف وكيفية الصناعة . فثلا أن الصناع الإيرانيين قد سوا في محاكاة الفخفوري ذي اللونين الأزرق والأبيض لهم (مينغ Ming) ، مع نقوش زرقاء وبضياء في طراز صيني . يوجد بعض النماذج لهذا النوع في مجموعة الأستاذ ديماند

(1) Dimand: A Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.

وهناك أنواع أخرى من المغفورات بغير القوش، بيضاء، وزرقاء، صنعت في القرنين السابع والثامن عشر، مشتملة على صحن وطاسات صلبة الاجسام، عليها مناظر طبيعية، وصور طيور معينة السمور والرموز التي تراها بكثرة في الخزف الصيني لهند منح.

ويظهر من البحث في آثار الصين في الخزف الاسلامي في إيران، أن محاكاة صناعة الفخار الصيني وغيره من الصناعات الخزفية، لم تكن متعمدة في مدينة أو مدينتين، بل عمت أكثر مدنها. فان جاردن (Gardin) الذي جال خلال الديار الإيرانية في القرن السابع عشر للميلاد، لاحظ أن الفخار وهو من أجمل الصناعات الإيرانية، يصنعه في كثير من مدنها. وأحسن ما صنع في إيران من الفخار، هو مرشيدازو مشهد وزد وكرمار وسلمان آباد والمواد التي كانوا يصنعونها، كانت جيدة، كجودة المواد الفخية وريات الصينيات، وشفافة، كدهانها، وجميلة كجمالها والحقيقة أن كثيرا من الناس لما رأوا هذا النوع من الخزف، ظنوا أنه من الصين فلجل هذا، كان التجار الهولنديون و تلك القرون يستوردون الفخار والخزف من إيران وبيعونه في أسواق أوروبا كصنوعات الصين. وكان أهم خصائص هذه الصناعة، هو ما نقله الإيرانيون عن فنون الصين من الخزاف والقوش والزركشة. فالقوش في الخزف الإيراني للقرنين السابع والثامن عشر الميلادي، كلها تشبه تمام الشب، قوش الخزف الصيني لهند منح، وهو العصر الذي تفلت فيه الزخرفة البيضاء والزرقاء في الصناعات الخزفية. وهناك طاس مرقوم بـ ٨٢ في كتاب الأستاذ هوبسن، يشبه تماما ما صنع بالصين (١).

وأشهر الفخار والخزف في إيران، هو ما صنع بسلطان آباد وكرمان ولقد عقد الأستاذ هوبسن فصلا خاصا عن خزف سلطان آباد الذي ظهر فيه أثر الصين واضحا قويا. فخزف سلطان آباد ينقسم إلى قسمين: قسم يشبه ما صنع بالري، ليس فيه شيء من الكتابة فيه وبين الخزف الصيني وقسم آخر قلده فيه،

(١) Hobson : P. 67.

الصناع ، صناعة الصين في الترفيش والتصوير . وفي هذا القسم من الخزف ترى صور حيوان وطيور ، وصور انسان أحيانا ، مع زخارف نباتية وأوراقها على أسلوب ما صنعه الصينيون في بلادهم . واثق نجد في رسم تحت رقم ٦٨ في كتاب الاستاذ هوبسن . صورة انسان على شكل مغولي ، ورسم نيلوفر يرمز الى شور صيني . وفي تم - اذج أخرى ترى صور اثنين والعطاء وكلاهما من الرموز الصينية (١)

وإذا انتقلنا من إيران إلى مصر ، نجد أثر الصين في صناعتها أيضا فالمدينة التي كانت تشتهر بصناعة الخزف والفخار في القرون الوسطى بمصر ، هي القسماط . فخارها ينقسم إلى أربعة أقسام على حسب الألوان منها ما هو مادته زهرية من لون أحمر أو رمادي ، ومنها ما هو يشبه ما صنع بالشام وإيران من لون أزرق ضارب الى السواد ، ومنها ما هو في لون أزرق وأسود ، وأما القسم الرابع فهو مختلف الألوان . وفي هذا القسم الأخير ظهر أثر الصين فصناعي . ويقول الاستاذ هوبسن - أن المصريين قد قدلوا في صناعة الفخار والخزف ، صناعة الصين لهند سونغ (Sung) وعمد يوان خصوصا في زخارف الأواني التي صنعت في ولاية . جيكيانغ (Chekiang) ، فإن هذه الأواني كانت تغل كتاجر من الشرق الأقصى إلى الأدنى في أيدي التجار العرب في القرن التاسع من الميلاد وأما المصريون فقد نجحوا إلى حد ما في محاكاة لوزجاج شفاف في بلادون الصين فنقلوا زخارفها الطبيعية إلى صناعاتهم ، مثل الأسماك والأطياف والأوراق المنبسطة المعرجة غير أنها مقاربة لأخوانها الصينية من ناحية المادة والشكل الجسمي . فالنماذج لهذا النوع من الخزف المصري كثيرة تستطيع أن تراها في دار الآثار العربية (بمصر) ففي هذه الدار ، أربع أوان كبيرة . من صناعات الصين ، وقد عثر عليها في جامع السلطان حسن . ويقول الاستاذ هوبسن أن هناك بعض أوان أخرى من صناعات الصين عثر عليها في القسماط (٢) .

وكانت زخارف الخزف الثامن في القرنين الرابع والخامس عشر من الميلاد

(1) Hobson: 54.

(2) Hobson: p.61

على الأسلوب العربي الذي تتجلى فيه الحروف العربية المشبهة في ألوان مكونة من أزرق وأسود وقه وزى. غير أن هناك قسماً آخر صنع في مدين القرين، مثل ما صنع بالمطاط. يتأثر الأولى لأخرى بخاراف من مناظر طبيعية وطيور وأزهار صينية في لون أسود ضارب إلى الزرقة. ولقد عثر على بعض النماذج لهذا القسم من الخزف في دمشق، وهو صحن في وسطه طاورس ومن رأى الاستاذ ديماند، أنه من صناعة الشام على أسلوب صيني^(١)

وقد ظهر أثر الصين في الفخار التركي أيضاً ويوجد هذا الأثر في طار كويابجه بداعستان. يذكر الاستاذ ديماند في كتابه، أن بعض النماذج وجدت في الجامع الأخضر وفي مقبرة السلطان محمد الأولى بمدينة بروصة (Brusa). لأن عراب هذا الجامع الذي بنى في عهد السلطان محمد الأول (١٤٦٣ - ١٤٧١ م) ازداد بخاراف عربية ورسوم الأزهار التي يرى فيها أثر الصين. والسبب في ذلك أن المحراب قد بناء الإيرانيون من أهل تبريز. فرسموه برسم وزيتوه بخاراف لونها يذهب لون الخزف لعدم قبله. ثم أشار إلى اللوحة التي تحت رقم ١٠٥ في كتابه قائلاً أنها قطعة من القراميط التي صنعت بروصة في القرن الخامس عشر الميلاد وأثر الصين فيها واضح^(٢) واتفق مع الاستاذ هوبسون في هذا الرأي

وأما كويابجه فهي قرية صغيرة بداعستان، تشتهر بخزفها ونقارها. وأكثرها مدهون بألوان من أزرق وأخضر وأصفر. ومنها نوع وردي اللون يشبه الفخار التركي. فالخاراف فيها عامة من رسوم النساء تحاط بالأزهار والحيوانات على طرز صيني. ولعل هذا النوع من الخزف، من صناعات القرن السادس عشر أو بعده بقليل^(٣)

(1) Dimand P: 164

(2) DiMand : P. 172

(3) Hobson: 75.

ويرى الأستاذ ميجون في كتابه ، « فنون المسلمين » : أن الصينيين قد صنعوا بعض القطع من الخزف على أنماط الإيرانيين . فجاء بمناذج لهذا النوع في كتابه ، يجعل فيها الذوق الإيراني من ناحية الشكل والزخرفة . بيد أن فيها اختلافا صينية في أسفارها ، والظاهر أن هذه القطع صنعت إما في مصانع الصينيين بإيران ، وأما في المصانع الإيرانية التي كان فيها صنائع الصين .

وفي الزمن الذي يتبع فيه أثر الصين في الصناعة الإيرانية بوضوح نرى في بعض الخزف الفخفوري المنوع كزجاج ، نواة إيرانيا وزخارف صينية معا . وهي محاربة التين والمقلد .^(١)

٤ - أثر الصين في المنسوجات الإسلامية

تجد الباحثون في الصناعات الإسلامية ، أثر الصين في المنسوجات أيضا ، وكانت لذلك عوامل كثيرة . منها غزوات العرب إلى أواسط آسيا في القرن الثاني للهجرة . وقد عرفنا في باب « بقى أن أبداود حينما فتح مدينة كاش ، أخذ من الأخشيد وأصحابه أشياء كثيرة من الديباغ والخبر وطرف الصين ، كما ذكر في الطبري وابن الأثير . » لديباغ نوع من الحرير المنسوج بخيوط الذهب أو الفضة ، المرسوم من أشكال مختلفة ، من زهور وطيور وتين وعنفاء ، ويلوفر وأوراق النبات ، ولا أشك في أن الطرف الصينية التي نقلت إلى يد أبي داود إلى بيوت العرب يوجد منها بعض هذا النوع من الحرير . فأصبح نموذجا للمنسوجات الإسلامية فيما بعد ذلك

وهناك احتمال آخر في كون غزوات العرب إلى آسيا الوسطى عاملة في نقل أثر الصين الصناعي إلى المنسوجات الإسلامية . وهو أن العرب قد أمروا في واقعة تالاس ، عددا غير قليل من الصناع الصينيين ، ونقلهم إلى مدينتهم . فعملوا منهم تلك الصناعات التي كانت لهم يد عليا في صناعتها فعملوا صناعة الورق منهم في سمرقند . وقد حاولنا تحقيق هذه المسئلة من الناحية التاريخية فعرنا على نص يدل على

(١) Migeon : Manuel D'Art Musulmans 11. P. 270.

صححة ما ذهبنا اليه في كتاب صيني ألف في القرن الثامن الميلادي، يسمى، رحلات توران. وجدنا ما يؤكد ما قلناه من تعلم العرب الصناعات من الأعرى الصينيين. فأن توران هذا، كان دائما من العلماء، وافق الجيوش الصينية الى سمرقند، فوقع أسيرا في أبدي العرب، اذ هزمهم في واقعة (تالاس). فأخذوه الى العراق وابقوه هناك نحو ١١ سنة ثم أطلقوا سراحه. فركب البحر من البصرة ووصل الى كاثون سنة ٧٩٦ م ومن ثم سافر الى (سي آن) عاصمة الصين اذ ذلك، فكتب رحلته المشهورة، وذكر ما رآه في أرواس آسيا وفي مدن العراق من الحاصلات والصناعات. وفي أثناء كلامه عن أحوال الكوفة، ذكر أن بها الصناعات الصينية وهم الأربعة، فانسو، ولجوجي، من أهل سي آن. ولو هوان، ولبولي، من أهل ولاية، ما- تانغ، وكانوا يلبسون أهل الكوفة صناعة اللفضة الحريرية والصباغة والنمور^(١) فن المتبقن إذن أن من بين الذين قد رقبوا أسرى في أبدي العرب كثيرا من صناعات الصين فعملهم ما عرفوا عن الصناعات والقرن. وبسبب هذا، انتقل أثر الصين الى صناعة المسلمين في أوائل العصر العباسي

ومن عوامل التأثير الصناعي العلاقة التجارية التي كانت وثيقة بين الصين والعرب بين القرن التاسع والخامس عشر الميلادي. وكان العرب منذ أوائل القرن الأول الهجري، أخذوا يركبون البحر إلى الهند لتجارة. ثم وسعوا نطاق حركاتهم فوصلوا الى الصين بعد عقود من السنين، فن تجار العرب الذين قد سافروا إلى الصين في القرن التاسع الميلادي، سليمان المعروف بالتاجر السمرقاني، وهو أول من ذكر من العرب لباس الحرير وصناعة الحرير بالصين ثم هذا حذوه علماء آخرون. فلذا نجد في الأسفار الإسلامية كثرة الحديث عن تجارة الحرير والديباچ وصناعاتهما، فلا غرو، أن هؤلاء التجار قد حملوا إلى بلادهم بعض القطع

(1) Ancient China's Relation With the Arabs. P. 56.

النادرة من الدباج والحرير ، فحاکوا صناعتهم وحما ونسجها . بعد أن تعلموا تربية دود القز واستخراج خيوط الحرير من بطونها .

وهناك عامل آخر يساعد على نقل أثر الصناعة الصينية إلى الصناعات الإسلامية وهو كما ذكرته في باب مستقل ، تبادل السفارات بين الصين والممالك الإسلامية في عصور مختلفة ، وكان ملوك الصين على اختلاف الأمر والعائلات ، قد بعثوا هدايا نفيسة وتحف نادرة من الأقمشة الحريرية ، والكنساج والدبابيج والقنفذريات إلى خلفاء الإسلام وملوك العرب ، بواسطة السفراء الوافدين من الممالك الإسلامية أو المهوئين إليها . فأمراء العرب وكبار الإسلام ، كانوا يعجبون طبعاً ببضائع الصين الدقيقة وقوامها . وليس من العجيب أنهم قد هموا بمحاكاة هذه الأشياء منما ونسجاً . فأمرؤا بصنع بعض المنسوجات على شاكاة المنسوجات الصينية ، مادخال أساليب التشكيل والرسم الصينية فيها

وبعد هذا ، أقول أن أثر الصين في المنسوجات الإسلامية لم يظهر جلياً إلا في الزمن الذي قد اتحدت فيه بلاد الصين بالشرق الأقصى ، مع البلاد الإسلامية بالشرق الأدنى تحت حكم المغول . في هذا الزمان ، أخذ تأثير الصين يبدو واضحاً قوياً في كثير من الصناعات الإسلامية . ولعل السبب في هذا هو وجود أولئك الصناع الذين تعلمهم جنكيز خان وملاكو خان من الصين إلى العراق ووطنهم هناك . ومن قول المحققين أن ملاكو قد نقل نحو ألف صانع من الصين إلى العراق (١) . ولعدم العثور على نموذج أقدم من عصر المغول ، لا نستطيع أن نبحث بحثنا تحليلياً عن حد تأثير الصين في المنسوجات الإسلامية قبل هذا العصر ، فاكتملت هذه الملاحظات التاريخية في بداية العلاقة الصناعية وعوامها ، انصرفنا إلى البحث في تأثير الصين الصناعي في الصناعات الإسلامية في عصر المغول والصور التالية والذي لا يختلف فيه اثنان ، أن ظهور المغول في القرون الوسطى ، قرب الصين إلى الممالك الإسلامية في شتى النواحي ومنها ناحية الصناعة التي تتكلم فيها الآز ومن

المعروف عند العلماء أن الصناعات الإسلامية التي ظهر فيها أثر الصين ، منها ما صنع بإيران ، ومنها ما صنع بمصر والشام ويظهر أن بعض منسوجات أسيان في عهدها الإسلامي ، لم يكن خالصا من تأثير الصين أيضا .

فإيران التي توسط بين الصين وبين الممالك الإسلامية من الناحية الجغرافية هي التي توسطت في نقل أثر الصين إلى الصناعات الإسلامية أو بعبارة أخرى ، أن أثر الصين لم ينتقل إلى الصناعات الإسلامية ، إلا بعد توغله في صناعات إيران . ومن المحقق أن صناعات الصين كانت معروفة في إيران قبل الإسلام بقرون فأثرت في صناعاتها إلى حد ما ، حتى سقوط بغداد ، وأما في الوقت الذي اتحد فيه ، الشرقان ، الأقصى والأدنى تحت سيطرة المغول وحكمهم فقد تأثرت الصناعة الإيرانية من تأثيرات الصين إلى درجة لم تباينها من قبل قط ، ففي المنسوجات الإيرانية التي صنعت في القرن الثالث عشر من الميلاد ، نرى أن أثر الصين الصناعي ، يتجلى فيها بكل وضوح ، حتى خيل لبعض الناس أنها من عمل الصينيين أنفسهم ، ولقد ذكر الأستاذ كهستبي في مقاله عن ، الفنون الإسلامية الصفوية ، في كتاب ، تراث الإسلام ، ، قطعة من الديباج الموشى بالذهب ، عليها زخارف مكونة من أشكال الطير الخرافي الذي يعرف باسم العقاد عند الصينيين ، وإذا نظرت إلى هذه القطعة اعتقدت أول وهلة أنها من منسوجات الصين والحقيقة أنها مصنوعة بإيران في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر من الميلاد .

ولا ندهى أنها قطعة من المنسوجات الصينية ، لأن الكتابة العربية التي نسجت فيها عمل ، استحالة على الصينيين أن يفعلوه هم في بلادهم ، لأن الفن العربي أو الإسلامي ، لم يؤثر في الصناعات الصينية حتى ذلك الوقت . وبوجود الكتابة العربية فيها نحكم ، أنها من الصناعات الإيرانية التي أتت فيها فن الصين الصناعي . ومن المعلوم أن الإيرانيين كانوا يفقدون صناعة الصين في الرسوم والزخارف خصوصا في عهد المغول ، فالرسوم التي نقلوها إلى صناعاتهم ، كانت على

العموم ، صور العنقاء والتنين وءكلين ، ثم أوراق النباتات الصينية مثل
اليلوفر والخشخاش (١)

ولقد ذكر الأستاذ ديماند بعض النماذج لسجاجيد إيران التي يرجع تاريخها
إلى القرن الخامس عشر للميلاد أو السادس عشر ، فنلا الموحدة التي قيدها في
كتابه تحت رقم ١٤٥ وهي من مجموعات آلتان (Altman) . ويوجد في وسط
هذه السجادة وسام كبير سمى الفنبور (مداليون - Madallion) ، من لون
أبيض مع نجمة زرقاء ذات ثمانية أضلاع فالأساليب الزخرفية فيها منقولة عن
شكل تيلوفر وخشخاش وهما من النباتات الخاصة بالصين (٢) .

وفي نموذج قيد تحت رقم ١٤٦ وهو من أبدع ما صنعت يد الرسام في عهد
شاهنا حسب ، ترى تسع رسومات مثل النجوم ، بدلا من وسام كبير رأينا في
شكل ١٤٥ في كتاب ديماند . ويتجلى في هذه الرسومات ، أسلوب الزخارف
الصينية ، في هيئة محاربة التنين العنقاء . وفي شكل ١٥٠ صورة سجادة وجدت في
جامع الشيخ العوفي بأردبيل . فالزخارف المشكلة فيها ، تمثل الأسود والنمور
المهاجمة على الءكلين ، الخراف الصينية . ومن رأى الأستاذ ديماند ، أن هذه
السجادة من صناعات إيران العربية ، صنعت في وسط القرن السادس عشر الميلادي
وأثر الصين يوجد في صناعة مصر أيضا . والدليل على هذا ، أن نموذج الحرير
للمهد الفاطمي الذي ظهر فيه أثر الصين ، يوجد بكثرة في متاحف أوروبا . ولقد
ذكر الأستاذ ديماند قطعة من منسوجات الحرير التي صنعت ببروكسل ، مؤرخة
بصور الطيور الطائرة بين الأوراق الخلفية ، وعلى أجنحتها عبارات عربية يراد
بها التفاؤل والاستخارة . فاللون في هذه للقطعة ، كالذي وجد في أخواتها وهو
مشمثل على الخضرة والزرقة والصفرة والحمرة المتحدة بتشكيل ، المتناسبة للرسم
وطرز هذه القطعة من المنسوجات يذكرنا بلون القنار المصري اللامع الذي

(1) Dimand: P. 124.

(2) Migeon: P. 238.

كان يصنع في القرنين الحادى والثانى عشر من الميلاد . ولعل هذه القطعة من صناعة ذلك العهد أيضا وظهر الأسلوب الصينى جليا إلى جنبه مع الأسلوب العربى فى المنسوجات الحريرية فى عصر المماليك . ففى نموذج قيده الأستاذ ديماند فى كتابه تحت رقم ١٢٩ ، ترى حريرا بدىما جليلا ، من صناعة مصر أو الشام ، فى لون أخضر مع لون برتقالى ، وحلقات مكونة من سرب طيور ، وفطمان الجبوان الخرافى الذى سماه غريفين Griffin ، متوازية الصفوف بين الأوراق التخلية (١) فى متاحف برلين ، وفكتوريا ، والبرت (لندن) ؛ تجد كثيرا من نماذج المنسوجات المصرية لعهد المماليك ومن خصوصيات هذه النماذج أن لقب ناصر محمد بن قلاوون ، سلطان مصر والشام الذى حكم عليهما من ١٢٩٣ إلى ١٣٤٠ م ، قد نسج فرا . ومن رأى الباحثين المحققين ومنهم الأستاذ ديماند ، أن هذه المنسوجات قد تأثرت من الصناعات الصينية التى كانت معروفة فى الشرق الأدنى وقتئذ .

وقد وقع لقب ناصر محمد بن قلاوون ، فى قطع بعض من الديباج المزركش بخيوط الذهب والفضة . وقطعة شهيرة من هذا النوع ، توجد فى كنيسة سانت مارى بدانزيج ، ترى فيها زوجين اثنين من اليفاء والتين الصينى مع لقب الناصر ، للمنسوجة بخيوط الجمل المذهبة على أرض الحرير السوداء . والمراد من الناصر ، كما تعلمون ، هو ناصر محمد بن قلاوون .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ، بعض النماذج الحريرية التى ظهر فيها أثر الصين واضحا جليا . على واحدة منها جامات صينية كتب فى داخلها ناصر الدين محمد بن قلاوون ، وعلى غيرها حروف صينية يراد بها طول البقاء والسعادة . وأغلب الظن أن هذه القطع قد صنعت فى آسيا الوسطى للسلطان محمد بن قلاوون كما أشار إلى ذلك الأستاذ ديماند (٢)

وهناك بعض الديباج ، ظهر فيه أثر الصين وإيران معا . وهو من صناعات

(1) Dimand: P. 227.

(2) Dimand: P. 211.

أسبابها . فيطلب في الرسوم أوراق نباتية معرجة ومصور طيور منسوجة بخيوط مذهبة على أرض زرقاء ضاربة إلى السواد . ومن كلام الأستاذ ديماوند ، أن في متحف نيويورك قطعتين من هذا النوع من الديباج ، في أحدهما رسوم الأوراق الممرجة واليخوف التي يستظل من تحتها زوج من الإرتاب وفي الأخرى أوراق تخليقة مع سرب طيور تشرب من قوادة متدفقة بالماء . وهي من صناعة القرن الرابع عشر الميلادي^(١)

• • التصوير .

من الفنون الإسلامية التي ظهر فيها أثر الصين في التصوير الذي كان الإيرانيون والمغول يحبونه ويقطعون الصين في صناعته أكثر من غيرهم من الأمم الإسلامية لكن متى بدأ هذا التأثير وبأي طريق؟ ذلك مما لا يمكن أن يحده لعدم وجود دليل قاطع على ابتدائه في زمن معين . غير أننا نقول أن التصوير كان معلوما لدى الأمتهن الصينية والإيرانية ، قبل الإسلام . ومن اليقين أن علم الصينيين بهذا الفن كان أسبق من الإيرانيين ومع هذا لا نقول أن الإيرانيين قد تعلموا هذا الفن من الصينيين لاختلاف المبادئ في تصويرهم فالصور الإيرانية القديمة اتخذ الدين والعقيدة مبدأ فنيا . بخلاف التصوير الصيني الذي أخذ مبدأه من الطبيعة ومظاهرها ، ومن هذا الاختلاف نعرف أن فن التصوير في إيران كان مستقلا بذاته غير خاضع لآمة من الأمم قبل الإسلام .

فلما ظهر الإسلام واتسع نفوذه من طريق إيران إلى الصين أخذ أثر فن الصين ينتقل من مده أولا إلى تركستان ثم إلى إيران والعراق . ولا تعرف تماما هل حدث هذا الانتقال في العهد الأموي أو لم يحدث غير أننا علمنا من توهوان الأمير الصيني في أيدي العرب الذي قد أشرنا إليه من قبل أن المصورين الصينيين كانوا موجودين بالكوفة في أول العهد العباسي يعلمون صناعة التصوير والمصاغة هناك ، ومن الظاهر أن انتقال فن التصوير من الصين إلى العراق قد وقع في

أوائل القرن الثامن للميلاد وذلك بعدما سلمنا ما قاله توهوان ، في هذا الصدد غير أن العرب لم يأخذوا من الصين هذا الفن بل رغبوا عنه ، لعدم حاجتهم إليه في حياتهم العلمية حينئذ كانوا مشغولين في تنظيم الدولة وترتيب الولايات الجديدة وأما أهل الفرس الذين قد سبقت لهم المعرفة بهذا الفن ، فقد قبلوا بمد انضمامهم إلى الخلافة الإسلامية بعض الأمور من تصوير الصيغ من ناحية الأساليب والزخارف ولعلهم كانوا يحاكون في تصويرهم الزخارف الصينية التي وجدوها في الفخائر والقفوريات لعمد (تانغ) وقد استورد تجار العرب والفرس كمية كبيرة من هذا النوع من الفخائر والمخفريات من الصين إلى بغداد في صدر العصر العباسي . ثم أخذوها مباشرة من المصورين الصينيين الذين وردوا دار السلام بعدما استعكام الدلاء التجارية بينها وبين الصين برا وبحرا .

ويثبت من المصادر العربية التي رجعت تاريخها إلى القرن الثالث الهجري ، أن العرب كانوا على علم بفن التصوير الصيني وأن لم يملوا إلى تعلمه ، لأن ابن وهبان ابن الأسود ، الذي دعه صحت إلى أن سار إلى ديار الصين من البصرة ، قد رأى عند ملك الصين صور الأنبياء السالفين والرسل الماضين وقد أخرجها من الخزانة وعرضها عليه ، امتحانا له ، هل كان صادقا في حديثه عن بلاد العرب والإسلام ، أو كاذبا ؟ فقال : بركة عترمة لدى ملك الصين بعد أن تحدث إليه عن قصص الأنبياء ، واتفق أن أغلب ما تحدث إليه عنهم يطابق ما كتب تحت كل صورة من صور الأنبياء لديه . وأما براعة الصين في التصوير فكانت مشهورة في العالم الإسلامي ، حتى قال السعدي : أن أهل الصين أحقق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم أحد من مفاخر الأمم والرجل منهم يصنع بيده ما يعجز عنه غيره . ثم ذكر إمام الملك عن الفخارين البارعين في الفن . وكان الطريق في ذلك أن الرجل إذا عمل صورة بيده يقصدها باب الملك ، فيأمر بتصبها هناك إلى سنة واحدة ، فإن لم يخرج أحد منها عيبا ، أجاز صاحبه (١)

هذا وأما أهل الفرس فيظهر من التاريخ الأدبي الفارسي أنهم قد اتقوا براعة الصينيين في تصوير كتبهم وتجميل قصائدهم. وترى هذا في قصيدة رودكى، التي نظمها لنصر بن أحمد الساماني في سنة ٩٢٠ م

وبناء على تحقيق البروفسير آرتولد. كان رودكى، الشاعر الفارسي، قد عمل نسخة نظمية من حكايات دكيلة ودمنة، لهذا الأمير. فكلّف بعض الفنانين الصينيين تزيينها بالصور، وهذه الصور تأثّر عظيم في التصوير الاسلامي فيما بعد ذلك.

وقد حاول بعض العلماء إنكار هذه الحقيقة بحجة أن الصلة بين تصوير قصائد رودكى والتصوير الإيراني في عهد المغول مددومة فلم يجدوا سلسلة التدرج أو التطور الفني من العهد الساماني إلى العصر المغولي وكانت بين المصريين فترة اقرب من ثلاثة سنة، لم يكن فيها اتصال في أبداً. وكان البروفسير آرتولد يميل إلى جانب الإنكار، لو لم ير دليلاً آخر أقوى من الاول، فرفع شكوكه ورده إلى اليقين. وهو أن الشاعر الإيراني الجاسمى، قد حمل زوجة، يونهار، على استحضار مصور صيني، ليعمل لها صورة مع صورة يوسف في لوحة واحدة. وهذه اللوحة العذبة البادرة، مروفة الآن عند علماء الفن، بلوحة يوسف وزليخا، والواقع أن التصوير الصيني كان له تأثير واضح في الفن الاسلامي بإيران. فانهم كانوا يحبون أن يزينوا كتبهم الأدبية بالصور. فلما رأوا أن تصويرهم ينقص من المناظر الطبيعية، وهي من خصائص التصوير الصيني، فخلعوا إليه بعد معرفة خصائصها وأساليبها

ولا نعرف مبلغ المعلومات التي حصلها الإيرانيون عن التصوير الصيني في القرن العاشر من الميلاّد، غير أننا نستطيع أن نقدر معلوماتهم من قول النعماني الذي عاش من سنة ٩٦١ إلى ١٠٣٨ م أنه كان يهجم بالتصوير الصيني، كما أعجب به المسعودي من قبله. وكان له علم براعة الصينيين في التصوير وذلك قد حصله إما مباشرة من الصينيين أو بواسطة غيره الذي رأى الصينيين في صناعة التصوير بعينه. فذلك يقول —

أن صانعا صينيا يمكن أن يصور رجلا ضاحكا كما هو في طبيعته في جميع الأنواع من الضحك ولكل نوع طريق خاص.

فستطيع أن تعرف شيئا من معلومات الإبرانيين عن التصوير الصيني ، من سكتة رنانه . . . في هذه القصة بدء الفارسية التي وضعها النظام في آخر القرن الثاني هجر من الميلاد . ثم ذكرنا عن مباراة مصوري صيني وآخر رومي في صناعة التصوير أمام الملكة أسكندر ، فوقع في دهشة حين رأى عمل المصورين ولم يستطع التفريق بينهما ، ثم اختبر طريقتهما في التصوير وحقق سر التوحيد بين المبدأ والأسلوب ، حتى كشف أن ما عمله المصور الرومي ، هو أصلي ، وما عمله المصور الصيني هو المنقول عنه . ولقد نقل الثاني من عمل الأول ، وكل ما في تصويره من تخطيط وتلوين وأسلوب في إلى أكل حد ، حتى لا يستطيع إنسان أن يفرق بين عمل الاثنين فبول أن هذا أصلي ، وأن ذاك منقول عنه ^(١) ومن كمال الفنان الصيني أنه لا يخطئ ذرة في تصور أي شيء وآه ، أذ ينقله بريشته كما هو على حاله الطبيعية بدون أي فرق .

نعرف أن هذه القصة خيالية غير حقيقة على أي حال من الأحوال ، لكنها تشير إلى التأثير الذي أحدثه فن التصوير الصيني في أواسط إيران حتى يذكره شاعر من شعرائهم كنظامي في قصيدته . وعند ما قرأنا هذه القصيدة ذكرنا ما ورد في رحلة ابن بطرطة عن تصوير الصينيين ، وهذا من مشاهدته التي لا سبيل لها إلى أنكارها وهو يقول -

أما التصوير فلا يجارهم أحد في أسكاه من الروم ولا من سوام ، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أني ما دخلت قط مدينة من مدنها ، ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغذ موضوعة في الأسواق ، ولقد دخلت مدينة السلطان فررت على سوق

القاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشياء ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي وصور أصحابي مدفوسة في كافد قد الصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطي شيئا من شبهه . وذلك لأن السلطان قد دعاهم الى القصر ليعلموا ينظرون اليها ويصورون صورنا ونحن لم نعلم بذلك .

ولا ريب أن أثر الصين في التصوير الاسلامي في عهد المغول قد ظهر أقوى مما كان في عصور قبلهم ، وكان السبب في ذلك أن هؤلاء الفاتحين قد نقلوا كثيرا من النقاشين الصينيين الى بغداد ، كما نقلوا كثيرا من الصناع المسلمين الى قراقرم ، ذكر البروفيسر آرنولد في كتابه : الكتاب الاسلامي ، أو : دى اسلامك بوك . أن ملاكو قد أتى بكثير من النقاشين الصينيين والكشيش المصورة الى إيران (١) ومن مصادر أخرى علمنا أن الصناع الصينيين وجدوا في عواصم إيران في هذا الوقت ، ويقول راجب سين - وقد زار إيران من طريق آسيا الوسطى بين ١٢٢١ و ١٢٢٢ م ، أن الصناع الصينيين استوطنوا كل مكان يسمرقند (٢) .

ومن المعلوم أن سيطرة المغول على إيران وبغداد قد تمت في سنة ٣٥٨ هـ ، م ، فوضوا أيديهم على حيازة فن التصوير ونجموه حتى نهض إلى درجة لم يبلغها من قبل ، فأصبحت بغداد : وتبريز وسلطانية هذه المدن كلها مراكز لفن التصوير خصوصا في عهد ايلخان ، ، ويذكر الاستاذ ديمان - أن مكتبة مورجان (Morgan) بـنيويورك ، تملك نسخة خطية نادرة من كتاب : منافع الحيوان بالعربية لأن بخشود ، فيها ٩١ صورة . لقد ألف هذا الكتاب بحكم غازان خان أحد أسفاد ملاكو خان بين ١٢٩٥ و ١٣٠٠ م . والأرجح أن هذه الصور قد رسمت في تبريز ، ولا شك أن بعضها قد احتفظ بطابع إيراني قديم ، غير أن أكثرها تزين بمناظر الطبيعة وصور الحيوان التي تذهب بنا الى فكرة تلك

(1) The Islamic Book, P. 69

(2) Painting in Islam. p. 86

الرسوم الطيبة التي تراها في تصوير (-ونغ) ، ولعلها من صناعة الفنانين الصينيين
ولأفلا مرة فيها في تقليد الفنون الصينية في الزخارف والأشكال .

ويرجع هذا التأثير ، كما رأى أكثر العلماء ، إلى العلاقة الدبلوماسية التي كانت
قائمة بين عاصمة الصين وإيلخان إيران ، وقد يكون لتأجيل المغال بالصور
الصينية ، دخل عظيم في هذا التأثير ، وبناء على قول رشيد الدين فضل الله ، كما
المقول يستحضرون الكتب المصورة والمصورين والبيان من الصين .

وهناك مخطوطة أخرى من كتاب مناقع الحيوان ، يتحدث قزويني عن إيرانيان إيرانيون
تري فيها لوحة من رسوم مناظر طبيعية . مثل الغمام والنبات والأشجار فهذه الأشياء
كلها من خصائص التصوير الصيني التي تعلمها ونقلها الفخاشون الإيرانيون في عهد
المغول (١) .

وفي مخطوطة لكتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين مخطوطة أخرى و (بديعة
آسيا الملكية بلندن) ترى عدة صور ، أساليب أو ألوانها ، مناظرها ، كلها صينية
عصبة . وأمثال هذه الصور ، تجددها في أكثر من ألف أوروبا ، وقد تحدث إليها
كثيرا عنها العلماء المتخصصون في الفنون والتاريخ مثل أرنولد ريدماند وبلوشه
وغيرهم من الباحثين المشهورين .

ويتصل بأملوب التصوير في جامع التواريخ ، بعض أوراق مصورة لنسخ
مخطوطة من شامنامه ، كتاب الملوك للفردوسي ، محفوظات في مجموعات شخصية
بأوروبا وأمريكا ، ففي هذه الأوراق المصورة ، ترى عدة صور مختلفة مخطوطة من
أساليب شني ، منها الصيني ومنها الإيراني ومنها المغولي (٢) .

وقد احتفظ أثر الفن الصيني بركزه في التصوير الإيراني في عصر آل تیمور
الذين قد خلفوا آل جنكيز خان على آسيا الوسطى وإيران ، وتأخذ الصور لهذا

(1) Dimand: p. 20.

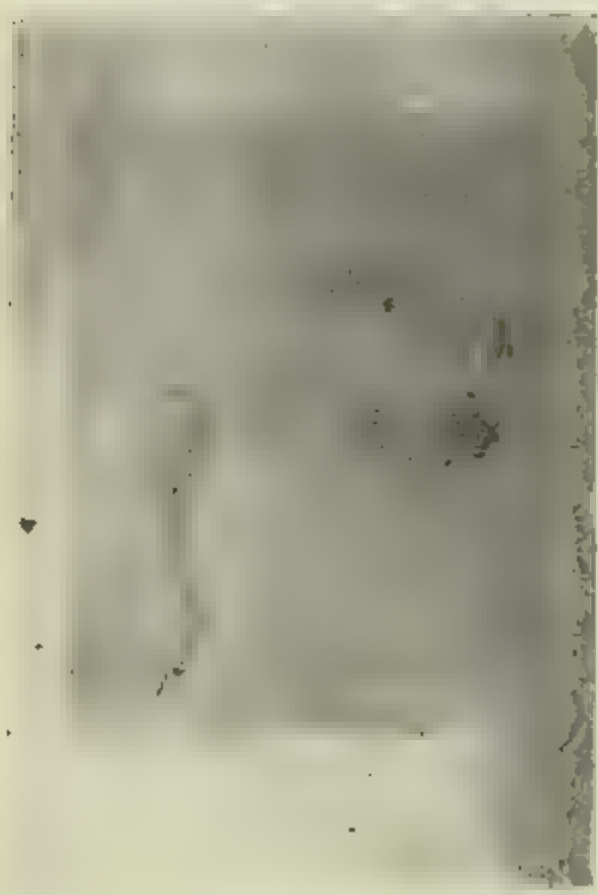
(2) Dimand : P. 21.

العصر ولو أنها نادرة الوجود ، غير أنه من الممكن العثور عليها ، ويذكر الأستاذ ديغاند نسخة مخطوطة لمكتبة خواجه الكرماني الذي عاش الى سنة ١٣٥٠ م . فانه قد وصف فيه حالة أمير إيراقي تملق بحب ابنة أميراطور الصين توجد لهذا الكتاب نسخة في متحف لندن . كُتبت في سنة ٩٩ هـ — ١٣٩٦ م ونُحت كتابتها بغداد على يد خطاط شهير معروف باسم مير علي ، التبريزي الذي قد اخترع أسلوب التملق في فن الخط . وفي صورة من صور هذه النسخة ، ترى أعضاء جريد النقاش الألماني ، كان فارسيًا ولعله قد خدم السلطان أحمد (١٣٨٢ — ١٤١٠ م) ، وهذه الصور التي صُنعت على أساليب التصوير الصيني ، أثر عظيم في مدرسة هرات ، في عهد شاه رخ

وليس يخفى أن شاه رخ قد احتفظ بعلاقة ودية مع الصين ، أشد توافقا مما كان عليه أبوه تيمور كوركان . وهذه العلاقات بجانب من الأهمية في استيفاء تأثير الفن الصيني في التصوير الإيراقي . ذلك تراءى في أن السفراء الذين سافروا بأذن شاه رخ الى الصين بين سنة ٩١٣ — ١٤١١ م ، قد أخذوا معهم رساما اسمه غياث الدين . فأوصاه شاه رخ بتقيد ما يشاهده في الطريق من العجائب والغرائب ، وتصويرها رسما ، اذا دعت الحال الى ذلك (١)

ثم نجد في شخصه ، باي سنكور ، بزاز بن شاه رخ ١٤١٧ — ١٤٣٣ م) مجا عظيما للفنون ابلجية وظهر هذا الحب في تأسيس مدرسة فنية بهرات فوظف فيها أربعين شخصا من المصورين والنقاشين والخطاطين والمجذبين من أهل ايران وبعضهم من تلاميذ مير علي التبريزي فساعدت هذه المدرسة على إيجاد نهج جديد للفن الايراني . لكنها لم تستطع التخلص من تأثيرات الصين التي قد اندمجت في التصوير الايراني وأصبحت جزءا من أجزاءه أسلوبيا ومنهجيا . فظهرت هذه التأثيرات في هذه المدرسة التي كتبت لمدينة هرات اسما خالدا وشهرة عظيمة

بين طبقات العلماء والمهندسين الذين لا يزالون في عهد بني تيمور وانتشرت
في أواسط آسيا حتى أصبحت شيوا وتبريز وسمرقند مراكز عظيمة للتصوير
والفنون الجميلة. ولم يكن كل هذا إلا ثمرة هرات وركه هذه النهضة.



(صورة من الصور الفلكية في زيج أوخ بك، وهي عبارة عن مجموعة الكواكب
في صورة التين الصيني كما صورها عبد الرحمن الصوفي المهرقند ١٤٣٠ م)

وتقول المصادر الفارسية، أن أولغ بك بن شاه، رخ وكاد حاكماً على ما وراء النهر من سنة ١٤٠٩ - إلى ١٤٤٦ م ، قد شيد مرصداً بحرف قد ورطاب فيه بعض العلماء البارزين في علم النجوم والهيئة ليطلقوا الأجسام السماوية ويراقبوا حركاتها، ولطولاء النيازات تصنيف كثيرة، أشهرها، ذبيح أولغ بك، توجد في متحف نيويورك. نسخة مخطوطة في علم الهيئة منسوبة إلى هذا العصر، فيها نحوون رسماً فلكياً، قد فيها الأسلوب الذي كان سائداً في أول عهد تیمور. ويقول الأستاذ ديماند أنه يملك ١٢ لوحة من صور شاهنامه، يرجع تاريخها إلى عصر أولغ بك، ومن القصص المنسوبة إلى شاهنامه، (بحاربه رستم الخبل رخش، وقبضته عليها) والمنظر في هذا الرسم، غفر جيبور، فطيم الشاهد، مكون من الأشجار العنقية وأوزة طائرة بين أرواقها.

وبما لا شك فيه أن فن التصوير الصيني قد ترك أثراً عميقاً في الفن الإيراني الإسلامي ولهذا التأثير مدى واضح في الأدب الفارسي، ووضعه الأستاذ آرنولد بنالين الأول أن ابن الوردی الجفرائی الذي عاش في أول القرن الخامس عشر للميلاد، ذكر من بين الصناعات التي فاق فيها الصينيون غـ برهم من الأمم، تصويرهم، فاهم قد استطاعوا أن يصوروا بریشانهم الخاصة، الأشجار والحیوانات والطيور والأزهار والأثمار بالإنسان، في مختلف الأوضاع والأشكال على حالتها الطبيعية، فظهر أمامك باطنة بالقوة، نابضة بالحياة (١).

والنمائل الثاني أنه في الشطر الثاني من هذا القرن، حينما ظهرت ترجمة فارسية لسكيلة ودمنة، بوصف المصور الذي وضع بعض المصور لهذه النسخة الجديدة، بما هو ممتاز هنا، وقامت أرواح النقاشين الصينيين في وادی التعجب، الحيرة عند ما رأين هذا المصور، يصرف في صفحات كيلة ودمنة. ويرسم الوجوه فيها، لأن قلبه العبقري، أدمش مصـ وری الخطأ (الدين) وسحرهم واستولى على مواطن إعجابهم.

ظل هذا التأثير في التصوير الفارسي، إلى عصر شاه عباس. وتوجد نماذج بكثرة وافرة لهذه المدة الطويلة. وانظر إلى هذه اللوحة التي في أول صفحة ٢٧٣ تعرف أثر الصين فيها.



صحن نور سلاطين إيران ، يتجلى فيه زخارف صينية —
من صناعة الشام العباسي (القرن السابع عشر)

فأثر الصين على العموم ، يظهر في صور العنقا ، والأكيلين ، والتنين والغمامة
المتركة وكذلك في التيلوفر والخمخاش والمناظر الطبيعية التي امتاز بها فن التصوير
الصين عن غيره فان وجدت شيئا من الاشياء المذكورة في نسخة فارسية أو
عربية من الكتب المصورة فثق بأنها مأخوذة أو متأثرة بالفن الصيني . ويمكنك
أن تعدد مبلغ هذا الاخذ أو الاثر ، بمدار الخصائص الفنية الصينية ، التي ظهرت
في التصوير الاسلامي .

ولم يقف أثر الصين عند تصوير الكتب ، بل تجاوزته الى فن التجليد ، ومن
المعلوم أن هذا الفن قد نال درجة رفيعة في إيران ، خصوصا في عهد بني تیمور
فالنماذج الجميلة المزخرفة بالمناظر الطبيعية على لاساليب الصينية ، توجد على عدة
نسخ من المخطوطات التي يرجع تاريخها إلى ٨٤٣ و ٨٥٠ و ٨٨٧ و ٩٢٨ و
٩٤٦ و ٩٤٨٢ م ، مخدوذة الآن في متحف لايفف باستبول ، ومنها نسخة في
داخل غلافها رسم جماعة صينية منوشة في الجلد ومن من آثار سنة ٨٥٠ م
٩٤٦ م ، تشبه نسخا أخرى ضمن مجرعات الاستاذ ديماند ، التي يرجع تاريخها

الى هذا العهد أيضا . وفي شكل ٢٠ من كتاب الأستاذ ديماوند ، نرى نموذجا بديعا
لفن التجليد في العصر التيموري ، يتجلى فيه أثر الصين في الأوراق الممرجة وفي
المنقوشين المتحاربين على أرض سوداء .

ب -

أثر الاسلام في فنون الصين

لقد تكلمت في الصفحات السابقة عن أثر الصين في الصناعة والفنون الاسلامية
الى حد يستطيع الانسان أن يتدبى به إلى بحث أوسع عما بحثت . وتحقق أصح
مما أوردت فطالب لمزيد أن يزيد ما ينشأ ، وللباحث الموفق أن يأخذ بأبحاث
مفيدة ، انما لما قصرت فيه : تكبلا لهذا الموضوع الطريف الذي قلما طرق باحث
بابه حتى هذا الحين ، هذا جانب من العلاقة الصناعية والفنية والى جانب هذا جانب
آخر غير ما ذكرنا في السطور السابقة ، وهو أثر الاسلام في صناعات الصين وفنونها ،
فالخلق هذا يسطور تبياننا لهذه الناحية من العلاقة الفنية . لكي نستطيع أن نكون
فكرة أولية عن تأثير الاسلام في فنون الصين وبلغ هذا التأثير فيها .

من كتاب علاقة الصين القديمة بالعرب الذي أخذنا منه معلومات كافية ، عن
العلاقة الدبلوماسية بين الصين والعرب ، وقفت على كتاب باللغة الصينية من
مؤلفات الأستاذ جنزوان أستاذ التاريخ في جامعة بكين ، فمقد فيه فصلا خاصا
عن الفنون الاسلامية في الدين^(١) وقد كنت ولا أزال حريصا على الحصول على نسخة
من هذا الكتاب ، لأطلع على ما كتب في هذا العدد . غير أن جهودي في تحصيل
بعض المعلومات من المصادر الصينية ، لم تهر حتى الآن وذلك لصعوبة المواصلات
والمراسلات بسبب الحرب القائمة في أوروبا وفي الشرق الأقصى ، وبالرغم من كل
هذا وجدت من الميسور أن أراجع الأستاذ برنولد لوفر : الذي قد نشر مقالا متعا
في مجلة الفنون الاسلامية ، التي تصدر من أمريكا تحت عنوان : البرنز الصيني

الإسلامي^(١) ، وقد زار هذا الاستاذ بلاد الصين مرتين - مرة في سنة ١٩٠٩ - ١٠٩٤ م ، والأخرى في ١٩٠٨ - ١٠ م . وكانت كلتاها للمهمة العلمية . فأفاد أنه قد شاهد كثيرا من مجتمعات المسلمين وآثار الإسلام المعمارية فيها . فجمع أثناء زيارته للصين أشياء كثيرة ، تتعلق بالحياة الإسلامية وومظاهرها . منها صور الكتب نابات التاريخية بالمساجد القديمة ، في الفتيين العربية والعينية ، ومنها المطبوعات الإسلامية وكذلك سبحات وقلائد موزونة بخط الذهب أو الفضة عليها المواظم والتصانيع باللغة العربية ، وهي خاصة بالمسلمين وقت صلواتهم . ومنها البرنز الصيني المنقوش بالزخارف العربية . لقد جمع هذه الأشياء كلها في مكتبة (نوبسرى) بنويديوك وهي التي قد أوفدته إلى الصين لهذه الأغراض العلمية .

نظرا إلى أن الإسلام قد دخل الصين في القرن الأول للهجرة وتمض في عهد المغول ، ثم اتسع نطاقه في عصر (منغ) ولا يزال يحتفظ بروح قوية تؤثر في الأخلاق والعادات في أمة الصين ، فإنه من المعلوم أن يكون له أثر في صناعات الصين وفنونها أيضا ، غير أن الباحثين لم يلتفتوا حتى الآن إلى هذه المسئلة ولم يعنوا بها ، ومن الجائز أن عالما ذكرها مصادفة أثناء بحثه عن الأمور الأخرى التي تتعلق بالإسلام في الصين لكنه لم يفردها بحث خاص ولا يستطيع أن يأتي ببحث خاص . إذ لم يجد مصادر يراجعها ، لكن الاستاذ برنولد لوفر الذي بولع بمحضرة الصين ومدنيته ، خصوصا بتلك الناحية من الحياة العمرانية ، التي لها علاقة وثيقة بالأمم الإسلامية في الشرق الأدنى ، قد بذل جهودا جارية في البحث عن هذه الناحية من التأثيرات المدنية ، فالنماذج التي جمعها من أنحاء الصين ، وعرضها الآن في مكتبة نوبسرى) ، تساعد على تحليل بعض النقط المهمة ، عن أثر الإسلام في صناعات الصين .

(١) أشكر الدكتور محمد زكي حسن ، أمين دار الآثار العربية (سابقا) ، وأستاذ الآثار الإسلامية في الجامعة المصرية (حاليا) على المساعدة التي قدمها لي في تلخيص ما جاء في مقالة الاستاذ برنولد لوفر (بدر المحسن)

ولا شك أن الغداج التي نجعلها من الصين ، أثناء جولتنا بها ، لا نكون إلا قطعا ، مدودة من الصناعات الإسلامية الصينية ، التي قد ضاع أكثرها في حوادث الدهر وزالت آثارها من صفحات الوجود ، بيد أني أعتقد أن قطعا غير قليلة من هذا النوع من الصناعات الفنية ، لا تزال محتفية في بيوت عامة الناس متفرقة في البلدان المختلفة في طول بلاد الصين وعرضها ، وأنا كان أحد من الباحثين يصرف جانباً من مهنته في البحث عن هذه الصناعات الإسلامية الصينية ، ويجمع غادجها من البقن أنه سيفوز فوزاً عظيماً وسيأتي بأعظم بحرفة محكمة ، يرجع إليها الباحثون فيما بعد .

أما من بدأ تأثير الإسلام في صناعة الصين وقدرتها ، فهذا سؤال يصعب على أي إنسان أن يجيب عنه ، أقول هذا ، لأنني جاهل بتاريخ هذا التأثير ، لأن فن الصعب علياً أن نحدد من ابتدائه ومن الختمل أنه قد بدأ قبل عصر المغول ، إذ كثر الرواد من العرب إلى موالي الصين في القرن التاسع للميلاد وفيها بعده ، غير أن تأثير الإسلام في صناعات الصين ، قد ظهر واضحا جليا في عهد المغول (١٢٧٧ : ١٣٠٧ م) ، ذلك تراء ، في « نعمة المدفع » واستخدام الخناجر في المقاتل العسكرية وعن المأبذ في المصدر العربي ، أن المغول ، لما فتحو البلاد الإسلامية نقلوا كثيرا من الصناعات الإسلامية من العراق إلى قراقرم ^(١) ومن المغول أن هؤلاء الصناعات المسلمين قد تركوا بعض آثارهم العنابية والفنية في عاصمة مغوليا لذلك العصر ، ومن تحقيق الأستاذ جيونان ، « أرسلنا معروفا في تاريخ الصين باسم « بخير » ، ^(٢) قد اشتركت في « قصر قبلاي خان » الذي سماه ابن بطوطه (خاتقو) خاتيا التي وواضح إذن ، أن المسلمين كان لهم دخل عظيم في إيجاد بعض الصناعات وأدخل بعض الأساليب العربية فيها .

(١) Dimand: 68.

(٢) يظهر أن التحريف قد وقع في هذا الاسم ، واول أصله يختار (صاحب البحث) ، يستعمله الترك والإيرانيون في التسمية دائما .

ونبهت الصناعات الإسلامية بالصين في عهد (منغ) ، خصوصا في القرنين الخامس والسادس عشر للميلاد ، فاستمرت حركة هذه النهضة إلى القرن الثامن عشر ثم فترت في منتصف القرن الماضي فلم يجد نشاطا حتى اليوم .

وأما أحد التأثيرات الإسلامية فيها ، فلا نستطيع الإجابة على هذا السؤال ، إلى حد كاف أو مقنع لفلة المصادر والمراجع التي تحت أيدينا ومن المناسب ألا نبدي أي رأى في هذا الصدد حتى تتمكن من الحصول على وسائل كافية للبحث التجليلى وأدلة مفصلة للتفقد العلمى .

ويذكر الأستاذ لوفر - يا آخر يعوق بحثنا عن مبلغ التأثيرات التي أحدثها الإسلام في صناعة الصين خاصة وفي ثقافتها عامة ، وهو أن المسلمين في الصين يلتزمون السكوت دائما . وهم ليسوا كمثل البوذيين الذين كانوا يرفقون قيمة الاعلان والدعاية ولم يتعبوا منها أبدا ، فأستفادوا من الاعلان والدعاية بطرق محتامة وتدابير منظمة لدينهم وثقافتهم الدينية . فلذا ترى اليوم واضحا جليا مبلغ التأثير الذي أثر دين البوذية في مدينة الصين وثقافتها - لكن إذا سأل - سائل - الى أي حد أثر الإسلام في حضارة الصين ومدينتها فلا محذور ، ولأن الآداب الإسلامية في اللغة الصينية وغير اللغة الصينية لم تتناول هذا الجانب من البحث ، بل أهملها أهملها تماما حتى لا سبيل لنا الى معرفة حقيقة هذا التأثير من المصادر الإسلامية فعلى الباحثين الذين يهتمون بهذه المسئلة العلية أن يبحثوا من المصادر الصينية في صناعاتها وفنونها مثل البرنز والفضة والمنسوجات والتصوير خصوصا في الصناعات التي يرتبط تاريخها بعصر منغ ، لكي يتمكنهم أن يفرقوا بين الصناعات الأصلية والتي تأثرت من الإسلام اسلوبا وزخرفة .

ومن تحقيق الأستاذ برنولد لوفر أن أول من كتب من الاوربيين عن فنون الصين هو الأستاذ بالبولوخ N . qaliologue وهو أول من بحث قليلا عن البرنز الإسلامى في الصين أيضا . فوضحة بثلاثة نماذج من هذا الفن عليها كتابات عربية لكنه لم يأت بترجمة لها . وأنه قد أخذ هذه النماذج من مجموعة فيه

تمت يد الأستاذ شفر (C' Shaffer) وكان مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية
 ياريس ، وأما تاريخ هذه التماذج فيرجع كما هو ثابت من نقوش الأختام . في
 أسافلها إلى أول القرن الخامس عشر من الميلاد ويصدق الأستاذ بالبولوغ أن هذه
 القطع كانت من (طقم) واحد يستعمل في خدمة الرسوم الدينية عند المسلمين
 الصينيين . وهذا (الطقم) عبارة مفعمة لوضع عيدان البخور فيها ومبخرة
 وأنا . للفاظد البخور . ولذلك في أن مسلمي الصين كانوا ولا يزالون يوقدون عيدان
 البخور في الحفلات الدينية في باخر برتزية مستند في الصين وتخرقة بالورية والصينية
 معا . لكن متى نشأت هذه المادة فيهم وهل نشأت من تقليد من لوثنيين الصينيين
 الذين رثوا هذه العادة من أبائهم أو أجدادهم من قديم الزمان أم من تأثيرات إيران
 التي كان تجارها يستوردون منها عيدان البخور المأروقة في آداب الصين بالبخور
 الأبرانية ، ولا يستطيع الأجابه على هذا رأي قطع . إذا نظرنا إلى طادات العرب
 نجد أن أشمال البخور والحفلات الرسمية لا يزال رعا مهم إلى الآن فلا غرو إذن
 أن العرب كان لهم بعض التدخل في ترويض هذه العادة بدليل أن المسلمين في الصين
 يرون أن أشمال البخور لازم للحفلات الدينية خصوصا في مجالس الوعظ وتلاوة
 أي الذكر الحكيم .

والذي ذكر هذا الفس بعد الأستاذ بالبولوغ هو الأستاذ بوشل (W' Bushell)
 وأنه طبع في كتابه القانون الصينية ، صورة لمبخرة نحاسية عليها كتابات عربية
 صنعت في عهد سوان ته ، (١١٢٠ - ١١٣٥ م) ومورتين آخرين للاتواني
 الزجاجية القائمة الوا عليها الوخارف العربية . فحمل أحدهما تاريخا يدل على أنها
 قد صنعت في عهد يونغ جنغ ، (١٧٢٢ - ١٧٣٥ م) . والذي كتب حديثا
 عن الفن الاسلامي في الصين هو الأستاذ كاله (Prof' kahle) بجامعة بن
 Bonn University لقد تحدث عن خطاي نامه ، الكتاب الذي ألفه عالم إيران
 اسمه على أكبر في القرن السادس عشر من الميلاد ، ووقف علماء أوروبا على هذا
 الكتاب بواسطة الأستاذ شفر الذي قد ترجم بعض فصوله إلى اللغة الفرنسية في

اتمام بحثه عن العلاقات المسلمين بالمسيحيين ،^(١) وأما الأستاذ كاله فتتبعه أوصله إلى معرفة أن علي أكبر هذا قد سافر إلى الصين ومكث هناك سنتين (١٥٠٥ م) - وبناء على ما جاء في عمله أن الامبراطور « هوجونغ » كان شديد الميل إلى الاسلام لذا كان يفضل توظيف الشرفاء المسلمين عنده - ويظهر أن « هوجونغ » ، ما كما آخر من « لوك » منغ ، قد تعلم اللغة العربية وبسبب هذا اشتهر اسلامه . لكنه هل أعلم حقا ، أو اعتبره الناس مسلما ؟ ، والتصديق بذلك يحتاج إلى الأدلة التاريخية والبراهين الواقعية . لأن التحقيق في هذه المسئلة وفي مثلها ، يتلحق بتاريخ الاسلام في الصين ومن المناسب أن نتركها هنا ونعنى إلى ما نحن فيه من البحث . إلا أننا نقول أن أكثر الصناعات الاسلامية التي ذكرها الأستاذ كاله كان من عهد « زولا » الوامل ، واول ميلهم إلى الاسلام أو إلى المسلمين أثر في اخراج بعض الصناعات الصينية على طراز اسلامي ، فمن هذه الصناعات الففوريات البيضاء خضراء مصنوعة في عهد « جونغ » ، وهي مزخرفة بالكتابات العربية ومزينة بالقوش العربية الفارسية ، والنماذج لهذا النوع من الففوريات توجد بكثرة في « راي استنبول » .

ولقد قلت أن هناك نوعا من البرنز الاسلامي ، صنع في عهد « صوان » ، (١٤٢٦ - ١٤٣٥ م) فالأستاذ برتولد لوفر الذي استند إليه الآن ، جاء بصورتين من هذا النوع من البرنز كما ترونها في شكل ص ٨٠ . فامتازت هاتان الميخرنان عن أخواتهما بتاريخ معين وبسمة حروف صينية ، يكشفهما بعض الأمور التاريخية الهامة . وقد حصلنا في مدينة « سي آن » ، في سنة ١٩٠٨ م ، من تاجر مسلم ، وكان مشهورا بكونه تاجرا في الماديات (انتيكات) - ويقول الأستاذ لوفر ، أن المسلمين في تلك المدينة ، كانوا قابعين على ناحية سوق الصناعات الفنية تماما ولهم وحدهم احتكار في تجارة الماديات والصناعات الفنية

(1) Les Relations Musulmanes Avec les Chinois



فوق :

صورة مبخرة برنزية صينية اسلامية ذات
ثلاث أوجـل ، صنعت في سنة ١٤٣١ م

أسفل :

ناحية تحتيـة للمبخرة ، عليها كتابة صينية
ذكر فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة

وان هاتين الميخرتين اللتين ، أخرج الاستاذ لوفر صورتهما نموذجاً لاختراعهما
الأخرى التي توجد بأسواق الصين بكثرة حتى اليوم تشبه أحدهما الأخرى ،
شكلاً ، صناعة . وقد صنعا في المملك الإمبراطورية ييكين ، أحدهما في سنة
١٤٣٠ م والأخرى في سنة ١٤٣١ م . ولاشك أنهما دقيقتا الصناعة ، حيثما السيك
وكان الصانع هو ، وويونغ تسو (Wu Pong Tso) وذلك عرفاه من الخاتم
الذي وجدناه في أسفل المبخرة

ولقد طبع الاستاذ لوفر منظريرين للمبخرة الأولى مع مقالته في مجلة الفنون
الإسلامية . وهي في لون أحمر لامع يمتاز به الفن البرنزي في عهد ، صوان ته .
ونرى فيها ، كلمة التوحيد ، وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) في خط بديع جميل .
والاستاذ برتولد لوفر ، بحث طويل في غرض ، وويونغ تسو ، في نقش هذه
الكلمة التي هي أساس دين الإسلام ، في المبخرة . هل كان يقصد به - استمالة
الإمبراطور . صوان ته . إلى الإسلام ، أو يريد بها إظهار جمال الحروف العربية
التي تلائم أوضاعاً زخرفية في الأواني والخ . . . أو قصد بها ذكرى للترقية التي
قد نالها في تلك السنة من منصب الوكيل إلى وزير الأشغال . فاستنتج على كل
احتمال من هذه الاحتمالات ، أن ، وويونغ تسو ، كان مسلماً غيوراً ، وقوى
دليله بوجود كبار المسلمين الموظفين في بلاد الصين في ذلك الزمان



صحنان برزبان، أولهما ذوسنة ضلاع مقوسة، والثاني مستدير الشكل.
فالإخارف العربية فيهما يشابه بعضها بعضاً - من صناعة عصر (منغ)

ومن الفاذج البرزبية التي جمعها الأستاذ لوفر، صحنان مضروبان من النحاس،
مركبان من عدة فصوص وفي وسط كل فصوص الحروف العربية، غير أنها
صارت غير واضحة وصعبة القراءة ولعلها كلمات عن أركان الإسلام ومبادئه،
مثل كلمة التوحيد والصلاة والصيام والحج وغيرها من الدعاء والذكر. فهذان
الصحنان يشبه أحدهما الآخر في الصناعة والتركيب والزخرفة بالبرية. غير أن
الأول على شكل مدس والثاني على شكل دائرة



فوق:

ختماء على نحاسية ، عليه زخارف عربية بدئية

أسفل:

ثلاث زهريرات وهي من صناعة عصر (منغ) تشهد بأثر الاسلام فيها

من مجموعة الاستاذ لوفر ، على نحاسية . مستديرة الشكل كما تراها في الشكل الاعلى على غطائها زخرفة عربية . فالكتابات العربية المقوشة فيه تقرأ : محمد ، محمود ، احمد ، حامد ، وفي الحواشي زخارف عربية مكونة من أربع وحدات ، وبين كل وحدة وأخرى ترى أوراقاً باسطة الوجوه ، مختلطة بالساليح وموس الطيور .

وأما الزمريات الثلاث التي نراها مع العلية التحاسية في شكل واحد، فأنها من صناعات آخر عهد منغ، على الرأي الأرجح، ولكل منهما عرونان بديتان. والتي بالشمال والوسط مزخرفتان برسوم الأزهار، الواضحة التفوش على عنقهما. فالكتابة العربية في الأولى، من الشمال، سبحانه الله، وفي الثانية ومحمد، وفي الثالثة، دوالحد لله. ومن الخادج، نفهم أن الفنون الإسلامية في الصين كان لها شأن عظيم، خصوصاً في عهد (منغ)، الذي هو عهد النهضة الإسلامية أدياً وفنياً. غير أن الباحثين لم يلبثوا إلى هذه الناحية من آثار الإسلام. لكن على كل حال متواصل البحث عن أثر الإسلام في فنون الصين ونود أن تأتي مزيد تفاصيل، بعد عودتنا إلى الصين لأن المعلومات التي تتعلق بهذا الموضوع تحتاج إلى الجمع والبحث من المصادر الصينية وهي غير منيرة في مصر.

الذي يجب علينا أن نقول هنا، هو أن الاسلوبيين من الزخارف الخطية - الصيني والعربي - اللذين لم يكن بينهما أية صلة لسانية، قد ازدوجا في أرض الصين، ازدواجاً يوافق أحدهما الآخر، ذوقاً وتنسيقاً، لا يظهر بينهما أي تباعد أو تناقض. ومن العجيب أيضاً أن الحروف العربية قد أظهرت صلاحيتها الفنية في أواسط فنون الصين، وأثبتت فعلاً أنها تنسجم مع حياة الصين الفنية. لا بل زادت فيها نوعاً من الجمال والجلال لم يكن موجوداً فيها. وبفضل هذا الازدواج ظهر نوع حديث من الفن معروف عند العلماء الآن، باسم الفن الإسلامي الصيني الذي لم يكن شيئاً مذكوراً قبل عصر (منغ).

الباب الثامن

التائج

بعد ذكر هذه العلاقات التي تناولت ستة فواح وهي السياسية ، والعلمية والتجارية ، والدينية ، والدبلوماسية ، والصناعية الفنية ، أرى لوأنا على أن أكتب كلمة من نتائجها ، أنماها البحث الذي لا يزال فيه حتى الآن ، وهذه النتائج كما وجدتها ، أما مرتبة على العلاقة السياسية وأما على العلاقة الدينية وأما على العلاقة التجارية ، وأظلمها رتبة على آخر الذكر ، فالتى رتبت على العلاقة السياسية هي دخول الاسلام برا ، إلى شمال الصين وغربها واختلاط دم العرب بالدم الصينى تلك الباحة من البلاد ، وانتشار صناعة الورق إلى الممالك الاسلامية ثم إلى أوروبا .

لقد سبق البحث في وصول هذا النوع من الصناعة الصينية إلى سمرقند وغيرها من البلدان الاسلامية ، ولا حاجة بنا إلى تكرار ما قلنا من ذلك في هذا الموضوع . غمى أنا تشير إلى نتيجة رتبت على انتشار هذه الصناعة في الممالك الاسلامية وهي كلمة « كاغد » ، التى يستعملها بعض كتاب الاسلام كما فعل ابن بطوطة في القرن الثالث عشر للميلاد ، ككلمة عربية وأجرى عليها قاعدة اللغة العربية بمجموعها على « كواغد » أن هذه الكلمة لم تكن فارسية الاصل ، كما زعم بعض اللغويين . وأصلها من الصين ، من كلمة (Kukdz)^(١) وهى الورقة التى تصنع من قشر الثوت فحريت هذه الكلمة الصينية إلى اللغة الايرانية ، بعد واقعة « تالاس » فى شكل محرف إلى « كاغد » . فعم استعمالها فى بلاد الفرس . ثم نقلت إلى لغة الضباد ، على أغاب الظن فى عهد المغول ، وهى مستعملة الآن فى اللغة العربية ككلمة معربة ، خاصة للقواعد العربية ككلمة أحيلة^(٢) .

(١) Laufer: Sino-Iranica: On Paper

(٢) جاء فى القاموس ، الكاغد والكاغد والكاغد القرطاس معرب .

وأما وصول الاسلام إلى الصين برا كنتيجة من نتائج العلاقة السياسية فواضح جدا لا يحتاج إلى مزيد تفصيل ، لأن زحف فتية بن مسلم الباهلي إلى أواسط آسيا وقتحه لكاشغر في سنة ٩٦ هـ - ٧١٥ م ، كانه منذو لصاحب الصين بقدم الاسلام الذي يتطلب استعدادها لقبول أو الخضوع إلى حكمه ، لقد بحث فتية بن مسلم بالفعل وفدا إلى امبراطور الصين بربانة هيرة بن مشمرج بطلبه بقبول أحد الأمور الثلاثة : الاسلام أو الجزية ، أو الحرب - وأن فتية لم يحقق أمه بسبب وفاة الوليد بن عبد الملك ، لكن حالة الصين الداخلية بعد أيام فلا تل ، قد هيأت الأسباب من نفاذ نفسها لاستقبال الاسلام . فالثورة الهائلة التي ظهرت في شخصية آنلوشان (An Lushan) واستمرت من سنة ٧٥٤ إلى ٧٥٧ م أكرهت امبراطور الصين على الاستعداد بقوات المسلمين بأواسط آسيا في قمعها ورد الحكم إلى يده . فجاء بضعة آلاف من عساكر المسلمين بقيادة : يعقوب ، من التار والاوزغة والعرب ، إلى اعانة ، سو تسونغ ، الذي قد ارتقى العرش ، عند غياب أبيه عن العاصمة وانقطاع أخباره ، وبفضل هؤلاء العساكر المسلمين أو بأمرهم ، قد تمكن من إخماد تلك الثورة الهائلة ، حتى رد النظام إلى نصابه . فأرسلهم وعظمهم غيرهم في الإقامة أو العودة فعاد بعضهم واستوطن الآخرون . فأنشأ للمقيمين مسجدا في العاصمة ودور الضيافة فيها ، حتى طابت لهم الأرض ، استقرت حالهم ، فاخترار أغلبهم الإقامة الدائمة في شمال الصين فانتشروا فيها من يومئذ .

وطبى أن إقامتهم هناك ، لا تستقر إلا بأن تكون معهم عائلاتهم . فالذين كانوا يعملون المائلات معهم أيام الحرب ، استوطنوا حث وجدوا أوطانا جديدة لهم في تركستان أو غير تركستان . وأما الذين توغلوا في الصين بناء على دعوة امبراطورها ، ولم تكن معهم عائلات ، قالو طبعا إلى تأسيس بيوتهم بمصاهرة الصينيين بعد اختيارهم للإقامة هناك^(١) فنزجرو وتاسلخوا حتى كونوا في الأيام المتأخرة نوعا جديدا من النسل لم يكن موجودا في الصين .

فالعلماء الذين يبعثون عن أصل المسلمين في شمال الصين وغربها ووجهة ذلك
ثلاثة أجناس من المسلمين ، جنس فيه دم العرب ، وآخر فيه دم الأواغرة
وثالث فيه دم المغول ، وأحسنهم صورة وقامة هم الذين ينتمون إلى العرب ، ثم
الذين ينتمون بدم الأواغرة ، ثم هؤلاء طوائف العامة قور الأعصاب ، شاعروا بالتوف
مستطيلو الرقوس ، كثيرو النحي ، وأسمو الجبين كبيرو العيون ، أقرب شها
وعبث بأولئك القوم الذين ينتمون إلى الهن أو جنس القامتان أو بخاى وهم أشد
الناس تمسكاً بحكام الإسلام ، وأكثرهم حيالة العرب والمغربية ، ويوجد فيهم
العلماء الكبار الذين يهتمون بعلومهم ، والحديث ، إلا أنهم لا يجيدون التأليف ،
بل يكتفون بما ألفه علماء العرب والعجم ، وهم من الهدم المكتبة الدينية والمغربية
٢ - نتائج العلاقة الدينية .

وأما النتائج إلى نزاع عن العلاقة الدينية فتشمل عدة أمور - منها إنشاء
المساجد وازدياد المسلمين ، ومنها ادخول اثنين الدينيتين والفارسية الاغراض
الدينية ومنها نقل العلوم العربية إلى الصين ، وماذا أتكم عن هذه الأمور على
سبيل الأجمال

من الطبيعي أن إنشاء المساجد يتوقف عن انتشار الإسلام وازدياد المسلمين
في الصين ، ولقد عرفتم في باب سابق ، أن الإسلام قد وصل إلى الصين سنة ٦٥١م
في عصر (تانغ) ، فأخذ ينتشر شيئاً فشيئاً في عصر (سونغ) ثم قوى وازدهر في
عصر (يوان) أو المغول وعصر منغ (أو ما عسر مانشو Manchu) فكان عصر
المصائب والكوارث على المسلمين ، فقد مات فيه ملايين (فالباقون على قيد الحياة
لم يستطعوا التنفس في مواء الحرية والاندماج في من نسيم التقدم ، اقتصادياً كان
أو اجتماعياً ، دينياً كان أو مذهبياً ، لأنهم كانوا مقبدين في هذا العصر المشثوم
الذي علا فيه الطغاة في أرض الدين بالنيود الفقية في كل ميدان من العمل حتى

في الميدان الأدبي - إلا أنهم لم يجرؤوا من السجود في المساجد فاستمروا في هذه الحالة المظلمة إلى انقلاب الصين في سنة ١٩١١ م

ويرجع تاريخ إنشاء المساجد في الصين إلى سنة ٧١٢ م ، وهي السنة التي أسس فيها ، أول بيت لله في (جانغ - آن) عاصمة الصين حينذاك ثم مسجد آخر بكانتون ثم ثالث بنانكين ، وبما لا شك فيه أن هذه المساجد الثلاثة ، هي من مؤسسات عصر (تاتس) ، فالأول كان للمساكر المسلمين الذين جاؤوا من وراء البحر واختاروا أقاليمهم في عاصمة الصين وأما الثاني والثالث فالتجار الذين وردوا عن طريق البحر إلى الصين ، فكان منهم الإيرانيون ، سكن أكثرهم من العرب ، فلما انتشر الإسلام في عصر (سونغ) بعض الانتشار ، بسبب التجارة الزاهرة التي كانت تربط الصين بالمسلمين ربطا وثيقا ، أخذوا ينشئون عدة مساجد أخرى في مدينة (جوان شو) و (هانغ شو) ، وبأثناء نظرة سريعة إلى تواريخ هذه المساجد ، نفهم ، أنه الإسلام حتى آخر عصر (جونغ) ، لم يصل إلى غير عدة مدن ساحلية بالصين لكن مع ظهور المغول في ميدان السياسة وسيطرتهم على الصين أوجدت الإسلام فرصة سانحة للتوغل في الولايات الداخلية ، حتى أشبثت في غانباتي (بكين) وحدها ستة عشر مسجدا ، منها ستة شيدت على نفقة الأمير آنده (١) تسع لمائة ألف نسمة من المصلين . وأما غير هذه المساجد الستة ، فأُنشئت على نفقات شيكرم ، أحد ملوك المغول بالصين . ومع وجود هذه المساجد الجديدة ، لا يجد بعض المسلمين علا أصواتهم

أفد تقدم الإسلام في عصر المغول بسرعة البرق في ولايات الصين وأوجاها حتى وقف العلماء في هذا العصر حيارى في تعليل هذا التقدم ولا يدرون هل كذب المؤرخون أو بالفوا في بياناتهم ، والحقيقة أن أحدا لا يمكن أن يصدق مثل هذا القول إلا إذا علم به من مصادر وثيقة كجامع التواريخ ، لرشيد الدين فضل الله ، أن ثمانيا من اثني عشرة ولاية من الصين في هذا العهد ، كان عليها حكام مسلمون ،

(١) Blochet: Introduction à l, Histoire des p. 76.

غيم وزير المالية شمس الدين الملقب بالسيد الاجل، ووزير الحرية على يحيى الأيوبرغرى .

وبقى الاسلام مزدهراً في أرض الصين إلى عهد بعيد حتى بعد انقراض الدولة المغولية منها . كان السبب في ذلك ، أن كثيراً من زعماء المسلمين ، قد اشتركوا مع الوطنيين الصينيين في قلب الدولة المغولية . فقالوا أكبر حظ من الاكرام والتقدير من الحكومة الجديدة التي قامت بعد المغول وإذا تصفحت تاريخ (منغ) تجد أعلام المسلمين فيه مذكورة وكانوا من أركان الدولة وأعمدتها ، وعلى اكتافهم وقعت أكثر الأمور الهامة .

وأما مبلغ التقدم الاسلامي في هذا العصر ، فيمكنك أن تقدره من تلك المساجد التي أشتت في هذه الأيام يوجد الآن في ربوع الدين آلاف من المساجد فلها يحمل تاريخ (منغ) على اختلاف سنواتها بين ١٢٥٠ و ١٦٥٠ م . فالكثافات الحضرية التي وضعت تخليداً لتواريخ تأسيس المساجد في هذا العصر ، أكثرها نفشت بالعربية والفارسية ومنها ما بالتركية أيضاً ، أن هذه المساجد امتازت عن أخواتها بسمه ساحتها وضخامة مبانيها ومشابهتها لأكبر كل كاتدرائية مسيحية وجلالا كما تراها في جامع (نيوكاى) أو في جامع (البرج الرابع الشرقى) ببيكين .

وتوقف انتشار الاسلام بعد عصر (منغ) بسبب فقد العوامل المشجعة والاسباب الممركة التي وجدت في عصر المغول أو في عصر (منغ) من ناحية . ومن ناحية أخرى . بسبب نفور حكام (مانشو) من وجود المسلمين في الادارات الحكومية واضطهادهم لهم . لقد نشأ هذا الاضطهاد من خوفهم من توحيد الصفوف بين أنصار أسرة (منغ) وهم الصينيون الخالص ، وبين زعماء المسلمين وكانت لهم أياد بيضاء في إقامة الحكم لأسرة منغ على أرض الصين أمام هذه الموانع كان الاسلام في عصر (مانشو) لا يستطيع الحصول على اتباع جدد بل كان سير الأمور يجرى على العكس . فهلك آلاف . بل ملايين في الثورات التي سافت مظالم الحكام المانشوريين المسلمين في شمال الصين الغربي إلى ايقاد نارها

متوقعين منها الخلاص والنجاة. لكن يد الحكام الحديدية أنقل وأوقع فسكان الثوار من الهالكين بعد كفاح متواصل وجمادام أكثر من نصف قرن، فإن هذه الحوادث المؤلمة تحتاج إلى مجلدات ضخمة في سرد ما وبياها وتركنا ما هنا لأنها من موضوع آخر غير ما نحن بصدده ومع كل هذا كان المسلمون قد احتفروا بمراكزهم في المجتمعات خارج الهيئات السياسية والادارات الحكومية فظهرت نهضة مباركة في الميدان الأدبي الاسلامي، ولولا المراقبة الشديدة من الحكومة القائمة على هذه الحركة لانتسعت إلى الدوائر الفكرية غير الاسلامية، فغير أفكار الآخرين إلى ما يقرب من الاسلام، لكن هذا لم يكن من مشيئة الله، فخطت ايما حبوط.

ومع ذلك، بقيت بعض آثار هذه النهضة الادبية الاسلامية في الصين، منها تلك المؤلفات التي تركها قلم الاستاذ ليونشي Liu Chih والاستاذ الشيخ يوسف مافوسو^(١) باقية في عالم الأفكار، خالدة بجزائرها، محتفظة بمراكزها بين أدب الاسلام في الصين مما وصل ازدهار العلوم الاسلامية في الصين في المستقبل. وما هو جدير بالذكر، أن كتابا من مؤلفات الاستاذ ليونشي قد ترجم إلى اللغة الانجليزية تحت عنوان (الذي المربي)^(٢) والحقيقة أن تصانيف هذا الاستاذ والتي بقلم الشيخ يوسف مافوسو، تلمت أنظار غير المسلمين إلى أبعد حد، فبرجسون اليهما في فهم بعض حقائق الاسلام وسمو أفكاره.

ان الاسلام في الصين قد أصبح محروما من العوامل الخارجية بعد عصر (منغ) مثل التجارة، وزيارات السفراء، ومناصب الحكومة، في توعية فضية، غير أن حاملا فطريا، قد هبأ الله، من صميم الفطرة، لحفظ الاسلام في الصين والدفاع عنه بطريق سلمي صامت، فكان هذا العامل الفطري لم يقعد عن العمل أو يقف عن السير، يوما من الايام لم يكن هذا العامل الطبيعي الذي حفظ الاسلام من الانقذار في بلاد وثنية قام بها حكم الطغاة الوثنيين، غير النفرع من الاصل

(١) أنظر في، جني مسلمان، ص ١٠٤

(2) The Arabian Prophet

والازدياد في النسل فخطر على المسلمين المخدرات ومنهم من استعمال المسكرات وبذلك استطاعوا أن يحفظوا قوتهم الجسمية من الضعف والانحلال فترى أغلبهم أحسن جسم وبنية وصحة من الصيادين الآخرين الذين اضطرت أعصابهم ، وزاغت عضلاتهم ، بسبب أدمان ما لا فائدة منه من المأكولات الضارة والمسكرات الفاتكة للأجسام والعقول ، فهزلت قواهم ، وانحطت أخلاقهم .

وقد يكون هذا سرا من الأسرار التي أراد الله بها الإبقاء على المسلمين في بلاد الصين حالين لمواجهة جميع الشقات في سبيل المحافظة على الحياية صابرين على الشدائد في ميدان العمل الذي لا يسهج فيه إلا أقرباء البدن والأعصاب ، ومع أنهم كانوا تحت مظلم قاسية في عصر (مانشو) قد تمكنوا من رفع مستواهم الاقتصادي بالتجارة والزراعة إلى منزلة متميزة حتى قدروا على تربية عدد كبير قليل من الأطنال الذين تركهم آبائهم الوثنيون البائسون على قارعة الطريق بين غلاب الموت وأظمار الجماعة ، وكان ذلك من نزول الآفات السبابة على حقولهم وممتلكاتهم المادية مثل القحط والفيضانات وأن هذه الآفات تزور الصين حينئذ بعد آخر بدون سابق أنذار فتتقاضى من أهلها آلافا من الضحايا الأدميين . فالأطنال الذين فقدوا حنان الأبوة أو تركوا في الطرق بدون مأوى ولا ملجأ يلقطهم المسلمون ويضمونهم إلى صدورهم ضم الآباء الأبناء فيدخلونهم في حظيرة الإسلام التي يجدون فيها ظل الرحمة الواسعة والرعاية الثابتة لأرواح مشردة .

ومكثا أكثر المسلمون في عصر (مانشو) خصوصا في آخر هذا العهد حين أغرق الإمبراطور في الفسق والتفجور . فأتتهم الآفات من حيث لا يشعرون . وأما الآن فيطبخ المسلمون على أحروب تغدير أربعين مليوناً أو يزيد وأن كان هناك قائلون بأكثر من خمسين مليوناً (١) وأن هؤلاء يتفرقون في جميع الولايات والمدن ولهم مراكز خاصة وبيئات خاصة في الجهات التي يقطرون بها . وأما أكثرهم في ولايات يوتنان وقانسو والولايات المجاورة لها .

(١) يجد في آخر باب من كتابي جيني مسلمان يحنا وأفيا في تضارب الآراء في سكان المسلمين بالصين رأي فيهم .

وعما لا شك فيه أن مراكرم الاجتماعية والدينية هي المساجد التي أنشأوها من حين لآخره محافظة على حياتهم الاجتماعية وعلى الحقوق التي يستحقونها في مجتمعات الدين . ولولا هذه المساجد ، لفتى الإسلام في الوثنية في الغابر ، أو الدهرية في الوقت الحاضر ، لكن الله يريد بهم يقين أحياء رغم دوران الأفلاك عليهم فأصبحت هذه المساجد عند المسلمين في الدين ، أركاناً ركنية وحصوناً حصينة يلتجئون إليها في حل مشاكلهم الاجتماعية وعقد مصالحهم الدينية . ثم هي مجتمعات التعارف بين المسلم وأخيه ، ومعقل التعاون والتضامن ، إذا انقلب عليهم الدهر ودارت عليهم الأفلاك لسبب لا يدركونه . ثم أنها بنايع تنفجر منها مياه الحياة ، يفرد إليها كل مفلس من أن كان . يشرف الاخلاق ، ونشفي غليل كل متعطل إلى الفضائل والمساكرم فيرتد فرحاً مسروراً بعد ما أشرف على الموت ياتماً سافطاً في فساد الدهر وأنها لقوة جبارة في حفظ حياة المسلمين من الزوال ، بصفة أنها مراكم للتعليم الديني وإثباته الإسلامية ، وفي منع الإنسان من السقوط إلى درجة الحيوان أو أدنى منها . ولولا هذه المساجد لتكافوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة . وعدد ما يقدر في الوقت الحاضر بعشرة آلاف يحفظ المسلمون بها وجودهم وخصوصياتهم في أنحاء الصين العامرة .

ومن نتائج المدقة الدينية تسرب التقنين العربية والفارسية إلى الصين وتأثيرها في بعض نواحي حياتهم : لا أقول انتشارهما لأن الفسح يحتاج إلى مساع منظمة . قد دخول هاتين اللغتين وأثرهما في مجتمعات الصين لم يكن بطريق منظم كما كانت اللغة العربية والفارسية في الهند أو ما وراء النهر ، بل من طريق لم يشعر به إنسان . ثم الانتشار يقتضي تأثيراً عميقاً وتفوقاً واسعاً به العمل في الحياة الفكرية أو الحياة الاجتماعية . فحالة العربية أو الفارسية لم تصل إلى هذه الدرجة من قوة النفوذ والتأثير فلذا قلت أنها تسربت إلى الصين من طريق خفي وآثارها موجودة في الواقع غير محسوسة في الظاهر ، ثم أن تأثيرها محدود في بعض بيئة خاصة معدوم من أغلب المجتمعات الأخرى فلذا لا نستطيع أن نحكم على الاخلاق بأن اللغة العربية منتشرة أو مفهومة حيث يوجد المعادون في الصين وكذلك حالة الفارسية .

ولقد ثبت آنفاً أن المسلمين ينتشرون في جميع ولايات الصين بل في جميع المدن غير أن اللغة العربية غير مفهومة في كل ولاية أو في كل مدينة نعم في كل مدينة يوجد من بين المسلمين بعض أفراد يعرفون كيف يقرأون السور القصيرة من القرآن الحكيم ، لكن على الطريقة الصينية بحمل الراء ، لا ما ، ، والباء ، دياء ، ، والسين ، ثاء ، ، والشدة ، ، قوينا ، ، والمد ، قصر ، ، وزيادة ، ، النغمة ، ، في أكثر الحروف لكن هؤلاء الساكنين لا يفهمون ما يقرأون في كاليغاه التي لا تفهم ما تنطق به . فيرون بعد ذلك في عدم فهم القرآن أعجاز القرآن :

هذه هي حالة اللغة العربية في أكثر المدن ، والحقيقة أن المسلمين في الصين منهم واحد في الألف يسعى جهده إلى تعلم بعض الصلوات العربية والسور القصيرة حفظاً عن ظهر قلب لقيادة عامة الناس في تأدية الآور الدينية ولولا الصلاة التي أوجبت عليهم تعلم ما تبس من القرآن لما تعلموا كلمة واحدة من العربية ولولا الخوف من النار أو رجاء الجنة لما تعلموا بعض الصلوات الضرورية ولما عرفوا شيئاً ما عن العربية .

هذه هي الحال العامة بالنسبة إلى نفوذ اللغة العربية في بيئات المسلمين ، غير أن هناك بعض المستشفيات التي يجب علينا ألا نتغاضي عنها مثلاً قانصر وبوتان . فالمسلمون في تلك الولايات من عدد غير قليل يفهمون اللغة العربية إلى حد ما ويتكلمون بها أيضاً في بعض الأحيان وذلك من كثرة مطالعتهم الكتب الدينية من الفقه والتفسير والأحاديث فتدبروها حتى استطاعوا أن يتأدوا الآراء في الأحكام الدينية والمسائل الشرعية وأدلة اللغة العربية . وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وهناك بعض العوامل التي تسهل المسلمين في قانصوا وبوتان إلى الأقبال على لغة القرآن . لبتالوا نصيباً منها . ومن هذه العوامل كثرة عدد المسلمين في قانصوق بلغوا ٤٠ في المائة والذين في بوتان ٣٥ في المائة ومنها اختلاط الدم بين الصيني والعربي وغيرهم من الأجناس ومن المحقق أن المسلمين في قانصوا ليسوا

من الدم الصيني الخاص - بل مزيج من الدم العربي والصيني أو الأيوغرى . فيرتب على هذا الاخلاط تمسكهم بالدين ورغبتهم في الدربة وتهيئهم للإسلام أكثر من المسلمين في الولايات الأخرى . ومنها فرجهم من تركستان و ماوراء النهر - البلاد التي كانت العلوم الإسلامية تزدهر فيها من القرن الثاني الهجرى إلى ظهور المغول وأما المسلمون في يونان ، فيثبت من التاريخ ، أن أكثرهم من أولاد السيد الأجل الذي نزع من بخارى إلى الصين في زمن قبلاى خان . ولقد تولى منصب وزارة المالية ، ثم القيادة العامة إلى يونان ففتحها وأمنها ، وقد أعقب سبع أولاد ناصر الدين ، بيان تشار ، حسن ، حسين ، محمود وجعفر ومحمود - فانتشرت منهم عدة عائلات فكثرت أسلمهم ، وأما مسلمو يونان اليوم فأكثرهم ينتمون إلى أولاد السيد الأجل . من أعقاب المشهورين ، الشيخ يوسف ما فومو ، الذي ذكرناه في مناسبة سابقة ، مع اسم الأستاذ ليونشى ، ومنهم الحاج نور الحق الذي سنبين بعض كلماته نموذجاً للمكانة العربية ، التي وصل علماء الصين إليها .

وبوجود هذه العوامل في هاتين الولايتين ، مالت اللغة العربية في العصور الماضية أكبر نصيب من العناية فيما . وأما حالتها في الولايات الأخرى ، فقد بر جدرة بالذكر ، فاستمدت عن أمليتها في بكين في هذا القرن ، هو من نهاية الخلافة العثمانية قبل الحرب العظمى الأولى . ولقد أرسل الأتراك الشريف إلى إحدى مدارسها الإسلامية شبينين . وقرين لاقاء بعض الدروس الدينية والثقافة الإسلامية سنة ١٩٢١ وبعد أربع سنوات عاد إلى مصر على أثر نشوب الحرب الصينية اليابانية في سنة ١٩٠٧ م فإذ تكون نتيجة هذه الحركة الجديدة ، سوف يفتبرنا بها الزمان .

وبالنظر إلى هذا العدد الهائل من المسلمين في ديار الصين ، يجبل إلى المسلم المندين ، أن اللغة العربية ، لا مندوحة لها من أن تترك حظ من العناية والانتشار بين اللغات الحية في الصين ، هذا لاشك ينطبق على حالة اللغة العربية في البلاد الأخرى غير الصين ، مثل جاوة والهند لكن حالتها في الصين قديماً أو حديثاً ، لا يمكن أن

تقدر - بكثرة عدد المسلمين فيها ولاجل هذا لا نجد لهم في طبقات العلماء الاسلاميين اسما واحدا مع أن الاسلام قد دخل الصين منذ ٣٠٠ سنة ، بل أكثر ،

بيد أننا نجد في الكتب التاريخية ، بعض الاشارات التي تفهم منها جانبا عن أحوال اللغة العربية في الصين . فأوزيد الحسن السمراني الذي عاش في القرن الثالث للهجرة ، ذكر في الجزء الثاني من سلسلة التواريخ ، أن ابن وهبان بن ولد هيار بن الاسود ، لما مثل بين يدي ملك الصين ، أخبره بما جرى في بلاد العرب والمجم بواسطة الترجوم ، حين مثل عنها وعما لاشك فيه ، أن ابن وهبان ، كان يجاوره باللغة العربية التي لا يفهمها ملك الصين . وإنما كان في قصره بعض أناس يفهمون هذه اللغة . فوسط بينهما في الحوار حتى تمكن أحدهما من فهم كلام الآخر . وهذا يدل على أن هذه اللغة كانت مفهومة على الأقل في عاصمة الصين ومن المتصور أيضا أن اللغة العربية ، كان يتكلم بها في الموانئ التي كانت بها تجار العرب والبرابرة غير أنها لم تترك أثرا في المجتمعات بلك الجهات . فاتهم تداولها بين الناس ، بعد رجوع أولئك التجار في الأيام المتأخرة . لكن المسلمين في عصر المغول ، قد نالوا منزلة عظيمة في البلاد ، فروجوا استعمال اللغة العربية والفارسية في الصين إلى حد ما وكان ذلك بفضل كثرة المسلمين في الحكومة ونفوذهم فيها وقد قيل أن قبلاي خان قد أنشأ مدرسة لأبناء المسلمين بتايدو ، بخانباي^(١) . ومن المظنون أن لغة العربية كانت من المواد اللازمة في برنامج هذه المدرسة . وأما الجهات التي كان لغة العربية أعظم أثر فيها في عصر المغول ، فهي : تانغوت ، - ولاية قانسو الحاضرة - ورومي الأستاذ وهو وروت عن المصادر الفارسية ، أن الأمير آئنده . كان مسلما غيوراً ، قد بذل أقصى جهده في نشر الاسلام في تلك الجهة . وكان حافظا يستطيع أن يمدك القرآن كله ، عن ظهر قلب . وكان يحيد كتابة العربية . وأنه قد جمع حوله جماعة كثيرة من المسلمين

(1) Howarth: Vol. I. P. 257.

من انتشار واليرانيين والعرب^(١)، ويظهر أن هؤلاء قد بذلوا نصيبا عظيما من جهودهم في ترويح اللغة العربية هناك.

والحقيقة أن اللغة العربية قد انتشرت إلى تركستان الصينية قبل ظهور المقول بعدة قرون. فكانت عناية فائقة من أمهاتها وترقت إلى درجة لا تخل عن التي نالتها في بغداد في القرن الخامس الهجري.

ونستطيع أن نستشهد من كلام الشيخ محمود الكاشغري الذي ألف باللغة العربية كتابها، سماه «ديوان لغات الترك»، وإليك بعض الاقتباسات من مقدمة هذا الكتاب.

«قال المبدع محمود بن الحسين بن محمد الكاشغري - لما وأيت أن الله تعالى قد اطلع شمس الدولة في بروج الأتراك، وأدار بملكهم دوائر الافلاك، فسماهم الترك وولاهم الملك وجعلهم ملوك مصر ووضع في أيديهم أزمة أهل الدهر، فقبضهم على الخلق وأيدهم على الحق. وأمر من اتقى اليهم وسمى بين أيديهم ونال، منهم بلفة في المراد وسلم من مرة أرباش العباد، حتى لكل ذي لب التمسك بحالهم، ترقبا عن وقع نبالهم، ولا ذريعة لديهم أحسن من الزواجر بلسانهم لاصفاتهم اليه، أسماعهم واستمالة جنانهم. فإذا اعتصر به عدوه من فرقه، وأمنوه من فرقه، فيلوذ به غيره ويكشف عنه خيمه».

وإذا قارنا بين هذه الكلمات وبين ما كتبه أدباء بغداد في هذا العصر، لا نجد أي فرق بين هذه وتلك. فالمسجمات التي تراها في أسلوب الكاشغري، تجعلك تعتقد بلا تردد، أن صاحب المقال قد عاش في العصر الثالث من العصر العباسي وإن لم تلم تاريخ ولادته أو وفاته.

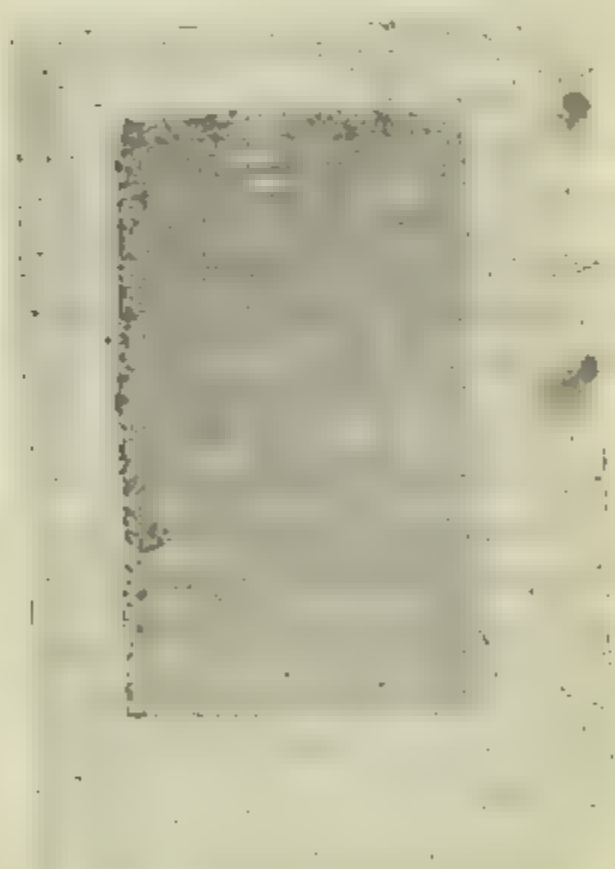
وإذا كانت هذه هي حالة اللغة العربية في تركستان الصينية الواقعة على باب ولاية قانسو قبل ظهور المقول بقرنين، فكيف لا أثر بها هذه الولاية في عهد المقول وكان عليها أمير مسلم غيور متدين، حوله جمعة من العلماء الكبار.

حقاً أن اللغة العربية في هذا العصر لم تكن محدودة بهذه الولاية، بل كان لها دواجم في المدن الأخرى أيضاً فقد أخبرنا ابن بطوطة بكثرة علماء الإسلام بمسبنة (الختاسا) (هانغ جو) منهم أنظر الدين وهو قاضى المدينة وشيخ الإسلام فيها، ومنهم أولاد عثمان المصري أحد التجار الكبار في مصر، لقد استحسن هذه المدينة واستوطن فيها، فهناك طائفة اسلامية عرفت بالنسبة اليه فإنه قد أسس جامعاً بها ووقف عليه وعلى الزاوية التي كانت اللغة العربية والعلوم الدينية تدرس فيها أوقافاً تدرّس فيها على العلماء والطلاب فيها، فلما مات أورش ذوياته وهاونغ جو، الجاه والحرمة فهم على ما كان عليه أبوم عند زيارة ابن بطوطة فلك المدينة، وبوجود هذه الزاوية أو بفضل العلماء الذين كانوا بها انتشرت اللغة العربية من مجتمعات المسلمين إلى الطبقات العالية من غير المسلمين وتركت أثرها فيهم. وكان قول ابن بطوطة على ما نقول شهيداً، كان ابن بطوطة في منياة أمير المدينة ثلاثة أيام وكان له ابن ركب يوماً مع ابن بطوطة في خليج هانغ جو، وكان معهم أهل الطرب والموسيقى يفتنون الأغاني الصينية والفارسية والعربية وأعتقد أن اللغة العربية وقتئذ قد راجت إلى حد بالغ في مجتمعات تلك المدينة حتى أن الأمراء إلى الاستماع إلى أغانيها فوجدوا فيها طرباً وسروراً.

إذا تركنا ابن بطوطة فيما قال عن حالة الثقافة العربية في هذه المدينة نستطيع الاستشهاد بذلك الكتابات التاريخية التي اكتشفت حالياً تلك المدينة في أثبات انتشار اللغة العربية وأثرها فيها في السنوات الماضية وكانت الحكومة الصينية تأمر بهدم السور المنيق الذي ضرب حول المدينة منذ أول يوم من بنائها تسهيل للمواصلات داخل بين المدينة وعارجها وتوسيعاً لمساحة البلدية. فبما كان المال يشتغلون في أعمال الهدم ظهرت من تحت السور أحجار منحوتة منها شواهد وكتابات باللغة العربية والفارسية. فجمعها علماء الآثار كشواهد تاريخية علمية اسلامية، لقد وصلت هذه المجموعة إلى أكثر من مائة قطعة بين مكشورات وصحيفات، فقلت إلى دار الآثار التاريخية ليكون لأجراء البحث والتحقيق غير أن الحرب الصينية اليابانية حالت بين هذه البحوث فتركت فيها كاهي. وبما لاشك فيه أن هذه

الشوامد والكتابات لها شأن عظيم بما يمتاز به في تاريخ الإسلام في تلك المدينة وأثر
المرية فيها. وإذا بحثت وحللت فسلكوا لدينا معلومات جديدة عامة عن تاريخ
الإسلام فيها.

وهناك بعض كتابات عربية تاريخية لا تزال محفوظة محفوظة في (جامع العفاء)
هاتق جوء منها قد عثر على بعض حروفها إلى حد لا يستطيع أن يميزها أو يقرأها
ومنها ما بقيت واضحة بحروفها بالمرية الجميلة كما نرى في هذه اللوحة
وهي تحمل تاريخ سنة ٥٧٠ هـ -



كتابة عربية جميلة بمدينة (هاتق نكور) لمصر من

تحدثنا تاريخ (منغ) عن تعلم الاعراب طوو . جنغ - ته ، (Cheng Teh) اللغة العربية وميله إلى الاسلام ، وقد أثرت الى هذا في مناسبة سابقة والحقيقة أن اللغة العربية في عهد (منغ) وخصوصا في صدر هذا العهد قد لعبت عناية عظيمة من ملوكها حتى أثرت في صناعات الصين وقتونها بوهو العهد الذي نقلت فيه بعض العلوم الاسلامية بواسطة العلماء المسلمين فنالت أمتيا ماعظما عند طبقات العلماء بالمين .

وأما عهد (مانشو) فلا شك أن ملوكهم كانوا ينظرون إلى الاسلام بدين السخط والنفور ، غير أن المسلمين الذين قد انتشروا في أنحاء الصين ولهم قدم راسخة في المجتمعات ، ورغبة صادقة في الأشغال العلمية العربية والاسلامية كانوا يعملون في الميدان العلمي بكل حسنة وسكينة صابرين على سخط الحكام وأولى الأمر ، صامتين في أعمالهم الوضيعة واضعين بالحالة التي ساقهم اليها ولاة البلاد ، غير مباليين بتلك المراقبة الشديدة أو العقوبات المتوقعة التي فرضت عليهم حتى تمكنوا بمعونته من أخراج بعض كتب قيمة باللغة الصينية وغير اللغة الصينية في موضوعات اسلامية ، فالكشف الدينية - العربية أو الفارسية . التي تمتدلول الآن في أيدي المسلمين بالصين أكثرها من تمار مؤلا . المجاهدين الصابرين في هذا العهد . ويظهر أن اللغة العربية قد ارتقت في آخر هذا العهد إلى درجة حسنة محودة من ناحية التفكير والاسلوب والتسلسل المنطقي واليكم هنا قطعة من أمثالها :

لما تجلى وجود الحق ظهرت حقائق الاشياء وصورها ، فالحقائق مودعة في علم الله تعالى والصور مرتبة بقدرته فعلمه تعالى هو قبل وجود الملكوت وقدرته تظهر في وصولها من الملكوت الى الملك . والملكوت إنما ظهرت بأجسام وصور الملك إنما تصورت بأرواح فلما تواضعت طبقاتها استقرت كل درجة من الأرواح في طبقتها فلما اجتمعتا وتمورتا ظهرت صفات الله تعالى لإلانتها في حق الإنسان تسمى بالعلم والقدرة . وفي الاشياء بالخصائص ، أن الروح الانسانية متساوية غير أن الروح النفسانية متفاوتة فلذا صار بعضهم جاهلا . وبعضهم عالما ، ولأن ذات الحق أحدية وصفاته متفارته . فظواهرها توافق حالها ، أن اتحاد العلم والقدرة

مع الحق انما يكون لنفس خاتم الانبياء واستدعاهما بالرضا من الله وتحريمه
يكون لنفوس أولى المزم والالتقياد بهما والاجابة الى نور هدايتهما نفوس
المسلمين وبهما اظهر الدعوة والتبليغ لنفوس الانبياء وبهما العلم في الخير والحق
للتقوى لنفوس الاولياء وبهما تحصيل معرفة الحق لنفوس العارفين وبهما اتقان
المحافظة لنفوس الزاهدين وبهما طلب العبودية لنفوس العابدين وبهوى النفس
قصر فيها نفوس العاصين ..

وهذه القطعة من رسالة للاستاذ الشيخ الحاج نور الحق الذي عاش الى القرن
الثالث عشر للهجرة سماها « مبادئ الطيعة عند العرب » تسكلم فيها عن تفريق
الناس الى طبقات مختلفة من جهة الفطرة الى فطرهم الله عليها في الازل ، فبين بهذه
الكلمات الوجيزة المعيزات التي تمتاز بها كل طبقة من غيرها من درجة خاتم
الانبياء الى درجة العاصي .

انقد تحدث هذا العالم عن نفسه في مقدمة كتاب آخر له سماه الدعوة الكبرى
بأنه ينتمى الى السيد الاجل الذي ربح الى يونان في زمن قبلاى خان وكان هذا السيد
ينسب الى السلطان عبد الملك بن عبد الجليل ببلاد بخارى وله شرف الانساب
الى شجرة صاحب الرسالة

وأما ولادته فلم تذكر وأما ذكر عن حبه الى مكة المكرمة في سنة ١١٣٩ هـ .
ثم روى مدرسة كبيرة في جهة الغرب بولاية يونان في سنة ١١٩٩ هـ . ويظهر أن
جميع مؤلفاته على اختلاف اللغات ، صينية كانت أم عربية ، أو فارسية ، كلها من
مجموعاته العلمية بعد الحج . له معاصرون من العلماء الكبار . فألفوا بلغات شتى ،
أكثرها طبعت بالطبعة الخشبية في تلك الولاية ونجسد في مكتبه الجامع الازهر
الشريف ، بعض نسخ لهذه المطبوعات وهي مدية تذكارية من قبل البعثة الصينية
الى الازهر

ومن آثاره الملافة الدينية ، رواج الاصطلاحات الفارسية في أمور الدين
وتداول بعض كلماتها في مجتمعات المسلمين في الصين . وأما تاريخ دخول اللغة
الفارسية ، فكما اعتقد قد بدأ قبل زمن المفلول بقليل . لأن الكلمات الفارسية ،

قلما توجد في أدب الصين قبل القرن الثاني عشر من الميلاد، لكن مع سيطرة المغول على أمور الصين السياسية، دخلت اللغة الفارسية وراج استعمالها في بعض الإدارات الرسمية أولا. ثم توغلت بأثرها إلى المجتمعات العامة. وكان ذلك بفضل احتكاك الصين مع المسلمين في آواسط آسيا من التتار والعرب والایرانیین. ثم هجرة عدد كبير من الذين تفضلوا في اللغة الفارسية مع المغول إلى الصين، تساعد على رواج الفارسية في المجتمعات الإسلامية بولايات مختلفة.

لم تكن للمغول الذين حكموا الصين من سنة ۱۲۷۷ إلى ۱۳۶۷ م، لغة معروفة فاضطروا إلى اختيار الاصطلاحات للإدارات الحكومية، أما من الفارسية وأما من الصينية. فلذلك تراءى يستعملون وكتوال، وهو رئيس البوابین، وورد داریه، وهم أصحاب الخدایه، وأصحابیه، وهم الزمات، ووزیداریه، وهم أصحاب الزماح، ووزیداریه، وهم أصحاب السبوق، مع وچنگسانغ، الوزير الأعظم، ووزوچینگ ووزیر اليسار، ووزوچینگ، وزیر اليمين، ووزوچون، كاتم السر، في مراتب حكومتهم.

وكان لغة الفارسية رواج عظيم في مدينة هانغ جو، لأن كثيرا من الكتابات الفارسية التي اكتشفت أخيرا، تحمل تاريخ المغول. ويظهر أن نفوذ هذه اللغة كأختها العربية، لم يكن منحصر في مجتمعات المسلمين حسب، بل توغل إلى مجتمعات غير المسلمين أيضا. ومن رواية ابن بطوطة أن ابن أمير هانغ جو، (الحنسا)، الذي وضع له دعوة عظيمة، كان معجبا بالفناء الفارسي الذي كان أهل الطرب يفتنون له به، إذا كان عندها مع ابن بطرطه وأصحابه في زوارق بخاريج هانغ جو فأمرهم بتكراره المرة بعد المرة، حتى حفظه ابن بطوطة من أفواههم. وقال: وله تلحين عجيب في القصيدة الآتية:

تادل بمحدث داندیم	در بحر فکر افتادیم
چون در نماز استادیم	قوی بمعراب اندریم

وإن بطوطة ما كان يعرف اللغة الفارسية ولا كان يجيد نطق جميع حروفها .
فلذا نراه يقع في أغلاط أملائية ويظهر أنه حفظ البيت المذكور عن المطربين .
والصحيح هو كما يلي وهو بيت واحد فقط (لا بيتان كما ذكر في رحلة ابن بطوطة) .
تاذل بمهرت داده ام در بحر فکر افتاده ام

چون در نماز ایستاده ام کوی بهر آب آندری
و معناه — عندما نذرت لك قلبي حيا و قد غرقا في بحر الافكار
فلما اقب قائما للصلاة كأنني أراك في وسط المحراب
و البيت من قصيدة مشهورة للشيخ السدي رحمه الله و معطاهما —
آخر تمكلمي باز كن وقتيكه ربما يكندري

كر كبر منعت ميكند كز دوستان ياد آوري
و معنى هذا البيت — أن يمنعك الكبرياء عن ذكر الاحياء ، فالحق على نظارة
الوداع عند المرور يباي .

كان ملوك منغ ، يعرفون قيمة هذه اللغة ، و يقدرونها حتى كان بعض الامراء
في القصر يثملونها فأجادوا الكتابة بها . ففي مطلع السعديين ، لعبد الزواق
السمرقندي ، رسالة فارسية منسوبة إلى ملك الصين ، دائيميك . و لقد نقلتها في
باب العلاقة الدبلوماسية . و هي الرسالة التي بعثها إلى شاه رخ في سنة ٨٢٢ هـ .
١٤١٩ م بهرات . مكتوبة بلسان فارسي فصيح ، خال من الضعف والغريب .
غير أنها على نمط الرسائل الصينية التي من خزانة قصرها ، و ضمع كل كلمة تفخيم
و تعظيم و تجليل ، في صدر سطر جديد . و هذه الرسائل التي وجدناها في مطلع
السعديين ، أن لم تكن بقلم الملك نفسه ، بقلم أحد أمرائه على وجه اليقين . لأن
عددا غير قليل من رجال القصر في ذلك الوقت ، قد أجادوا التكلم و الكتابة
باللغة الفارسية و منهم من عرفوا اللغة التركية أيضا .

لقد حكى المتعلمون لغة الفارسية في عصر ما فتوا ، حتى تمكنوا من
التأليف بها . و أنك لتستطيع أن ترى آثار النهضة الفارسية في المؤلفات التي تركها

(١) الأبراميون لا يفرقون بين نطق الهاء و الخاء ولا بين نطق القاف و الغين

هذا يونان في القرن التاسع عشر للميلاد في مخاض المبرضوعات ، منها ما في النحو والصرف ، ومنها ما في الترجيح والكلام ومنها في أحكام الدين وأداب الإسلام وهذه الكتب رواج عظيم بين المسلمين فاستأذروا منها واستفاد أبناؤهم من بعدهم والحقيقة أن اللغة الفارسية قد نالت سقفا من النفوذ في حياة المسلمين العامة أكبر من أخذها العربية وأما إن ذهبت إلى ولاية يونان ، تسمع فيها لغة شائعة بين طبقات المسلمين ، لغة مختلفة عما ينكلم بها غيرهم من الصينيين ، بسبب الكلمات الفارسية التي أدمجوها في كلامهم فتصبح لغة على ألسنة الصيغيين في فهمها وأدراك معانيها الحقيقية ، مع أن كلامهم لم يخرج عن الأسلوب الصيني العادي . وكان عامل الغموض هو تلك الكلمات الفارسية التي وردت على لسانهم فعدا في بعض الأحيان ، وبدون قصد أيها الأخرى وقت حوارهم أمام غيرهم ولا يريدون أن يفهموا ما يقولونهم من الكلام فالكلمات الفارسية التي ترد على لسانهم في أغلب الأحيان هي : *مزدك* ، *روز* ، *آبدست* ، *كناه* ، *باعداد* ، *يشين* ، *ديكر* ، *شام* ، *خفتن* ، *كسي* ، *ديدن* ، *خواب* ، *خوشنودي* ، *أسناد* ، *شساكر* ، *آخوند* ، *بند* ، *خدا* ، *مرجیر* ، *بمشت* ، *دورخ* ، *قول* ، *كردم* ، *دادم* ، *خوب* ، *زشت* ، *توانكر* ، *خارند* ، *زن* ، *دزد* ، *بانك* ، *جشم* ، *كوش* ، *دستار* ، *سر* ، *بائی* ، *دست* ، *خوردن* ، *درم* ، *نام* ، *موش* ، *نخ* . .

مع هذه الكلمات الفارسية قد دخلت على لسانهم بعض الكلمات العربية التي صارت جزءا لا يتفك عنها فلا : *نیت* ، *ایمان* ، *میت* ، *عذاب* ، *غسل* ، *حج* ، *تخیل* ، *زکات* ، *سخی* ، *مرکت* ، *شروت* ، *سدقات* ، *قربان* ، *تعظیم* ، *حقیقت* ، *روح* ، *نفس* ، *صبر* ، *قدرت* ، *وعظ* ، *صورت* ، *رزق* ، *شفقت* ، *عالم* ، *جاءل* ، *سائل* ، *حشو* ، *شفاعت* ، *حق* ، *باطل* ، *کذب* ، *خراب* الخ .

فالمصنفون يستعملون هذه الكلمات العربية ككلمات فارسية ولدينا عدة أدلة تؤيد نظريتنا هذه .

أولاً أن الكلمات العربية التي آخرها *كاه* ، يكتبونها مفتوحة غير معقودة ولذا لا ينفون

عليها فيقولون مثلاً : قرة ، بل يكسرونها مع الامة ، فيقولون ، قدوت ، هذه طريقة قراءة التاء المفتوحة عند الايرانيين والذين شاركهم في لغتهم كالبخاريين والافغانيين والتركتانيين .

ثانياً - أن التعبير قد يقع في معاني بعض الكلمات - منها كلمة النفس فإذا وردت هذه الكلمة على اسمهم أثناء الكلام ، فالمراد منها على العموم ، الغضب الشديد ، فيقول المسلمون الصينيون دائماً ، موبدون نفس ، إذا نقلوا الى العربية حرفياً فيكون المعنى ، لا تحرك نفسك ، لكن المعنى المصطلح عليه هو ، لا تغضب ، ومنها كلمة ، خرابات ، إذا سمع العرب أو علماء العربية هذه الكلمة فخرج من فم صيني يفهم لأول وهلة أن المراد منها الالال الدارسة أو الاماكن الموحشة التي يخرجها الكون ، لكن معناها في الفارسية ليس كذلك بل يراد بها اماكن الشراب التي فيها دوران الكؤوس مع الرؤس ، أو الخارة التي فيها نساء يعترفن البقاء . هذا التعبير هو أقرب الى ما عند الايرانيين فهما وتعبيراً بعيداً عما يريد به العرب ، وأن كان متصلاً بمفهومه الاصل في اللغة العربية من جهة ما .

ثالثاً - أن المسلمين الصينيين لا يسمون أيام الاسبوع بالاسماء العربية غير الجمعة فيطلقون على أيام السبت ، والاثنين ، والثلاثاء ، والاربعاء ، والخميس : شنبه ، يك شنبه ، دو شنبه ، سه شنبه ، جارب شنبه ، وبانج شنبه . لجمعه . والجمعة هنا لا تكون غير تابعة الاصطلاحات الفارسية . وما لاشك فيه انهم لا يمدون نياتهم للصلاة الخمس بالعربية . بل بالفارسية فيقولون لصلاة الفجر مثلاً - نيت كردم كه بگوام دو ركعت نماز بامداد .. الخ

فن الواضح اذن أن هذه الكلمات العربية التي جرت على لسان المسلمين الصينيين وأصبحت أجزاء من لغتهم الخاصة ، قد دخلت مع أخوانها الفارسية ، تابعات لمن استعمالا وتعبيراً

ولغة الفارسية نفوذ آخر في مجتمعات المسلمين بالصين ، لم تستطع العربية أن تكتبه فالحكايات والقصص التي فيها جانب من المواعظ الدينية أو الارشادات الاسلامية ، أغلها محفوظ في اللغة الفارسية ، سار في المجالس والمحافل ، جار على ألسن الاطفال والسيدات . فكثير من الصينيين يستطيعون أن يقصوا عليك ،

واقعة كربلاء، واستشهادة الحسن والحسين اللغة الفارسية عن ظهر قلب بدون فهم لما يقصون كما يستطيع كثير من السيدات أن يحكيين لمن يحضر المجلس الدينية من جنسهن حياة أم المزين خديجة رضي الله عنها، وحياة فاطمة الزهراء، أم السيدين الحسن والحسين، باللغة الفارسية، وإذا ذهبنا إلى جمع أحاديثنا الفارسية لاثبتنا بكتاب ضخم لا يتسع له عدد المقام فحينئذ هذه الإشارة الحاطة هنا، فنركا التخصيل لما رطآن آخر

غير أن اللغة العربية، مع أنها لم تؤثر في حياة المسلمين العامة خارج الدائرة الدينية، لها نوع آخر من التأثير في الصين لم يكن للغة الفارسية حظ فيه. فاللغة العربية هي الاداة التي نقلت منها بعض علوم المسلمين ولا سيما علم الطب وللمهنة.

ولدت علما في الطب العربي ولا عارفا بتاريخ نشأة هذا العلم فيهم. فليس من مقاصدي أن أدخل في موضوع تاريخ الطب العربي، ورواجه في العالم. بيد أنني أرى من المناسب أن أشير إلى عبادة الصين بعلم الطب العربي (أو الطب الاسلامي كما هو معروف في الصين بهذا الاسم) في العصر الذي ازدهر فيها الاسلام وهذه المناسبة أقول أن نقل علم الطب العربي والهيئة الاسلامية إلى الصين، نتيجة من نتائج العلاقة الدينية.

ومن المعلوم أن الاسلام قد تقدم كثيرا في الصين في عهد المغول. فابتداء دخول العلوم العربية فيها من هذا الزمان. لأن المغول بعد أن فتحوا دار السلام، (بغداد) ونهبوها، نقلوا كثيرا من رجال العلم إلى الشرق الأقصى معقائمتهم ومساعدتهم هناك.

ويظهر أن الداعي الذي كان يدعوهم إلى نقل علم الطب العربي إلى الصين، هو الحروب التي كانت دائرة بين ملوك منغ وجنكيزخان وآله فكان هؤلاء المغول لم يعرفوا شيئا عن فن الطب والمعالجة. غير أنهم قد وجدوا في المكتب العربية

خزانة مملوءة من المعلومات الطبية . فاستفادوا منها بواسطة العلماء المسلمين في علاج الجرحى حين اشتد النضال بينهم وبين الصينيين . فلما فتحوا الصين واستقر الحكم لهم فيها ، أمروا بنشر هذا العلم في عواصمها . ولهذا الغرض ، أسسوا دائرة طبية عربية يركبون الأدوية فيها ، على حسب التشخيصات العربية ، عسلاجا للحراس والعساكر والبتامى والمساكين . وكان فيها موظفون مهملون منهم من تولى منصب الرياسة لشعبة ترتيب الأدوية ، ومنهم من تولى توزيع الأدوية ^(١) . وكانت هذه الأدوية تؤخذ أو تستخرج طبعاً من الأعشاب والنباتات ، ولمعرفة الخصائص الدوائية في النباتات ألف كثير من الأطباء كتباً قيمة في هذا الموضوع ، منها أصول المأكول والمشارب **藥膳正原** لمسلم معروف في تاريخ الصين باسم خوشحال **輝光** ، ألفه في سنة ١٢٣١ م ولقد بحث في هذا الكتاب خصائص النباتات التي تفيد الجسم غذاء ودواء . ومن هذه النباتات ما ينبت في الصين وما ينبت في الممالك الإسلامية ، ومن قول مؤلف الدراسات في تاريخ الإسلام في الصين أن مكتبة بكين تحتوى على نسخة من التشخيصات الطبية الإسلامية في سنة وثلاثين جزءاً ^(٢) . وإذا كان عالم من علماء الطب العربى ، بأى يبحث تحليل عن هذه التشخيصات ، ومبلغ العلم الطبى الذى وصل اليه العرب أو المسلمون في الأيام الغابرة ، فمن اليقين أنه سيضيف الى هذا العلم معلومات لم تكن معروفة في العالم .

وأما علم الهيئة الإسلامية فقد نقل إلى الصين أيضاً في عهد المغول . وكان له رواج عظيم في أول عهد منغ ، أى في القرن الرابع عشر للميلاد . ولقد ذكر غستاف ليون ، أن قىلاى خان ، لما فتح الصين ، استعصر كثيراً من كتب الهيئة من بغداد ومن القاهرة . لحصل علماء الصين من هذه الكتب ، وعلى الأخص ، كوشوكتك علم الهيئة العربية .

(١) جيتى مسلمان . ص ٢٧

(٢) الدراسات ص ١٥٠

وكانت في الممالك الإسلامية بالشرق، ثلاثة مدارس لدولم الهيئة . مدرسة بغداد ، ومدرسة سمرقند ومدرسة القاهرة . فإن الجيبر البتاني المتوفى سنة ٩٣٠ م وأبو القاسم عبد الله بن المأجور (٩٣٣ م) وأبو الوفا المتوفى سنة ٩٩٨ م ، من مدرسة بغداد . والذين انفصلوا بتيemor وأولغ بك ، وهم من مدرسة سمرقند . وأما مدرسة القاهرة ، فلم تنشأ إلا لما فسد بغداد . فخلقاء مصر قد وضعوا العلم تحت حمايتهم . فأسسوا على جبل المقطم مرصدا إلى جانب القاهرة ، وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٧ م ، يدير هذا المرصد في عهد الحاكم . فعمل له زيجاً معروفاً عند العلماء بزيج الحاكم ، كما اشتهر الذي بسمرقند بزيج أولغ بك . فأبطل ابن يونس بزيجه . ما وضعه غيره من الزيجات . ولقد نقل هذا الزيج إلى لغات كثيرة ، منها اللغة الصينية . نقله إليها عالم صيني اسمه كوشوكنك ، في سنة ١٢٨٠ م .

ومن المصادر الصينية نعرف أن أمراء المغول في الصين قد جمعوا عدداً كبيراً من الكتب العربية ، على اختلاف الدولم والعلوم ، ومنها ما يتعلق بعلم الهيئة ، فخرنوها في المكتبة الإمبراطورية المغولية بمخانبالق . ولقد نقل بعض من هذه الكتب إلى اللغة الصينية في أول عهد منغ ، إذ كان الإمبراطور منغ تائي جو على العرش (١٢٦٨ - ١٣٩٩ م) . بقلم شيخ المشايخ وقاضى المسلمين ، حيدر عطف الدين ^(١) . ومن المرسوم الذى أصدره منغ تائي جو ، إلى شيخ المشايخ في سنة ١٣٨٣ م ، بشأن ترجمة الكتب التى فى علم الهيئة والنجوم ، نعلم أن هذا الملك كان مولعاً بالعلوم العربية ومحبباً بها ، فكانت الأغراض من ترجمة هذه الكتب العربية إلى الصينية هي الاستعانة على أصول الاستنباط الكائنة فى هذه الكتب فى تحقيق المسائل الفلكية . تصويها لما قد أخطأ فيه من الفاربر والآراء فى ظواهر الكون وحركات الأفلاك السائرة . وكان فى الصين فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، علماء مسلمون مشهورون فى علم الهيئة ، منهم السيد الأجل : وجمال الدين وكال الدين . ولكل واحد من المذكورين الآخرين ، تأليف فى القويم ،

معروف بين طبقات العلماء حتى الآن^(١). والآن نأخذ جنبيان ، أبحاث دقيقة عن شخصيات هؤلاء العلماء وأعمالهم العلمية في كتابه ، تصين المسلمين في عصر المغول ، وسنرجع إليه عند ما ندرس تاريخ الإسلام في الصين في المستقبل إن شاء الله تعالى نتائج العلاقة التجارية : وأما النتائج التي ترتبت على العلاقة التجارية بين العرب والصين فترويح استعمال إبرة المغناطيس في الملاحة البحرية ، ونقل استعملها بواسطة العرب إلى الغرب ثم نقل بعض الكلمات الصينية إلى اللسان الإسلامية ، وبعض النباتات مع أسمائها العربية إلى الصين ، وهنا نبهت قبلنا عن هذه الكلمات واستعملها في الصينية أو في العربية .

لكن قبل الدخول في هذا البحث ، نلقي نظرة إلى رواج استعمال إبرة المغناطيس في الملاحة والأسفار البحرية . وهذا من أهم نتائج العلاقة التجارية بدون نزاع .

ولقد قلت في باب العلاقة التجارية ، أن التجارة البحرية قد تقدمت كثيرا في القرن الثاني عشر للميلاد ، بسبب معرفة استعمال إبرة المغناطيس التي كانت مروفة عند الصينيين منذ زمن قديم باسم الإبرة المشيرة إلى الجنوب ، وبناء على ما ورد في بحر الجغرافة الحديثة ، للاستاذ بيزلي^(٢) أن الصينيين كانوا يستعملون هذه الإبرة في أسفارهم البحرية البعيدة من ميناء كانتون إلى سواحل ملايا في القرن الثالث من الميلاد لكن الاستاذ أميك يقول — أن الصينيين كانوا يستعملونها في الملاحة منذ القرن الأول الميلادي^(٣) . ولقد حقق المستشرقون استعمال إبرة المغناطيس في الملاحة من المصادر الصينية ، فوجدوا الحديث عنها في الكتب الصينية المؤلفة في النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد^(٤) وهو أقدم ما ذكرته المصادر الصينية ، وأما المؤلفات للقرن الحادي عشر فذكرتها في مواضع كثيرة

(١) الدراسات ص ١١٧

(2) Beazley : Down of the Modern Geography P. 490

(3) E. Speks : Handel Geschichte des Alterthumes. P. 1, 29, 209

(4) H. Parker : China Review XVIII 197.

ويقول الأستاذ رينان الذي نقله جغرافية أبي الفداء إلى اللغة الفرنسية في حاشية البحث عن معلومات العرب عن استعمال الآلة المغناطيسية هكذا - ثبت من الأدلة السابقة ، أن هذا النوع من الآلة ، قد عم استعماله في الشرق والغرب عند نهاية القرن الثاني عشر وأبداء القرن الثالث عشر من الميلاد^(١)

ظهر أبحاثنا من الأقوال السابقة أن العرب قد سافروا إلى الشرق الأقصى في هذه القرون فتعلموا استعمال الآلة المشيرة إلى الجنوب من الصينيين في أسفارهم البحرية . ثم تعلم منهم أهل أوروبا بواسطة البرتغاليين . لأن وسكودي غاما ، لما وصل في سنة ١٤٩٨ م إلى ماليندي Malindi بساحل أفريقيا الشرقية عن طريق رأس الرجاء ضل عن سبيله إلى الهند غير أن ربابا عربيا معروفا باسمه أحمد بن عبد المجيد ، جاء إلى مساعدته فأراه الطريق إلى الهند . ويذكر المصدر البرتغالي أن هذا الريان العربي كان يحمل معه خريطة مفصلة عن البحار والأدوات التي تتعلق بالأسفار البحرية ، منها الآلة المغناطيسية^(٢) . وصاحب المقال في تراث الإسلام يؤكد الأستاذ أسبك والأستاذ بيزلي بقوله أن علم استعمال الآلة المغناطيسية عند الصينيين كان من القرن الثاني للميلادى فتعلم منهم العرب في القرن الثاني عشر بعد احتكاكهم معهم تجاريا في بحر الصين وسواحل الهند .

وأما ماورد في بعض المؤلفات من ادعاء أن الآلة المغناطيسية من اختراعات الفرنجة ، فدحضه كثير من العلماء مثل الأستاذ هيرت ، مترجم جوفانكي تذكرة عن البلاد الأجنبية . والأستاذ كراموس ، صاحب المقال بعنوان الجغرافية والتجارة في كتاب ، تراث الإسلام ، وأفواهم برهاا وحجة هوما وجدناه في أبحاث الأستاذ كاركورن ، مؤلف تاريخ مالك جين بلسان الأردو . وأنه قد خصص ثلاث صفحات من كتابه في هذا الكتاب وفيه تفاصيل لمن أراد التوسع في هذا الموضوع .

(1) A. D. Reinand : Geographie d'Abdul Fida. 1. 111 cc 1V.

(2) Legacy of Islam : P. 96.

أن آراء العلماء تجمع على تعلم العرب استعمال هذه الأبرة من الصينيين ثم تعلم أهل أوروبا منهم فأصبحت الآن آلة لا يمكن الاستغناء عنها في الاسفار البحرية وهذه المعرفة هي إحدى نتائج العلاقة التجارية بين الصين والعرب في القرون الوسطى وأتقل الآن إلى نقطة أخرى من نتائج هذه العلاقة وهي نقل بعض الكلمات الصينية إلى العربية بواسطة أوبلا واسطة. وهذه الكلمات كما وجدت هي : كاغذ ، وكنخاب ، والشاي ، ويمكن أن نضيف إليها كلمة « بك » .

لقد نكمت في نتائج العلاقة السياسية عن كلمة « كاغذ » وأصلها . فأتركها هنا اكتفاء بما قلت منالك . وأما كلمة « كنخو » بفتح الكاف والخاء وسكون الميم والواو فانتقلت إلى العربية بواسطة الفارسية ، وكان الإيرانيون يستعملونها في شكل كنخا أو كنخاب (Kamxwa Or Kamxwab) بالالف ، أو بالباء بعدما . وهو نوع من الديباج « أي الحرير العتيق المنسوج بخيوط المذهب يسمى باللغة الصينية « كنخا » بكسر الكاف (金線 - Kimxwa) ولا شك أن الإيرانيين كانوا يستوردون الحرير من الصين من عهد قديم ، ولكثرة احتكاكهم مع الصينيين عن طريق التجارة برأ ، تعلموا من أهل الصين ، تربية ديدان القز ، لجربوها في بلدة جيلان ، ولجحدوا إلى حد ما ، وأما الديباجة الصينية فكانت مشهورة في إيران في عهد الاسلام حتى ذكرها الفردوسي في « شاهنامه » ، في عدة مناسبات وذكر أيضا نوعا آخر من الحرير الصيني سماه « برنيان » لا أعرف حتى المراد من ذلك علاقة لسانية بين كلمة « Silk » الانجليزية وكلمة ابرسيم العربية من ناحية وبين كلمة 絲 الصينية والظاهر أن العلاقة بين هذه الكلمات موجودة ، وأعتقد أن كلمة

Soie ، في الفرنسية صودة محرفة من كلمة « Sie » الصينية ، لكن الجزم بهذه العلاقة يحتاج إلى تحقيق اللسانيين ، وليس ذلك من مقاصدي الآن وإنما أقول أنت كلمة « كنخا » أو « كنخاب » أو « كنخا » أو « كنخا » وهي نوع من الديباج .

(١) وكلمة الديباج ، معناها « الحرير الصيني » وهي مركبة من ، ديباى جون

الصيني مأخوذة بدون شك من كلمة **شاي** الصينية . لقد ذكر هذه الكلمة ابن خردادبه وابن بطوطة . والمقدسي في كتبهم .

الشاي : من الصعب أن نقف على تاريخ دخول كلمة الشاي في اللغة العربية ، غير أننا نقول أن سايان التاجر السيرافي ، صاحب (سلسلة التواريخ) قد أتى بمعلومات صحيحة عن استعمال أوراق الشاي عند الصينيين كشروب عادي ، فسماء في كتابه السائح . ومن العجب أن كتاب العرب الذين كتبوا بعد سايان ، لم يقولوا شيئاً عن هذه البضاعة . فلذلك لا نجد في الكتب الجغرافية التي تتعلق بالبلاد الشرقية في القرون الوسطى أي ذكر عن الشاي ، وأبو المصنوع الذي كتب (كتاب الإنبات عن حقائق الأدوية) في سنة ٩٨٥ م ، لم يذكر هذا النبات أيضاً وكذلك ابن البيطار . وإذا نظرنا إلى المصادر الصينية للمعصور إلى بين القرن الثامن الميلادي وبين الثاني عشر ، لا نجد ذكرها من بين البضاعات المصادرة إلى الخارج ومع هذا ، نعتقد أن زراعة الشاي في الصين كانت من أيام قديمة واستعماله كشرب منزلي كان رائجاً من أول يوم زراعته غير أن هذه العادة لم تنتشر إلى غرب آسيا قبل القرن العاشر الميلادي . وأغلب الظن أن عادة شرب الشاي انتقلت في عهد المغول إلى الممالك الإسلامية . ثم إلى أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي لأن الأستاذ راميسو Ramiso ذكر بالتأكيد في المقدمة التي قدمها لطبعة جديدة لرحلة ماركو بولو ، في سنة ١٢٥٥ م ، أن أول أوروبي تعلم شرب الشاي من تاجر إيراني اسمه حاجي محمد^(١) ولم يكن للشاي رواج عظيم في أسواق إيران حتى القرن السادس عشر للميلاد . ومن رواية ماندل-سلو A. D. Mendelesso الذي قد زار إيران في سنة ١٦٦٢ م أن الإيرانيين كانوا يستعملون القهوة بدلاً من الشاي .

ومما من جهة تاريخ تجارته في العالم . وأما من جهة اللغة فكلمة الشاي في الصينية هي **茶葉** Tcha - Yeh أي أوراق الشاي ونجد هذه الكلمة بمعناها في

اللغات البرتغالية والرومية، والتركية والعربية، والهندوستانية يظهر أن كلمة The في الفرنسية معرفة من حيث Tcha - العارسية وكلمة Tea الإنجليزية من The في الفرنسية. وأما لفظ الجاني الفارسية فهو أقرب إلى النطق الأصلي وهو Tcha من نطقها في العربية. لأن العربية ليس فيها حرف قديها لاطفون بالضاد، بالشين وهي أقرب صوت إلى الخيم العارسية.

ونظرا إلى أن بعض القويون يزعمون أن أصل كلمة الشاي (شاي) فيرون من الصحيح أن يذهب إليه بأية حال، شاي (أصيل إلى الاعتقاد بأن هذه الكلمة الصينية قد دخلت في اللغة العربية بواسطة إيرين، والدليل على صحة هذه النظرية أن القويين يحسبونها معرفة من كلمة الجاني الفارسية، جهلا لأصلها الحقيقي وهو Tcha - Yeh هي مركبة من كلمتين صينيتين (١) شاي (أى) تشا

(٢) (أى) (أى) فمنها ما هو الرائق الشاي الصينيون يشربون الشاي ولا يشربون الشاي لأن الشاي هو الورق اليابس. وأما الشاي فهو عصير الورق في الماء الساخن.

أما ذكر الأسرار برنش ناتدر في كتابه الدراسات عن القرون الوسطى، أن علاء الدين، كان سفيرا من سفراء العرب إلى الصين في القرن الخامس عشر من الميقات، بعد تقديم الهدايا إلى الإمبراطور (مغ الثاني جو) والرسالة التي بعث لها، الناس من الإمبراطور، أن يتجه كمية من الشاي. ولا أعرف حق المعرفة في هذا الموضع علاقة بكلمة شاي المستعملة في اللغة العربية الآن، والظاهر أن العرب قد عدوا هذه الكلمة قبل هذا الزمان.

بك حبيب إلى هذه الكلمات الثلاث، كلمة بك، لا لأنها نتيجة من نتائج العلاقة التجارية بل لأنها كلمة مدينة لأصل. استعملت كثيرا عند كتاب العرب والإسلام في الحولمة الهندية وفي الوقت الحاضر، وهي كلمة تدل على درجة من الألقاب المدنية أدى من الباشوية بدرجة واحدة فقط ولعل القويين يعتقدون أنها كلمة تركية اختار كتاب العرب استعمالها من عهد العثمانيين إلى يومنا

هذا، وظلوا في استعمالها إلى ما شاهدناه. ولا يخالفهم في هذا، غير أنني أقول أن هذه الكلمة متفرقة (وما خزانة في تركية) من كلمة صينية الأصل وهي (Pak). وهي كلمة بك لفظاً بمعنى بدون التكاف. وكان تصفيون من عهد قديم، قد أوجدوا، أو وضعوا، أو حدثوا، الشرف للرجال العسكريين والمسددين. فقسموها إلى، قون، (Kun)، و، خيو، (Kheew)، و، بك، (Pak) وما لاشك فيه أن هذه الكلمة قد انتقلت إلى ترك قبل هجرتهم إلى آسيا الصغرى وأما المسلمون بتركستان، سواء كانوا من العرب أو من الترك فيكتبون اليوم (بى) بالباء والياء بدون التكاف وهو الأسح خطأ وإعلام قد يكتب (بك) وقد يكتب (باى)، غير أن كتاب العربية يكتبونه بالباء والتكاف (١).

هذه من حمة الكلمات القديمة التي راجع استعمالها في اللغة العربية بلفظها صحيحاً أو محرفاً ومعناها بدون تغيير، وأما من حمة أخرى فقد دخلت بعض الكلمات العربية في أدب الصين بواسطة البحارة العرب (زعفران)، و (ياسمين) و (يابروه) و (رحاء)، و (حبية) ومن المظنون أن هناك كلمات أخرى دخلت في أدب الصين، غير أننا نعلم عليها لغة معلوماتنا العامة. وانكتفى بهذه الكلمات الخمس كبراهين لتعود تسمية العرب في الصين، آثارهم الدائمة التي تركوها في أدب الصين.

الزعفران وهو زهرة مبرونة في البلاد الإسلامية، وصل إليها إلى الصينيين قبل الإسلام محمد المم (قامه فتح خور) أن الزهرة الحمراء الأجنبية، ومن المعلوم أن في الزعفران قواد كثير، بالكس يستعملونه كصبغة أو كدواء، (كمطر أو كدواء) وهو من البضائع التجارية المحبوبة التي قد لا يبتدئونوا نظماً في التجارة الشرقية في المصور الإسلامية. فكثرت التجارة فيه في عهد المموق فأثنى المسلمون به إلى أسواق الصين، وباعوه بأعلى ثمن. ولكثرة تجار الزعفران، دخلت هذه الكلمة في أدبيات الصين اسمها آخرى مع تعريب يسير، من (زعفران) إلى زافوران).

(١) ومعاني هذه الكلمات (قون) (الامبير)، و (خيو) (الباشا). و (بك) (البك).

والذى قد ذكر هذه الكلمة في الكتاب ، هو (لى شيجين) من أهل عصر المغول ويظهر أن (Safron) في الإنجليزية أيضا محرفة من زعفران . ومن رأى الأستاذ لوفر ، أن العرب أتوا بالزعفران أولا إلى الأندلس ومنها إلى بلاد أخرى أوروبية والشاهد على صحة هذه النظرية ، أن الاسبانيين يسمونه (Azatron) والبرتغاليين (Acafrao) والعلبان (Zafferan) والفرنسيين (Safran) والرومانيين (Sofran)^١ .

• الياسمين — في وصف النباتات الشرقية ، أقدم كتاب إسلام معروف باسم « كيخان » Kexhan وكان وزيرا لامرأطور (هوى) الذى عاش في آخر القرن الثالث الميلادى . وقد ذكر أن « الياسمين » ، يأتيها الأجانب من الغرب . ففرسوها في ولاية (كوانغ تونغ) . فادين يقطنون بالجثوب ، يخبون روائحها . فلذا يزدهونها بكثرة .

وقد ذكر كاتب آخر في القرن التاسع الميلادى ، أن ياشيمى ، أتى بها الإبرانيون إلى الصين وروجوا استعمالها فيها . وفي الكتب الأخرى يوجد حديث عن هذه الزهرة أيضا .

ولا شك أن كلمة « ياسمين » أو ياشيمى ، في الكتب الصينية منقولة عن الياسمين ، الفهلوية وهذه الكلمة صور جديدة في « ياسمين » الفارسية الحاضرة والعربية المعربة

وقد أخطأ الأستاذ لوفر في نسبة كلمة « ياسمين » إلى أصل العربية . فلا همرو أنه لم يتم لبان (كيخان) أو وزن . وبناء عليه قال من غير الممكن أن تتسرب كلمة عربية إلى لغة الصين في القرن الثالث الميلادى والحقيقة أن كلمة (ياسمين) في العربية هي معربة عن الفارسية وغير أصيلة فيها . فكلمة يسمين في كتاب (كيخان) كلمة معربة عن الفهلوية التى تفرعت منها الفارسية الحاضرة .

وعما لا ريب فيه أن الإبرانيين كانت لهم تجارة في الياسمين مع الصين قبل الإسلام، غير أن العرب الذين نهضوا كأمة تجارية في القرون الوسطى، قد ودثوهم في هذه التجارة. فأتوا بكية كبيرة من رياحين الياسمين، ذبونها إلى الصين فروجوا استعمالها فيها، كما أنهم قد روجوا استعمالها في بلاد الغرب. فلذا ترى اليوم أن جملة اللغات الأوروبية قد اختارت هذا الاسم في صورته العربية.

أن زيت الياسمين كان سائدا مشهورا عند العرب والإيرانيين والهنود. ويسميه العرب "دمق الزنبق". وأما التركيب لصناعة زيت ياسمين فيوجد في كتاب ابن بطار. وينسب على قول الاصطخرى أن في ولاية (دارا بيگرد) بإيران، نوا من زيت الياسمين لا يوجد في مدن أخرى كانت سابور وشيراز مشهورتين بزيت الياسمين. ويذكر (كوي زي صون) وهو كاتب عاش إلى نهاية القرن الثاني عشر للميلاد أن زيت الياسمين يصنع بإيران والشام. ثم قال - أن ياسمين زهرة بيضاء مثل النرجس يباها جاء بها العرب والإيرانيون من البلاد (الغربية) إلى مدينة (كانون). لحيت إلى كل متفلس يسكن هناك. لقد وردت في وقائع كاتون، بيانات عن استيراد زيوت الياسمين من البلاد الإسلامية قائلة: أن زيوت الياسمين تستورد في المراكب، لأن المسلمين يجمعون أزهار الياسمين ويعصرون الزيت منها. وهو يفيد للجذام والبرص. فان أطباء العرب يستعملونه كالعلاج لأمراض الفالج والصرع^(١) وأما الصينيون فاختاروا اسمه مصيئا، بحرف يسير.

٣ يابرونة. وهي إبرة الراعي، من النباتات التي جاء بها العرب إلى الصين في عهد (سونغ). وأول من ذكر هذا النبات باسمه الغربي من علماء الصين، هو تشوى، (١٢٣٠ - ١٢٤٠ م) ولقد خصص الأستاذ لوفر عدة صفحات لبحث هذا النبات وخصائصه في كتابه (La Mandragore) باللغة الفرنسية. الحناء دخلت هذه الكلمة في اللغة الصينية في شكل بحرف إلى، ماى نا (Hai na) نوع من النبات، ذو صبغة حمراء. تصبغ بها النساء أظفارهن وفي بعض الأحيان كفوقهن. ومن رأى الأستاذ لوفر، أن عادة استعمال الحناء كزينة

(1) Sino- Iranica. p. 363

فرحية لم تكن موجودة في أيام الدين قبل عصر (سوق) فظهرت من ذلك العهد رائجة في الصين إلى الآن . ولما شك أنها من آثار المسلمين في الحياة الاجتماعية الصينية، فأقدم المصادر التي ذكرت رواج استعمال الخناء في الطبقة النسوية في الصين هي رسالة كوى شين Kuishien Tsechie . يعلم الأستاذ . تشوى . الذى قد ذكرناه في مناسبة سابقة فعدد الملاحظات التالية على استعمال الخناء وكيفية استعمالها فقال عند الناس عادة باستعمال أوراق . فون شيان . (الخناء) في صبغ الاظفار أذياتون بأوراق هذه النبات على الخلاف أنواعه من اللون الأحمر فيسحقونه في حاون ويخلطونها بمسحوق من حجر عاب . فالأظفار يجب أن تنظف جيدا . ثم توضع عليها بغمية الخناء فترطب بشرائط من الحرير من أول الليل إلى الصباح حتى يأخذ أثر الخناء في الاظفار . ويكرر ثلاث مرات أو خمسا . ولونه أحمر قان لا يذهب بالمثل إلى عشرة أيام . والنبات المذكور يجب الآن أن تصنع كقوقهن بهذه الصبغة ولا شك أن تركيب الخناء . طريق استعمالها في الصين في عهد (سوق) يوافق ما وجدناه في جميع الممالك الإسلامية الآن . ومن المعلوم أن هذه الزينة كان لها رواج مقبول في غرب آسيا وفي الممالك الإسلامية حول حوض البحر الأبيض فالمصريات يحبن أن يصبن أيديهن بأوراق بوكير Puqer من قديم الزمان . ولهذا العادة انتشار عظيم في طبقات المسلمين في أنحاء العالم حتى تعدت إلى بعض الرجال يصفون بها ثيابهم ولحاهم . وأما الإيرانيون فهم أكثر الناس استعمالا للخناء . ويرى الأستاذ لوفر عن أولى آريوس Ollarius أن الإيرانيين لهم عادة في صبغ أيديهم وعلى الأخص أظفارهم بلون أحمر ضارب إلى الصفرة أو البرتقالية . ومنهم من يصبغ بها رجله وهي زينة لازمة لمجالس الأفراح وحفلات الزواج . فيؤتى بالخناء وتترج بين حاضرات الحفلة . فلا يذهب أثرها إلى خمسة عشر يوما . ولو غسل ياما عدة مرات كل يوم .

وأما الهند فهي شبيهة بالخناء وهي نبت بكثرة بمواهل كورو - مندل . وتزرع هناك على أنها حاصلات زراعية وأما عادة استعمال الخناء فأصبحت عامة بين النساء المسلمات المحدثات . ومنهن انتشرت إلى الهندوكيات أيضا . ومن تحقيق الأستاذ جورت Goret أن الخناء لم تكن مزروعة إلا من أيام المسلمين . وغرواجها

وأما نقله إلى الصين، فيظهر أنه من إيران أو من الهند وكان ذلك في عصر (سونغ).
 الحلبة: علم أطباء الصين بحبة أجنبية باسم هولوبال Hnupal فاستعملوها في الدواء
 وبما لا ريب فيه أن كلمة هولوبا في الصينية هي كلمة حلبة في العربية ومن المظنون
 أن شيرتها قد نقلت إلى الصين في القرن المائث للميلاد وأن أول من ذكر هذه
 الحبة من علماء الصين هو جان يوشى الذى عاش إلى ١١٤-١٠٦ م. ومن قوله أن الحلبة
 تزرع في كانتون ويقول مصدر آخر أن بذور الحلبة قد أتت بها من جزيرة هاى نان
 والبلاد الأجنبية الأخرى. فالتجار الذين وصلوا إلى كانتون، ألفوا بذورها في
 أرضها فثبتت وأثمرت إلا أن بذورها لم تبلغ ما جاءت من البلاد الإسلامية جودة
 وأما الأبحاث عن استعمال الحلبة وفوائدها الطبية، فتوجد في جميع الكتب المتعلقة
 بالنباتات والأدوية تحت عنوان هولوبا. وإذا نظرنا إلى كتاب الإنبسات عن
 حقائق الأدوية لآى منصور، فتجد أنه قد بحث خصائصها الطبية تحت اسم
 حلبت بالثناء المفتوحة ونظرا إلى أن هذه الكلمة قد حُرِفَت إلى شكل هولوبا
 نميل إلى الاعتقاد بأنها أتت من إيران وخليج فارس في آخر عهد تانغ. لأن هذا
 العهد ينسب أكثر الأشياء الأجنبية إلى هـ، أى إيران وما يحاورها من البلاد.

كلمة خنامية

هذه العلاقات التى قرأناها فى الأبواب السابقة، وهذه النتائج التى رتبناها آنفا لم
 أكن قاصدا كتابتها. غير أننى أرى أن تحقيق تاريخ الإسلام فى الصين - موضوع
 قلما يلتفت إليه علماء الإسلام - يحتاج فى الخطايرة الأولى، إلى معرفة هذه
 العلاقات لجمعت المعلومات عنها من مصادر شتى بين لغات شتى. ثم رتبنا هذا
 الترتيب على حسب الموضوع وعصره. ليكون أول معلومات عن ضلالت العرب
 بالصين وآثار الإسلام فيها حتى تمهد الطريق للبحث فى موضوع تاريخ الإسلام
 فى الصين مع تعليل انتشاره وبقاؤه هناك إلى اليوم وهذا من أسنى مقاصدى وأنا
 جاد فى سبل الدراسة والبحث وإذا فيه وفقى الله وألهمنى الصبر والمواظبة على
 البحث فسأخرج كتابا جامعا فى هذا الموضوع فى المستقبل القريب.
 وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإلى الله

من ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٠ هـ - ١٤ / ١ / ١٩١١ م

بدر الدين الصينى

كتب المراجع

- (١) باللغة الصينية .
- (٢) أصل المسلمين في الصين (هوى هوى يوان لائى)
- (٣) ألهيات الصين .
- (٤) تاريخ (شيما جيانغ)
- (٥) تاريخ (نانغ) القديم والجديد .
- (٦) تاريخ (منغ) .
- (٧) نموذج جيانغ
- (٨) جوفانسكرى .
- (٩) الدراسات عن تاريخ الاسلام في الصين .
- (١٠) ديوان لغات الصين .
- (١١) مجلة (نوه جوه) ١٩٢٢ ج ٥٥ .
- (١٢) مجلة (شين باو) ١٩٣٤/١١/١٥ .
- (١٣) مختصر مضارة الصين .
- (١٤) علاقة الصين القديمة بالعرب .
- (١٥) علاقة الصين القديمة بالتركيستان .
- (١٦) النقل من الغرب (شى لائى تشونغ يو) .
- (١٧) باللغة الفارسية والآردية :
- (١٨) أوبماق مغرل - للاستاذ آغا جان محمد خان (طبعة امرتسر) الهند
- (١٩) تاريخ ممالك جين - للعلامة كاركورن (طبعة كلكتة) .
- (٢٠) تاريخ الوصاف .
- (٢١) جامع التواريخ - لرشد الدين فضل الله .
- (٢٢) جينى مسلمان - لبدر الدين الصينى (طبعة دارالمصنفين) .
- (٢٣) تمدن عرب - ترجمة بلكرامى (حيدرآباد - دكن) :
- (٢٤) ختائى نامه - لأكبر على .

- (٢٣) ساهله نامه مجلة كابل ١١٣٢ .
 (٢٤) عرب و هند كي تعلقات - لاملامة السيد سلجاني الندي .
 (٢٥) مطلع السعدين - لميد الزقاق المرقندي ،
 (٢) باللغة العربية .
 (٢٦) آثار البلاد وأخبار العباد - للقزويني .
 (٢٧) الاسلام و تركستان الصيفية - لبدر الدين الصيني .
 (٢٨) أقاليم الارض - للاصطخري .
 (٢٩) تاريخ ابن الاثير .
 (٣٠) تاريخ الطبري .
 (٣١) تاريخ ابن الوردي .
 (٣٢) التصوير في الاسلام عند الفرس - لادكتور محمد زكي حسن .
 (٣٣) رسالة في وصف معن يات دار الآثار العربية بالقاهرة .
 (٣٤) تحفة النظار في غرائب الامصار - لابن بطوطة .
 (٣٥) تعليقات على - حاضرم العالم الاسلامي .
 (٣٦) ديوان لغات الترك - لمحمود الكاشغري .
 (٣٧) تحفة الالباب .
 (٣٨) صبح الأعشى .
 (٣٩) صفوة الاعتبار بمسودع الامصار والاقطار - للشيخ بهيم التونسي .
 (٤٠) سلسلة التواريخ - لسليمان وأبي زيد الحسن السيرافي .
 (٤١) المعقد الفريد .
 (٤٢) القهرست .
 (٤٣) كتاب الممالك والممالك - لابن خردادبه .
 (٤٤) معجم البلدان .
 (٤٥) مروج الذهب - ومعدن الجواهر .
 (٤٦) نبهة عن الصين - لآثري أبي العز (باشا)
 (٤٧) نزهة المشتاق - للادريسي

المراجع الافرنجية

- (1) C. F. Andrew : The Crescent in the North-West China.
- (2) Arnold : Islam's Book ; Painting in Islam.
- (3) Ameyr Ali : The Short History of Saracens.
- (4) Blochet : Mussalman Painting ; Introduction a l'Histoire des Mougols de Fadliah.
- (5) Berthold : Turkistan Down to the Mongol Invasion.
- (6) Breitenfelder : The Ancient Chinese Knowledge on the Arabs.
- (7) Brocchall (Marshall) : Islam in China.
- (8) E. Browne : The Literary History of Persia.
- (9) Dimand : Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.
- (10) Eliot (Sir) : History of India.
- (11) Ferard : Relations des Voyageurs.
- (12) Gibb : The Arab Conquests of Central Asia.
- (13) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire.
- (14) Hadi Hasan : History of Persian Navigation.
- (15) Hirth : Chao Ju Kua.
- (16) Hirth : China and the Roman Orient.
- (17) Hobson : A Guide of the Islamic Pottery.
- (18) H. Howarth : History of the Mongols.
- (19) Huart : Ancient Iranian Civilization ;
- (20) Legacy of Islam.
- (21) B. Laufer : Sino-Iranica.
- (22) E. H. Parker : China and Religion.
- (23) Sladen & Mignon : Manuel D'Art Mussalman.
- (24) C. Scholler : Les Relations de Mussalmans avec Chinois.
- (25) Vambery : History of Bukhara.
- (26) Wilson : The Persian Gulf.